موسوعة الخطب المنبرية

مواقف وعظات من حياة التابعين و الصالحين
لا غنى عنه للوعاظ و الدعاة و الخطباء



موسوعة

الخطب المنبرية

مواقف وعظات من حياة
التابعين و الصالحين

سلسلة تحكى سيرة الصحابة و التابعين و الصالحين ، و الصحابيات و الصالحات .
مواقف مؤثرة ، وعظات بالغة ، ودروس مستفادة
لا غنى عنه للوعاظ و الدعاة و الخطاب

المجموعة الثانية

الجزء الثاني

تأليف
سعد يوسف محمود أبو عزيز

دار التوفيقية للتراث

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

اسم الكتاب: موسوعة الخطب المنبرية
المجموعة الثانية جـ ٢

اسم المؤلف : سعد يوسف أبو عزيز
رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢١٢٧٢
النـــاشــر : دار التوفيقية للتراث

دار التوفيقية للتراث
١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ـ القاهرة
تليفون : ٢٥١٠٥٦٦٢

الخطبة الثامنة والخمسون:

[أ] لَقطاتٌ وعظاتٌ من حياة الحسن البصري

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمن فضل الله تَعَالى علينا أَنَّهُ قيَّض لهذهِ الأُمَّة المرحومة رجالًا - عَلَى مرِّ العصور وكرِّ الدهور - ينيرون لها الطريق، يُحيون السُّنَّة، ويميتون البدعة.

فالحمد لله الذي جعل في كلِّ زمانٍ فَتْرَة مِن الرُّسل: بقايا من أهل العلم يَدُلُّون مَن ضَلّ إلى الهُدَى، ويُبَصِّرون بنور الله أهل العَمَى، فكم من قتيلٍ لإبليسَ قد أحْيَوه، وكم من ضَالٍّ تائهٍ قد هَدَوه، فَلِلَّه ما أحسنَ أثرَهُم عَلَى النَّاس، ولكن ما أسوأ أثر المخَذِّلِين عَليهم[1].

---

(١) «الرد عَلَى المخالف عَلَى أصول الإسلام» د. بكر أبو زيد (٥).

وبدايةً من هذه الخُطبة وما يليها من خطب - إن شاء الله تَعَالَى - نأخذ من حياة التابعين والصالحين لقطات ومواقف، فيها عظات وعبر وفوائد تنفع المسلمين في حياتهم وبعد مماتهم.

ونبدأ اليوم بلقطات ومواقف من حياة «الحسن البصريّ» -رَحِمَهُ الله تَعَالَى.

عباد الله...

مَن هُو الإمام الحَسَن البَصريّ؟

هو الإمامُ الفقيه المشهور، أحد التابعين الكبار الأجلاء، علمًا وعملًا وإخلاصًا، الحسن بن أبي الحسن يسار، أبو سعيد البصريّ، كانت أُمَّهُ مَولاة لأم سلمة أمِّ المؤمنين المخزومية.

ويسار أبوه من سبي ميسان[1]، سكن المدينة، وأُعتق، وتزوج بها في خلافة عُمر بن الخطاب رَضِي الله عَنْهُ، فولد بها الحسن -رَحِمَهُ الله تَعَالَى - لسنتين بقيتا من خلافة عمر، واسم أُمه خيرة.

ثم نشأ الحسن بوادي القُرى، وحضر الجُمعة مع عثمان رَضِي الله عَنْهُ، وسمعه يخطب، وشهد يوم «الدَّار»[2] وله يومئذ أربع عشرة سنة.

قَالَ الحافظ ابن كثير: وُلِد الحسن في خلافة عمر بن الخطاب، وأُتي به إليه فدعا له وحنّكه.

وأُمَّهُ خيرة مولاة لأمّ سلمة كانت تخدمها، وربما أرسلتها في الحاجة فتشتغل عن ولدها الحسن وهو رضيع، فتشاغله أُمّ سلمة بِثَديها فيدرَّان عليه فيرتضع منهما، فكانوا يَرَون أن تلك الحكمة والعلوم التي أُوتيها الحسن من بركة تلك الرَّضاعة من الثدي المنسوب إلى رسول الله ﷺ، ثم كان وهو صغير تخرجه أمه إلى الصحابة فيدعون له، وكان في جملة من يدعو له عمر بن الخطاب قَالَ: «اللَّهُمَّ فقهه في الدِّين وحببه إلى النَّاس»[3].

---

(١) **ميسان**: كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط.

(٢) **يوم الدار**: هو اليوم الذي أحاط فيه الثوار ببيت عثمان رَضِي الله عَنْهُ وقتلوه.

(٣) «البداية» (٦/ ٤١١).

قلت: واستجاب الله دعاء عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فلقد أصبح الحسن بعد ذلك رأسًا في العلم والعمل، والتفّ النَّاسُ حوله، وهَوَت إليه الأفئدة، حتى ذكر ابن كثير في «البداية»[1] أن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سُئل عن مسألة، فقال: «سلوا عنها مولانا الحسن!! فإنه سمع وسمعنا، فحفظ ونسينا»، فهل بعد هذا الفضل من فضل؟!

عباد الله...

وغير ما ذكرنا من فضائله، فإن فضائله يضيق المقام عن حصرها وذكرها، ولكن نكتفي بشيء منها، فمن ذلك:

- عن أبي بُردة قال: «ما رأيتُ أحدًا أشبه بأصحاب محمد ﷺ منه».
- وعن الأصبغ بن زيد: سمع العوَّام بن حَوشب قال: «ما أشبِّهُ الحسن إلا بنبي!!»[2].
- وقال محمد بن سعد في «الطبقات» (٧/ ١٥٧): «كان الحسن -رَحِمَهُ اللهُ - جامعًا عالمًا، رفيعًا، فقيهًا، ثقةً، حُجَّة، مأمونًا، عابدًا، ناسكًا، كثير العلم، فصيحًا، جميلًا، وسيمًا، وما أرسله فليس بحُجة».
- وعن خالد بن صفوان قال: «لقيت مسلمة بن عبد الملك[3] فقال: يا خالد أخبرني عن حسن أهل البصرة. قلتُ: أصلحك الله، أخُبرك عنه بعلم، أنا جاره وإلى جَنبه، وجليسه في مجلسه، وأعلم مَن قبلي به: أشبه النَّاس سريرةً بعلانية، وأشبهُهُ بعلانية، وأشبهُهُ قولًا بفعل، إنْ قعد عَلَى أمرٍ قام به، وإن قام عَلَى أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل النَّاس به، وإن نهى عن شيء كان أترك النَّاس له، رأيتهُ مُستغنيًا عن النَّاس محتاجين إليه. قال: حَسْبُك، كيف يضلُّ قومٌ هذا فيهم».

عباد الله...

أما عن صفته:

فيقول الإمام الذهبيُّ: كان رجلًا تامَّ الشَّكل، مليح الصورة، بهيًّا، وكان من

---

(١) «البداية» (٦/ ٤١١).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٧٢).
(٣) الأمير.

الشجعان الموصوفين.

وكان -رَحِمَهُ الله - يلبس أجود الثياب، ويأكل أطيب الطعام، وكان يقول: «المؤمن يُداري دينه بالثياب!!».

وكانت عليه مهابة الإخلاص، وبركات الطاعة، وحلاوة العلم، قال يونس بن عبيد: كان الرجل إذا نظر إلى الحسن انتفع به وإن لم ير عمله ولم يسمع كلامه.

وكان أبو جعفر إذا ذكره يقول: «ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء»[1].

وكان -رَحِمَهُ الله تَعَالَى - مباركًا قد حلَّت بركته عَلَى كل شيء حتى عَلَى قدره الذي في بيته.

قال أبو هلال: قلَّما دخلنا عَلَى الحسن إلا وقد رأينا قَدِرًا يفوح منها ريحٌ طيِّبة.

أمَّا عن علمه:

فقد أدرك الحسن - كما ذكرنا- كثيرًا من أصحاب رسول الله ﷺ، فحمل عنهم علمًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، وصادف هذا العلم قلبًا تقيًّا ورعًا فتمكّن فيه، كما قَالَ الأعمش - رَحِمَهُ الله -: «ما زال الحسن يعي الحكمة حَتَّى نطق بها». فَعَلَتْ منزلته، وارتفع شأنه وزكَّاه أصحاب النبيِّ ﷺ ومَنْ جَاء مِنْ بعدهم.

قَالَ الربيع بن أنس: اختلفتُ إلى الحسن عشر سنين أو ما شاء الله، فليس من يومٍ إلَّا أسمعُ منه ما لم أسمع قبل ذَلِكَ.

وقال عوف: ما رأيتُ رجلًا أعلم بطريق الجَنَّة من الحسن.

وعن حماد بن زيد قَالَ: سمعتُ أيوب يقول: كان الحسن يتكلَّم بكلام كأنَّهُ الدُّر، فتكلّم قومٌ بعده بكلامٍ يخرجُ من أفواههم كأنَّه القَيء.

أيُّها المسلمون...

وكان الحسن - رَحِمَهُ الله - شديدُ الخوف من الله تَعَالَى، غزير الدمعة، لا يكاد الإنسان يراه إلَّا حَزينًا، يفرق إذا ذكرت النَّار، ويخاف من الوعيد.

---

(١) «البداية» (٦/ ٤١١)، وأبو جعفر هو أبو جعفر الباقر.

والخوف من الله إذا سقط في قلب عبد أحرق مواضع الشهوات منه - كما قَالَ بعض السَّلف.

وقال أبو حفص: «الخوف سوط الله، يُقوّم به الشّاردين عن بابه».

وقال - رَحِمَهُ الله -: «الخوف سراجٌ في القلب، به يُبصر ما فيه من الخير والشَّر، وكلّ أحد إذا خفته هربت منه إلَّا الله عَزَّ وَجَلَّ، فإنك إذا خِفته هربت إليه».

وقال أبو سليمان الداراني - رَحِمَهُ الله -: «ما فارق الخوف قلبًا إلَّا خَرِبَ».

وقال ذو النون المِصريّ - رَحِمَهُ الله -: «النَّاس عَلَى الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلّوا الطريق».

هذا، واعلموا - عباد الله - أن الخوف المحمود الصَّادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا تجاوز ذَلِكَ خِيف منه اليأس والقنوط[١].

قَالَ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله -: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - يقول: «الخوف المحمود: ما حَجَزك عن محارم الله» ا.هـ[٢].

والمقصود: أن الحسن - رَحِمَهُ الله - كان شديد الخوف من الله تَعَالَى، وهذه بعض كلماته ومواعظه وأحواله، نقرع بها آذان الغافلين، ونُذكِّر بها الصَّالحين:

عن علقمة بن مرثد قَالَ: أما الحسن فما رأينا أحدًا أطول حُزنًا منه، ما كنا نراه إلا حديث عهد بمصيبة، ثم قَالَ: نضحك ولا ندري لعلَّ الله قَدْ اطلع عَلَى بعض أعمالنا وقال: لا أقبلُ منكم شيئًا، ويحك يا ابن آدم، هل لك بمحاربة الله - يعني قوةً - والله لقد رأيتُ أقوامًا كانت الدنيا أهون عَلَى أحدهم من التراب تحت قدميه.

ولقد رأيتُ أقوامًا يُمسي أحدُهم ولا يجدُ عنده إلا قوتًا، فيقول: لا أجعلُ هذا كُلَّه في بطني، فيتصدّق ببعضه ولعلَّه أجوع إليه مِمَّن يتصدق به عليه.

وروي ابن أبي الدنيا عن حمزة الأعمى قَالَ: ذهبت بي أُمِّي إلى الحسن فقالت: يا أبا

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤١٨، ٤١٩).

(٢) نفس المرجع (١/ ٤١٩).

سعيد، ابني هذا قد أحببتُ أن يلزمك فلعل الله أن ينفعه بك، قَالَ: فكنتُ أختلف إليه، فقال لي يومًا: «يا بني آدم الحزن على خير الآخرة لعله أن يوصلك إليه، وابك في ساعات الليل والنهار في الخلوة لعلّ مَولاك أن يطلع عليك فيرحم عَبْرتك فتكون من الفائزين».

قَالَ: وكنتُ أدخل على الحسن منزله وهو يبكي، وربما جئتُ إليه وهو يُصلِّ فأسمع بكاءه ونحيبه، فقلت له يومًا: إنك تكثر البكاء، فقال: يا بني ماذا يصنع المؤمن إذا لم يبك؟ يا بني إن البكاء داع إلى الرحمة، فإن استطعت أن تكون عمرك باكيًا فافعل لعله تعالى أن يرحمك، فإذًا أنت نجوت من النار.

وقال: ما هو إلا حلول الدار، إما الجنة وإما النار، ما هناك منزل ثالث[1].

عباد الله...

ومِمَّا ينبغي أن يُعلم: أن العمل لا يُقبل إلَّا بشرطين:

الأول: الإخلاص.

والثاني: حُسن المتابعة - متابعة النبي ﷺ، لأن النبي ﷺ قَالَ في الحديث الصحيح: «**مَن عَمِل عملًا ليس عليه أمرنا فَهُو رَدّ**».

لذا رأينا الحسن البصريّ - رَحِمَهُ الله - يتوجّه بالنصيحة إلى المسلمين، خصوصًا القُرَّاء منهم، داعيًا إيَّاهم إلى الإخلاص وحُسن المتابعة:

عن فضيل بن جعفر، قال: خرج الحسن من عند ابن هُبَيرة (الأمير) فإذا هو بالقُرَّاء على الباب فقال: «ما يُجلسكم ها هنا؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء، أما والله ما مُجالستُهم مجالسة الأبرار، تفرَّقوا فرَّق الله بين أرواحكم وأجسادكم، قد فرطحتم نعالكم، وشَمَّرتم ثيابكم، وجززتم شعوركم، فضحتم القُرَّاء فضحكم الله، والله لو زهدتم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، ولكنكم رغبتُم فيما عندهم، فزهدوا فيكم، أبعد الله مَن أبعد».

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير (٦/ ٤٢٤).

وعن يحيى بن مختار عن الحسن قَالَ: «إن هذا القرآن قَدْ قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، لم يأتوا الأمر من قِبل أوله، قَالَ الله تَعَالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [ص: ٢٩]. وما تَدبّر آياته إلّا أتباعه، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حَتَّى أنَّ أحدهم لَيَقول: قَدْ قرأتُ القرآن كله فما أسقط منه حرفًا واحدًا، وقَدْ والله أسقطه كلَّها، ما يرى له القرآن في خُلق ولا عمل، حَتَّى أن أحدهم لَيَقُول: والله إني لأقرأ السورة في نَفَس[1]، لا والله، ما هؤلاء بالقُرَّاء، ولا بالعلماء، ولا الحكماء ولا الورعة، ومتى كانت القراءة هكذا - أو يقول مثل هذا - لا أكثر الله في النَّاس مثل هؤلاء».

وقال الحسن - رَحِمَهُ الله -: «قرأ القُرآن ثلاثة أصناف:

- صنفٌ اتخذوه بضاعة.
- وصنف أقاموا حروفه وضيَّعوا حُدُودَه، واستطالوا به عَلَى أهل بلادهم، واستدرّوا به الولاة، وقَدْ كَثُرَ هذا الضَّربُ من حملة القرآن لا كَثَّرهم الله.
- وصنفٌ عمدوا إلى دواء القرآن فوضعوه عَلَى داء قلوبهم فاستشعروا الخوف، وركدوا في محاربهم، خَبَوا في برانِسِهم، فأولئك الله ينصر بهم عَلَى الأعداء، ويسقي بهم الغيث، فوالله لهذا الصَّنف من حملة القرآن أقلّ من الكبريت الأحمر».

فأخلصوا - عباد الله - في أعمالكم، وخذوا من دواء القرآن فضفوه عَلَى دائكم، فإن القرآن شفاء.

قَالَ تَعَالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الإسراء: ٨٢].

أسأل الله تَعَالى لي ولكم التوفيق لطاعته، واجتناب نواهيه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) كما يفعل قُرَّاء عصرنا، وللشيخ بكر أبو زيد - حفظه الله - رسالة بعنوان «بدع القُرَّاء» أفاد فيها وأجاد.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ولم يعش الحسن البصري بمعزلٍ عن المجتمع الذي كان يحيا فيه، ولكنه ضرب بسهمٍ وافر في جهاد أعداء الله تَعَالى، فخاض الغمرات واقتحم المنايا وكان من أشجع النَّاس.

قال الإمام الذهبيُّ: لم يطلب - أي الحسن - الحديث في صباه، وكان كثير الجهاد.

وقال جعفر بن سليمان: كان الحسن من أشدِّ النَّاس، وكان المهلَّبُ إذا قاتل المشركين يُقَدِّمه.

هكذا كان سلفنا الصَّالح، عاشوا رهبانًا بالليل، وفرسانًا بالنهار.

فأين ليلينا من ليلهم؟!

وأين نهارنا من نهارهم؟!

اللَّهُمَّ إنَّا نشكوا إليك غفلتنا، وتقصيرنا.

۞۞۞۞۞

الخطبة التاسعة والخمسون:

[ب] لقطات وعظات من حياة الحسن البصري

الزهـد

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن نفوسنا أَلِفت المألوف، وانقطعت إلى دنيا الحظوظ، وتقلَّبت عَلَى بساط الأمانيّ، ورضعت من ألبان الشهوات، فأصبح نهارُها في طول الآمال، وليلها المظلم إذا حُدِّثت بقصر الآمال.

لقد انقطعت إلى الدنيا، لا المال الكثير يُقَنِّعُها، ولا الجاه العريض يُزَهِّدُها.

عباد الله...

ماذا ننتظر بهذه النفوس الخدَّاعة؟!

وإلى متى نمدُّ لها في حبال الآمال البرَّاقة؟!

أما كان فيمن مضى مُعتبر؟!

أما كان في القرون الخاليات مزدجر؟!

أيُّها النَّاس...

أبت النفس إلَّا ولوعًا بالشهوات، وضلوعًا في الجهالات !!

فيا تُرى فيم يكون الدواء الشافي؟ والسَّوط الرادع الواقي؟[1]

الجواب:

الدواء الشافي للنفس، والسوط الرَّادع الواقي لها: «**الزهد**»، نعم يا عباد الله، دواء النفس الزهد في الدنيا. والمعين عليه بعد الله سبحانه، النظر في سير الصالحين.

ونحن اليوم عَلَى موعدٍ مع استكمال سيرة «**الحسن البصري**» - رَحِمَهُ الله - ونتناول في هَذِهِ الخطبة - إن شاء الله- جانبًا مهمًّا من حياته - رَحِمَهُ الله تَعَالى - ألا وهو جانب «**الزهد**».

فلقد كان الحَسن البصريّ - رَحِمَهُ الله - من أزهد النَّاس في الدُّنيا.

قَالَ ابن شَوذَب عن مطر: دخلنا عَلَى الحسن نعوده، فما كان في البيت شيء، لا فراش ولا بساط ولا وسادة ولا حصير، إلَّا سريرٌ مرمولٌ[2] هو عليه.

عباد الله...

كان هذا كُلّ ما يملك الحَسن البصريّ - رَحِمَهُ الله - من متاع الحياة الدنيا.

أما عن أحواله، ودقيق إشاراته وعباراته:

فقد كان الإمامُ الحَسن - رَحِمَهُ الله تَعَالى - مِمَّن أُوتي حلاوة في البيان، وعذوبة في اللسان، فلا غرو في ثناء أبي جعفر الباقر عليه حين قَالَ: «ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء»، ونختار من كلامه - رَحِمَهُ الله -:

---

(١) «الزهد» لأزهري أحمد محمود (٣).

(٢) السرير المرمول: الذي يُسج وجهه بالسَّعَف، ولم يكن عَلَى السرير وضاء سوى الحصير!!

- قوله: «ابن آدم، إنَّما أنت أيام، كلمَّا ذهب يوم، ذهب بعضُك».
- وعن مبارك بن فَضالة: سمعت الحسن يقول: «فضح الموتُ الدنيا، لم يترك فيها لذي لُبٍّ فرحًا».
- وكان - رَحِمَهُ الله - يقول: ابن آدم، السِّكِّين تُحَدُّ، والكبشُ يُعلَفُ، والتَّنُّور يُسجَرُ.
- وقال - رَحِمَهُ الله -: المؤمن مَن عَلِم أن ما قَالَ الله كما قَالَ، والمؤمن أحسنُ النَّاس عملًا، وأشدُّ النَّاس وَجَلًا، فلو أنفق جَبَلًا مِن مالٍ ما أَمِن دون أن يُعَايِن، لا يزدادُ صلاحًا وبرًّا إلَّا ازداد فَرَقًا[١]، والمنافق يقول: سوادُ النَّاس كثير وسيغفرُ لي ولا بأس عليَّ، فَيسيء العمل ويتمنَّى عَلَى الله.
- وقال - رَحِمَهُ الله -: كان الرجل يطلبُ العلمَ فلا يلبث أن يُرى ذَلِكَ في تَخَشُّعِهِ، وزهده ولسانه وبصره.

  قلت: وأيُّ علم لا يُثمر سلوكًا قويمًا، يَشقَى به صاحبه.
- وكان يقول: «ابن آدم، ترك الخطيئة أهون عليك من معالجة التوبة، ما يُؤَمِّنُك أن تكون أصبت كبيرةً أُغلق دونها باب التوبة، فأنت في غير مَعمل».
- وكان يقول: «ما حُلِّيت الجَنَّة لأُمَّةٍ ما حُلِّيت لهذه الأمة، ثُمَّ لا ترى لها عاشقًا».
- وقال - رَحِمَهُ الله -: بئس الرفيقان، الدِّينارُ والدِّرهم، لا ينفعانِك حَتَّى يُفارقاك.
- وعن هشام بن حسَّان: سمعتُ الحسن يحلف بالله: ما أعزَّ أحَدٌ الدِّرهم إلَّا أذله الله.
- وعن عمران بن القصير قَالَ: سألت الحسن عن شيء فقلتُ: إن الفقهاء يقولون كذا وكذا، فقال: وهل رأيت فقيهًا بعينك؟ إنَّما الفقيه: الزاهد في الدنيا، البصير بدينه، المداوم عَلَى عبادة رَبِّه.
- وعن الحسن قَالَ: يا ابن آدم، والله إن قرأت القرآن ثم آمنتَ به، ليطولنَّ في الدنيا حُزنك، وليشتدنَّ في الدنيا خوفُك، وليكثُرنَّ في الدنيا بكاؤك[٢].

---

(١) أي خوفًا.

(٢) «الزهد» للإمام أحمد (٢٥٩).

- وعن الحسن، عن أنس بن مالك رَضِيَ الله عَنْهُ، قال: كان رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إلى جنب خشبة، يُسند ظهره إليها، فلمَّا كثر الناس، قال: «**ابنوا لي منبرًا له عتبتان**» فلما قام على المنبر يخطب حنت الخشبة إلى رسول الله ﷺ، قَالَ: وأنا في المسجد، فسمعتُ الخشبة تَحِنَّ حنين الواله، فما زالت تَحِنُّ حتى نزل إليها، فاحتضنها فسكنت. وكان الحسن إذا حدَّث بهذا الحديث بكى ثم قال: يا عباد الله، الخشبة تُحِنُّ إلى رسول الله ﷺ شوقا إليه، فأنتم أحقُّ أن تشتاقوا إلى لقائه[1].
- وكان يقول: ابن آدم إنك تموت وحدك، وتبعث وحدك، وتُحاسب وحدك، ابن آدم لو أن النَّاس كلهم أطاعوا الله وعصَيت أنت، لم تنفعك طاعتهم، ولو عصوا الله وأطعت أنت، لم تضرّك معصيتُهم، ابن آدم؛ ذنبك ذنبك، فإنما هو لحمك ودمك، فإن سلمت من ذنبك سلم لك لحمك ودمك، وإن تكن الأخرى فإنما هي نار لا تطفأ، وجسم لا يُبلى، ونفسٌ لا تموت.
- وكان يقول: مَن لم يمت فجأة، مرض فجأة، فاتقوا الله واحذروا مفاجأة ربكم.
- وكان يقول: لولا ثلاثة ما طأطأ ابن آدم رأسه: الموت، والمرض، والفقر، وإنه بعد ذَلِكَ لوثَّاب.
- وكان يقول: ابن آدم بين ثلاثة أشياء: بليةٍ نازلة، ونعمةٍ زائلة، ومنيَّة قاتلة.
- وكان يقول: ابن آدم ما أوهنك وأكثر غفلتك، تُعيب النَّاس بالذنوب وتنساها من نفسك، وتُبصر القذى في عين أخيك وتَعمَى عن الجذع معترضًا في عينك، ما أقلّ إنصافك وأكثر حيفك[2].
- وكان يقول: تفقّد الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة والقراءة والذِّكر، فإن وجدتَ ذَلِكَ فامضِ وأبشر، وإلَّا فاعلم أن بابك مغلق فعالج فتحه.
- وروى العتبي عن أبيه قَالَ: عاد الحسن عليلًا فوجده قَدْ شُفي من علته، فقال: أيُّها الرجل إن الله قَدْ ذكرك فاذكره، وقَدْ أقالك فاشكره، ثم قَالَ الحسن: إنَّما المرض

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٧٠).

(٢) الحيف: الظلم.

ضربة سَوطٍ مِن مَلِكٌ كريم، فإمَّا أن يكون العليل بعد المرض فرسًا جوادًا، وإما أن يكون حمارًا عثورًا عقورًا.

عباد الله...

واختلفت عبارات العلماء في تعريف الزهد، ولكنهم لم يختلفوا في فضله ومنفعته لعلاج أدواء الركون إلى الدنيا دار الغرور.

قَالَ ابن القيّم - رَحِمَهُ الله -: بعد ذكره لأقوال السَّلف في تعريف الزهد:

والتحقيق: إنها - أي الدنيا - إن شغلته عن الله فالزهد فيها أفضل، وإن لم تشغله عن الله بل كان شاكرًا لله فيها فحاله أفضل، والزهد فيها: تجريد القلب عن التعلّق بها، والطمأنينة إليها، والله أعلم. ا.هـ.

وهذا من أحسن الكلام وأجمله.

أيُّهَا المسلمون...

لقد رغَّبنا الله تَعَالَى فيما عنده، فقال تَعَالَى: ﴿**مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النحل: ٩٦].

إن المغرور حقًّا مَن غرته هذه الدنيا، وإن المبخوس حظًّا مَن كان من أبناء الدنيا.

ولا تَغــــــترَّ بالدنــــــيا	**فـــإنَّ صَـــحيحَها يَــــسقَم**
وإنَّ جديــــــدَها يبلَــــــى	**وإنَّ شَــــــبابَها يَهــــــرَم**
وإنَّ نعــــــيمَها يَفنَــــــى	**فــــتركُ نعـــيمها أحــــزَم**
ومَـــن هـــذا الـــذي يَبقَـــى	**عَلَـــى الحــــدثان أو يَــــسلَم**

ثم هل لنا أن نتأمل هذه الوصايا الغالية لنبيِّنا ﷺ، وهو يُعَرِّفُنا بالدنيا ويُبصرنا بكدرها.

جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّوكَ**»[1].

---

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه في «صحيحه» (٣٣١٠).

وتأمل قوله ﷺ : «مَنْ كَانَتْ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ» [(١)].

أخي...

وها هو ﷺ يُخبرك عن الدنيا وشرها المستطير فيقول لك ﷺ : «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ» [(٢)].

كـأنَّ محاسـنَ الدُّنـيا سـرابٌ ... وأيُّ يـدٍ تـناولت الـسَّرابَا

فـيا عجـبًا تمـوتُ وأنـتَ تـبني ... وتـتَّخذُ المـصانعَ والقـبابَا

أراكَ وكلَّمـا فـتَّحتَ بابًـا ... مـن الدنـيا فـتّحت علـيك نابَـا

ألم تَـر أنَّ غُـدوةَ كـلِّ يـوم ... تـزيدُكَ مـن منيَّـتك اقترابـا [(٣)]

عباد الله...

والزهد: ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: الزهد في الشبهات، ولا يكون ذَلِكَ أخي إلَّا بعد تركك للحرام، فالشبهات برزخ بين الحلال والحرام.

الدرجة الثانية: الزهد عن الفضول، وهو ما زاد عن الحاجة، اغتنامًا لعمارة الوقت، قَالَ ﷺ : «إنَّما يكفي أحدُكُم ما كان في الدُّنيا مثل زاد الرَّاكب»، مع قطع طمع النَّفس في التعلق بالدنيا، فلا يتعلق بها في حالتي الترك أو الأخذ، فإن الزهد زهد القلب.

الدرجة الثالثة: الزهد في الزهد: فيرى أن زهده في الدنيا ليس بشيء، إذ أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، بل يرى أن أخذ ذَلِكَ وتركه سواء، إذ أنَّهُ لا يساوي

---

(١) صحيح: رواه الترمذي في «صحيح الجامع» (٢٢٢٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم.

(٣) «الزهد» لأزهري محمود (٨، ٩).

شيئًا، وهذا من دقائق فقه الزهد، ويرى أيضًا أن الله تَعَالى هو المتفضل عليه في زهده في الدنيا أو أخذه منها، فإذا جمع العبد ذَلِكَ فهو الغاية في الزهد(١).

وهذا شقيق البلخي - رَحِمَهُ الله - يقول: ثلاث خصال هي تاج الزاهد:

الأولى: أن يميل عن الهوى لا يميل مع الهوى.

والثانية: ينقطع الزاهد إلى الزهد بقلبه.

والثالثة: أن يذكر كلما خلا بنفسه كيف مدخله في قبره، وكيف مخرجه، ويذكر الجوع والعطش والعرى وطول القيامة، والحساب والصراط وطول الحساب والفضيحة البادية، فإذا ذكر ذلك شغله عن ذكر دار الغرور، فإذا كان ذَلِكَ كان من محبّي الزُّهاد، ومن أحبَّهم كان معهم.

أيُّها الباني قُصورًا طوالاً ... أينَ تبغي؟! هَل تُريدُ السَّحَابَا

إنَّما أنتَ بوَادي المنايا ... إنْ رَمَاكَ الموتُ فيه أصابَا

أيُّهَا الباني لهدم اللَّيالي ... ابنِ ما شئتَ سوف تَلقَى خَرابَا

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وإذا زهد الإنسان في الحياة انطلقت يداه بالعطاء، وما جفَّت أصابع النَّاس اليوم عن الإنفاق في سبيل الله إلا بسبب حبهم للدنيا وزهدهم في الآخرة.

عن قتادة قال: دخلنا عَلَى الحسن وهو نائم، وعند رأسه سَلَّة، فجذبناها فإذا خُبزٌ وفاكهة، فجعلنا نأكل، فانتبه فرآنا، فسرَّهُ، فتبسم وهو يقرأ: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، لا جناح عليكم.

---

(١) الإمام ابن القيم باختصار.

فأهينوا الدنيا - عباد الله - فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها، واسمعوا إلى الحسن البصري، وهو يقول: «إن قومًا أكرموا الدنيا فَصَلَبَتْهُم عَلَى الخُشُبِ، فأهِينُوها، فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها».

يا لها من موعظة، لو أن بالقلوب حياة.

اللَّهُمَّ أغننا بالافتقار إليك، ولا تُفْقِرنا بالاستغناء عنك

آمين... آمين... آمين

✡✡✡✡✡

الخطبة الستون:

[جـ] لقطات وعظات من حياة الحسن البصري

علاقة الحاكم بالمحكوم

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن الإسلام الحنيف وضع ضوابط لعلاقة الحاكم بالمحكوم، السير عليها له إيجابياته التي تثمر استقرار البلاد، ومصلحة العباد.

عباد الله..

وقبل أن نذكر طريقة «الحسن البصري» -رَحِمَهُ الله - في وعظ الأمراء.

أقول وبالله التوفيق: لقد بيَّن العلماء - قديمًا وحديثًا - كثيرًا من المقاصد الأساسية

للإمامة في الشريعة الإسلامية.

وقد استوفى العلَّامة ابن جماعة الكناني - رَحِمَهُ الله تَعَالى- جُلَّ هذه المقاصد، وعبَّر عنها بالحقوق الواجبة عَلَى السلطان، والحقوق التي له، وهذا مَسْرَدُها[١]:

للسُّلطانِ والخَليفةِ عَلَى الأمَّةِ عَشرةُ حُقُوقٍ، ولهُم عليهِ عَشرَةُ حُقُوقٍ:

أمَّا حُقُوقُ السُّلطانِ العَشرةُ:

فالحَقُّ الأوَّلُ: بَذلُ الطَّاعةِ لَهُ ظَاهِرًا وباطِنًا، في كُلِّ ما يأمُرُ بِهِ أو يَنْهى عَنْهُ، إلَّا أنْ يَكُونَ مَعصِيةً، قَالَ الله تَعَالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩]، وأُولو الأمرِ هُم: الإمَامُ ونُوَّابهُ؛ عند الأكثرين. وقيل: هُمُ العُلماء[٢].

وقال النبيُّ ﷺ: «**السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ**».

فقد أوجبَ الله تَعَالى ورَسُوله طَاعةَ وَليِّ الأمرِ، ولَم يَستَثنِ مِنهُ سوى المعصيةِ، فَبَقِي مَا عَدَاهُ عَلَى الامتِثَالِ.

الحَقُّ الثَّاني: بَذْلُ النَّصيحةِ لَهُ سِرًّا وعَلانيةً[٣].

قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ**». ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَنْ؟ قَالَ: «**لِلَّهِ، وَلِرَسُولِه، وَلِكِتَابِهِ، وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[٤].

الحَقُّ الثَّالثُ: القِيَامُ بِنُصرتِهم بَاطِنًا وظَاهِرًا بِبذلِ المجهُودِ في ذَلِكَ لما فيه نَصرُ المُسلمين وإقامَةُ حُرمَةِ الدِّين، وكَفُّ أيدي المُعتدينَ.

---

(١) «تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام» (ص٦١- ٧١)، بواسطة «معاملة الحكام في ضوء الكتاب والسنة»، للشيخ عبد السلام بن برجس (٧٤ - ٨١).

(٢) قال الإمام الطبري في «تفسيره» (٥/ ١٥٠): وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قولُ مَن قال: هم الأمراءُ والولاةُ. ا.هـ.

(٣) عَلَى أن تكون النَّصيحة عنده - فيما بينه وبينه - كما سيأتي إن شاء الله تَعَالى.

(٤) رواه مسلم من حديث أبي رقية تميم بن أوس الداريّ رَضِي الله عَنْهُ.

الحَقُّ الرَّابعُ: أن يُعرَفَ لهُ عَظِيمُ حَقِّهِ، ومَا يَجِبُ مِن تَعظِيمِ قَدرِهِ، فيُعامَلَ بِمَا يَجِبُ لَهُ مِنَ الاحتِرام والإكرَام، ومَا جَعَلَ الله تَعَالى لَهُ مِن الإعظَام، ولِذَلك كانَ العُلَمَاءُ الأعلامُ من أئمَّةِ الإسلام يُعظِمُونَ حُرمَتَهُم، ويُلَبُّون دَعوَتَهم مَعَ زُهدِهِم وَوَرعِهم، وعَدَم الطَّمعِ فِيما لَدَيهِم، ومَا يَفعَلُهُ بَعضُ المُتَسِبِينَ إلى الزُّهدِ مِن قِلَّةِ الأدَبِ مَعَهُم، فَليسَ مِنَ السُّنَّةِ.

الحَقُّ الخَامِسُ: إيقَاظُهُ عِندَ غَفلَتِهِ، وإرشَادُهُ عِندَ هَفوتِهِ، شَفَقَةً عَليهِ، وحِفظًا لدينهِ وعِرضِهِ، وصِيَانَةً لِمَا جَعلَهُ الله إليهِ مِنَ الخَطَأ فيهِ.

الحَقُّ السَّادسُ: تَحذِيرهُ مِن عَدُوٍّ يَقصِدُهُ بِسُوءٍ، وحَاسِدٍ يَرُومُهُ بأذًى، أو خارجيٍّ يُخَافُ عليه مِنهُ، ومِن كُلِّ شيءٍ يُخَافُ عليه مِنهُ عَلَى اختلافِ أنواعِ ذَلِكَ وأجناسِهِ، فإنَّ ذَلِكَ مِن آكَدِ حُقُوقِهِ وأوجَبِها.

الحَقُّ السَّابعُ: إعلامُهُ بِسِيرةِ عُمَّالِهِ الذينَ هُوَ مُطَالَبٌ بِهِم، ومَشغُولُ الذِّمَّةِ بِسَبَبِهم، لِيَنظُرَ لِنَفسِهِ في خَلاصِ ذِمَّتِهِ، وللأمَّةِ في مَصَالِحِ مُلكِهِ ورَعِيَّتِه.

الحَقُّ الثَّامِنُ: إعَانَتُهُ عَلَى ما تَحَمَّلهُ مِنْ أعباءِ الأُمَّةِ، ومُسَاعدتهُ عَلَى ذَلِكَ بِقدرِ المُكنَةِ، قَالَ الله تَعَالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى**﴾ [المائدة: ٢]، وأحقُّ من أُعِينَ عَلَى ذَلِكَ وُلاةُ الأمورِ.

الحَقُّ التَّاسِعُ: رَدُّ القُلوبِ النَّافِرَةِ عَنهُ إليهِ، وجَمْعُ مَحَبَّةِ النَّاس عليهِ، لِمَا في ذَلِكَ مِنْ مصَالِحِ الأمَّةِ، وانتِظام أُمورِ المِلَّةِ.

الحَقُّ العَاشِرُ: الذَّبُّ عَنهُ بِالقَولِ والفِعْلِ، وبِالمَالِ والنَّفسِ والأهلِ، في الظَّاهِرِ والبَاطِنِ، والسِّرِّ والعَلانيةِ.

وإذا وَفَّت الرَّعيَّةُ بِهَذِهِ الحُقُوقِ العشرَةِ الواجِبةِ، وأحسنَتِ القِيامَ بِمجَامِعِها، وَالمُرَاعاةَ لِمَوَاقِعِهَا، صَفَت القُلُوبُ وأخلَصَت، واجتمَعَتِ الكَلِمَةُ وانتَصَرت.

وأمَّا حُقُوقُ الرَّعِيَّةِ العَشْرَةُ عَلَى السُّلطانِ:

فالأوَّل: حِمَايةُ بَيضَةِ الإسلام والذَّبُّ عَنها، إمَّا في كُلِّ إقليم - إنْ كان خَلِيفةً - أو في القُطرِ المُختَصِّ به إن كَانَ مُفوَّضًا إليهِ، فَيَقُومُ بِجهادِ المُشركِينَ، ودَفعِ المُحَارِبِينَ

والبَاغِينَ، وتَدبِيرِ الجُيُوش، وتَجنِيدِ الجُنودِ، وتَحصِين الثُّغُور بالعُدة المانِعةِ، والعُدَّةِ الدَّافِعَةِ، وبِالنَّظَرِ في تَرتِيبِ الأجنَادِ في الجِهَاتِ عَلَى حَسبِ الحاجَاتِ وتَقديرِ إقطَاعِهِم، وأرزاقِهِم، وصَلاح أحوَالِهِم.

الحَقُّ الثَّاني: حِفْظُ الدِّينِ عَلَى أُصُولِهِ المُقَرَّرةِ، وقَوَاعِدِهِ المُحَرَّرةِ، ورَدُّ البِدَعِ والمُبتدِعِينَ، وإيضاحُ حُجَجِ الدِّين، ونَشْرُ العُلُومِ الشَّرعيَّةِ، وتَعظِيمُ العِلمِ وأهلِهِ، ورَفْعُ مَنَارِهِ ومحَلِّه، ومُخَالَطَةُ العُلَمَاءِ الأعلام، النُّصحَاءِ لِدِينِ الإسلام، ومُشَاوَرَتُهُم في مَوَارِدِ الأحكَامِ، ومَصَادِرِ النَّقضِ والإبْرَامِ؛ قَالَ الله تَعَالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قَالَ الحَسَن: «كانَ والله غَنيًّا عَنِ المُشَاورةِ، ولَكِن أرَادَ أنْ يَستَنَّ لَهُم».

الحَقُّ الثَّالثُ: إقَامَةُ شَعَائِرِ الإسلام، كَفُرُوضِ الصَّلوَاتِ، والجُمَعِ والجَمَاعَاتِ، والأذَانِ، والإقامةِ، والخَطَابَةِ، والإمَامَةِ، ومِنْهُ: النَّظَرُ في أمرِ الصِّيامِ والفِطرِ وأهِلَّتِهِ، وحَجِّ البَيتِ الحَرَامِ وعُمْرَتِهِ.

ومِنْهُ: الاعتِنَاءُ بالأعيَادِ، وتَيسِيرُ الحَجِيج مِنْ نَوَاحِي البِلادِ، وإصلاحُ طُرُقِهَا وأمْنِهَا في مَسِيرِهِم، وانتِخَابُ مَنْ يَنظُرُ أُمُورَهُم.

الحَقُّ الرَّابعُ: فَصْلُ القَضَايَا والأحكَامِ، بِتَقليدِ الوُلاةِ والحُكَّام؛ لِقَطعِ المُنَازَعَاتِ بَينَ الخُصُومِ، وكَفُّ الظَّالِمِ عَنِ المظلُومِ، ولا يُوَلِّي ذَلِكَ إلا مَن يَثِقُ بديَانَتِهِ وصِيَانَتِهِ مِنَ العُلَمَاءِ والصُّلَحاءِ، والكُفَاةِ النُّصحَاءِ، ولا يَدَعُ السُّؤالَ عن أخبَارِهِم، والبَحثَ عَن أحوَالِهِ، لِيَعلَمَ حَالَ الوُلاةِ مَعَ الرَّعيَّةِ، فإنَّهُ مَسئُولٌ عَنْهُم، مُطَالَبٌ بالجِنَايَةِ مِنهُم.

قَالَ رَسُول الله ﷺ: «كُلُّكمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مسؤولٌ عن رعيَّتِهِ».

الحَقُّ الخَامِسُ: إقَامَةُ فَرضِ الجِهَادِ بِنَفسِهِ، وبِجُيوشِهِ، أو سرايَاهُ وبُعُوثِهِ، وأقَلُّ مَا يَجِبُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً، إن كان بالمُسلمينَ قُوَّةٌ، فإن دَعَتِ الحَاجَةُ إلى أكثَرَ مِنهُ؛ وجبَ بِقَدرِ الحَاجَةِ، ولا يُخلِي سَنَةً مِن جِهَادٍ إلَّا لِعُذرٍ، كَضَعفٍ بالمُسلمينَ - والعِيَاذُ بالله - واشْتِغَالِهِم بِفِكَاكِ أسرَاهُم، واستِنقَاذِ بِلاد استَولَى الكُفَّارُ عَلَيها.

ويَبدأُ بِقِتَالِ مَن يليهِ مِنَ الكُفَّار إلَّا إذا قَصَدهُ الأبعَدُ، فَيَبدأُ بِقِتالِهِ لِدَفْعِهِ.

الحَقُّ السَّادسُ: إقَامَةُ الحُدودِ الشَّرعيَّةِ عَلَى الشُّرُوطِ المَرعيَّةِ، صِيَانةً لِمَحارِمِ الله عَنِ التَّجَرُّؤ عَلَيهَا، ولِحُقُوقِ العِبَادِ عَنِ التَّخطِّي إليهَا، ويُسَوِّي في الحدُودِ بَيْنَ القَويِّ والضَّعيفِ، والوَضِيعِ والشَّرِيفِ؛ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّمَا هَلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**».

الحَقُّ السَّابعُ: جِبَايَةُ الزَّكَوَاتِ والجِزيَةِ مِنْ أهلِهَا؛ وأموالِ الفَيءِ والخَرَاجِ عِندَ مَحِلِّهَا، وصَرفُ ذَلِكَ في مَصَارِفِهِ الشَّرعيَّة، وجِهَاتِهِ المَرضيَّةِ، وضَبطُ جِهَاتِ ذَلِكَ، وتَفويضُهُ إلى الثِّقَاتِ مِنَ العُمَّال.

الحَقُّ الثَّامِنُ: النَّظَرُ في أوقَافِ البِرِّ والقُرُبَاتِ، وصَرفُها فِيمَا هي لَهُ مِنَ الجِهَاتِ، وعِمَارةُ القَنَاطِرِ وتَسهيلُ سُبُلِ الخَيْرَاتِ.

الحَقُّ التَّاسِعُ: النَّظَرُ في قَسْمِ الغَنَائِمِ وتَقسِيمِهَا، وصَرْفُ أخماسِهَا إلى مُستحقِّيهَا.

الحَقُّ العَاشِرُ: العَدْلُ في سُلطَانِهِ، وسُلُوكُ مَوارِدِه في جَميعِ شأنِهِ؛ قَالَ تَعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ**﴾ [النحل: ٩٠]. وقال تَعالى: ﴿**وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا**﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وفي كَلامِ الحِكمَةِ: عَدلُ المَلِكِ حَيَاةُ الرَّعيَّةِ ورُوحُ المَملكَةِ، فَمَا بَقَاءُ جَسَدٍ لا رُوحَ فيه؟!

فَيَجِبُ عَلَى مَنْ حَكَّمَهُ الله تَعَالى في عِبَادِهِ، ومَلَّكَهُ شَيئًا مِنْ بِلادِهِ، أن يَجعَلَ العَدْلَ أصْلَ اعتِمَادِهِ، وقَاعِدَةَ استِنَادِهِ، لما فيهِ مِن مَصَالِحِ العِباد، وعِمَارَةِ البِلاد، ولأنَّ نِعَمَ الله يَجِبُ شُكرُها، وأن يَكُونَ الشُّكرُ عَلَى قَدرِهَا، ونِعمَةُ الله عَلَى السُّلطَانِ فَوْقَ كُلِّ نِعمةٍ، فَيجبُ أن يَكُون شُكرُهُ أعظَمَ مِن كُلِّ شُكرٍ.

وأفضَلُ مَا يَشْكُرُ بِهِ السُّلطَانُ لله تَعَالى: إقَامَةُ العَدْلِ فِيمَا حَكَّمَهُ فيهِ.

وقَدِ اتَّفَقَتْ شَرَائِعُ الأنبيَاءِ، وآرَاءُ الحُكَمَاءِ والعُقَلاءِ، أنَّ العَدْلَ سَبَبٌ لِنُمُوِّ البَركَاتِ، ومَزِيدِ الخَيرَاتِ، وأنَّ الظُّلمَ والجَورَ سَبَبٌ لِخَرَابِ المَمَالِكِ، واقتِحَامِ المَهالِكِ، ولا شَكَّ عِندهُم في ذَلِكَ...» ا.هـ.

عباد الله...

ولقد كانت مواعظ الحسن البصريّ للأمراء تتفق تمام الاتفاق مع منهج الإسلام في ذَلِكَ.

ويدلُّ عَلَى لك:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن: اكتب إليَّ يا أبا سعيد بذمّ الدنيا. فكتب إليه:

«أما بعد: يا أمير المؤمنين فإن الدنيا دار ظعن وانتقال، وليست بدار إقامة عَلَى حال، وإنَّما أنزل إليها آدم عقوبة فاحذرها، فإن الراغب فيها تارك، والغني فيها فقير، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق وجدها تُذِلّ من أعزّها، وتفرِّق مَنْ جَمَعَها، فهي كالسُّم يأكله مَن لا يعرفه، ويرغب فيه من يجهله، وفيه والله حتفه[1]، فكن يا أمير المؤمنين كالمداوي جراحه يحتمي قليلًا، مَخَافة ما يكره طويلًا، الصبر عَلَى لأوائها[2]، أيسر من احتمال بلائها، واللَّبيبُ[3] من حذرها، ولم يَغتر بزينتها، فإنها غَدَّارة ختالة خَدَّاعة، قَدْ تعرضت بآمالها، وتزيَّنت لخطَّابها، فهي كالعروس، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، وهي والذي بعث محمدًا بالحق لأزواجها قاتلة.

فاتق الله يا أمير المؤمنين صرعتها، واحذر عثرتها، فالرخاء فيها موصول بالشِّدة والبلاء، والبقاء مؤد إلى الهلكة والفناء.

واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كَدَر، وعَيْشها نكد، وتاركها موفق، والمتمسّك بها هالك غرق، والفطن اللبيب مَن خاف ما خوفه الله، وحذر ما حذّره، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء فعند الموت يأتيه اليقين.

الدنيا والله يا أمير المؤمنين دار عقوبة، لها يجمع مَن لا عقل له، وبها يغتر مَن لا علم عنده، والحازم اللبيب مَن كان فيها كالمداوي جرحه، يصبر عَلَى مرارة الدواء، لَـمَّا

---

(١) **الحتف**: الموت.

(٢) **لأوائها**: تعبها وشدّتها.

(٣) **اللبيب**: العاقل.

يرجو من العافية، ويخاف من سوء عاقبة الدار.

والدنيا وايم الله يا أمير المؤمنين حُلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، والعباد في أضغاث أحلام، وإني قائل لك يا أمير المؤمنين ما قَالَ الحكيم: فإن تنج فيها من ذي عظيمة، وإلَّا فإني لا إخالك ناجيًا».

ولما وصل كتابه إلى عمر بن عبد العزيز بكى وانتحب حَتَّى رحمه من كان عنده، وقال: يرحم الله الحسن فإنه لا يزال يوقظنا من الرَّقدة، وينبهنا من الغفلة، والله هو مَن مشفق ما أنصحه، وواعظ ما أصدقه وأفصحه.

وكتب عمر بن عبد العزيز إليه: «وصلت مواعظك النافعة فاشتفيتُ بها، ولقد وصفتَ الدنيا بصفتها، والعاقل مَن كان فيها عَلَى وجل[١]، فكأن كل مَن كتب عليه الموت من أهلها قَدْ مات، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

فلما وصل كتابه إلى الحسن قَالَ: «لله دَرُّ أمير المؤمنين مِنْ قائل حقًّا، وقابل وعظًا، لقد أعظم الله جلّ ثناؤه بولايته المنّة، ورحم بسلطانه الأُمّة، وجعله بركة ورحمة».

عباد الله...

وهذه رسالة أخرى:

جاء في كتاب «العقد الفريد»: أن الحسن البصري - رَحِمَهُ الله - أرسل رسالة لعمر ابن عبد العزيز حين ولَّى الخلافة، يصف فيها الإمام العادل فقال فيها:

«اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قِوامَ كلِّ مائل، وقَصْد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة[٢] كل مظلوم، ومَفْزَع كل ملهوف. والإمامُ العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي ويذودها عن مراتع الهلكة ويحميها من السباع ويكنفها من أذى الحر والقَرّ[٣]. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده يسعى لهم صغارًا،

---

(١) **الوجل**: الخوف.
(٢) أي: إغاثة وإنصاف.
(٣) **القرّ**: البرد.

ويعلمهم كبارًا، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها حملته كرها ووضعته كرها وربته طفلاً تسهر بسهره وتسكن بسكونه ترضعه تارة وتفطمه أخرى وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى وخازن المساكين يربي صغيرهم ويمون كبيرهم. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح؛ تصلح الجوارح بصلاحه وتفسد بفساده، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده يَسْمع كلام الله ويُسْمعهم وينظر إلى الله ويريهم وينقاد إلى الله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله ﷻ كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال وشرد العيال فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها! وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟! واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه يطول فيه رُقادُك ويفارقك أحباؤك يسلمونك في قعره فريدًا وحيدًا، فتزود له ما يصحبك ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٦].

واذكر يا أمير المؤمنين ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠] فالأسرار ظاهرة والكتاب ﴿لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

فالآن يا أمير المؤمنين، وأنت في مَهَل، قبل حلول الأجَل، وانقطاع الأمل، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقُبون في مؤمن إلًّا[1] ولا ذِمّة، فتبوء بأوزارك وأوزارٌ مع أوزارك، وتحمل أثقالَكَ وأثقالاً مع أثقالك، ولا يَغُرَّنَّك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك، ولا تنظر إلى

(١) إلًّا: عهدًا.

قدرتك اليوم ولكن انظر إلى قدرتك غدًا وأنت مأسور في حبائل الموت وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين وقد ﴿ عَنَتِ[١] الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ [طه: ١١١].

إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النُّهَى[٢] من قبلي فلم آلك[٣] شفقة ونصحًا فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته».

ما أعظمها من موعظة لو أن بالقلوب حياة!

عباد الله...

هاتان رسالتان تَقْطُر منها الرحمةُ والشفقةُ، فما أحوجنا إلى هذا النوع من المواعظ خصوصًا مع الأمراء.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فلقد بيَّن الإسلام طريقة وعظ الأمراء، وأعلمنا أنها تغاير وعظ العامّة.

وهذه باقة من الأحاديث الشريفة «الصحيحة» تكشف لنا الطريق:

عن عياض بن غنم رَضِي الله عَنْهُ قال: قال رَسُول الله ﷺ: **«مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ بِأَمْرٍ فَلَا يُبْدِ لَهُ عَلَانِيَةً، وَلَكِنْ لِيَأْخُذْ بِيَدِهِ فَيَخْلُوَ بِهِ فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَاكَ، وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ»**[٤].

---

(١) **عنت**: خضعت وذلت.

(٢) **أولو النهى**: أصحاب العقول.

(٣) **آلك**: أي لم أقصر.

(٤) **صحيح**: رواه أحمد وابن أبي عاصم وغيرهما، وصححه الألباني.

وعن أنسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**لا تَسُبُّوا أمراءَكم ولا تَغشوهم ولا تُبغضوهم، واتقوا الله واصبروا فإن الأمر قريب**»[١].

وهذان الحديثان لا يعارضهما ما رواه أبو سعيد الخدريّ رَضِيَ الله عَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ أنَّهُ قال: «**أفضلُ الجِهاد: كَلمةُ حَقٍّ عند سلطان جائر**»[٢].

فالجهاد أفضله كلمة الحق عنده وأمامه، لا في قناة فضائية أو من ورائه.

هذا، وثمة شيء آخر، وهو:

أن الله تَعَالَى لما أرسل موسى وهارون - عليهما السلام - إلى فرعون قال لهما: ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَـهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّـهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

وذكر أهلُ السِّير: «أن أحد الزُّهاد دخل عَلَى أمير المؤمنين هارون الرشيد، فقال: يا هارون اتق الله. فأخذه فخلا به وقال: يا هذا أنصفني، أنا شَرٌّ أم فرعون؟

قال: بل فرعون. قال: فأنت خير أم موسى؟ قال: بل موسى.

قال: أفما تعلم أن الله تعالى لما بعثه وأخاه إليه قال: ﴿**فَقُولا لَـهُ قَوْلًا لَيِّنًا**﴾ وقد جبهتني بأغلظ الألفاظ فلا بأدب الله تأدبت ولا بأخلاق الصالحين أخذت.

قال: أخطأت وأنا أستغفر الله، فقال: غفر الله لك، وأمر له بعشرين ألف درهم فأبى أن يأخذها.

فهذه هي الأخلاق الطيبة»[٣].

اللَّهُمَّ اهدِنا لأحسنِ الأخلاق، لا يَهدي لأحسَنِها إلَّا أنت، واصْرِف عنَّا سيِّئها، لا يَصرف عَنَّا سَيِّئها إلَّا أنت.

آمين... آمين... آمين

---

(١) صحيح: رواه ابن أبي عاصم، وصححه الألباني.
(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤)، وغيرهما، وصححه الألباني.
(٣) «المنتظم» لابن الجوزي (٨/ ٣٢٨).

الخطبة الحادية والستون:

[د] لقطاتٌ وعظات من حياة الحسن البصري

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال رجلٌ للحسن البصريّ -رَحِمَهُ الله-: يا أبا سعيد: أيُّ الجِهاد أفضل؟

قال: «جهادك هواك».

وهذا القول منتزع من قول النبيّ ﷺ: «**وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ**»[1].

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه، وانظر «السلسلة الصحيحة» (٥٤٩).

عباد الله...

يقول بعض السَّلف: «مَن اتَّبع الهوى هوى».

وقال الشَّعبيُّ - رَحِمَهُ الله -: «إنَّما سُمِّي الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه في النَّار».

فالهوى... يعني السّقوط.

والهوى... هو الوقوع في الشهوات المحرَّمة.

لذا قَالَ ابن عباس رَضِيَ الله عَنْهُمَا: «ما ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ الهوى في موضع من كتاب إلَّا ذمَّه».

وقال الإمام ابن رجب الحنبليّ - رَحِمَهُ الله -: «والمعروف في استعمال الهوى عند الإطلاق: أَنَّهُ الميل إلى خلاف الحق كما في قوله تَعَالى: ﴿**وَلاَ تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [ص: ٢٦].

وقال: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى * فَإِنَّ الـجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى**﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] ا.هـ.

عباد الله...

فلا عجب إذا رأينا الحسن البصري - رَحِمَهُ الله - يحذِّر من الهوى، ويدعو إلى مجاهدته، بل ويعدّه أفضل الجهاد.

وها هو الإمامُ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله - يُعَرِّف الهوى، ويذكر أسباب التخلّص منه، فيقول - رَحِمَهُ الله -:

«الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل خلق في الإنسان لضرورة بقائه فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمنكح ما أكل ولا شرب ولا نكح، فالهوى مستحثٌّ له لما يريده، كما أن الغضب دافعٌ عنه ما يؤذيه، فلا ينبغي ذمُّ الهوى مطلقًا، ولا مدحه مطلقًا، كما أن الغضب لا يُذَمُّ مطلقًا ولا يحمد مطلقًا، وإنما يذم المفرط من النوعين، وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضار، ولما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته وغضبه أنه لا يقف فيه على حد المنتفع به، أطلق ذمُّ الهوى والشهوة والغضب لعموم غلبة الضرر، لأنه يندر من يقصد العدل في ذلك ويقف عنده، كما أنه يندر في الأمزجة

والمزاج المعتدل من كل وجه، بل لابد من غلبة أحد الأخلاط والكيفيات عليه، فحرصُ الناصح على تعديل قوى الشهوى والغضب من كل وجه، وهذا أمر يتعذر وجوده إلا في حق أفراد من العالم، فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمه، وكذلك في السنة لم يجئ إلا مذمومًا إلا ما جاء منه مقيدًا كقوله ﷺ «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به**».

وقد قيل: الهوى كَمِينٌ لا يُؤْمنُ.

قال الشعبي: وسمي هوًى لأنه يهوي بصاحبه، ومُطلقُه يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في العاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلا وإن كانت سببًا لأعظم الآلام عاجلاً وآجلاً، فللدنيا عاقبة قبل عاقبة الآخرة، والهوى يعمي صاحبه من ملاحظتها، والمروءة والدين والعقل ينهى عن لذة تعقب ألمًا، وشهوة تورث ندمًا، فكل منها يقول للنفس إذا أرادت ذلك: لا تفعلي، والطاعة لمن غلب، ألا ترى أن الطفل يؤثر ما يهوى وإن أداه إلى التلف لضعف ناهي العقل عنده، ومن لا دين له يؤثر ما يهواه إلى هلاكه في الآخرة لضعف ناهي الدين، ومن لا مروءة له يؤثر ما يهواه وإن ثلم مروءته أو عدمها لضعف في المروءة، فأين هذا من قول الشافعي رحمه الله تعالى: لو علمت أن الماء البارد يلثم مروءتي لما شربته.

ولما امتُحن المكلّفُ الهوى من بين سائر البهائم وكان كل وقت تحدث عليه حوادث جعل فيه حاكمان: حاكم العقل وحاكم الدين، وأمر أن يرفع حوادث الهوى دائما إلى هذين الحاكمين وأن ينقاد لحكمهما، وينبغي أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب ليتمرن بذلك على ترك ما تُؤذِي عواقبه.

فإن قيل: فكيف يتخلص مِن هذا مَن قد وقع فيه؟

قيل: يمكنه التخلص بعون الله وتوفيقه له بأمور:

أحدها: عزيمة حرٍّ يغار لنفسه وعليها.

الثاني: جرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة.

الثالث: قوة نفس تشجعه على شرب تلك الجرعة، والشجاعة كلها صبر ساعة،

وخير عيش أدركه العبد بصبره.

الرابع: ملاحظته حسن موقع العاقبة والشفاء بتلك الجرعة.

الخامس: ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه.

السادس: إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده، وهو خير وأنفع له من لذة موافقة الهوى.

السابع: إيثاره لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية.

الثامن: فرحه بغلبة عدوه ورده خاسئًا بغيظه وغمه وهمه حيث لم ينل منه أمنيته، والله تعالى يحب من عبده أن يراغم عدوه ويغيظه كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وقال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]، أي مكانا يراغم فيه أعداء الله، وعلامة المحبة الصادقة مغايظة أعداء المحبوب ومراغمتهم.

التاسع: التفكر في أنه لم يُخلق للهوى وإنما هُيِّئ لأمر عظيم لا يناله إلا بمعصيته للهوى كما قيل:

قد هيئوك لأمر لو فطنت له   فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

العاشر: أن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم أحسن حالاً منه، فإن الحيوان يميز بطبعه بين مواقع ما يضره وما ينفعه، فيؤثر النافع على الضار، والإنسان أُعطي العقل لهذا المعنى، فإذا لم يميز به بين ما يضره وما ينفعه أو عرف ذلك وآثر ما يضره كان حال الحيوان البهيم أحسن منه، ويدل على ذلك أن البهيمة تصب من لذة المطعم والمشرب والمنكح ما لا يناله الإنسان مع عيش هنيء خال من الفكر والهم، ولهذا تساق إلى منحرها وهي منهمكة على شهواتها لفقدان العلم بالعواقب، والآدمي لا يناله ما يناله الحيوان لقوى الفكر الشاغل، وبضعف الآلة المستعملة وغير ذلك، فلو كان نيل المشتهى فضيلة لما بخس منه حق الآدمي الذي هو خلاصة العالم، ووفر منه حظ البهائم، وفي توفير الآدمي من العقل والمعرفة عوض عن ذلك.

الحادي عشر: أن يسير بقلبه في عواقب الهوى فيتأمل كم أفاتت معصيته من فضيلة، وكم أوقعت في رذيلة، وكم أكلة منعت أكلات، وكم من لذة فوتت لذات، وكم من شهوى كسرت جاهًا، ونكست رأسًا، وقبحت ذكرًا، وأورثت ذمًّا، وأعقبت ذلاً، وألزمت عارًا لا يغسله الماء، غير أن عين صاحب الهوى عمياء.

الثاني عشر: أن يتصور العاقل انقضاء غرضه ممن يهواه ثم يتصور حاله بعد قضاء الوطر وما فاته وما حصل له، وأفضل الناس من لم يرتكب سببا حتى يميز ما تجنى عواقبه.

الثالث عشر: أن يتصور ذلك في حق غيره حق التصور، ثم ينزل نفسه تلك المنزلة، فحكم الشيء حكم نظيره.

الرابع عشر: أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك، ويسأل عنه عقله ودينه يخبرانه بأنه ليس بشيء. قال عبد الله بن مسعود ﷺ: إذا أَعْجَبَ أحدكم امرأة فليذكر مناتنها.

الخامس عشر: أن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى، فإنه ما أطاع أحد هواه قط إلا وجد في نفسه ذلاً، ولا يغتر بصولة أتباع الهوى وكبرهم فهم أذل الناس بواطن، قد جمعوا بين فصيلتي الكبر والذل.

السادس عشر: أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه ونيل اللذة المطلوبة، فإنه لا يجد بينهما نسبة البتة، فليعلم أنه من أسفه الناس ببيعه هذا بهذا.

السابع عشر: أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه، فإن الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمة وهمة وميلا إلى هواه طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام الهوى وساقه حيث أراد، ومتى أحس منه بقوى عزم وشرف نفس وعلو همة لم يطمع فيه إلا اختلاسا وسرقة.

الثامن عشر: أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئًا إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصده عن الحق، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور، وإن وقع في

الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يولي بهواه ويعزل بهواه، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة، فما قارن شيئًا إلا أفسده.

التاسع عشر: أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخل على ابن آدم إلا من باب هواه، فإنه يطيف به من أين يدخل عليه حتى يفسد عليه قلبه وأعماله، فلا يجد مدخلاً إلا من باب الهوى، فيسري معه سريان السم في الأعضاء.

العشرون: أن الله سبحانه وتعالى جعل الهوى مضادًّا لما أنزله على رسوله، وجعل أتباعه مقابلاً لمتابعة رسله، وقسم الناس إلى قسمين: أتباع الوحي، وأتباع الهوى، وهذا كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ**﴾ [القصص: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾ [البقرة: ١٢٠] ونظائره.

الحادي والعشرون: أن الله سبحانه شبه أتباع الهوى بأخس الحيوانات صورة ومعنى، فشبههم بالكلب تارة كقوله تعالى: ﴿**وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ**﴾ [الأعراف: ١٧٦]

وبالحُمر تارة كقوله تعالى: ﴿ **كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ** ﴾ [المدثر: ٥٠، ٥١]، وقَلَبَ صُورهم إلى صورة القردة والخنازير تارة.

الثاني والعشرون: أن متبع الهوى ليس أهلاً أن يطاع ولا يكون إمامًا ولا متبوعًا، فإن الله سبحانه وتعالى عزله عن الإمامة ونهى عن طاعته، أما عزله فإن الله سبحانه وتعالى قال لخليله إبراهيم: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ١٢٤] أي لا ينال عهدي بالإمامة ظالمًا، وكل من اتبع هواه فهو ظالم كما قال الله تعالى: ﴿ **بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ [الروم: ٢٩]، وأما النهي عن طاعته فقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف: ٢٨].

الثالث والعشرون: أن الله سبحانه وتعالى جعل متبع الهوى بمنزلة عابد الوثن، فقال تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ [الفرقان: ٤٣]، في موضعين من كتابه، قال

الحسن: هو المنافق لا يهوى شيئًا إلا ركبه، وقال أيضا: المنافق عبد هواه لا يهوى شيئًا إلا فعله.

الرابع والعشرون: أن الهوى هو حظار جهنم المحيط بها حولها، فمن وقع فيه وقع فيها، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات**».

وفي الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ يرفعه: «**لما خلق الله الجنة أرسل إليها جبريل فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها فرجع إليه قال: وعزتك لا يسمع بها أحد من عبادك إلا دخلها، فأمر بها فحجبت بالمكاره وقال: ارجع إليها فانظر إليها فرجع فإذا هي قد حجبت بالمكاره، فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد، قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضا، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفت بالشهوات، فقال: ارجع فانظر إليها، فرجع إليها فإذا هي قد حفت بالشهوات، فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد**»[1]، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

الخامس والعشرون: أنه يخاف على من اتبع الهوى أن ينسلخ من الإيمان وهو لا يشعر، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**أخوف ما أخاف عليكم شهواتِ الغَيِّ في بطونكم وفروجِكم وَمُضِلَّات الهوى**».

السادس والعشرون: أن اتباع الهوى من المهلكات قال ﷺ: «**ثلاث منجيات وثلاث مهلكات: فأما المُنجيات فتقوى الله ﷻ في السِّرِّ والعلانية، والقول بالحق في الرِّضا والسّخط، والقَصْد في الغنى والفقر، وأمّا المهلكات فهوًى مُتَّبع، وشُحّ مُطَاع، وإعجاب المرء بنفسه**».

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب السنة (٤٧٤٤)، والترمذي في كتاب صفة الجنة (٢٥٦٠)، والنسائي في كتاب الأيمان والنذور (٢٧٦٣)، وأحمد (٢/ ٣٣٢)، والحديث صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢١٠).

السابع والعشرون: أن مخالفة الهوى تورث العبد قوة في بدنه وقلبه ولسانه، قال بعض السلف: الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده، وفي الحديث الصحيح المرفوع: «**ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»، وكلما تمرن على مخالفة هواه اكتسب قوة إلى قوته.

الثامن والعشرون: أن أغزر الناس مروءة أشدهم مخالفة لهواه، قال معاوية: المروءة ترك الشهوات وعصيان الهوى، فاتباع الهوى يزمن المروءة، ومخالفته تنعشها.

التاسع والعشرون: أنه ما من يوم إلا والعمل والهوى والعقل يعتلجان في صاحبه، فأيهما قوي على صاحبه طرده وتحكم وكان الحكم له، قال أبو الدرداء: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله، فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان هواه تبعا لعمله فيومه يوم صالح.

الثلاثون: أن الله سبحانه وتعالى جعل الخطأ واتباع الهوى قرينين، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين، كما قال بعض السلف: إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيهما أرشد فخالف أقربهما من هواك، فإن أقرب ما يكون الخطأ في متابعة الهوى.

الحادي والثلاثون: أن الهوى داء ودواؤه مخالفته.

قال بعض العارفين: إن شئت أخبرتك بدائك، وإن شئت أخبرتك بدوائك، داؤك هواك، ودواؤك ترك هواك ومخالفته.

وقال بشر الحافي رحمه الله تعالى: البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك إياه.

عباد الله...

وبقول بشر الحافي - رَحِمَهُ الله - نأتي إلى ختام الخطبة الأولى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ويواصل الإمام ابن القيّم - رَحِمَهُ الله - حديثه عن أسباب التخلّص من الهوى، فيقول:

السبب الثاني والثلاثون: أن جهاد الهوى إن لم يكن أعظم من جهاد الكفار فليس بدونه، قال رجل للحسن البصري رحمه الله تعالى: يا أبا سعيد، أي الجهاد أفضل؟ قال: جهادك هواك، وسمعت شيخنا يقول: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى يخرج إليهم.

الثالث والثلاثون: أن الهوى تخليط ومخالفته حمية، ويخاف على من أفرط في التخليط وجانب الحمية أن يصرعه داؤه، قال عبد الملك بن قريب: مررت بأعرابي به رمد شديد ودموعه تسيل على خديه فقلت: ألا تمسح عينيك؟ قال: نهاني الطبيب عن ذلك، ولا خير فيمن إذا زجر لا ينزجر، وإذا أمر لا يأتمر، فقلت ألا تشتهي شيئًا؟ فقال: بلى ولكني أحتمي، إن أهل النار غلبت شهوتهم حميتهم فهلكوا.

الرابع والثلاثون: أن اتباع الهوى يغلق عن العبد أبواب التوفيق، ويفتح عليه أبواب الخذلان، فتراه يلهج بأن الله لو وفق لكان كذا وكذا، وقد سد على نفسه طرق التوفيق باتباعه هواه.

قال الفضيل بن عياض: من استحوذ عليه الهوى واتباع الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق.

وقال بعض العلماء: الكفر في أربعة أشياء: في الغضب، والشهوة، والرغبة، والرهبة، ثم قال: رأيت منهن اثنتين: رجلاً غضب فقتل أمه، ورجلاً عشق فتنصر.

الخامس والثلاثون: أن من نصر هواه فسد عليه عقله ورأيه، لأنه قد خان الله في

عقله فأفسد عليه، وهذا شأنه سبحانه وتعالى في كل من خانه في أمر من الأمور، فإنه يفسده عليه.

عباد الله...

وبهذا القدر نكتفي عَلَى أمل اللِّقاء بكم، لنواصل الحديث عن بقيّة أسباب التخلّص من الهوى، فإلى اللقاء - إن شاء الله تَعَالى.

❂❂❂❂❂

الخطبة الثانية والستون:

[هـ] لقطات وعظات من حياة الحسن البصري

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَــقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل اليوم - إن شاء الله - الحديث عن **أسباب التخلّص من الهوى**، ومع الإمام ابن القيم - رحمه الله - وذلك في معرض حديثنا عن **الحسن البصري** رحمه الله.

قال الإمامُ ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله -:

السبب السادس والثلاثون من أسباب التخلص من الهوى:

أن من فسح لنفسه في اتباع هواه ضيق عليها في قبره ويوم معاده، ومن ضيق عليها بمخالفة الهوى وسع عليها في قبره ومعاده، وقد أشار الله تعالى إلى هذا في قوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنساء: ١٢]، فلما كان في الصبر الذي هو حبس

النفس عن الهوى خشونة وتضييق، جازاهم على ذلك نعومة الحرير وسعة الجنة، وقال أبو سليمان الداراني - رحمه الله تعالى - في هذه الآية: جزاهم بما صبروا عن الشهوات.

السابع والثلاثون: أن اتباع الهوى يصرع العبد عن النهوض يوم القيامة عن السعي مع الناجين، كما صرع قلبه في الدنيا عن مرافقتهم.

قال محمد بن أبي الورد: إن لله ﷻ يومًا لا ينجو من شره منقاد لهواه، وإن أبطأ الصرعى نهضة يوم القيامة صريع شهوته، وإن العقول لما جرت في ميادين الطلب كان أوفرها حظًّا من يطالبها بقدر ما صحبه من الصبر، والعقل معدن، والفكر معول.

الثامن والثلاثون: أن اتباع الهوى يحل العزائم ويوهنها، ومخالفته تشدها وتقويها، والعزائم هي مركب العبد الذي يسيره إلى الله والدار الآخرة، فمتى تعطل المركوب أوشك أن ينقطع المسافر، قيل ليحيى بن معاذ: من أصح الناس عزمًا؟ قال: الغالب لهواه.

التاسع والثلاثون: أن مثل راكب الهوى كمثل فرس حديد صعب جموح لا لجام له فيوشك أن يصرعه فرسه في خلال جريه به أو يسير به إلى مهلك.

قال بعض العارفين: أسرع المطايا إلى الجنة الزهد في الدنيا، وأسرع المطايا إلى النار حب الشهوات، ومن استوى على هواه أسرع به إلى وادي الهلكات.

وقال آخر: أشرف العلماء من هرب بدينه من الدنيا، واستصعب قياده الهوى. وقال عطاء: من غلب هواه عقله، وجزعه صبره، افتضح.

الأربعون: أن التوحيد واتباع الهوى متضادان، فإن الهوى صنم ولكل عبد صنم في قلبه بحسب هواه، وإنما بعث الله رسله بكسر الأصنام وعبادته وحده لا شريك له، وليس مراد الله سبحانه كسر الأصنام المجسدة وترك الأصنام التي في القلب، بل المراد كسرها من القلب أولاً.

قال الحسن بن علي المطوعي: صنم كل إنسان هواه، فمن كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوة، وتأمل قول الخليل ﷺ لقومه: ﴿**مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ**﴾ [الأنبياء: ٥٢]، كيف تجده مطابقًا للتماثيل التي يهواها القلب ويعكف عليها ويعبدها من

دون الله، قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

الحادي والأربعون: أن مخالفة الهوى مطردة للداء عن القلب والبدن، ومتابعته مجلبة لداء القلب والبدن، فأمراض القلب كلها من متابعة الهوى، ولو فتشت على أمراض البدن لرأيت غالبها من إيثار الهوى على ما ينبغي تركه.

الثاني والأربعون: أن أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى، فمن خالف هواه أراح قلبه وبدنه وجوارحه فاستراح وأراح، قال أبو بكر الوارق: إذا غلب الهوى أظلم القلب، وإذا أظلم ضاق الصدر، وإذا ضاق الصدر ساء الخُلق، وإذا ساء الخلق أبغضه الخَلق وأبغضهم، فانظر ماذا يتولد من التباغض من الشر والعداوة وترك الحقوق وغيرها.

الثالث والأربعون: أن الله سبحانه وتعالى جعل في العبد هوى وعقلاً فأيهما ظهر توارى الآخر، كما قال أبو علي الثقفي: من غلبه هواه توارى عنه عقله، فانظر عاقبة من استتر عنه عقله وظهر عليه خلافه، وقال علي بن سهل رحمه الله: العقل والهوى يتنازعان، فالتوفيق قرين العقل، والخذلان قرين الهوى، والنفس واقفة بينهما، فأيهما غلب كانت النفس معه.

الرابع والأربعون: أن الله سبحانه وتعالى جعل القلب ملك الجوارح، ومعدن معرفته ومحبته وعبوديته، وامتحنه بسلطانين وجيشين وعونين وعدتين فالحق والزهد والهدى سلطان، وأعوانه الشياطين وجنده وعدته اتباع الهوى، والنفس واقفة بين الجيشين، ولا يقدم جيش الباطل على القلب إلا من ثغرتها وناحيتها، فهي تخامر على القلب وتصير مع عدوه عليه فتكون الدائرة عليه، فهي التي تعطي عدوها عدة من قبلها، وتفتح له باب المدينة فيدخل ويتملك ويقع الخذلان على القلب.

الخامس والأربعون: أن أعدى عدوٍ للمرء شيطانه وهواه، وأصدق صديق له عقله والملك الناصح له، فإذا اتبع هواه أعطى بيده لعدوه واستأسر له وأشمته به وساء صديقه ووليه، وهذا هو بعينه هو جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.

السادس والأربعون: أن لكل عبد بداية ونهاية، فمن كانت بدايته اتباع الهوى، كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء، والمتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذابًا يعذب به في قلبه.

فلو تأملت حال كل ذي حال سيئة زرية لرأيت بدايته الذهاب مع هواه وإيثاره على عقله، ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعي رشده، كانت نهايته العز والشرف والغنى والجاه عند الله وعند الناس.

قال أبو علي الدقاق: من ملك شهوته في حال شبيبته أعزه الله تعالى في حال كهولته.

وقيل للمهلب بن أبي صفرة: بم نلت ما نلت؟ قال: بطاعة الحزم وعصيان الهوى، فهذا في بداية الدنيا ونهايتها، وأما الآخرة فقد جعل الله سبحانه الجنة نهاية من خالف هواه، والنار نهاية من اتبع هواه.

السابع والأربعون: أن الهوى رق في القلب، وغل في العنق، وقيد في الرجل، ومتابعه أسير لكل سيئ الملكة، فمن خالفه عتق من رقه وصار حرًّا، وخلع الغل من عنقه والقيد من رجله وصار بمنزلة رجل سالم لرجل، بعد أن كان رجلاً فيه شركاء متشاكسون.

ربِّ مستور سَبَته شهوة فتعرى ستره فانهتكا

صاحبُ الشهوة عبد فإذا غلب الشهوة أضحى مَلِكا

وقال ابن المبارك:

ومن البلاء وللبلاء علامةٌ أن لا يُرى لك عن هواك نزوعُ

العبد عبد النفس في شهواتها والحر يشبع تارة ويجوع

الثامن والأربعون: أن مخالفة الهوى تقيم العبد في مقام من لو أقسم على الله لأبره، فيقضي له من الحوائج أضعاف ما فاته من هواه، فهو كمن رغب عن بعرة فأعطي عوضها درة، ومتبع الهوى يفوته من مصالحه العاجلة والآجلة والعيش الهنيء

ما لا نسبة لما ظفر به من هواه البتة، فتأمل انبساط يد يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ولسانه وقدمه ونفسه بعد خروجه من السجن لما قبض نفسه عن الحرام.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: رأيت سفيان الثوري - رحمه الله تعالى - في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: لم يكن إلا أن وضعت في لحدي حتى وقفت بين يدي الله تبارك وتعالى، فحاسبني حسابًا يسيرًا ثم أمر بي إلى الجنة، فبينا أنا أدور بين أشجارها وأنهارها لا أسمع حسًّا ولا حركة إذ سمعت قائلاً يقول: سفيان بن سعيد، فقلت: سفيان بن سعيد، فقال: تحفظ أنك آثرت الله ﷻ على هواك يومًا؟ قلت: إي والله، فأخذني النثار من كل جانب.

التاسع والأربعون: أن مخالفة الهوى توجب شرف الدنيا وشرف الآخرة، وعز الظاهر وعز الباطن، ومتابعته تضع العبد في الدنيا والآخرة وتذله في الظاهر وفي الباطن، وإذا جمع الله الناس في صعيد واحد نادى مناد: ليعلمن أهل الجمع من أهل الكرم اليوم، ألا ليقم المتقون، فيقومون إلى محل الكرامة، وأتباع الهوى ناكسو رءوسهم في الموقف في حر الهوى وعرقه وألمه، وأولئك في ظل العرش.

الخمسون: أنك إذا تأملت السبعة الذين يظلهم الله ﷻ في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى، فإن الإمام المسلط القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه، والشاب المؤثر لعبادة الله على داعي شبابه لولا مخالفة هواه لم يقدر على ذلك، والرجل الذي قلبه معلّق بالمساجد إنما حمله على ذلك مخالفة الهوى الداعي له إلى أماكن اللذات، والمتصدّق المُخفِي لصدقته عن شماله لولا قهره لهواه لم يقدر على ذلك، والذي دعته المرأة الجميلة الشريفة فخاف الله ﷻ وخالف هواه، والذي ذكر الله ﷻ خاليًا ففاضت عيناه من خشية الله، إنما أوصله إلى ذلك مخالفة هواه، فلم يكن لحر الموقف وعرقه وشدته سبيل عليهم يوم القيامة، وأصحاب الهوى قد بلغ منهم الحر والعرق كل مبلغ وهم ينتظرون بعد هذا دخول سجن الهوى، فالله سبحانه وتعالى المسئول أن يعيذنا من أهواء نفوسنا الأمارة بالسوء وأن يجعل هوانا تبعًا لما يحبه ويرضاه، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير» ا.هـ.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبعد حياةٍ حافلة بالعطاء والجهاد، معطّرة بالإخلاص ونور العلم، مضمّخة بعبير الصِّيام والقيام والزهد والورع.

مرض الحسن -رَحِمَهُ الله - مرض الموت، ولما حضرته الوفاةُ جعل يسترجع، فقام إليه ابنه فقال: يا أبت قد غَمَمتنا، فهل رأيت شيئًا؟ قال: هي نفسي لم أُصَب بمثلها.

ويُروى أنه أُغمي عليه ثُمَّ أفاق إفاقةً فقال: لقد نبهتموني من جنات وعيون، ومقام كريم، ثم صعدت الروح المباركة إلى السماء، مضمخة بعبير التقوى ومعطرة برائحة الإخلاص.

قال الإمام الذهبيُّ: مات في أول رجب، وكانت جنازته مشهورة، صَلَّوا عليه عقيب الجمعة بالبصرة، فشيّعهُ الخلق، وازدحموا عليه، حتى أن صلاة العصر لم تُقَم في الجامع.

رثاء وثناء:

قال أبو هلال: كنتُ عند قِتادة، فجاء الخبر بموت الحَسن، فقلتُ: لقد كان غُمس في العلم غَمسِة، قال قَتَادة: بل نبت فيه وتحقّبه وتشرَّبه، والله لا يُبغضه إلَّا حروريّ[1].

رحم الله الحسن البصري ورضي الله تَعَالى عنه.

✡✡✡✡✡

(١) الحرورية: فرقة من الخوارج.

الخطبة الثالثة والستون:

[أ] لقطات وعظات من حياة سَعيد بن المُسَيِّب

أفضل أنواع العبادة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنحن اليوم عَلَى موعد مع الإمام العَلَم سعيد بن المُسيِّب بن حَزن بن أبي وَهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة، أبو محمد القرشيّ المخزومي، عالمُ أهل المدينة، وسيِّد التابعين في زمانه.

عباد الله...

وُلد سعيد بن المسيِّب -رَحِمَهُ الله- لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب رَضِي الله عَنْهُ.

روى ابنُ سعد في «الطبقات»[١] عن سعيد بن المسيِّب قال: ولدتُ لسنتين مضتا مِن خلافة عُمر، وكانت خلافته عَشر سنين وأربعة أشهر.

رأى سعيد بن المسيِّب عمر، وسمع عثمان، وعليًّا، وزيد بن ثابت، وأبا موسى، وسعدًا، وعائشة، وأبا هريرة، وابن عباس وغيرهم.

وكان -رَحِمَهُ الله - رأسًا في العلم والعمل.

قال عليّ بن المدينيّ: لا أعلم في التابعين أحدًا أوسع عِلمًا من ابن المسيِّب، هو عندي أجلّ التابعين.

وقال الإمام مكحول الدمشقيّ: سعيد بن المسيِّب عالم العلماء.

وكان - رَحِمَهُ الله - يُفتي والصحابة أحياء، وهذا يدلُّ عَلَى علوِّ كعبه ورفعة منزلته.

حَجّ - رَحِمَهُ الله - أربعين حَجَّة، وكان من أشد النَّاس محافظة عَلَى صلاة الجماعة.

فعن أبي حرملة، عن سعيد بن المسيِّب قَالَ: ما فاتتني الصلاة في جماعة منذ أربعين سنة[٢]. وفي رواية قَالَ: ما أذَّنَ المؤذِّن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد، قَالَ الذهبي: إسناده ثابت.

ومع هذا الفضل الكبير، كان - رَحِمَهُ الله - يُكثر في مجلسه من قول: «اللَّهُمَّ سَلِّم سَلِّم».

وكان - رَحِمَهُ الله - من أصبر النَّاس عَلَى طلب العلم، فعن مالك قَالَ: قَالَ ابن المسيِّب: إن كنتُ لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد.

قلتُ: والعلم لا ينال براحة الجسد، كما قَالَ بعض السَّلف.

عباد الله...

ومِمَّا سبق يتبيَّن بجلاء علوّ همَّة سعيد بن المسيِّب - رَحِمَهُ الله - في العبادة، ومدى استعداده لآخرته.

---

(١) (٥/ ١٢٠)

(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ١٦٢).

وقبل أن نواصل الحديث عن مشوار حياته، أذكر مبحثًا هامًّا للإمام ابن القيِّم[١] - رَحِمَهُ الله - ذكر فيه «**أصناف النَّاس حول أفضل أنواع العبادات**» لاتصاله بما ذكرناه قبل قليل:

قال الإمام ابن القيم - رَحِمَهُ الله - تحت عنوان «أنواع العبادة وأصناف الناس فيها»:

ثم أهل مقام ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربعة طرق، فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: قالوا: أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النفوس وأصعبها، قالوا: لأنه أبعد الأشياء من هواها[٢]، وهو حقيقة التعبد، قالوا: والأجر على قدر المشقة، ورووا حديثًا لا أصل له: «أفضل الأعمال أحمرها»[٣]، أي: أصعبها وأشقها.

وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجور على النفوس، قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك، إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلى الأرض، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، واطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها، ثم هؤلاء قسمان:

فعوامهم: ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه، ودعوا الناس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة، فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم: رأوا أن المقصود بالزهد في الدينا هو عكوف القلب على الله، وجمع المهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته، فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله، ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

ثم هؤلاء (أي خواصهم) قسمان:

---

(١) من كتابه القيم «مدارج السالكين» (١/ ٨٥ - ٩٠).
(٢) أي: هوى النفس.
(٣) موضوع: أورده العجلوني في «كشف الخفاء» وذكر له شواهد، فانظره (١/ ١٥٥).

(١) **فالعارفون المتبعون منهم**: إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فَرَّقهم وأذهب جمعيتهم.

(٢) **المنحرفون** يقولون: المقصود من العبادة جمعية القلب على الله، فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه، وربما يقول قائلهم:

يُطالب بالأوراد من كان غافلاً فكيف بقلب كل أوقاته ورد؟

ثم هؤلاء أيضًا (أي المنحرفون) قسمان:

(١) منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته.

(٢) ومنهم من يقوم بها، ويترك السنن والنوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيته.

وسأل بعض هؤلاء شيخًا عارفًا فقال: إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله، فإن قمت وخرجت تفرقت، وإن بقيت على حالي بقيت على جمعيتي، فما الأفضل في حقي؟

فقال: إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم، وأجب داعي الله، ثم عد إلى موضعك، وهذا لأن الجمعية على الله، حظ الروح والقلب، وإجابة الداعي حق الرب، ومن آثر حظ روحه على حق ربه فليس من أهل ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾.

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعد، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر، فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل، فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي ﷺ: «**الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله**»[١].

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه وعمل النفاع متعد إلى الغير، وأين أحدهما من الآخر؟

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لأن يهدي الله بك رجلاً**

---

(١) **ضعيف جدًّا**: رواه أبو نعيم في «الحلية»، والخطيب في «تاريخ بغداد»، وذكره الهيثمي في «المجمع»، وأورده من طرق أخرى ولا تخلو من ضعف.

واحدًا خير لك من حُمر النعم»(١)، وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي، واحتجوا بقوله ﷺ: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينتقص من أجورهم شيء»**(٢)، واحتجوا بقوله ﷺ: **«إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير»**(٣)، وبقوله ﷺ: **«إن العالِم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر والنملة في جحرها»**(٤).

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله مادام نفعه الذي نسب إليه.

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب، ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس، ورأى هؤلاء التفرق في أمر الله ونفع عباده والإحسان إليهم أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته.

فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً القيام بحقه، والاشتغال به عن الوِرد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السَّحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار.

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٢٩٤٢).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم في «كتاب العلم» (١٦/ ٢٦٧٤).

(٣) **صحيح لغيره**: رواه الترمذي (٢٦٨٥)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٧٨)، وصححه الألباني.

(٤) **صحيح بشواهده**: صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٤٣)، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٣٧). وروى نحوه الدارمي في «سننه» (١/ ١٠٩) عن الحسن وسنده إلى الحسن صحيح.
وانظر أيضًا: «شرح السنة» للبغوي، تحقيق/ زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط (١/ ٢٧٨).

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من وِرده، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع، وإن بعد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذِكر دون الصوم المضعف على ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه، والأفضل خلطتهم في الخير فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر، فهي أفضل من خلطتهم فيه، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من عزلتهم.

فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقض وترك عبادته، فهو يعبد الله على وجه واحد.

وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبده عليها، فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى، فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره، فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العبّاد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم، فهذا هو العبد المطلق الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات، بل هو على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه ولذاتها في سواه، فهذا هو المتحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقًّا، القائم بهما صدقًا، ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد[1]، ولا يستولي عليه رسم[2]، حرٌّ مجرد، دائرٌ مع الأمر حيث دار، يدين بدين الأمر أنى توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوكها، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق من البين وتخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها، فواهًا له، ما أغْرَبَه بين الناس، وما أشدُّ وحشته منهم، وما أعظم أُنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه، والله المستعان وعليه التكلان». ا.هـ.

---

(١) من أوارد معينة، أو أدعية مرتبة، أو جماعة محدّدة.

(٢) من هيئة معينة، أو زيٍّ مخصوص.

عباد الله...

وبهذا الكلام الذي يُكتب بماء الذَّهب، نأتي إلى خِتام الخطبة الأولى، سائلًا المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التوفيق لطاعته.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وكان من صفة «سعيد بن المسيِّب» -رَحِمَهُ الله -: أنه كان يُمسك(١) المال ويقول: «اللَّهُمَّ إنك تعلم أني لم أمسكهُ بخلًا ولا حِرصًا عليه، ولا محبَّة للدنيا ونيل شهواتها، وإنَّما أريد أن أصون به وجهي عن بني مروان حتى ألقى الله فيحكم فيَّ وفيهم، وأصل منه رحمي، وأؤدي منه الحقوق التي فيه، وأعود منه عَلَى الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجار»(٢).

هذه هي نظرة المسلم العاقل للمال، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ﴾.

وعن عاصم بن العباس الأسديّ قَالَ: كان سعيد بن المسيِّب يُذكِّر ويُخوِّف، وسمعته يقرأ في الليل عَلَى راحلته فيكثر، وسمعتهُ يجهر بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، وكان يحب أن يسمع الشِّعر، وكان لا يُنشده، ورأيته وعليه بتّ(٣)، ورأيتهُ يُخفي شاربه شبيهًا بالحلق، ورأيتهُ يصافح كُلّ مَن لقيه، وكان يكره كثرة الضَّحكِ.

وعن عبيد بن نسطاس قال: رأيت سعيد بن المسيِّب يعتم بعمامة سوداء، ثم يرسلُها خَلفه، ورأيت عليه إزارًا وطيلسانًا وخُفَّين.

عباد الله...

لم تنته سيرة «سعيد بن المسيِّب» بعد، فللحديث بقيّة، فإلى اللقاء - إن شاء الله تَعَالَى.

---

(١) كان -رَحِمَهُ الله - يعمل بالتجارة.
(٢) «البداية والنهاية» (٦/ ٢٢٦).
(٣) البت: الطيلسان من خزّ ونحوه.

الخطبة الرابعة والستون:

[ب] لقطات وعظات من حياة سعيد بن المسيِّب

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد كان ابن المسيِّب -رَحِمَهُ الله- قويًا في الحق شديد التمسُّك به، وصفه عمران ابن عبد الله الخزاعيّ بقوله: والله ما أراه مَرَّ عَلَى أُذنه شيء قطّ إِلَّا وعاه قلبه، وإِنِّي أرى أَنَّ نفس سعيد كانت أهون عليه في ذات الله من نفس ذُباب[1].

وكان -رَحِمَهُ الله- مهابًا شجاعًا لا يخشى في الله لومة لائم.

(١) «الطبقات» لابن سعد (٥/ ١٢٢).

عن عليّ بن زيد أنه قيل لسعيد بن المسيِّب: ما شأن الحجَّاج[1]، لا يبعث إليك، ولا يُحرِّكك، ولا يؤذيك؟ قال: والله ما أدري، إلا أنه دخل ذات يومٍ مع أبيه المسجد، فصلَّى صلاةً لا يتم ركوعها ولا سجودها، فأخذتُ كفًّا من حصى فحصبتهُ بها.

زَعَم أن الحجَّاج قال: ما زلتُ بعدُ أُحسِن الصلاة.

قلتُ: أحسنَ الصلاة، وأساء العمل!!

عباد الله...

إن الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكر، فريضة شرعيَّة، وضرورة بشريّة، ولأهميته نفرد له هذه الخُطبة، والله المستعان، وعليه التكلان.

قال العلَّامة القاسميّ -رَحِمَهُ الله -: اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدِّين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طُوِيَ بُساطه وأهمل علمه وعمله لفشت الضلالة وشاعت الجهالة وخربت البلاد، وهلك العباد، فنعوذ بالله أن يندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وأن ينمحي بالكليلة حقيقته ورسمه، وأن تستولى على القلوب مداهنة الخلق وتنمحي عنها مراقبة الخالق، وأن يسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وأن يعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم، فلا معاذ إلا به ولا ملجأ إلَّا إليه.

هذا، وقَدْ أوجب الإسلام الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وحذَّر من إهماله وتركه:

دلّ عَلَى ذَلِكَ من الآيات قوله تَعَالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. ففي الآية بيان الإيجاب، فإن قوله تَعَالى: ﴿وَلْتَكُن﴾ أمر وظاهر الأمر الإيجاب، وفيها بيان أن الفلاح منوط به إذ حصر بقوله: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وفيها بيان أنهن فرض كفاية لا فرض عين وأنه إذا قام به أمة سقط أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين.

وقال تَعَالى: ﴿وَالْـمُؤْمِنُونَ وَالْـمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْـمَعْرُوفِ

(١) هو الحجّاج بن يوسف الثقفي، الظلوم الغشوم.

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١]، فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية.

وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]، وهذا غاية التشديد إذ علل استحقاقهم للعنة بتركهم النهي عن المنكر.

وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ بيّن أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، فبيَّن أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء، ويدل ذلك على الوجوب أيضاً.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [الحج: ٤١]، فقرن ذلك بالصلاة والزكاة في نعت الصالحين والمؤمنين.

وقال تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٢]، وهو أمر جزم ومعنى التعاون الحث عليه وتسهيل طرق الخير وسد سبل الشر والعدوان بحسب الإمكان.

وقال تعالى: ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ٦٣]، فبيَّن أنهم أثموا بترك النهي.

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ ﴾ [هود: ١١٦]، الآية فبين أنه أهلك جميعهم إلا قليلاً منهم كانوا ينهون عن الفساد.

وقال تَعَالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين.

وقال تعالى: ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وأما الأخبار: فمنها ما روي عن أبي بكر الصديق رَضِيَ الله عَنْهُ أنه قال في خطبة خطبها: «أيُّهَا النَّاس إنكم تقرءون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده**»[(١)]، وقَدْ روى في ذَلِكَ من الأحاديث ما لا يُحصى، وبهذه الأدلة يظهر كون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبًا، وأن فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به.

عباد الله...

وهناك شروط بها يتحقق التصدّي للإنكار:

الأول: كونه منكرًا، وهو ما كان محذور الوقوع في الشرع، ولفظ المنكر أدل عليه وأعم من لفظ المعصية، فإن مَن رأى صبيًّا أو مجنونًا يشرب الخمر فعليه أن يريق الخمر، وكذا إذا رأى مجنونًا يزني بمجنونة أو بهيمة فعليه أن يمنعه منه، وليس ذَلِكَ معصية في حق المجنون، ولا يختص المنكر بالكبائر بل كشف العورة في الحمام واتباع النظر للنسوة الأجنبيات كل ذَلِكَ من الصغائر ويجب النهي عنها.

الثاني: أن يكون المنكر ظاهرًا بغير تجسس. فكل من ستر معصية في داره وأغلق بابه لا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لتعرف المعصية ولا يتجسس عليه. وقد نهى الله تعالى عنه في قوله: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢]، وكذا لو رُئي فاسق وتحت ذيله شيء لم

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٢، ٥، ٧، ٩)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، والترمذي (٢١٦٨، ٣٠٥٧)، والنسائي في الكبرى (٦٦١٥ تحفة) عن أبي بكر الصديق، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٣٦).

يجز أن يُكشف عنه.

الثالث: أن يكون كونه منكر معلومًا بغير اجتهاد، فكل ما هو في محل الاجتهاد فلا نكران فيه. فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي ما هو من مجاري الاجتهاد - يعني المسائل المختلف فيها بين الأئمة - إذ لا يعلم خطأ المخالف قطعًا بل ظنًّا، فلابد أن يكون المنكر متفقًا عليه، وكذا إنَّما ينكر عَلَى الفرق المبتدعة في خطئهم المعلوم عَلَى القطع بخلاف الخطأ في مظان الاجتهاد.

عباد الله...

وهناك درجات للقيام بالإنكار:

الدرجة الأولى: التعريف، أي تعريف المزجور أن ما يفعله منكر، فإنه قَدْ يقدم عليه بجهله، فلعله إذا عرف أنه منكر تركه، فيجب تعريفه باللطف من غير عنف فإن في التعريف كشفًا للعورة وإيذاءً للقلب، فلابد وأن يعالج دفع أذاه بلطف الرفق، فتقول له: إن الإنسان لا يولد عالمًا، ولقد كنا جاهلين فعلّمنا العلماء فالصواب هو كذا وكذا، فيتلطّف به هكذا ليصل التعريف من غير إيذاء، فإن إيذاء المسلم حرام محذور، كما أن تقريره عَلَى المنكر محظور، وليس من العقلاء من يغسل الدم بالدم أو بالبول، ومن آذى بالإنكار فهذا مثاله.

الدرجة الثانية: النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى؛ وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكرًا، أو فيمن أصر عليه بعد أن عرف كونه منكراً، كالذي يواظب على الشرب أو على الظلم أو على اغتياب المسلمين أو ما يجري مجراه، فينبغي أن يوعظ ويخوف بالله تعالى وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد في ذَلِكَ، وتحكى له سيرة السلف وعبادة المتقين؛ وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب، بل ينظر إليه نظر المترحم عليه.

الدرجة الثالثة: التعنيف بالقول الغليظ، وذلك عند العجز عن المنع باللطف وظهور مبادئ الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام: ﴿**أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٦٧]، ولا يفحش في سبه، ولهذه الرتبة أدبان: **أحدهما**: أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن

اللطف. **والثاني**: أن لا ينطق إلا بالصدق ولا يسترسل فيه فيطيل لسانه بما لا يحتاج إليه بل يقتصر عَلَى قدر الحاجة.

الدرجة الرابعة: التغيير باليد؛ وذلك كإراقة الخمر وإتلاف المنكر المتمول أو دفعه عن محرم، وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع، وأما الإراقة والإتلاف فإلى الولاة ومأذونيهم كالضرب والحبس.

أيها المسلمون...

وللقائم بالأمر والنهي عدة آداب:

جملتها ثلاث صفات: العلم،والورع، وحسن الخلق.

أما العلم: فليعلم مواقع الأمر والنهي ليقتصر على حد الشرع فيه.

وأما الورع: فليردعه عن مخالفة معلومة ولا يحمله عَلَى مجاوزة الحد المأذون شرّعا غرض من الأغراض. وليكن كلامه ووعظه مقبولاً فإن الفاسق يهزأ به إذا أمر أو نهى ويورث ذلك جراءة عليه.

وأما حسن الخلق: فليتمكن به من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأساسه. والعلم والورع لا يكفيان فيه. فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه ما لم يكن في الطبع قبوله له بحسن الخلق. وبوجود هَذِهِ الصفات الثلاث يصير الإرشاد من القربات وبها تندفع المنكرات، وإن فقدت لم يندفع المنكر. وقَدْ حكي أن المأمون وعظه واعظ وعنف له في القول فقال: يا رجل ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق فقال تعالى: ﴿**فَقُولا لَـهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّـهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ [طه: ٤٤]، فليكن اقتداء المحتسب في الرفق بالأنبياء صلوات الله عليهم.

عباد الله...

ما هي المنكرات التي ينبغي إنكارها؟

هذا ما سوف نجيب عنه بعد قليل – إن شاء الله تَعَالَى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فهناك منكرات ينبغي إنكارها بالرّفق والموعظة الحسنة، ومراعاة البدء بالأخطر فالأخطر.

من هذه المنكرات:

(١) منكرات تمسّ الاعتقاد:

كالطواف حول الأضرحة، والاستغاثة بالموتى، وتجصيص القبور، والنَّذر لأصحابها.

(٢) منكرات المساجد:

اعلم أن المنكرات تنقسم إلى مكروهة ومحظورة، فإذا قلنا: هذا منكر مكروه. فاعلم أن المنع منه مستحب والسكوت عليه مكروه وليس بحرام، وإذا قلنا: منكر محظور، أو قلنا: منكر مطلقًا، فنريد به المحظور ويكون السكوت عليه مع القدرة محظورًا.

فمما يشاهد كثيرًا في المساجد: إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود، وهو منكر مبطل للصلاة بنص الحديث فيجب النهي عنه، ومن رأى مسيئًا في صلاته فسكت عليه فهو شريكه.

ومنها: قراءة القرآن ملحونة، يجب النهي عن ذلك وتلقين الصحيح. والذي يكثر اللحن في القرآن إن كان قادرًا على التعلم فليمنع من القراءة قبل التعلم فإنه عاص به.

ومنها: تراسل المؤذنين في الأذان وتطويلهم بمد كلماته. فكل ذلك منكر مكروه.

ومنها: كلام القصّاص والوعّاظ الذين يمزجون بكلامهم الكذب والأضاليل والخرافات. فيجب الإنكار عليهم.

ومنها: التحلّق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة والتعويذات، وكقيام السؤال وقراءتهم القرآن وإنشادهم الأشعار وما يجري مجراه، فكل ذَلِكَ منكر يمنعون منه.

ومنها بيع الأطعمة والأدوية والكتب وكذا الخياطة فيطلب المنع منه لأن المساجد لم تُبن لهذا.

ومنها: دخول المجانين - المعروفين الآن بالمجاذيب - والصبيان والسُّكارى فإنهم يُجنبون المساجد.

(٣) منكرات الأسواق:

من المنكرات المعتادة في الأسواق: الكذب في المرابحة، وإخفاء العيب. فمن قال: اشتريت هذه السلعة مثلاً بعشرة وأربح فيها كذا وكان كاذباً فهو فاسق. وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه، فإن سكت مراعاة لقلب البائع كان شريكاً له في الخيانة وعصى بسكوته. وكذا إذا علم به عيبًا فيلزمه أن ينبه المشتري عليه وإلا كان راضيًا بضياع مال أخيه المسلم وهو حرام، وكذا التفاوت في الذراع والمكيال والميزان يجب على كل من عرفه تغييره بنفسه أو رفعه إلى الوالي حتى يغيره.

ومنها: بيع الملاهي وبيع أشكال الحيوانات المصورة في أيام العيد لأجل الصبيان، فتلك يجب كسرها والمنع من بيعها كالملاهي وكذلك بيع الأواني المتخذة من الذهب والفضة وكذلك بيع ثياب الحرير، وقلانس الذهب والحرير أعني التي لا تصلح إلا للرجال، أو يعلم بعادة البلد أنه لا يلبسه إلا لرجال، فكل ذلك منكر محظور وكذلك من يعتاد بيع الثياب المبتذلة المقصورة التي يلبس على الناس بقصارتها وابتذالها ويزعم أنها جديدة فهذا الفعل حرام والمنع منه واجب، وكذلك تلبيس انخراق الثياب بالرفو وما يؤدي إلى الالتباس، وكذلك جميع أنواع العقود المؤدية إلى التلبيسات وذلك يطول إحصاؤه. فليقس بما ذكرناه ما لم نذكره.

(٤) منكرات الشوارع:

من المنكرات المعتادة فيها: وضع الخشب وأحمال الحبوب والأطعمة على الطريق، فكل ذلك منكر إن كان يؤدي إلى تضييق الطرق واستضرار المارة، وإن لم يؤدِّ إلى ضرر أصلاً لسعة الطريق فلا يمنع منه، نعم يجوز وضع الحطب وأحمال الأطعمة في الطريق في القدر الذي ينقل إلى البيوت، فإن ذلك يشترك في الحاجة إليه الكافة ولا يمكن المنع منه.

وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق وينجس المجتازين منكر يجب المنع منه إلا بقدر حاجة النزول والركوب. وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة والمرعى هو الحاجة التي تراد الشوارع لأجلها في العادة دون سائر الحاجات.

ومنها سوق الدواب وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس فذلك منكر إن أمكن شدها وضمها بحيث لا تمزق، أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع، وإلا فلا منع إذ حاجة أهل البلد تمس إلى ذلك. نعم لا تترك ملقاة على الشوارع إلا بقدر مدة النقل. وكذلك تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيقه منكر يجب منع الملاك منه.

وكذلك طرح القمامة على جواد الطرق، وتبديد قشور البطيخ. أو رش الماء بحيث يخشى منه التزلق والتعثر كل ذلك من المنكرات وكذلك إرسال الماء من الميازيب المخرجة من الحائط في الطريق الضيقة فإن ذلك ينجس الثياب. أو يضيق الطريق، فلا يمنع منه في الطرق الواسعة إذ العدول عنه ممكن فأما ترك مياه المطر والأوحال والثلوج في الطرق من غير كسح فذلك منكر، ولكن ليس يختص به شخص معين، إلا الثلج الذي يختص بطرحه على الطريق واحد، والماء الذي يجتمع على الطريق من ميزاب معين، فعلى صاحبه على الخصوص كسح الطريق، إن كان من المطر فذلك حسبة عامة فعلى الولاة تكليف الناس القيام بها، وليس للآحاد فيها إلا الوعظ فقط وكذلك إذا كان له كلب عقور على باب داره يؤذي الناس فيجب منعه منه.

(٥) منكرات الحمامات:

منها كشف العورات والنظر إليها. ومن جملتها: كشف الدلَّاك عن الفخذ وما تحت السرة لتنحية الوسخ، بل من جملتها: إدخال اليد تحت الإزار فإن مس عورة الغير حرام كالنظر إليها.

ومنها الانبطاح على الوجه بين يدي الدلَّاك لتغميز الأفخاذ والأعجاز، فهذا مكروه إن كان مع حائل، ولا يحرم إلا إذا خشي حركة الشهوة.

ومنها أن يكون في مداخل بيوت الحمام ومجاري مياهها حجارة ملساء مزلقة يزلق عليها الغافلون فهذا منكر، ويجب قلعه وإزالته، وينكر على الحمامي إهماله فإنه يفضي

إلى السقطة؛ وقد تؤدي السقطة إلى انكسار عضو أو انخلاعه، وكذلك ترك الصابون على أرض الحمام منكر؛ وفي الحمام أمور أخرى مكروهة.

(٦) منكرات الضيافة:

منها فرش الحرير للرجال فهو حرام.

وكذلك تبخير البخور في مجمرة فضة أو ذهب، أو الشراب في أواني الفضة.

ومنها سماع الأوتار أو سماع القينات (أي المغنيات).

ومنها أن يكون الطعام حراماً، أو كان الموضع مغصوبًا، ومنها أن يكون فيها مَن يتعاطى شرب الخمر فلا يجوز الحضور، وإن كان فيها مضحك بالحكايات وأنواع النوادر فإن كان يضحك بالفحش والكذب لم يجز الحضور، وعند الحضور يجب الإنكار عليه، وإن كان ذلك بمزح لا كذب فيه ولا فحش فهو مباح - أعني ما يقل منه - فأما اتخاذه صنعة وعادة فليس بمباح.

ومنها الإسراف في الطعام والبناء فهو منكر، بل في المال منكران؛ أحدهما: الإضاعة. والآخر: الإسراف.

فالإضاعة: تفويت مال بلا فائدة يعتد بها، كإحراق الثوب وتمزيقه، وهدم البناء من غير غرض. والقاء المال في البحر، وفي معناه صرف المال إلى النائحة والمطرب، وفي أنواع الفساد لأنها فوائد محرمة شرعًا فصارت كالمعدومة.

وأما الإسراف: فقد يطلق لإرادة صرف المال إلى النائحة والمطرب والمنكرات، وقد يطلق على الصرف إلى المباحات في جنسها ولكن مع المبالغة.

والمبالغة تختلف بالإضافة إلى الأحوال، قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿**وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا**﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**﴾ [الفرقان: ٦٧].

فمن لم يملك إلا مائة جنيهًا مثلاً ومعه عياله وأولاده ولا معيشة لهم سواه، فأنفق الجميع في وليمة، فهو مسرف يجب منعه، وكذلك لو صرف جميع ماله إلى نقوش

حيطانه؛ وتزيين بنيانه فهو أيضاً إسراف محرم، وأما فعل ذلك ممن له مال كثير فليس بحرام لأن التزيين من الأغراض الصحيحة، وكذلك القول في التجمل بالثياب والأطعمة فذلك مباح في جنسه، ويصير إسرافًا باعتبار حال الرجل وثروته.

(٧) منكرات العامة:

اعلم أن كل قاعد في بيته - أينما كان - فليس خاليًا من هذا الزمان عن منكر؛ من حيث: التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد فكيف في القرى والبوادي؟ فواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم، وكذا في كل قرية، وواجب على كل فقيه - فرغ من فرض عينه وتفرغ لفرض الكفاية - أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد ومن العرب ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم، فإن قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الباقين.

وبالجملة؛ فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يعلم ذلك أهل بيته، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهل محلته، ثم إلى أهل بلده، ثم إلى أهل السواد المكتنف ببلده، ثم إلى أهل البوادي، وهكذا إلى أقصى العالم، فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد وإلا حرج به على كل قادر عليه قريباً كان أو بعيداً[١].

عباد الله...

وبهذا القدر نأتي إلى ختام خطبة اليوم، وفي الخطبة القادمة نواصل الحديث عن سيرة سعيد بن المسيب- رحمه الله- فإلى اللقاء إن شاء الله تَعَالَى.

✿✿✿✿✿

---

(١) موعظة المؤمنين من «إحياء علوم الدين» (٢٢٢ - ٢٣٠).

الخطبة الخامسة والستون:

[جـ] لقطات وعظات من حياة سعيد بن المسيِّب

درر عن مواعظه، ولآلئ من مواقفه

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

نستكمل اليوم - إن شاء الله - الحديث عن «**سعيد بن المسيِّب**» -رَحِمَهُ الله - ونتعرف معًا عَلَى دُرر مِن مواعظه، ولآلئ من مواقفه.

فمن مواقف «**سعيد بن المسيِّب**» -رَحِمَهُ الله - التي تجلَّى فيها ثباتُهُ، وبان فيها زُهدهُ، وصيانتهُ للأمانة، وحُبُّه للدِّين، واقترانُ العلم بالعمل، هذا الموقف:

عن أبي بكر بن أبي داود قال: كانت بنتُ سعيد قد خطبها عبد الملك لابنه الوليد،

فأبى عليه، فلم يزل يحتالُ عبد الملك عليه حتى ضربهُ مائة سوط في يوم بارد، وصبّ عليه جرّة ماء، وألبسه جُبَّة صوف!! كل ذلك وسعيد يرفض حتى يئس عبد الملك فصرف نظره عن ذلك.

ثم ماذا؟

يقول كثير بن أبي وداعة[١]: «كنت أجالس سعيد بن المسيِّب، ففقدني أيامًا، فلما جئته قال: أين كنت؟ قلت: تُوفِّيت أهلي فاشتغلت بها، فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها، ثم قال: هل استحدثت امرأة؟ فقلتُ: يرحمك الله، ومَنْ يَزوجني وما أملك إلَّا درهمين أو ثلاثة؟ قال: أنا.

فقلتُ: وتفعل؟ قال: نعم، ثم تحمد، وصلى على النبي ﷺ، وزوجني على درهمين - أو قال: ثلاثة - فقمتُ وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرتُ إلى منزلي وجعلتُ أتفكر فيمن أستدين.

فصليت المغرب، ورجعت إلى منزلي، وكنت وحدي صائمًا، فقدمت عشائي أفطر، وكان خبزًا وزيتًا، فإذا بابي يقرع، فقلت: من هذا؟ فقال: سعيد.

فأفكرت في كل من اسمه سعيد إلا ابن المسيِّب، فإنه لم ير أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد، فخرجت، فإذا سعيد، فظننت أنه قد بدا له[٢]، فقلت: يا أبا محمد ألا أرسلت إلَيَّ فآتيك؟ قال: لا، أنت أحق أن تؤتى، إنك كنت رجلاً عزبًا فتزوجت، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك!!.

فإذا هي قائمة من خلفه في طوله، ثم أخذ بيدها فدفعها في الباب، ورد الباب.

فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب[٣]، ثم وضعت القصعة في ظل السراج لكي لا تراه، ثم صعدت إلى السطح فرميت الجيران، فجاؤوني فقالوا: ما شأنك؟ فأخبرتهم.

---

(١) هو كثير بن عبد المطلب بن أبي وداعة، أبوه أحد مُسلمة الفتح، وكان كثير -رَحِمَهُ الله - من عباد الله الصالحين.

(٢) أي: ظهر له أن يَصرف النظر عن هذا الزواج.

(٣) **استوثق من الباب**: أي أحكم غلقه.

ونزلوا إليها، وبلغ أمي، فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام، فأقمت ثلاثا، ثم دخلت بها، فإذا هي من أجمل الناس، وأحفظ الناس لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحق زوج.

فمكثت شهرًا لا آتي سعيد بن المسيِّب، ثم أتيته وهو في حلقته، فسلمت، فرد علي السلام ولم يكلمني حتى تقوض المجلس[1]، فلما لم يبق غيري قال: ما حال ذلك الإنسان؟ قلت: خير يا أبا محمد، على ما يحب الصَّديق، ويكره العدو.

قال: إن رابك شيء، فالعصا، فانصرفت إلى منزلي، فوجه إلي بعشرين ألف درهم»[2].

هذا موقف يكتب بماء الذَّهب، ما أحوجنا اليَّوم إلى مثل هَذِهِ المواقف، التي توقف مدّ تيار المادة الطاغي، فلقد ساء الاختيار، وهُدمت بيوت كثيرة، بسبب سوء الاختيار.

عباد الله...

أين نحنُ من قول الله تَعَالَى: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّـهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّـهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

أين نحنُ من قول النبيّ ﷺ: «**أيسرهنَّ مهورًا أكثرهنَّ بركة**»[3].

لقد تقدم الحديث عن المهور وحث الإسلام عَلَى تيسيرها بما يُغني عن الإعادة، وما بقي ترجمة الأقوال إلى أفعال.

أيُّها المسلمون...

لقد كانت مواعظُ سلفِنا الصَّالح تدقُّ عَلَى أوتار القلوب، فكم كانت سببًا في هداية الضالين، وتوبة المذنبين، وعودة الشاردين، وإيقاظ الغافلين.

وإليكم طرفًا من مواعظ الإمام سعيد بن المسيِّب - رَحِمَهُ الله - والتي وإن دلَّت عَلَى شيء فإنَّما تدلُّ عَلَى: عمق فهمه، وعلوِّ شأنه، وإخلاصه.

---

(١) تقوّض المجلس: انصرف النَّاس عنه.
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٣٣، ٢٣٤).
(٣) صحيح: رواه أحمد والبيهقي.

- عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيِّب، قال: ما أيس الشيطان من شئ إلا أتاه من قبل النساء.

ثم قال لنا سعيد – وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى–: ما شيء أخوف عندي من النساء!!

- وعنه – رَحِمَهُ الله – قَالَ: لا تقولوا مُصَيحف، ولا مُسَيجِد، ما كان لله فهو عظيمٌ حَسَنٌ جميل.
- وعنه قَالَ: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حِلِّه، يُعطي منه حَقَّه، ويكفُّ به وجههُ عن النَّاس.

قلت: ألا يقرأ أعداء الإسلام الذين اتهموا الإسلام بأنه يدعو إلى البطالة والفقر هذا الكلام؟ أم أن حقدهم الدفين عَلَى الإسلام وأهله أصمَّهم وأعمى أبصارهم؟!

- ويذكر لنا عبّاد بن يحيى: أن سعيد بن المسيِّب خلَّف ألفين أو ثلاثة آلاف، وكان يقول: ما تركتُها إلَّا لأصون بها ديني!!
- وكان – رَحِمَهُ الله – يقول: لا تملؤوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار من قلوبكم، لكي لا تحبط أعمالكم الصالحة.
- وكان يقول: من استغنى بالله افتقر النَّاس إليه.

كلماتٌ قليلة المبنى... ولكنها عظيمة المعنى.

فما أحلاها من كلمات... لو كان بالقلوب حياة.

اللَّهُمَّ عَلِّمنا ما جَهِلنا، وانفعنا بما علمتنا.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبعد حياة حافلة بالعطاء، مرض سعيد –رَحِمَهُ الله – مرض الموت، واشتد عليه

المرض فأقعده عن القيام.

- عن عبدالرحمن بن حرملة، قال: دخلتُ على سعيد بن المسيِّب وهو شديدُ المرض، وهو يُصَلِّي الظهر، وهو مُستلقٍ يومئ إيماءً، فسمعتهُ يقرأ بالشمس وضحاها. واشتدت عليه سكرات الموت فكان يُغمى عليه، ثم يفيق مرات.
- عن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي، قال: اشتد وجع سعيد بن المسيِّب، فدخل عليه نافع بن جُبير يَعُوده، فَأُغمي عليه فقال نافع: وجِّهوه[1]. ففعلوا، فأفاق، فقال: مَن أمركم أن تُحَوِّلوا فراشي إلى القبلة، أنافع؟ قال: نعم. قال له سعيد: لئن لم أكن على القبلة والملة والله لا ينفعني توجيهكم فراشي.
- وأوصى - رَحِمَهُ الله - أن لا يتبعه راجزٌ ولا نارٌ، وأن يعجِّلوا به، وقال: فإن يكن لي عند الله خير، فهو خيرٌ مِمَّا عندكم!!

وخرجت الرُّوح الطيِّبة ملبية نداء ربِّها.

يقول عبد الحكيم بن عبد الله بن أبي فروة: شهدتُ سعيد بن المسيِّب يوم مات سنة أربع وتسعين، فرأيتُ قَبرهُ قَدْ رش عليه الماء!!

وكان يقول لهذه السنة «سنة الفقهاء» لكثرة مَن مات منهم فيها.

رَحم الله سعيد بن المسيِّب رحمة واسعة.

✿✿✿✿✿

(١) أي إلى القبلة.

الخطبة السادسة والستون:

[أ] لقطات وعظات من حياة: هَرِم بن حيَّان

أهمية صلاح القلوب

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنحن اليوم مع الإمام العابد «هَرِمُ بن حيَّان» العبديّ البصريّ، أحد العابدين، أدرك زمن الصحابة، وولي بعض الحروب في أيام عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان -رضي الله عنهما- ببلاد فارس.

قال ابن سعد: كان عاملًا لعمر، وكان ثقة، له فضلٌ وعبادة[١].

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٧/ ١٣١).

وفي «الحلية» ذكر أبو نعيم - رَحِمَهُ الله - عن مطر الورَّاق قَالَ: بات هَرِم بن حيَّان العبدي عند حممة[1] صاحب رسول الله ﷺ قال: فبات حممة ليلته يبكي كلّها حتى أصبح، فلما أصبح قال له هَرِم: يا حممة ما أبكاك؟ قال: ذكرتُ ليلة صبيحتها تبعثر القبور فتُخرج مَن فيها، وتناثر نجوم السَّماء، فأبكاني ذَلِكَ.

قَالَ: وكانا يصطحبان أحيانًا بالنهار فيأتيان سوق الريحان فيسألان الله تَعَالى الجَنَّة ويدعوان، ثم يأتيان الحدَّادين فيتعوّذان من النار، ثم يفترقان إلى منازلهما.

ولما ولَّاه عمر بن الخطاب رَضِيَ الله عَنْهُ عَلَى بعض الولايات، ظنَّ أن قومه سيأتونه، فأمر بنار فأوقدت بينه وبين من يأتيه من القوم، فجاءه قومه يسلمون عليه من بعيد، فقال: مرحبًا بقومي ادنوا، قالوا: والله ما نستطيع أن ندنو لقد حالت النار بيننا وبينك، قال: وأنتم تريدون أن تلقوني في نار أعظم منها، في نار جهنم، قال: فرجعوا.

وقَالَ الحسن: أن هَرِم بن حيَّان كان على بعض تلك المغازي - أي أميرًا - فاستأذنه رجل وهو يرى أنه يستأذنه لبعض الحوائج، فلحق بأهله فلبث ما لبث ثم جاء فقال له: أين كنت؟ قال: استأذنتك يوم كذا فأذنت لي، قال: فأردت ذلك لك؟ قال: نعم، قال أبو الأشهب: فبلغني أنه قال لذلك الرجل قولاً شديدًا ولم يكلمه أحد من جلسائه بحيث رأوا غضبه وهو يقول لأخيه ما يقول، فقال لهم: جزاكم الله شرًّا، تَروني أقول لأخي ما أقول ولم ينهني أحدٌ منكم عن ذلك، اللَّهُمَّ خلّف رجال السوء لزمان السوء.

عباد الله...

وكان هِرَم - رَحِمَهُ الله - إذا ذُكر الحساب أو النَّار أو الوقوف بين يديّ الله وجل قلبه، واضطربت مفاصله، وارتعدت فرائصه، ومنعه ذِكر ذَلِكَ من النَّوم.

يقول المعَلِّي بن زياد: كان هِرَمُ يخرج في بعض الليل وينادي بأعلى صوته، عجبت من الجنة كيف ينام طالبُها؟ وعجبتُ من النار كيف نام هاربُها؟ ثم يقول: ﴿**أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ**﴾ [الأعراف: ٩٧]، ثم يقرأ ﴿**والعَصر**﴾، و﴿**ألهاكُمُ**﴾ ثم يرجع إلى أهله.

---

(١) **حممة**: هو خادم النبي ﷺ.

وقال الحسن: خرج هَرِم بن حيَّان وعبد الله بن عامر كُرَيز، فجعل أعناق رواحلهما تخالجان الشجر، فقال هرم لابن عامر: أيسُّرك أنك شجرة من هذه الشجر؟ (أي لتنجو من الحساب) فقال ابن عامر: لا والله، إنا لنرجو من رحمة الله ما هو أوسع من ذلك، قال له هرم وكان أفقه الرجلين وأعلمهما بالله: لكني والله لوددت أني شجرة من هذه الشجر قد أكلتني هذه الراحلة ثم قذفتني بعرًا ولم أكابد الحساب يوم القيامة، إما إلى الجنة وإما إلى النار، ويحك يا ابن عامر إني أخاف الداهية الكبرى.

فهذان رجلان من الأبرار يختلف اتجاههما النفسيّ، فينزع أحدهما إلى الرجاء في رحمة الله نزوعًا لا ينسيه قطعًا مشاعر التوقير لحساب الله، وينزع الآخر إلى الخوف الشديد من الله، دون أن ينسى أيضًا أن الله تَعَالى كتب عَلَى نفسه الرحمة، ولكنهما معًا في هذا التباين لم يذهبا بعيدًا عن كتاب الله ولا عن سُنَّة رَسُول الله ﷺ ولا عن العلم الحق الذي منه ينهلون، فمنهجهم مختلف، ولكنه في الحقيقة متفق، ومتعدد، لكنه في الحقيقة واحد[1].

عباد الله...

ومن وثيق عباراته ودقيق إشاراته - رَحِمَهُ الله -:

- إذا أخلص العبد لله، أنبت الله تَعَالى الحكمة في قلبه وأجراها عَلَى لسانه، فينتفع بها، وينفع بها. وقَدْ كان هَرِم من هذا الصنف الكريم.
- ما أقبل عبدٌ بقلبه إلى الله، إلَّا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حَتَّى يرزقه وُدُّهم.

أيُّهَا المسلمون...

وعند هذا القول الجميل نقف قليلًا.

نعم يا سيِّدي، ما أقبل عبدٌ بقلبه عَلَى الله إلَّا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حَتَّى يرزقه وُدّهم.

إن القلب - يا مسلمون - محلّ نظر الرَّب، فاحذروا أن ينظر الله في قلب أحدكم

---

(١) «الموعد لله» (٧٢).

فيرى فيه ما يكره.

واعلموا أن هناك مفسدات للقلب فاحذروها.

ما هي مفسدات القلب؟

قَالَ الإمامُ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله -: «وأما مفسداتُ القلب الخمسةُ فهي: كثرة الخلطة، والتمنِّي، والتعلق بغير الله، والشِّبع، والمنام، فهذه الخمسةُ من أكبر مفسداتِ القلب.

المفسد الأول: كثرة المخالطة:

فأما ما تؤثِّره كثرةُ الخلطة: فامتلاء القلب من دُخَانِ أنفاس بني آدم حَتَّى يسوَّدّ، ويوجب له تشتتًا وتفرقًا وهمًّا وغمًّا، وضعفًا، وحملًا لَـمَّا يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتَقَسُّم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم، فماذا يبقى مِنه الله والدار الآخرة؟

هذا؛ وكم جلبت خلطةُ النَّاس مِن نقمةٍ، ودفعت من نعمةٍ، وأنزلت من محنةٍ، وعطَّلت من منحةٍ، وأحلَّت من رزيةٍ، وأوقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا النَّاس؟

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض - تنقلب إذا حقَّت الحقائق عداوة، ويعض المخلط عليها يديه ندمًا، كما قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي**﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩]، وقال تعالى: ﴿**الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿**إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ [العنكبوت: ٢٥].

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير - كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة - ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات.

فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر أن يوافقهم، وليصبر على أذاهم، فإنهم لابد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر، ولكن أذى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين، وموافقتهم يعقبها ذُلٌّ وبُغضٌ له، ومقتٌ، وذمٌّ منهم ومن المؤمنين، ومن ربِّ العالمين، فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مآلاً.

وإن دعت الحاجة إلى خُلطتهم في فضول المباحات، فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة الله، إن أمكنه.

المُفسد الثاني من مفسدات القلب: ركوبُه بحر التمنِّي:

وهو بحرٌ لا ساحلَ له، وهو البحر الذي يركبه مفاليسُ العالم، كما قيل: إن المنى رأسُ أموالِ المفاليس، فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة، والخيالات الباطلة، تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلابُ بالجيفة، وهي بضاعة كلّ نفسٍ مهينة خسيسة سفلية، ليست لها همّة تنال بها الحقائق الخارجية، بل اعتاضت عنها بالأمانيِّ الذهنيّة، وكلٌّ بحسب حاله: من متمنٍ للقدوة والسلطان، وللضرب في الأرض والطواف في البلدان، أو للأموال والأثمانِ، أو للنسوان والمردان، فيمثل المتمني صورة مطلوبه في نفسه وقَدْ فاز بوصولها، والتَذَّ بالظفر بها، فبينما هو عَلَى هذا الحال، إذا استيقظ فإذا يده والحصير.

وصاحب الهمة العليّة أمانيه حائمة حول العلم والإيمان، والعمل الذي يقرّبه إلى الله، ويدنيه من جواره، فأماني هذا إيمان ونور وحكمة، وأماني أولئك خِدَعٌ وغرور.

وقَدْ مدح النبيّ ﷺ متمنِّي الخيرِ، وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعِله.

المفسد الثالث من مفسدات القلب: التعلّق بغير الله تبارك وتعالى:

وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق، فليس عليه أضر من ذلك، ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله ﷻ، بتعلقه بغيره، والتفاته إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَـهُمْ عِزًّا ۞ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّـهُمْ يُنصَرُونَ ۞ لاَ يَسْتَطِيعُونَ

﴿نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥].

فأعظم النَّاس خذلانًا مَن تعلَّق بغير الله، فإنَّ ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مِمَّا حصل له ممن تعلَّق به، وهو مُعَرّض للزوال والفوات، ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظلِّ من الحرِّ والبرد ببيتِ العنكبوت، أوهن البيوتِ.

وبالجملة: فأساسُ الشِّرك وقاعدتُهُ التي بُني عليها: التعلَّق بغير الله، ولصاحبه الذَّمُّ والخذلانُ، كما قال تَعَالَى: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، ﴿مَذْمُومًا﴾ لا حامد لك، ﴿مَّخْذُولًا﴾ لا ناصر لك.

المفسد الرابع من مفسدات القلب: الطَّعام:

والمفسد له من ذَلِكَ نوعان:

أحدهما: ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات، وهي نوعان:

محرَّمات لحقِّ الله: كالميتة والدم، ولحم الخنزير، وذي الناب من السباع والمخلب من الطير.

ومحرَّمات لحقِّ العباد: كالمسروق والمغصوب والمنهوب، وما أُخذ بغير رضا صاحبه، إمَّا قهرًا وإمَّا حياءً وتذممًا.

والثاني: ما يفسده بقدره وتعدي حدِّه، كالإسراف في الحلال، والشِّبع المفرط، فإنه يُثقِّلُه عن الطاعات، ويشغله بمزاولة مؤنَةِ البِطنَةِ ومحاولتها حَتَّى يظفر بها، فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرُّفِها ووقايةِ ضررها، والتأذي بثقَلِها، وقوّى عليه موادَّ الشهوة، وطَرَّقَ مجاري الشيطان ووسّعها، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فالصومُ يضيِّقُ مجاريه ويسدُّ طرقه، والشبع يُطَرِّقُها ويوسِّعُها، ومَن أكل كثيرًا شرب كثيرًا، فنام كثيرًا فخسر كثيرًا، وفي الحديث المشهور: «**مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ حَسْبُ الآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ غَلَبَتْ الآدَمِيَّ نَفْسُهُ فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ**»[1].

المفسد الخامس: كثرة النَّوم:

فإنه يميتُ القَلب، ويثقِّل البَدن، ويضيّعُ الوقتَ، ويورث كثرةَ الغفلةِ والكسل،

---

(١) رواه الترمذي وأحمد والحاكم وصححه الألباني.

ومنه المكروه جدًّا، ومنه الضَارّ غير النافع للبدن، وأنفعُ النوم ما كان عند شدة الحاجة إليه، ونومُ أولِ الليل أحمدُ وأنفعُ من آخره، ونومٌ وسط النهار أنفعُ من طرفَيه، وكلما قرب النومُ من الطرفين قلَّ نفعُه، وكثر ضررهُ، ولاسيما نومُ العَصرِ، والنومُ أولُ النهار إلا لِسَهرانَ.

ومن المكروه عندهم: النَّوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس، فإنه وقتُ غنيمة، وللسير ذَلِكَ الوقت عند السالكين مزيةٌ عظيمة حَتَّى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذَلِكَ الوقت حَتَّى تطلع الشمسُ، فإنه أولُ النهار ومفاتحهُ، ووقتُ نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلولِ البركة، ومنه ينشأ النهار، وينسحبُ حكم جميعه عَلَى حكم تلك الحِصَّةِ، فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر.

وبالجملة؛ فأعدل النوم وأنفعه نومُ نصف الليل الأول، وسدسُه الأخير، وهو مقدار ثماني ساعات، وهذا أعدلُ النوم عند الأطباءِ، وما زاد عليه أو نقص منه أثَّر عندهم في الطبيعة انحرافًا بحسبه.

ومن النوم الذي لا ينفع أيضًا: النوم أول الليل، عقيب غروب الشمس، حَتَّى تذهب فحمةُ العشاء، وكان رسول الله ﷺ يكرهه، فهو مكروه شرعًا وطبعًا، والله المستعان» ا.هـ.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فاجتنبوا – عباد الله – هذه المفسدات.

واعلموا أن القلب الناجي يوم القيامة هو القلب السَّليم.

قال تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء: ٨٨، ٨٩].

قَالَ العلَّامة عبد الرحمن بن ناصر السَّعديّ – رَحِمَهُ الله – في تفسيره لهاتين الآيتين:

«والقلب السليم معناه: الذي سلم من الشِّرك، والشَّك، ومحبّة الشَّر، والإصرار عَلَى البدعة والذنوب، ويلزم من سلامته مِمَّا ذكر، اتِّصافه بأضدادها، من الإخلاص والعلم واليقين ومحبّة الخير، وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله، وهواها تبعًا لما جاء عن الله» ا.هـ[1].

عباد الله...

وللحديث عن القلب بقيّة - إن شاء الله تَعَالى - فإلى اللِّقاء.

۞۞۞۞۞

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان» (٥٩٣).

الخطبة السابعة والستون:

[ب] لقطات وعظات من حياة هِرَم بن حيَّان

أهمية صلاح القلوب

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد ذكرنا في الخطبة السابقة «مفسدات القلب الخمسة»، وذلك في معرض حديثنا عن سيرة العبد الصالح والتابعي الجليل «هَرِم بن حيَّان».

عباد الله...

وإتمامًا للفائدة، نذكر في هَذِهِ الخطبة - إن شاء الله - «أسباب شرح الصُّدور» والله الموفق، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه.

قَالَ الإمام ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله -: أعظم أسباب شرح الصَّدر:

(١) التوحيد، وعلى حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراحُ صدر صاحبه، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿**أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ**﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تَعَالَى: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فالهُدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه.

(٢) ومنها: النور الذي يقذفه الله في قلب العبد، وهو نور الإيمان، فإنه يشرح الصدر ويوسعه، ويفرح القلب، فإذا فقد هذا النور من قلب العبد، ضاق وحرج، وصار في أضيق سجن وأصعبه.

وقد روى الترمذي في «جامعه» عن النبي ﷺ، أنه قال: «**إذا دخل النور القلب، انفسح وانشرح**»، قالوا: وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله**»[1]، فيصيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور، وكذلك النور الحسي، والظلمة الحسية، هذه تشرح الصدر، وهذه تضيقه.

(٣) ومنها: العلم، فإنه يشرح الصدر، ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا، والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس، فكلما اتسع علم العبد، انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل علم، بل للعلم الموروث عن الرسول ﷺ وهو العلم النافع، فأهله أشرح الناس صدرًا، وأوسعهم قلوبًا، وأحسنهم أخلاقًا، وأطيبهم عيشًا.

(٤) ومنها: الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، ومحبته بكل القلب، والإقبال عليه، والتنعم بعبادته، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك، حتى إنه ليقول أحيانًا: إن كنت في الجنة في مثل هذه الحالة، فإني إذًا في عيش طيب، وللمحبة تأثير عجيب في انشراح

(١) قَالَ ابن كثير: روي من طُرق يشدّ بعضها بعضًا.

الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلا من له حس به، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد، كان الصدر أفسح وأشرح، ولا يضيق إلا عند رؤية البطالين الفارغين من هذا الشأن، فرؤيتهم قذى عينه، ومخالطتهم حمى روحه.

ومن أعظم أسباب ضيق الصدر: الإعراضُ عن الله تعالى، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه، فإن من أحب شيئا غير الله، عذب به، وسجن قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسف بالاً، ولا أنكد عيشًا، ولا أتعب قلبًا، فهما محبتان:

محبة هي جنة الدنيا، وسرور النفس ولذة القلب، ونعيم الروح، وغذاؤها، ودواؤها، بل حياتها وقرة عينها، وهي محبة الله وحده بكل القلب، وانجذاب قوى الميل، والإرادة، والمحبة كلها إليه.

ومحبة هي عذاب الروح، وغم النفس، وسجن القلب، وضيق الصدر، وهي سبب الألم والنكد والعناء وهي محبة ما سواه سبحانه.

(٥) **ومن أسباب شرح الصدر**: دوامُ ذكره على كل حال، وفي كل موطن، فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر، ونعيم القلب، وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه.

(٦) ومنها: الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال، والجاه، والنفع بالبدن، وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرًا، وأنكدهم عيشًا، وأعظمهم همًّا وغمًّا، «وقد ضرب رسول الله ﷺ في «الصحيح» مثلاً للبخيل والمتصدق، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد، كلما هم المتصدق بصدقة، اتسعت عليه وانبسطت، حتى يجر ثيابه ويعفي أثره، وكلما هم البخيل بالصدقة، لزمت كل حلقة مكانها، ولم تتسع عليه»، فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق، وانفساح قلبه، ومثل ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه.

(٧) ومنها: الشجاعة، فإن الشجاع منشرح الصدر، واسع البطان، متسع القلب،

والجبان: أضيق الناس صدرًا، وأحصرهم قلبًا، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له، ولا نعيم إلا من جنس ما للحيوان البهيمي، وأما سرور الروح، ولذتها ونعيمها، وابتهاجها، فمحرم على كل جبان، كما هو محرم على كل بخيل، وعلى كل معرض عن الله سبحانه، غافل عن ذكره، جاهل به وبأسمائه تعالى وصفاته، ودينه، متعلق القلب بغيره، وإن هذا النعيم والسرور، يصير في القبر رياضًا وجنة، وذلك الضيق والحصر، ينقلب في القبر عذابًا وسجنًا، فحال العبد في القبر، كحال القلب في الصدر، نعيمًا وعذابًا وسجنًا وانطلاقًا، ولا عبرة بانشراح صدر هذا لعارض، ولا بضيق صدر هذا لعارض، فإن العوارض تزول بزوال أسبابها، وإنما المعول على الصفة التي قامت بالقلب توجب انشراحه وحبسه، فهي الميزان والله المستعان.

(٨) **ومنها بل من أعظمها**: إخراج دغل القلب من الصفات المذمومة التي توجب ضيقه وعذابه، وتحول بينه وبين حصول البرء، فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرح صدره، ولم يخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه، لم يحظ من انشراح صدره بطائل، وغايته أن يكون له مادتان تعتوران على قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما.

(٩) **ومنها**: ترك فضول النظر، والكلام، والاستماع، والمخالطة، والأكل، والنوم، فإن هذه الفضول تستحيل آلامًا وغمومًا، وهمومًا في القلب، تحصره وتحبسه، وتضيقه، ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها، فلا إله إلا الله ما أضيق صدر من ضرب في كل آفة من هذه الآفات بسهم، وما أنكد عيشه وما أسوأ حاله، وما أشد حصر قلبه، ولا إله إلا الله، ما أنعم عيش من ضرب في كل خصلة من تلك الخصال المحمودة بسهم، وكانت همته دائرة عليها، حائمة حولها، فلهذا نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ**﴾ [الانفطار: ١٣] ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ [الانفطار: ١٤]، وبينهما مراتب متفاوتة لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى.

والمقصود: أن رسول الله ﷺ كان أكمل الخلق في كل صفة يحصل بها انشراح الصدر، واتساع القلب، وقرة العين، وحياة الروح، فهو أكمل الخلق في هذا الشرح والحياة، وقرة العين مع ما خصَّ به من الشرح الحسي، وأكمل الخلق متابعة له أكملهم

انشراحًا ولذة وقرة عين، وعلى حسب متابعته ينال العبد انشراح صدره، وقرة عينه، ولذة روحه ما ينال، فهو ﷺ في ذروة الكمال من شرح الصدر، ورفع الذكر، ووضع الوزر، ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتباعه، والله المستعان.

وهكذا، لأتباعه نصيب من حفظ الله لهم، وعصمته إياهم، ودفاعه عنهم، وإعزازه لهم، ونصره لهم، بحسب نصيبهم من المتابعة، فمستقل، ومستكثر، فمن وجد خيرًا، فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه». ا.هـ.

عباد الله...

ونواصل الحديث عن مواعظ هَرِم بن حيَّان وأقواله:

- عن أبي عمران الجوني، عن هرم بن حيَّان، قال: إيَّاكم والعَالِمِ الفاسق. فبلغ عمر، فكتب إليه - وأشفق منها -: مَنْ العالمُ الفاسق؟ فكتب: ما أردتُ إلَّا الخير، يكونُ إمامٌ ويتكلم بالعلم، ويعمل بِالفِسق، ويُشبِّه على الناس، فيضلوا.
- وكان - رَحِمَهُ الله - يقول: اللَّهُمَّ إنِّي أعوذ بك من شرِّ زمان تمرد فيه صغيرُهم، وتآمر فيه كبيرُهم، وتقرَّب فيه آجالهم.
- وكان - رَحِمَهُ الله - إذا رأى أهله يكثرون الضَّحك أمرهم بالصَّلاة.
- وكان يقول: إذا قيل لي إني من أهل النار لم أدع العمل، لئلا تلومني نفسي فتقول: ألا صنعت؟ ألا فعلت؟

كلام طيِّب، يسوق النَّفس إلى الله سَوقًا، ويدفع إلى عمل الصالحات دَفعًا.

فرحم الله سلفنا الصالح، وجعلني وإيَّاكم مِمَّن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبعد حياة حافلة بالعبادة والذِّكر، أدركت الوفاة هَرِم بن حيَّان، وقبل سفر الرُّوح

الطيِّبة إلى ربِّها، أوصى بوصايا مهمّة:

عن قَتَادة قال: ذُكر لنا أن هَرِم بن حيَّان لما حضره الموتُ قيل له: أوص، قال: ما أدري ما أوصي،ولكن بيعوا دِرعي فاقضوا عنِّي دَيني، فإن لم يف فبيعوا غلامي، وأوصيكم بخواتيم النحل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٥- ١٢٨].

عباد الله...

وبعد موته، حدثت كرامة تدلُّ عَلَى مكانته.

فماذا حدث؟

عن الحسن قال: مات هرم بن حيان في يوم صائف شديد الحر. فلما نفضوا أيديهم عن قبره، جاءت سحابة حتى قامت على القبر.

فلم تكن أطول منه، ولا أقصر منه، ورشته حتى روته، ثم انصرفت.

وفي رواية أخرى: عن الحسن قَالَ: لَـمَّا مات هرم بن حيَّان رحمة الله عليه ورضوانه، جاءته سحابة فظلَّلت سريره، فلما دُفن رشَّت عَلَى القبر فما أصاب حول القبر شيئًا.

وعن قَتَادة قَالَ: أُمطر قبرُ هرم بن حيان من يومه، وأنبت العُشب من يومه[(١)].

۞۞۞۞۞

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٩).

الخطبة الثامنة والستون:

لقطات وعظات من حياة أويس القَرنـي

فضل بر الوالدين

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فَيَقُول الله تَعَالَى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَـهُمُ البُشْرَى فِي الـحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤].

قَالَ الإمامُ القُرطبيُّ - رَحِمَهُ الله - في تفسيره: «﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: في الآخرة، ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لفقد الدُّنيا، وقيل: ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: مَن تولَّاه الله تعالى وتولَّى حفظه وحياطته ورضي عنه فلا يَخافُ يوم

القيامة ولا يحزن.

وقال عُمر بن الخطاب رَضِيَ الله عَنْهُ في هَذِهِ الآية: سمعتُ رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**إنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الأنْبِياءُ والشُّهداءُ يوم القيامة لمكانهم من الله تَعَالى**». قيل: مَنْ هُم لَعَلَّنَا نُحِبُّهم؟ قَالَ: «**هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِنُورِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَرْحَام وَلا انْتِسَابٍ، وُجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، لا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿**أَلا أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[1].

وقيل: ﴿**لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾ في ذرّيتهم، لأن الله يتولّاهم، ﴿**وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ على دنياهم لتعويض الله إيَّاهم في أولادهم وأُخراهم لأنه وليُّهم ومولاهم». ا.هـ[2].

وقال ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لقوله تَعَالى: ﴿**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾: يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسَّرهم ربُّهم، فكل من كان تَقيًّا كان لله وليًّا: فـ﴿**لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾ أي: فيما يستقبلونه من أهوال القيامة، ﴿**وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ على ما وراءهم في الدنيا.

قَالَ غير واحد من السَّلف: أولياءُ الله الذين إذا رءُوا ذُكِرَ الله. ا.هـ[3].

وقوله تَعَالى: ﴿**لَـهُمُ الْبُشْرَى فِي الْـحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ**﴾.

عنْ أبي الدَّرداء رَضِيَ الله عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿**لَـهُمُ الْبُشْرَى فِي الْـحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ قال: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ**»[4].

وقيل: المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة، وأمَّا بشراهم في الآخرة فكما قَالَ تَعَالى: ﴿**لاَ يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ المَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٨/٢٢١٤١) بنحوه، والترمذي مختصرًا (٢٣٩٠)، قال: حديث حسن صحيح.
(٢) «تفسير القرطبي» (٨/ ٢٦٦، ٢٧٦).
(٣) «صحيح تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٧٥).
(٤) **صحيح بمجموع طرقه**: أورده ابن كثير في «تفسيره» من عدّة طرق.

وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: هذا الوعد لا يُبَدَّلُ ولا يُخْلَف ولا يُغيَّر، بل هو مقرَّر مُثبتٌ كائنٌ لا محالة، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ » ا.هـ[١].

عباد الله...

ومِنْ هؤلاء الأولياء: «أُويس القَرَنيّ».

- **فمن هو أُويس؟**
- **وما هي قصَّته؟**
- **وما هي الفوائد والعظات والعبر المستفادة من قصَّته؟**

هذا ما سوف نذكره في هَذِهِ الخطبة إن شاء الله تَعَالى.

وأسأل الله تَعَالى التوفيق.

أُوَيْس القَرَنيّ هو القدوة الزاهد، سيِّد التابعين في زمانه. أبو عمرو، أُويس بن عامر ابن جزء بن مالك القَرَنيّ المراديّ اليمانيّ.

وقَرَن بطنٌ من مُراد، وفد على عُمَر ورَوى قليلًا عنه، وعَنْ عليّ، وكان رَضِيَ الله عَنْهُ مشغولًا بالعبادة عن الرواية.

قَالَ الإمامُ الذهبيّ: وقَدْ كان من أولياء الله المتقين ومن عباده المخلصين.

وفي قصَّته - رَحِمَهُ الله - معجزات ظاهرة لرسول الله ﷺ حيث أخبر به ﷺ وباسمه وببلده وبصلاحه ولم يره.

وكان أُويس رَضِيَ الله عَنْهُ من أبرِّ النَّاس بأمِّه، حَتَّى منعه برّه بها من القدوم عَلَى رَسُول الله ﷺ ورؤيته والجلوس بين يديه، ونَيْل شرف صحبته، والجِهاد بين يديه.

عن أصبغ بن يزيد، قال: إنما منع أويسًا أن يقدم على النبي ﷺ برُّه بأمِّه[٢].

عباد الله...

يَكفي من فضائله أنَّ رَسُول الله ﷺ أخبر بفضله وشَهِدَ بأنَّه خير التَّابعين، وأوصى

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٧٥، ٣٧٦) باختصار.
(٢) «السير» (٤/ ٢٩).

أصحابه قائلًا: «**فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ**» وهذا فضلٌ كبير، ومقامٌ كريم.

روى مُسلم في «صحيحه» (٢٥٤٢): عَنْ قَتَادَةَ عَنْ زُرَارَةَ بْنِ أَوْفَى عَنْ أُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ: «كَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ إِذَا أَتَى عَلَيْهِ أَمْدَادُ أَهْلِ اليَمَنِ سَأَلَهُمْ: أَفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ فَقَالَ: أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: لَكَ وَالِدَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ اليَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ**» فَاسْتَغْفِرْ لِي فَاسْتَغْفَرَ لَهُ[1].

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ الكُوفَةَ، قَالَ: أَلَا أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا؟ قَالَ: أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ.

قَالَ: فَلَمَّا كَانَ مِنْ العَامِ المُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ فَوَافَقَ عُمَرَ فَسَأَلَهُ عَنْ أُوَيْسٍ، قَالَ: تَرَكْتُهُ رَثَّ البَيْتِ قَلِيلَ المَتَاعِ، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ اليَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ**».

فَأَتَى[2] أُوَيْسًا فَقَالَ: اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: أَنْتَ أَحْدَثُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ فَاسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: أَنْتَ أَحْدَثُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ فَاسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: لَقِيتَ عُمَرَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ، فَفَطِنَ لَهُ النَّاسُ فَانْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ.

قَالَ أُسَيْرٌ: وَكَسَوْتُهُ بُرْدَةً، فَكَانَ كُلَّمَا رَآهُ إِنْسَانٌ قَالَ: مِنْ أَيْنَ لِأُوَيْسٍ هَذِهِ البُرْدَةُ؟

---

(١) قال الإمام النووي: قوله ﷺ: «**فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ**» هذه منقبة ظاهرة لأويس رَضِي الله عَنْهُ، وفيه استحباب طلب الدعاء والاستغفار من أهل الصلاح، وإن كان الطالب أفضل منهم. «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦/ ٧٤).

(٢) أي: الرجل الحاج.

وفي رواية أخرى:

عن أُسير بن جابر أيضًا، عن عُمَر، سمع رَسُول الله ﷺ يقول: «خَيْرَ التَّابِعِينَ[١] رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ، وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَدَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَأَذْهَبَهُ عَنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ الدِّرْهَمِ فِي سُرَّتِهِ، لا يدعُ باليمن غير أمٍّ له، فمن لقيه منكم فمروه فليستغفر لكم».

قَالَ عمر: فقدم علينا رجلٌ فقلت له: من أين أنت؟ قَالَ: من اليمن، قلتُ: ما اسمك؟ قَالَ: أُويس، قلتُ: فمن تركت باليمن؟ قَالَ: أُمًّا لي، قلتُ: أكان بك بياضٌ، فدعوت الله فأذهبه عنك؟ قَالَ: نعم، قلت: استغفر لي، قَالَ: أويستغفرِ مِثلي لمثلك يا أمير المؤمنين؟ قَالَ: فاستغفر لي، وقلتُ له: أنت أخي لا تفارقني، قَالَ: فانملس مني[٢]، فأنبئتُ أَنَّهُ قدم عليكم الكوفة[٣].

قَالَ: فجعل رجل كان يسخر بأويس بالكوفة ويَحْقِره[٤]، يقول: ما هذا منا ولا نعرفه، قَالَ عمر: بلى إنه رجل كذا وكذا. فقال: كأنه يضع[٥] شأنه: فينا رجل يا أمير المؤمنين يقال له أويس، فقال عمر: أدرك فلا أراك تُدركه، قَالَ: فأقبل ذَلِكَ الرجل حَتَّى دخل عَلَى أويس، قبل أن يأتي أهله، فقال له أويس: ما هَذِهِ عادتك، فما بدا[٦] لك؟ قَالَ: سمعتُ عُمَر يقول فيك كذا وكذا، فاستغفر لي، قَالَ: لا أفعل حَتَّى تجعل لي عليك أن لا تسخر بي فيما بعد، وأن لا تذكر ما سمعته من عمر لأحد، قَالَ: نعم، فاستغفر له.

---

(١) قال الإمام النووي: هذا صريح في أنه خير التابعين، وقَدْ يقال: أفضل التابعين سعيد بن المُسيِّب، والجواب: أن مرادهم سعيدًا أفضل في العلوم الشرعية، لا في الخير عند الله تَعَالَى.

(٢) انملس: أفلت.

(٣) يخاطب عمر أُسير بن جابر، وأُسير من أصحاب ابن مسعود، قال سفيان: قدم أُسير البصرة فجعل يحدِّثهم، فقالوا: هذا هكذا، فكيف النهر الذي شرب منه؟! - يعنون ابن مسعود.

(٤) قال الإمام النووي في قوله: «فجعل رجل يسخر بأويسٍ بالكوفة ويحقره» وهذا دليلٌ عَلَى أنه يخفي حاله، ويكتم السِّر الذي بينه وبين الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا يظهر منه شيء يدل لذلك، وهذه طريق العارفين وخواص الأولياء رضي الله عنهم.

(٥) يضع من شأنه: يقلل منها.

(٦) بدا: ظهر.

قَالَ أُسير: فما لبثنا أن فشا[١] أمرُه بالكوفة، قَالَ: فدخلتُ عليه فقلتُ: يا أخي ألا أراك العجُب ونحن لا نشعر[٢]؟ فقال: ما كان في هذا ما أتبلغ به في النَّاس، وما يُجزي كلُّ عبدٍ إلَّا بعمله، قَالَ: وانملس مني فذهب[٣].

عباد الله...

وممَّا سبق يتبيّن لنا فضل برّ الوالدين.

والحديث عن برّ الوالدين يطول، ويكفي أن نشير هنا إلى شيء من فضائله، والله المستعان.

أولًا: لقد جاء الأمر ببر الوالدين في مواطن عدّة من القُرآن الكريم، منها قوله تَعَالى: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا**﴾. [الإسراء: ٢٣- ٢٥].

قَالَ الإمام القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله -: الاحسان إلى الوالدين: معاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، وامتثال أمرهما، والدعاء بالمغفرة بعد مماتهما، وصلة أهل ودّهما.

ومن الإحسان إليهما والبرّ بهما إذا لم يتعيّن الجهاد: ألَّا يُجاهد إلَّا بإذنهما.

ومن البرّ بهما والإحسان إليهما: ألَّا يتعرّض لسبِّهما ولا يعقُّهما، فإن ذَلِكَ من الكبائر بلا خلاف. ا.هـ.

وقال السمرقندي - رَحِمَهُ الله -: إن للوالدين عَلَى الوالد عشرة حقوق:

إحداهما: أَنَّهُ إذا احتاج أحدهما إلى الطعام أطعمه.

والثاني: إذا احتاج إلى الكسوة كساه إن قدر عليه.

---

(١) **فشا أمره**: ظهر وانتشر.

(٢) أي: نخشى العُجب عليك.

(٣) رواه مسلم بلفظ مقارب.

والثالث: إذا احتاج أحدهما إلى الخدمة خدمه.

والرابع: إذا دعاه أجابه وحضره.

والخامس: إذا أمره بأمر أطاعه ما لم يأمر بالمعصية والغيبة.

والسادس: أن يتكلم معه باللين ولا يتكلم معه بالكلام الغليظ.

والسابع: أن لا يدعوه باسمه.

والثامن: أن يمشي خلفه.

والتاسع: أن يرضى له ما يرضى لنفسه ويكره ما يكره لنفسه.

والعاشر: أن يدعو له بالمغفرة كلما يدعو لنفسه.

قَالَ الله تَعَالى حكاية عن نوح: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ الآية [نوح: ٢٨].

وهكذا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١][١].

عباد الله...

وثمرات البرّ كثيرة، منها:

١- البار بوالديه في ظل عرش الرحمن:

عن عمرو بن ميمون الأزدي، قَالَ: لَـمَّا تعجَّل موسى إلى ربِّه رأى رجلًا تحت العرش فغبطه بمكانه، فسأل ربه أن يخبره باسمه، فلم يخبره، وقال: لكني أُحَدِّثك عن عمله بثلاث خصال: كان لا يحسد النَّاس عَلَى ما آتاهم الله من فضله، ولا يعقّ والديه، ولا يمشي بالنميمة[٢].

٢- زيادة العمر:

عَنْ سَلْمَانَ الفارسيّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ يَرُدُّ القَضَاءَ إِلاَّ الدُّعَاءُ وَلاَ يَزِيدُ فِي

---

(١) «تنبيه الغافلين» للسمرقندي (٨٩).

(٢) إسناده صحيح: رواه أحمد في «الزهد» (٨٥). من فاته بر والديه (٤١، ٤٢).

العُمُرِ إلاَّ البِرُّ»[(١)].

والزيادة في العُمر عَلَى وجهين:

أحدهما: سعة الحال، والزيادة في الرزق، وعافية البدن، وتنعيم البال.

والثاني: أن الله تَعَالى يكتب أجل عبده مائة سنة، ويجعل بنيته وتركيبه وهيئته لتعمير ثمانين سنة، فإذا وصل رحمه، زاد الله في ذَلِكَ التركيب وفي تلك البنية، ووصل ذَلِكَ النقص فعاش عشرين أخرى حَتَّى يبلغ مائة.

ويدلُّ عَلَى ذَلِكَ قوله تَعَالى: ﴿**ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ**﴾ [الأنعام: ٢].

ذكر الإمامُ الشوكاني - رَحِمَهُ الله - أقوالًا في تفسير الأجلين في هَذِهِ الآية، من هَذِهِ الأقوال: قوله: «وقيل: إن **الأوّل**: الأجل الذي هو محتوم؛ **والثاني**: الزيادة في العمر لمن وصل رحمه، فإن كان برًّا تقيًّا وصولاً لرحمه زِيد في عمره، وإن كان قاطعًا للرحم لم يزد له، ويرشد إلى هذا قوله تعالى: ﴿**وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلاَّ فِي كتاب**﴾ [فاطر: ١١].

وقَدْ صَحَّ عن رَسُول الله ﷺ أنَّ صلة الرَّحم تزيد في العُمر، وورد عنه ﷺ أنَّ دخول البلاد التي قد فشا بها الطاعون والوباء من أسباب الموت». ا.هـ[(٢)].

٣- غفران الكبائر:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّى أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟». قَالَ لاَ. قَالَ «هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟». قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَبِرَّهَا»[(٣)].

٤- رضا الله تبارك وتعالى:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «رِضَاءُ الله فِي رِضَاءِ الوَالِدِ، وَسَخَطُ

---

(١) **حديث صحيح**: «صحيح سنن الترمذي» (١٧٣٨).

(٢) «فتح القدير» (٢/ ٩٩).

(٣) **صحيح**: انظر «صحيح سنن الترمذي» (١٥٥٤).

ـنه فِي سَخَطِ الوَالِدِ»[١].

:- البارّ له ثواب الحاج والمعتمر والمجاهد:

عن أنسٍ بن مالكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: أتى رجل رَسُول الله ﷺ فقال: إنِّي أشتهي جهاد ولا أقدر عليه، قَالَ ﷺ: «**هل بقي من والديك أحد؟**» قَالَ: أُميٍّ، قَالَ: «**قابل الله فِي بِرِّها، فإذا فعلت ذَلِكَ فأنت حاج و معتمر ومجاهد**»[٢].

٦- دخول الجَنَّة:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نِمْتُ فَرَأَيْتُنِي فِي الجَنَّةِ فَسَمِعْتُ صَوْتَ قَارِئٍ يَقْرَأُ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ**». فَقَالَ رَسُولُ ـلّهِ ﷺ: «**كَذَلِكَ البِرُّ كَذَلِكَ البِرُّ**». وَكَانَ أَبَرَّ النَّاسِ بِأُمِّهِ[٣].

تَقُول السيِّدة عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا: رجلان من أصحاب النبي ﷺ كانا أبرَّ مَن كان فِي هَذِهِ الأُمَّة بأُمِّها: عثمان بن عفَّان وحارثة بن النُّعمان. فأما عثمان فإنه قَالَ: ما قدرت أن أتأمل أمي منذ أسلمت، وأما حارثة فإنه كان يفلي رأس أُمّه، ويطعمها بيده ولم يستفهمها كلامًا قط تأمر به، حَتَّى يسأل مَن عندها بعد أن تخرج: ما قالت أمِّي؟[٤].

٧- النجاة من المهالك:

عَنْ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ - رضي الله عنهما - قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**انْطَلَقَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوُا المَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ فَقَالُوا: إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ.**

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلاَ

---

(١) صحيح.

(٢) إسناده جيد: قاله المنذري في «الترغيب» (٣٦٦٣)، وعزاه لأبي يعلى والطبراني في «الصغير»، و«الأوسط».

(٣) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ١٥١، ١٥٢)، وصحّحه ابن حجر في «الإصابة» (٢/ ١٩٠).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٢٢٣).

مَالاً، فَنَأَى بِى فِى طَلَبِ شَىْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أَوْ مَالاً، فَلَبِثْتُ وَالقَدَحُ عَلَى يَدَىَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لاَ يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ منه.

وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِى بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَىَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّى حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِى فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّىَ بَيْنِى وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ لاَ أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ. فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهْىَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَىَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِى أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهَا.

وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّى اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ، غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِى لَهُ وَذَهَبَ فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِى بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَىَّ أَجْرِى. فَقُلْتُ لَهُ كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ وَالرَّقِيقِ. فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ لاَ تَسْتَهْزِئْ بِى. فَقُلْتُ إِنِّى لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ. فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ»[(١)].

فالحديث يُبيِّن قيمة العمل الصَّالح في الحياة قبل المات، لقد كان سببًا في رفع الصخرة العاتية التي كادت تزهق أرواحهم، وكان البرُّ سببًا أيضًا في رفع المعاناة والنجاة.

عباد الله...

هَذِهِ بعض ثمرات البرّ، فاحرصوا عَلَى نَيْلها، واستعينوا بالله واصبروا، وفَّقني الله وإيَّاكم لعمل الصالحات.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ونرجع إلى قصَّة أُويس رَحِمَهُ الله.

ذكر الإمامُ ابن الجوزيّ في «صفة الصفوة» [1]: عن أصبغ بن زيد، قال: كان أُويس القَرَني إذا أمسى يقول: هذه ليلة السجود، فيسجد حتى يصبح، وكان إذا أمسى تصدَّق بما في بيته من الفضل من الطعام والثياب، ثم يقول: اللَّهُمَّ مَن مات جائعًا فلا تؤاخذني به، ومَن مات عُريانًا فلا تؤاخذني عليه.

ومن كلامه ووصاياه:

أوصى أويس «هَرِم بن حيَّان» فقال:توسَّد الموت إذا نمت، واجعله نُصب عينيك، وإذا قُمت فادع الله أن يُصلح لك قلبك ونيّتك، فلن تعالج شيئًا أشدَّ عليك منهما.

وعن عمَّار بن سيف الضَّبيّ قال: لحق رجلٌ بأويس القَرَني فسمعه يقول: اللَّهُمَّ إني أعتذر إليك اليوم من كل كبِدٍ جائعة، فإنه ليس في بيتي من طعام إلا ما في بطني، وليس في بيتي شيء من الرِّياش، إلا ما عَلَى ظهري.

قال: وعلى ظهره خَرقة قَدْ تردّى بها، وقال: فأتاه رجل فقال له: كيف أصبحت؟ أَوْ كيف أمسيت؟ فقال: أصبحتُ أحبُ الله، وأمسيتُ أحمد الله، وما تسأل عن حال رجل إذا هو أصبح ظن ألا يُمسي، وإذا أمسى ظن أنه لا يصبح؟ إن الموت وذكره لم يدع لمؤمن فرحًا، وإن حق الله في مال المسلم، ما لم يدع له من ماله فضةً ولا ذهبًا، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يدع للمؤمن صديقًا، نأمرهم بالمعروف فيشتمون أعراضنا، ويجدون عَلَى ذَلِكَ عَونًا من الفاسقين، حتى والله لقد رموني بالعظائم، وايم الله لا أدع أن أقوم لله فيهم بحقّه، ثم أخذ الطريق.

---

(١) «صفة الصفوة» (٣/ ٣٤).

عباد الله...

وبعد حياة حافلة بالعبادة، مضمّخة بعبير الإيمان، تُوفي أويس رَحِمَهُ الله.

واختُلف في عام وفاته وكيفية مَوته عَلَى قولين:

الأول: ما رواه ابن الجوزيّ في «صفة الصفوة» عن عبد الله بن سالم قال: غزونا أذربيجان زمن عُمر بن الخطَّاب رَضِي الله عَنْهُ ومعنا «أويس القرني» فلما رجعنا مَرِض علينا فحملناه فلم يستمسك فمات، فنزلنا فإذا قبر محفور وماء مسكوب وكفن وحنوط، فغسّلناه وكفّناه وصلينا عليه، فقال بعضُنا لبعض: لو رجعنا فعلَّمنا قبره، فرُحنا فإذا لا قبر ولا أثر.

القول الثاني: ما رواه ابن الجوزي أيضًا في «صفة الصفوة» قال: وقَدْ رُوي أنه عاش بعد ذَلِكَ طويلًا.

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: نادى رجلٌ من أهل الشام يوم «صِفِّين» [1]، أفيكم أويس القَرَني؟ قال: قلنا: نعم، وما تريد منه؟ قال: إنِّي سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: «**أُويس القَرَني خير التَّابعين بإحسانٍ**» وعطف دابته فدخل مع أصحاب عليّ رَضِيَ الله عَنْهُ.

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: نادى منادٍ يوم صفين: أفي القوم أُويس القَرَني؟ فَوُجِدَ في قتلى عليّ رَضِيَ الله عَنْهُ.

قال ابن الجوزي: هذا هو الصحيح[2].

وفي «تاريخ الإسلام» قال الذَّهبي في ترجمته لأويس: ثم عاد في أيَّام عليٍّ رَضِي الله عَنْهُ، فاستُشهد معه بصفين، فنظروا فإذا عليه نيِّفٌ وأربعون جراحة[3].

ومال الذَّهبي في «السير» لهذا القول الأخير، والله أعلم.

❁❁❁❁❁

---

(١) الموقعة التي دارت رحاها بين عليّ رَضِي الله عَنْهُ من جهة، وبين معاوية رَضِي الله عَنْهُ من جهة أخرى.

(٢) «صفة الصفوة» (٣/ ٣٥).

(٣) «تاريخ الإسلام» (٢/ ١٧٤).

الخطبة التاسعة والستون:

[أ] لقطات وعظات من حياة عُمر بن العزيز

الخوف من الله تعالى

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيقول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ الله تَعَالى: «إنَّ الخَوفَ مِن المَقَامَات العَلِيَّة، وَهُوَ مِن لَوَازِمِ الإِيمَان، قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال ﷺ: «أَنَا أَعلمكُم باللَّهِ وَأَشَدّكُم لَهُ خَشيَة»، وَكُلَّمَا كَانَ العَبد أَقرَب إِلَى رَبِّه كَانَ أَشَدّ لَهُ خَشيَة مِمَّن دُونه، وَقَد وَصَفَ اللَّه تَعَالَى المَلَائِكَة بِقَولِهِ:

﴿يَخَافُونَ رَبَّهم مِن فَوقهم﴾ [النحل: ٥٠]، وَالأَنبِيَاء بِقَولِهِ: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَات الله وَيَخْشَونَهُ وَلَا يَخْشَونَ أَحَدًا إِلَّا الله﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وَإِنَّمَا كَانَ خَوف المُقَرَّبِينَ أَشَدّ لِأَنَّهُم يُطَالَبُونَ بِمَا لَا يُطَالَب بِهِ غَيرهم فَيُرَاعُونَ تِلكَ المَنزِلَة، وَلِأَنَّ الوَاجِب لِلهِ مِنهُ الشُّكر عَلَى المَنزِلَة فَيُضَاعَف بِالنِّسبَةِ لِعُلُوِّ تِلكَ المَنزِلَة، فَالعَبد إِن كَانَ مُستَقِيمًا فَخَوفه مِن سُوء العَاقِبَة لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿يَحُول بَين المَرء وَقَلبه﴾ [الأنفال: ٢٤]، أَو نُقصَان الدَّرَجَة بِالنِّسبَةِ، وَإِن كَانَ مَائِلًا فَخَوفه مِن سُوء فِعله. وَيَنفَعهُ ذَلِكَ مَعَ النَّدَم وَالإِقلَاع، فَإِنَّ الخَوف يَنشَأ مِن مَعرِفَة قُبح الجِنَايَة وَالتَّصدِيق بِالوَعِيدِ عَلَيهَا، وَأَن يُحرَم التَّوبَة، أَو لَا يَكُون مِمَّن شَاءَ الله أَن يَغفِر لَهُ، فَهُوَ مُشفِقٌ مِن ذَنبه طَالِبٌ مِن رَبّه أَن يُدخِلهُ فِيمَن يَغفِر لَهُ» ا.هـ[1].

وقال ابنُ رَجَبٍ الحَنبليُّ رَحِمَهُ الله: إنَّ الله خَلَقَ الخَلْقَ ليَعرِفُوهُ ويَعبُدُوهُ ويَخشَوهُ ويَخَافُوهُ، ونَصَبَ لَهُمُ الأدِلَّةَ الدَّالَّةَ عَلَى عَظَمَتِهِ وكِبريائِهِ لِيَهَابُوهُ ويَخَافُوهُ خَوفَ الإجْلالِ، وَوَصَفَ لَهُم شِدَّةَ عَذَابِهِ ودَارَ عِقَابِهِ الَّتي أعَدَّهَا لِمَن عَصَاهُ لِيَتَّقُوهُ بِصَالِحِ الأعمَالِ، ولِهَذَا كَرَّر - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - في كِتَابِهِ ذِكرَ النَّارِ ومَا أعدَّهُ فِيهَا لأعدَائِهِ مِنَ العَذَابِ والنَّكَالِ، ومَا احْتَوَت عَليهِ مِنَ الزَّقُّومِ والضَّرِيعِ والحَمِيمِ والسَّلاسِلِ والأغْلَالِ، إلى غَيرِ ذَلِكَ مِمَّا فِيها مِنَ العَظَائِمِ والأهوَالِ، ودَعَا عِبَادَهُ بِذَلِكَ إلى خَشْيَتِهِ وتَقْوَاهُ والمُسَارَعَةِ إلى امتِثَالِ مَا يَأمُرُ بِهِ ويُحِبُّهُ ويَرْضَاهُ، واجتِنَابِ مَا يَنْهَى عَنْهُ ويَكرَهُهُ ويَأبَاهُ، فَمَن تَأمَّلَ الكِتَابَ الكَرِيمَ وأدَارَ فِكْرَهُ فِيهِ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ العَجَبَ العُجَابَ، وكذلِكَ السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ الَّتي هي مُفَسِّرةٌ ومُبيِّنَةٌ لِمَعَاني الكِتَابِ، وكَذَلِكَ سِيَرُ السَّلَفِ الصَّالِحِ أهلِ العِلمِ والإيمَانِ مِنَ الصَّحابةِ والتَّابعِينَ لَهُم بإحْسَانٍ، مَنْ تأمَّلَهَا عَلِمَ أحوَالَ القَومِ ومَا كَانُوا عَلَيهِ مِنَ الخَوفِ والخَشيةِ والإخْبَاتِ، وأنَّ ذَلِكَ هو الذي رَقَّاهُم إلى تِلكَ الأحوالِ الشَّرِيفَةِ والمَقَامَاتِ السَّنِيَّاتِ، مِن شِدَّةِ الاجتِهَادِ في الطَّاعَاتِ والانكِفَافِ عَنْ دَقَائِقِ الأعْمَالِ والمَكرُوهَاتِ فَضْلًا عَنِ المُحَرَّمَاتِ[2].

وقَالَ - رَحِمَهُ الله -: القَدْرُ الوَاجِبُ مِنَ الخَوفِ مَا حَمَلَ عَلَى أدَاءِ الفَرَائِضِ واجْتِنَابِ

---

(١) «فتح الباري» (١١/ ٣١٣).

(٢) «التخويف من النار» لابن رجب (٦، ٧).

المحَارم، فَإنْ زَادَ عَلَى ذَلِكَ، بِحيثُ صَارَ بَاعِثًا للنُّفُوسِ عَلَى التَّشْمِيرِ فِي نَوَافِلِ الطَّاعَاتِ والانْكِفَافِ عَنْ دَقَائِقِ المكرُوهَاتِ والتَّبَسُّط في فُضُولِ المُبَاحَاتِ، كانَ ذَلِكَ فَضْلًا مَحْمُودًا، فإنْ تَزَايَدَ عَلَى ذَلِكَ بأنْ أوْرَثَ مَرَضًا أو مَوتًا، أو هَمًّا لازِمًا، بِحَيثُ يَقطَعُ عَنِ السَّعي في اكتِسَابِ الفَضَائِلِ المطلُوبَةِ المحبُوبَةِ لله عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَكُن مَحْمُودًا[١].

عباد الله...

ونلتقي اليوم مع أحد سلفنا الصَّالح، لنتعرَّف من خلال سِيرته عَلَى صِفات أولياء الله، والتي منها: «**الخوف من الله**».

نلتقي اليوم مع الإمامُ الحافظ العلَّامة المجتهد الزاهدُ العابدُ السَّيِّد، أمير المؤمنين حقًّا، عُمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميَّة، أبو حفص، القرشيّ الأمويّ المدني ثم المصريّ، الخليفة الزَّاهد الرَّاشد أشجُّ بني أُميَّة.

رأى أنس بن مالك، وأسند عنه وعن بعض الصَّحابة.

قَالَ سُفيان الثَّوريُّ: الخُلفاء خمسة: أبو بكر، وعُمر، وعُثمان، وعليّ، وعُمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم. وكذلك قَالَ الشَّافعيُّ رَحِمَهُ الله.

وقال الإمامُ أحمد - رَحِمَهُ الله -: يروى في الحديث: «أن الله تبارك وتعالى يبعث عَلَى رأس كل مائة عام مَن يصحِّح لهذه الأُمَّة دينها». فنظرنا في المائة الأولى فإذا هو عُمر بن عبد العزيز، ونظرنا في المائة الثانية فإذا هو الشَّافعي.

وُلد عُمَر بن عبد العزيز - رَحِمَهُ الله -: بحلوان، قرية بمصر، وأبوه أمير عليها سنة إحدى (وقيل ثلاث) وستين، وأُمّه أُم عاصم، بنت عاصم بن عُمر بن الخطَّاب.

وقال إسماعيل الخُطبي: رأيتُ صفته في بعض الكتب: أبيض، رقيق الوجه، جميلًا، نحيفَ الجسم، حَسِنَ اللِّحية، غائر العينين، بجبهته أثرُ حافرِ دابة، فلذلك سُمِّي أشجَّ بني أميَّة.

قال ضَمرة بنُ ربيعة: دخل عُمر بن عبد العزيز إلى إصطبل أبيه، وهو غلامٍ،

---

(١) «التخويف من النار» لابن رجب (٢١).

فضربه فرس، فشجّه، فجعل أبوه يمسح عنه الدم، ويقول: إن كنت أشجَّ بني أُمية إنك إذًا لسعيد.

وكان عُمر بن الخطاب رَضِيَ الله عَنْهُ يقول: مِن ولدي رجلٌ بوجهه شَجَّةٌ يملأ الأرض عَدلًا. أخرجه الترمذي في «تاريخه».

وعن نافع قَالَ: كان ابن عُمَر يقول: ليت شعري، مَن هذا الذي مِن ولد عُمَر في وجهه علامة، يملأ الأرض عَدلًا[1].

عباد الله...

وظهرت رعاية الله تَعَالى لِعُمر بن عبد العزيز منذ طفولته، فلقد نشأ مُحبًّا للعلم، حريصًا عَلَى طاعة الله تَعَالى، وَجِلًا مِنْ عِقابه وعَذَابه.

عن أبي قَبيل: أنَّ عُمَر بن عبد العزيز بكى وهو غُلامٌ صغير، فأرسلت إليه أُمُّه، وقالت: ما يُبكيك؟ قَالَ: ذكرتُ الموت. قَالَ: وكان يومئذٍ قَدْ جمع القُرآن، فبكت أُمُّه حين بلغها ذَلِكَ.

عن العُتبي: أن أول ما استُبين مِن عُمَر بن عبد العزيز أنَّ أباه ولي مصر، وهو حديث السِّن، يُشَكُّ في بلوغه، فأراد إخراجه، فقال: يا أبت، أو غير ذلك؟ لعله أن يكون أنفع لي ولك ترحِّلُني إلى «المدينة» فَأَقْعُدُ إلى فقهاء أهلها، وأتأدب بآدابهم، فوجهه إلى المدينة، فاشتهر بها بالعلم والعقل مع حداثة سِنِّه. قال: ثم بعث إليه عبدُ الملك بن مروان عند وفاة أبيه، وخلطه بولده، وقدَّمه على كثير منهم، وزوجه بابنته فاطمة التي قيل فيها:

بِـنْتُ الخلـيفة، والخلـيفة جَـدُّها أخـتُ الخلائِـفِ، والخليفةُ زَوْجُها

وكان الذين يعيبون عُمَر مِمَّن يحسدُه بإفراطه في النِّعمة، واختياله في المشية - أي قبل خلافته.

عباد الله...

ولي عُمر بن عبد العزيز المدينة المنوَّرة في إمرة الوليد بن عبد الملك، من سنة ستٍّ

---

(١) قال الذهبي: تفرد به مبارك بن فضالة، عنه، وهو صدوق.

وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين.

وظهرت بركات عدله وإنصافه، فأحبته القلوب، وهوت إليه الأفئدة، والتفّ النَّاس حوله، ووضع الله له القبول في الأرض، وكان أنس بن مالك رَضِيَ الله عَنْهُ يُصَلِّي خلفه، وكان يثني عليه خيرًا.

فعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ لنا أنسٍ: مَا صَلَّيْتُ وَرَاءَ إِمَامٍ أَشْبَهَ صَلاَةً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ إِمَامِكُمْ هَذَا - يعني عُمر بن عبد العزيز.

قَالَ زَيْدٌ: وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ وَيُخَفِّفُ القِيَامَ وَالقُعُودَ[١].

وسَعِدَ الناسُ كثيرًا بولاية عُمر عَلَى المدينة، واستبشروا به خيرًا، وذات يوم حدث شيء عكَّر صفو حياة عُمر إلى أن مات. **ما هذا الشيء؟**

وصل إلى أمير المؤمنين «الوليد» أن خُبيب بن عبد الله بن الزبير ينتقص من خُلفاء بَني أميَّة، وكان خُبيب مِن عِبَاد الله الصَّالحين، فكتب الوليد إلى عُمر بن عبد العزيز أن يضرب خُبيبًا، فضربه أسواطًا، وأقامه في البرد، فمات بعد يوم وليلة[٢].

فكان عُمر إذا أثنوا عليه، قال: فمن لي بخبيب، رحمهما الله.

قَالَ الإمامُ الذَّهبيُّ: مُعلِّقًا عَلَى هذا: قُلتُ: قَدْ كان هذا الرجل حسن الخَلْق والخُلُق، كامل العقل، حَسَنَ السَّمتِ، جيِّد السياسة، حريصًا على العدل بكلِّ ممكن، وافر العلم، فقيه النفس، ظاهر الذَّكاء والفهم، أوَّاهًا منيبًا، قانتًا لله، حنيفًا زاهدًا مع الخلافة، ناطقًا بالحق مع قلة المعين، وكثرة الأمراء الظلمة الذين مَلّوه وكَرِهوا محاقفته لهم، ونقصه أُعطِيَاتِهم، وأخذه كثيرًا مما في أيديهم، مما أخذوه بغير حق، فما زالوا به حَتَّى سقوه السُّم، فحصلت له الشهادة والسعادة، وعُدَّ عند أهل العلم من الخلفاء الرَّاشدين، والعلماء العاملين. ا.هـ[٣].

---

(١) سنده حسن: أخرجه النسائي (٢/ ١٦٦).

(٢) أراد عمر تأديبه، ولم يرد قتله، ثم إنه أدَّى ديته لأهله في خلافته.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٢٠).

عباد الله...

ومن خلال هذا الموقف، يبدو لنا جليًا مدى خوف عُمَر - رَحِمَهُ الله - مِن الله تَعَالى، والخوف من الله ثمرةٌ لمعرفة الله تَعَالى.

وللخوفِ مِنَ الله ثمرات:

الثمرة الأولى: الاستقامة:

قَالَ ذو النُّون المصريّ - رَحِمَهُ الله -: «النَّاسُ عَلَى الطريق ما لم يَزُل عنهم الخوفُ، فإذا زَالَ عنهم الخوفُ ضلُّوا الطَّريق»(١).

الثمرة الثانية: المهابة:

قَالَ عُمر بن عبد العزيز - رَحِمَهُ الله -: «مَن خاف الله أخافَ الله مِنْهُ كُلَّ شيء، ومَن لم يَخَف الله خَافَ مِن كُلِّ شيء»(٢).

وقال يحيى بن مُعاذ الرَّازي - رَحِمَهُ الله -: «عَلَى قَدْرِ حُبِّك لله يُحِبُّك الخَلْقُ، وعلى قَدْرِ خَوْفِك مِنَ الله يَهَابُكَ الخَلْقُ»(٣).

الثمرة الثالثة: نَيْلُ كُلِّ خير:

قَالَ أبو سُليمان الدَّارانيّ - رَحِمَهُ الله -: «أصل كُلّ خير في الدنيا والآخرة: الخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ، وكُلّ قلب ليس فيه خوفٌ فهو قلبٌ خَربٌ»(٤).

الثمرة الرَّابعة: حَرْقُ الشَّهوات مِن القَلب:

قَالَ إبراهيم بن سُفيان: «إذا سَكَنَ الخَوفُ القَلبَ أحرَقَ مواضع الشَّهواتِ منه، وطرد الدنيا عنه»(٥).

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٥٧٧).

(٢) «شعب الإيمان» للبيهقي (٣/ ٢٠٦).

(٣) «شعب الإيمان» للبيهقي (٣/ ٢٠٩).

(٤) «التخويف من النار» (١٢٢).

(٥) «بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٥٧٧).

الثمرة الخامسة: دخول الجَنَّة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقال تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وقال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا: «وَعَدَ الله المؤمنين الذين خَافوا مقامه وأدَّوا فرائضه الجَنَّة»[1].

وللحديث عن هَذِهِ الثمرة بقية، ستأتي بعد قليلٍ إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقلنا قبل قلَيلٍ: أن من ثمرات الخَوف: دخول الجَنَّة، ومن الأدلة أيضًا: الحديث التالي:

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ. قَالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا. قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهْوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا.

قَالَ: يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ. قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا. قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ:

---

(١) «التخويف من النار» (٧).

لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً. قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ. قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ مَا رَأَوْهَا. قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً. قَالَ: فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّى قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ: فِيهِمْ فُلاَنٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الْجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»[1].

إنه فضلٌ عظيم، وثوابٌ كبير.

اللَّهُمَّ اجعلنا لك أوَّاهين، مُنيبين، مُخبتين، مُطيعين، اللَّهُمَّ تقبَّل توبَتَنا، واغْسِل حَوبَتَنَا، وأجِبْ دَعْوتنا، واهْدِ قُلوبَنَا، وَسَدِّدْ ألسِنَتَنا، وثَبِّت حُجَّتَنَا، واسْلُل سَخِيمةَ قُلُوبِنا.

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العَالمين

۞۞۞۞۞

(١) رواه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩).

الخطبة السبعون:

[ب] العدل في حياة عمر بن عبد العزيز

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فبالعدل قامت السَّموات والأرض، لذا أمر الله تَعَالى به، قال الله تَعَالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالـعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالـمُنكَرِ وَالـبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

والعدل هو: فصلُ الحكومة عَلَى ما في كتاب الله سُبْحَانَهُ وتَعَالى، وسُنة رسوله ﷺ لا الحكم بالرَّأي المُجرَّد[١].

---

(١) «فتح القدير» (١/ ٤٨٠).

والعَدلُ ضَربَانِ: مُطلَقٌ: يَقتَضِي العَقْلُ حُسْنَهُ، ولا يَكُونُ في شَيءٍ مِنَ الأزْمِنَةِ مَنْسُوخًا، ولا يُوصَفُ بالاعتدَاءِ بِوَجهٍ، نَحوُ الإحسَانِ إلى مَنْ أحسَنَ إلَيْكَ، وكَفِّ الأذَى عَمَّن كَفَّ أذَاهُ عَنْكَ.

وعَدْلٌ يُعرَفُ كَونُهُ عَدلًا بالشَّرعِ، ويُمكِنُ أن يَكُونَ مَنسُوخًا في بَعْضِ الأزْمِنَةِ، كَالقِصَاصِ وأرْشِ الجِنَايَاتِ، وأخذِ مَالِ المُرْتَدِّ، ولِذَلِكَ قَالَ تَعَالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فَسَمَّى ذَلِكَ سَيِّئَةً واعتِدَاءً، وهذا النَّحْوُ هُوَ المعْنِيُّ بِقَولِهِ تَعَالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

فإن العَدلَ هُوَ المُسَاوَاةُ في المُكَافَأةِ إنْ خيرًا فَخَيرٌ وإنْ شَرًّا فَشَرٌّ، والإحْسَانُ أن يُقَابَلَ الخَيرُ بِأكثَرَ مِنْهُ والشَّرُّ بأقَلَّ مِنْهُ»[1].

عباد الله...

وقَالَ المَاوَرْدِيُّ: «إنَّ مِمَّا تَصلُحُ بِهِ حَالُ الدُّنْيَا قَاعِدَةَ العَدلِ الشَّامِلِ، الذِي يَدْعُو إلى الأُلْفَةِ، ويَبْعَثُ عَلَى الطَّاعةِ، وتَعْمُرُ بِهِ البِلَادُ، وتَنْمُو بِهِ الأمْوَالُ، ويَكْبَرُ مَعَهُ النَّسْلُ، ويَأمَنُ بِهِ السُّلْطَانُ.

وَلَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعُ فِي خَرَابِ الأَرْضِ، وَلَا أَفْسَدُ لِضَمَائِرِ الخَلْقِ مِنْ الجَوْرِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ يَقِفُ عَلَى حَدٍّ وَلَا يَنْتَهِي إلَى غَايَةٍ، وَلِكُلِّ جُزْءٍ مِنْهُ قِسْطٌ مِنْ الفَسَادِ حَتَّى يَسْتَكْمِلَ.

ونُقِلَ عَنْ بَعْضِ البُلَغَاءِ قَوْلُهُ: إنَّ العَدْلَ مِيزَانُ اللهِ الَّذِي وَضَعَهُ لِلْخَلْقِ، وَنَصَبَهُ لِلْحَقِّ، فَلَا تُخَالِفْهُ فِي مِيزَانِهِ، وَلَا تُعَارِضْهُ فِي سُلْطَانِهِ، وَاسْتَعِنْ عَلَى العَدْلِ بِخُلَّتَيْنِ: قِلَّةُ الطَّمَعِ، وَكَثْرَةُ الوَرَعِ.

فَإِذَا كَانَ العَدْلُ مِنْ إحْدَى قَوَاعِدِ الدُّنْيَا الَّتِي لَا انْتِظَامَ لَهَا إلَّا بِهِ، وَلَا صَلَاحَ فِيهَا إلَّا مَعَهُ، وَجَبَ أَنْ نَبْدَأَ بِعَدْلِ الإِنْسَانِ فِي نَفْسِهِ، ثُمَّ بِعَدْلِهِ فِي غَيْرِهِ.

فَأَمَّا عَدْلُهُ فِي نَفْسِهِ فَيَكُونُ بِحَمْلِهَا عَلَى المَصَالِحِ، وَكَفِّهَا عَنْ القَبَائِحِ، ثُمَّ بِالوُقُوفِ

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» (٤/ ٢٨ - ٣٠) بتصرّف يسير.

فِي أَحْوَالِهَا عَلَى أَعْدَلِ الأَمْرَيْنِ: مِنْ تَجَاوُزٍ أَوْ تَقْصِيرٍ.

فَإِنَّ التَّجَاوُزَ فِيهَا جَوْرٌ، وَالتَّقْصِيرَ فِيهَا ظُلْمٌ.

وَمَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ فَهُوَ لِغَيْرِهِ أَظْلَمُ، وَمَنْ جَارَ عَلَيْهَا فَهُوَ عَلَى غَيْرِهِ أَجْوَرُ.

وَأَمَّا عَدْلُهُ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ يَنْقَسِمُ حَالُ الإِنْسَانِ مَعَ غَيْرِهِ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسَامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: عَدْلُ الإِنْسَانِ فِيمَنْ دُونَهُ كَالسُّلْطَانِ فِي رَعِيَّتِهِ، وَالرَّئِيسِ مَعَ صَحَابَتِهِ، فَعَدْلُهُ فِيهِمْ يَكُونُ بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ:

- بِاتِّبَاعِ المَيْسُورِ.
- وَحَذْفِ المَعْسُورِ.
- وَتَرْكِ التَّسَلُّطِ بِالقُوَّةِ.
- وَابْتِغَاءِ الحَقِّ فِي المَيْسُورِ.

فَإِنَّ اتِّبَاعَ المَيْسُورِ أَدْوَمُ، وَحَذْفَ المَعْسُورِ أَسْلَمُ، وَتَرْكَ التَّسَلُّطِ أَعْطَفُ عَلَى المَحَبَّةِ، وَابْتِغَاءَ الحَقِّ أَبْعَثُ عَلَى النُّصْرَةِ.

القِسْمُ الثَّانِي: عَدْلُ الإِنْسَانِ مَعَ مَنْ فَوْقَهُ، كَالرَّعِيَّةِ مَعَ سُلْطَانِهَا، وَالصَّحَابَةِ مَعَ رَئِيسِهَا. فَقَدْ يَكُونُ بِثَلاثَةِ أَشْيَاءَ:

- بِإِخْلَاصِ الطَّاعَةِ.
- وَبَذْلِ النُّصْرَةِ.
- وَصِدْقِ الوَلَاءِ.

فَإِنَّ إِخْلَاصَ الطَّاعَةِ أَجْمَعُ لِلشَّمْلِ، وَبَذْلَ النُّصْرَةِ أَدْفَعُ لِلْوَهَنِ، وَصِدْقَ الوَلَاءِ أَنْفَى لِسُوءِ الظَّنِّ.

وَهَذِهِ أُمُورٌ إِنْ لَمْ تَجْتَمِعْ فِي المَرْءِ تَسَلَّطَ عَلَيْهِ مَنْ كَانَ يَدْفَعُ عَنْهُ وَاضْطُرَّ إِلَى اتِّقَاءِ مَنْ كان يتقيه، وَفِي اسْتِمْرَارِ هَذَا حَلُّ نِظَامٍ جَامِعٍ، وَفَسَادُ صَلَاحٍ شَامِلٍ.

القِسْمُ الثَّالِثُ: عَدْلُ الإِنْسَانِ مَعَ أَكْفَائِهِ وَيَكُونُ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: بِتَرْكِ الاسْتِطَالَةِ، وَمُجَانَبَةِ الإِدْلَالِ، وَكَفِّ الأَذَى؛ لِأَنَّ تَرْكَ الاسْتِطَالَةِ آلَفُ، وَمُجَانَبَةَ الإِدْلَالِ أَعْطَفُ،

وَكَفَّ الأَذَى أَنْصَفُ.

وَهَذِهِ أُمُورٌ إِنْ لَمْ تَخْلُصْ فِي الأَكْفَاءِ أَسْرَعَ فِيهِمْ تَقَاطُعُ الأَعْدَاءِ فَفَسَدُوا وَأَفْسَدُوا.

وَقَدْ يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الطَّبَقَاتِ أُمُورٌ خَاصَّةٌ يَكُونُ عَدْلُهُمْ فِيهَا بِالتَّوَسُّطِ فِي حَالَتَيْ التَّقْصِيرِ وَالسَّرَفِ؛ لِأَنَّ العَدْلَ مَأْخُوذٌ مِنْ الِاعْتِدَالِ، فَمَا جَاوَزَ الِاعْتِدَالَ فَهُوَ خُرُوجٌ عَنْ العَدْلِ.

وإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ فإِنَّ كُلَّ مَا خَرَجَ عَنِ الأَوْلَى إِلى مَا لَيْسَ بِأَوْلَى خُرُوجٌ عَنِ العَدْلِ إلى مَا لَيْسَ بِالعَدْلِ.

وَلَسْت تَجِدُ فَسَادًا إِلَّا وَسَبَبُ نَتِيجَتِهِ الخُرُوجُ فِيهِ مِنْ حَالِ العَدْلِ إِلَى مَا لَيْسَ بِعَدْلٍ مِنْ حَالَتَيْ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ فَإِذَنْ لَا شَيْءَ أَنْفَعُ مِنْ العَدْلِ كَمَا لَا شَيْءَ أَضَرُّ مِمَّا لَيْسَ بِعَدْلٍ». ا.هـ[١].

عباد الله...

ولا يخفى أن الإمام العادل به تستقيم أمور النَّاس.

قَالَ الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: «أُمُورُ النَّاسِ تَسْتَقِيمُ في الدُّنْيَا مَعَ العَدْلِ، أكثَرَ مِمَّا تَستَقِيمُ مَعَ الظُّلْمِ في الحُقُوقِ، ويُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ العَدلِ والكُفْرِ، ولا تَدُومُ مَعَ الظُّلمِ والإسلامِ»[٢].

وقال أيضًا: «العَدلُ نِظَامُ كُلِّ شَيءٍ، فَإذَا أُقيمَ أمْرُ الدُّنْيَا بِعدلٍ قَامَت، وإنْ لَم يَكُن لِصَاحِبِهَا في الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ، ومَتَى لَم تَقُم بِعَدلٍ لَم تَقُم، وإن كانَ لِصَاحِبِها مِنَ الإيمانِ ما يُجْزَى بهِ في الآخرةِ»[٣].

قَالَ ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله تَعَالى -: «إنَّ مَنْ لَهُ ذَوقٌ في الشَّريعةِ واطِّلاعٌ عَلَى كَمَالِهَا وتَضَمُّنِهَا لِغَايَةِ مَصَالِحِ العِبَادِ في المَعَاشِ والمَعَادِ، ومَجِيئِهَا بُغْيَةَ العَدْلِ الذي يَسَعُ الخَلَائِقَ؛ يَجِدُ أَنَّهُ لا عَدْلَ فَوْقَ عَدْلِهَا، ولا مَصْلَحَةَ فَوْقَ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ المَصَالِحِ، تَبَيَّنَ لَهُ

---

(١) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (١٤١ - ١٤٤) بتصرّف.

(٢) «الحسبة» (٢٥).

(٣) نفس المرجع (١٤٧).

نَّ السِّيَاسَة العَادِلَةَ جُزءٌ مِنْ أجْزَائِهَا، وفرعٌ مِنْ فُرُوعِهَا، وأنَّ مَنْ أَحَاطَ عِلمًا بِمَقَاصِدهَا وَوَضَعَهَا مَوْضِعَهَا وحَسُنَ فَهْمُهُ فِيهَا، لم يَحتَج مَعَهَا إلى سِياسَةٍ غَيرِهَا ألبَتَّةَ.

فإنَّ السِّيَاسَةَ نوعَانِ: سِيَاسَةٌ ظَالِمَةٌ، فالشَّرِيعَةُ تُحَرِّمُهَا، وسِيَاسَةٌ عَادِلَةٌ تُخرِجُ الحَقَّ مِنَ الظَّالِمِ الفَاجِرِ، فَهِي مِنَ الشَّريعةِ، عَلِمَهَا مَنْ عَلِمَهَا وجَهِلَهَا مَن جَهِلَهَا»[١].

عباد الله...

ولا يخفى - كَذَلِك - أن عُمر بن عَبْد العَزيز - رَحِمَهُ الله - كان أحد أئمة العدل، وينبغي عَلَى كل حاكم مسلم أن يحذو حذوه، نسأل الله لهم التوفيق لذلك.

وهذه لقطاتٌ ومواقف من حياته - رَحِمَهُ الله - أيَّام حُكمه:

تُوفي الوليد واستخلف (أخيه) سُليمان بن عبد الملك فقرَّب عُمر بن عبد العزيز وأدناه.

وقد كان سُليمان بن عبدالملك - رَحِمَهُ الله - مِن أمثل الخلفاء، نَشَرَ عَلَم الجِهاد، وجَهَّز مائة ألف بَرًّا وبحرًا، فنازلوا القُسطنطينية، واشتد القتالُ والحصارُ عليها أكثر من سنة.

قال سعيد بن عبد العزيز: ولي سُليمان، فقال لعمر بن عبد العزيز: يا أبا حفص ! إنَّا وُلِينا ما قد ترى، ولم يكن لنا بتدبيره عِلمٌ، فما رأيت من مصلحة العامة، فَمُر به، فكان من ذلك عزلُ عُمَّال الحَجَّاج، وأقيمت الصلوات في أوقاتها بعد ما كانت أُميتت عن وقتها، مع أمور جليلة كان يَسْمَعُ من عمر فيها، فقيل: إن سُليمان حج، فرأى الخلائق بالموقف، فقال لعمر: أما ترى هذا الخلق الذي لا يُحْصِي عددهم إلا الله؟ قال: هؤلاء اليوم رَعِيَّتُكَ، وهم غَدًا خُصماؤك، فبكى بُكاءً شَديدًا.

قَالَ الذَّهبي: كان عُمر له وزير صِدق، وَمَرِضَ - أي سليمان - بدابق أسبوعًا، وتُوفِّيَ، وكان ابنه (داود) غائبًا في غزو القُسطنطِينية.

ويُروى لنا رجاء بن حَيْوة قصَّة استخلاف عُمر بن عبد العزيز فيقول: لما مرض

---

(١) «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية» لابن القيم.

سليمان بدابق قال: يا رجاء! أستخلف ابني؟ قال: ابنك غائب، قال: فالآخر؟ قال: هو صغير، قال: فمن ترى؟ قال: عُمر بن عبد العزيز، قال: أتخوف بني عبد الملك أن لا يرضوا، قال: فَوَلِّهِ ومِن بعده يزيد بن عبد الملك، وتكتب كتابًا وتختمه، وتدعوهم إلى بيعة مختوم عليها، قال: فكتب العهد وختمه. فخرج رجاء، وقال: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تبايعوا لمن في هذا الكتاب، قالوا: ومن فيه؟ قال: مختوم، ولا تخبرون بمن فيه حتى يموت، فامتنعوا.

فقال سليمان: انطلق إلى أصحاب الشرط، وناد الصلاة جامعة، ومرهم بالبيعة، فمن أبى فاضرب عنقه، ففعل، فبايعوا.

قال رجاء: فلما خرجوا، أتاني هشام في موكبه، فقال: قد علمت موقفك منا، وأنا أتخوف أن يكون أمير المؤمنين أزالها عني، فأعلمني مادام في الأمر نَفس، قلتُ: سبحان الله! يستكتمني أمير المؤمنين، وأطلعك، لا يكون ذاك أبدًا، أبيت عليه، فانصرف، فبينا أنا أسير إذ سمعت جلبة خلفي، فإذا عمر بن عبد العزيز، فقال: يا رجاء ! قد وقع في نفسي أمر كبير من هذا الرجل، أتخوف أن يكون جعلها إليَّ ولست أقوم بهذا الشأن، فأعلمني ما دام في الأمر نَفس لعلي أتخلص، قلت: سبحان الله ! يستكتمني أمرًا أُطلعك عليه؟!

وفي يوم الجُمُعة عاشر صفر سنة تسع وتسعين، انتقل سُليمان بن عبد الملك إلى جوار ربّه.

يقول رجاء بن حَيوة: ثقل سليمان، ولما مات أجلستُهُ وسندتُهُ وهيَّأتهُ، ثم خرجتُ إلى الناس، فقالوا: كيف أصبح أمير المؤمنين؟ قلتُ: أصبح ساكنًا، فادخلوا سَلِّموا عليه، وبايعوا بَيْن يديه على ما في العهد، فدخلوا، وقمت عنده، وقلتُ: إنه يأمركم بالوقوف، ثم أخذت الكتاب من جيبه، وقلت: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تبايعوا على ما في هذا الكتاب، فبايعوا، وبسطوا أيديهم، فلما فرغوا، قلت: آجركم الله في أمير المؤمنين، قالوا: فَمَنْ؟ ففتحت الكتاب، فإذا فيه: عُمر بن عبد العزيز، فتغيرت وُجُوه بني عبد الملك، فلما سمعوا: «وبعده يزيد» تراجعوا، وطُلِب عمر فإذا هو في المسجد، فأتوه، وسلَّموا عليه بالخلافة فَعَقِر[1]، فلم يستطع النهوض حَتَّى أخذوا بضبعيه،

(١) العَقَر - بفتحتين - : أن يفجأه الروعُ، فلا يقدر أن يتقدم أَوْ يتأخَّر دهشًا.

فصعدوه المنبر، فجلس طويلا لا يتكلم، فقال رجاء: ألا تقومون إلى أمير المؤمنين فتبايعونه، فنهضوا إليه، ومد يده إليهم، فلما مد هشام بن عبدالملك يده إليه، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال عمر: نعم إنا لله، حين صار يلي هذه الأُمَّة أنا وأنت، ثم قام، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: أيها الناس ! إني لستُ بفارض، ولكني منفذ، ولست بمبتدع، ولكني متبع، وإن من حولكم من الأمصار إن أطاعوا كما أطعتم، فأنا واليكم، وإن هم أبَوا فلستُ لكم بِوالٍ.

ثم نزل، فأتاه صاحبُ المراكب، فقال: لا ائتوني بدابتي، ثم كتب إلى عُمَّال الأمصار[1].

يقول عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: لَـمَّا دَفن عمر بن عبد العزيز «سُليمان بن عبد الملك» وخرج من قبره سمع للأرض هدَّة أو رجّة، فقال: ما هَذِهِ؟ فقيل: هَذِهِ مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين قُربت إليك لتركبها، فقال: ما لي ولها؟ نحُّوها عنِّي، قرِّبوا إليَّ بغلتي، فقُرِّبت إليه بغلته فركبها فجاءه صاحب الشرط يسير بين يديه بالحربة، فقال: تنحَّ عني ما لي ولك؟ إنَّما أنا رجل من المسلمين، فسار وسار النَّاس حَتَّى دخل المسجد فصعد المنبر واجتمع النَّاس إليه فقال:

يا أيها الناس إني قد ابتليتُ بهذا الأمر من غير رأي كان مِنِّي فيه ولا مشورة. وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم، فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك فَلِ[2] أمرنا باليمن والبركة.

فلما رأى الأصوات قَدْ هدأت ورضي النَّاسُ به جميعًا، حمد الله وأثنى عليه وصلَّى عَلَى النبيِّ ﷺ وقال: أوصيكم بتقوى، الله فإن تقوى الله خلفٌ من كل شيء، وليس من تقوى الله خلفٌ فاعملوا لآخرتكم فإنه من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم يُصلح الكريم علانيتكم وأكثروا ذكر الموت وأحسنوا الاستعداد له قبل أن ينزل بكم، وإن من لا يذكر من آبائه فيما بينه وبين آدم أبًا حيًّا لمغرق له في الموت.

وإن هَذِهِ الأُمة لم تختلف في ربِّها عَزَّ وَجَلَّ ولا في نَبِيِّها ولا في كتابها، وإن اختلفوا في

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٢٥).
(٢) فَلِ: أي: تولَّ أمرنا.

الدينار والدرهم، وإني والله لا أُعطي أحدًا باطلًا، ولا أمنع أحدًا حقًّا.

ثم رفع صوته حَتَّى أسمع النَّاس فقال: أَيُّهَا النَّاس مَن أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني مَن أطعتُ الله، فَإِذَا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم.

ثُمَّ نزل فدخل فأمر بالستور فهتكت والثياب التي كانت تبسط للخلفاء فحملت وأمر ببيعهاوإدخال ثمنها في بيت المال.

ثم ذهب يتبوأ مقيلًا فأتاه ابنه عبد الملك[١] فقال: ما تريد أن تصنع؟ قال: يا بُنَيَّ أقيل[٢]، قال: تُقيل ولا تَردُّ المظالم؟ فقال: أي بُنَي إني قد سهرتُ البارحة في أمر عمّك سليمان فإذا صلَّيتُ الظُّهر رددتُ المظالم، قال: يا أمير المؤمنين مَنْ لك أن تعيش إلى الظهر؟ قال: ادْنُ مني أي بني. فدنا منه فالتزمه[٣] وقبَّل بين عينيه وقال: الحمد لله الذي أخرج من صُلبي من يُعينني على ديني فخرج ولم يقل، وأمر مناديه أن يُنادي: ألا مَن كانت له مظلمة فليرفعها، فقام إليه رجلٌ ذمِّيٌّ من أهل حِمص، أبيض الرأس واللحية، فقال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله، قَالَ: وما ذاك؟ قَالَ: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي - والعباس جالس - فقال له: يا عباس ما تقول؟ قَالَ: أقطعنيها أميرُ المؤمنين الوليد بن عبد الملك وكتب لي بها سجلًا، فقال عمر: ما تقول يا ذميّ[٤]؟ قَالَ: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ. فقال عمر: كتاب الله أحقّ أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك، قُم فاردُد عليه يا عباس ضيعته، فردّ عليه، فجعل لا يدع شيئًا مِمَّا كان في يده وفي يد أهل بيته من المظالم إلَّا ردَّها مظلمةً مظلمة.

فلما بلغ الخوارج سيرةُ عمر وما ردّ من المظالم قالوا: ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل.

وبلغ ذلك عمرو بن الوليد بن عبد الملك فكتب إليه: إنك قد أزريت على من كان

(١) كان عبد الملك من خِيار عباد الله الصالحين، تُوفِّي قبل أبيه رَحِمَهُ الله.

(٢) **القيلولة**: النوم وقت الظهيرة.

(٣) **التزمه**: احتضنه.

(٤) **أهل الذمة**: هم أهل الكتاب في مجتمع المسلمين.

قبلك من الخلفاء وعِبتَ عليهم وسِرتَ بغير سيرتهم بغضًا لهم وسبًّا لمن بعدهم من أولادهم، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها في بيت المال جورًا وعدوانًا ولن تُترك على هذا.

فلما قرأ كتابه، كتب إليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله «عُمر» أمير المؤمنين إلى عُمر بن الوليد، السَّلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين أما بعد.. فإنني بلغني كتابك وسأجيبك بنحو منه: أما أول شأنك ابن الوليد كما زعم، فأمك «بنانةُ» أمة السكون كانت تَطوفُ في سوق حِمْص وتدخل حوانيتها، ثم الله أعلم بها اشتراها «ذبيان» من فيء المسلمين فأهداها لأبيك فحملت بك فبئس المحمول وبئس المولود.

ثم نشأت فكنت جبارًا عنيدًا أتزعم أني من الظالمين لما حرمتك وأهل بيتك فيء الله عَزَّ وَجَلَّ الذي فيه حق القرابة والمساكين والأرامل وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعملك صبيًا سفيهًا على جند المسلمين تحكم فيهم برأيك ولم تكن له في ذلك نية إلا حب الوالد لولده فويل لك وويل لأبيك ما أكثر خصماءكما يوم القيامة وكيف ينجو أبوك من خصمائه؟

وإنَّ أظلم مِنِّي أترك لعهد الله: مَنْ استعمل الحجاج بن يوسف يسفك الدم الحرام ويأخذ المال الحرام.

وإن أظلم مني وأترك لعهد الله: مَنْ استعمل قرة بن شريك[1] أعرابيًّا جافيًا على مِصر أذن له في المعازف واللهو والشرب.

وإن أظلم مني وأترك لعهد الله: مَن جعل لعالية البربرية سهمًا في خمس فيء العرب.

فرويدًا يا ابن بنانة فلو التقى حلقتا البطان ورُدَّ الفيء إلى أهله لتفرغتُ لك ولأهل بيتك فوضعتهم على المحجة البيضاء، فلطالما تركتم الحق وأخذتم في بنيات الطريق ومن وراء هذا أرجو أن أكون رأيته بيع رقبتك وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين

---

(١) هو قُرة بن شريك القيس أمير مصر، وكان عسوفًا ظالمًا، قال عمر بن عبد العزيز عنه: الوليد بالشام، وقرة بمصر، والحجاج بالعراق، وعثمان بن حيان بالحجاز، امتلأت الأرض والله جَورًا.

والأرامل فإن لكل فيك حقًّا.

والسلام علينا ولا ينالُ سلام الله الظالمين».

وبهذا الكتاب، الذي يَنُمُّ عن شخصية عمر، وقوّة إرادته، وإيمانه، نأتي إلى خِتام الخطبة الأولى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبعد أن تولَّى عُمر بن عبد العزيز -رَحِمَهُ الله - ولاية المسلمين، تملَّكه الخوف، وتمكَّن منه الهمّ، وخشي عَلَى نفسه يوم أن يقف بين يدي ربّهُ.

عَنْ فاطمة زَوج عُمر بن عبد العزيز: أنها دخلت عليه، فإذا هو في مصلاه يده على خده، سائلة دموعه، فقلتُ: يا أمير المؤمنين! ألشيءٍ حدث؟ قال: يا فاطمة! إني تَقَلَّدت أمر أُمّة مُحَمَّد ﷺ، فتفكرتُ في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب المأسور، والكبير، وذي العيال في أقطار الأرض، فعلمت أن رَبِّي سيسألني عنهم، وأن خَصمَهم دونهم محمد ﷺ، فخشيتُ ألا تثبت لي حُجَّة عند خصومته، فرحمتُ نفسي، فبكيتُ.

عباد الله...

وهذه الخشية من صفات السَّابقين، المسارعين في الخيرات.

قال تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾. [المؤمنون: ٥٧- ٦١].

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**﴾ يَا رَسُولَ اللهِ هُوَ الَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرَبُ

خَمْرَ وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ؟ قَالَ: «لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يُخَافُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»[1].

وقال الحسن البصري: «إن المؤمن جمع إحسانًا وشفقةً، وإن الكافر جمع إساءةً وأمنًا».

عباد الله...

هكذا كان سلفنا الصَّالح، يجمعون بين الإحسان والخوف من عدم القبول.

فاحذروا الاغترار، وإيَّاكم والعجب، وداوموا عَلَى طاعة ربِّكم، وسلوه المغفرة لذنوبكم، فربَّما فُتح بابُ الطاعة ولم يُفتح بابُ القبول.

نسأل الله اللطف في الحال والمآل.

آمين... آمين... آمين

۞۞۞۞۞

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ١٥٩)، والترمذي (٣١٧٥).

الخطبة الحادية والسبعون:

[جـ] العدل في حياة عمر بن عبد العزيز

أهمية العدل

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

نواصل الحديث - إن شاء الله تَعَالَى - عن العَدْل.

ونلتقي اليوم - إن شاء الله - مع تفسير أجمع آية في القرآن العظيم.

ما هي هذه الآية؟

هي قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

قَالَ ابن مسعود رَضِيَ الله عَنْهُ: «إنَّ أجمع آيةٍ في القُرآن في سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ الآية»[١].

وقال قَتَادةَ - رَحِمَهُ الله -: «ليس مِن خُلقٍ حسن كان في الجاهلية يُعمل ويُستحبّ إلَّا أَمَرَ الله تَعَالى به في هَذِهِ الآية، وليس مِن خُلق سيِّئٍ إلَّا نَهَى الله تَعَالى عنه في هَذِهِ الآية»[٢].

وقال الإمامُ الفَخر الرَّازيّ - رَحِمَهُ الله -: «جمع الله تَعَالى في هَذِهِ الآية ما يتَّصِل بالتكليف فرضًا ونفلًا، وما يتصل بالأخلاق والآداب عمومًا وخصوصًا» ا.هـ[٣].

قَالَ العلَّامة مُحَمَّد الأمين الشنقيطي - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه يأمر خلقه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى. وأنه ينهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي. لأجل أن يتَّعظوا بأوامره ونواهيه، فيمتثلوا أمره، ويجتنبوا نهيه. وحذف مفعول «يأمر»، «وينهى» لقصد التعميم.

ومن الآيات التي أمر فيها بالعدل قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على أَلَّا تَعْدِلُواْ اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوى﴾ [المائدة: ٨]، وقوله: ﴿إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأمانات إلى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ الناس أَن تَحْكُمُواْ بالعدل إِنَّ الله نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء: ٥٨].

ومن الآيات التي أمر فيها بالإحسان قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة وأحسنوا إِنَّ الله يُحِبُّ المحسنين﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقوله: ﴿وبالوالدين إِحْسَاناً﴾ [البقرة: ٨٣]، وقوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الفساد فِي الأرض﴾ [القصص: ٧٧]، وقوله: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] وقوله: ﴿مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

ومن الآيات التي أمر فيها بإيتاء ذي القربي قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ

---

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٩٨)، وفي رواية أخرى عنه: «هذه أجمع آية في القرآن لخير يُمتَثَل، ولِشَرٍّ يُجتَنب».
(٢) «مفاتيح الغيب» (١٨/ ٦١٥).
(٣) «مفاتيح الغيب» (١٨/ ٦١٥).

والمسكين وابن السبيل ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ الله وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [الروم: ٣٨]، وقوله ﴿وَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ والمسكين وابن السبيل وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦] وقوله: ﴿وَآتَى المال على حُبِّهِ ذَوِي القربى ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية، وقوله: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ [البلد: ١٤، ١٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الآيات التي نهى فيها عن الفحشاء والمنكر والبغي قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام: ١٥١] الآية، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والإثم والبغي بِغَيْرِ الحق ﴾ [الأعراف: ٣٣] الآية، وقوله: ﴿وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإثم وَبَاطِنَهُ إِنَّ الذين يَكْسِبُونَ الإثم سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٠] والمنكر وإن لم يصرح باسمه في هذه الآيات، فهو داخل فيها.

ومن الآيات التي جمع فيها بين الأمر بالعدل والتفضل بالإحسان قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل: ١٢٦] فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ ﴾ [النحل: ١٢٦] وقوله ﴿وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا عدل. ثم دعا إلى الإحسان بقوله ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقوله: ﴿والجروح قِصَاصٌ ﴾ [المائدة: ٤٥] فهذا عدل. ثم دعا إلى الإحسان بقوله ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقوله: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى: ٤١] الآية، فهذا عدل. ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣]، وقوله: ﴿لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء: ١٤٨] فهذا عدل. ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩] إلى غير ذلك من الآيات.

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن العدل في اللغة: القسط والإنصاف، وعدم الجور. وأصله التوسط بين المرتبتين. أي الإفراط والتفريط. فمن جانب الإفراط والتفريط فقد عدل. والإحسان مصدر أحسن، وهي تستعمل متعدية بالحرف نحوك أحسن إلى والديك. ومنه قوله تعالى عن يوسف: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السجن ﴾ [يوسف: ١٠] الآية. وتستعمل متعدية بنفسها. كقولك: أحسن العامل عمله، أي أجاده

وجاء به حسناً. والله جل وعلا يأمر بالإحسان بمعنييه المذكورين، فهما داخلان في الآية الكريمة، لأن الإحسان إلى عباد الله لوجه الله عمل أحسن فيه صاحبه. وقد فسر النَّبي ﷺ الإحسان في حديث جبريل بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن أقوال المفسرين في الآية الكريمة راجعة في الجملة إلى ما ذكرنا. كقول ابن عباس: العدل: لا إله إلا الله، والإحسان: أداء الفرائض. لأن عبادة الخالق دون المخلوق هي عين الإنصاف والقسط، وتجنب التفريط والإفراط. ومن أدى فرائض الله على الوجه الأكمل فقد أحسن. ولذا قال النَّبي ﷺ في الرجل الذي حلف لا يزيد على الواجبات: «**أفلح إن صدق**»، وكقول سفيان: العدل: استواء العلانية والسريرة. والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية. وكقول علي رضي الله عنه: العدل: الإنصاف. والإحسان: التفضل. إلى غير ذلك من أقوال السَّلف. والعلم عند الله تَعَالَى». ا.هـ.[١]

وقال الفخر الرَّازيّ - رَحِمَهُ الله - في قوله تَعَالَى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ٩٠]:

«ظاهر هذه الآية يَدُلُّ على أنه تعالى أمر بثلاثة أشياء، وهي: العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهى عن ثلاثة أشياء هي: الفحشاء، والمنكر، والبغي. فوجب أن يكون العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ثلاثة أشياء متغايرة ووجب أن تكون الفحشاء والمنكر والبغي ثلاثة أشياء متغايرة، لأن العطف يوجب المغايرة.

فنقول: أما العدل فهو عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وذلك أمر واجب الرعاية في جميع الأشياء، ولا بد من تفصيل القول فيه.

فنقول: الأحوال التي وقع التكليف بها إما الاعتقادات وإما أعمال الجوارح.

أما الاعتقادات: فالعدل في كلها واجب الرعاية.

---

(١) «أضواء البيان» (٢/ ١٨٦، ١٨٧).

فأحدها: قال ابن عباس: إن المراد بالعدل هو قول لا إله إلا الله، وتحقيق القول فيه أن نفي الإله تعطيل محض، وإثبات أكثر من إله واحد تشريك وتشبيه وهما مذمومان، والعدل هو إثبات الإله الواحد وهو قول لا إله إلا الله.

وثانيها: أن القول بأن الإله غير موصوف بالصفات من العلم والقدرة تعطيل محض، والقول بأن صفاته حادثة متغيرة تشبيه محض. والعدل هو إثبات أن الإله عالم قادر حي مع الاعتراف بأن صفاته ليست حادثة ولا متغيرة.

وثالثها: أن القول بأن العبد ليس له قدرة ولا اختيار جبر محض، والقول بأن العبد مستقل بأفعاله قدر محض وهما مذمومان، والعدل أن يقال: إن العبد يفُعل الفعل لكن بواسطة قدرة وداعية يخلقهما الله تعالى فيه.

ورابعها: القول بأن الله تعالى لا يؤاخذ عبده على شيء من الذنوب مساهلة عظيمة، والقول بأنه تعالى يخلد في النار عبده العارف بالمعصية الواحدة تشديد عظيم، والعدل أنه يخرج من النار كل من قال واعتقد أنه لا إله إلا الله.

فهذه أمثلة ذكرناها في رعاية معنى العدل في الاعتقادات.

وأما رعاية العدل فيما يتعلق بأفعال الجوارح، فنذكر ستة أمثلة منها:

أحدها: أن قوماً من نفاة التكاليف يقولون: لا يجب على العبد الاشتغال بشيء من الطاعات ولا يجب عليه الاحتراز عن شيء من المعاصي، وليس لله عليه تكليف أصلاً وقال قوم من الهند؛ ومن المانوية إنه يجب على الإنسان أن يجتنب عن كل الطيبات وأن يبالغ في تعذيب نفسه وأن يحترز عن كل ما يميل الطبع إليه حتى أن المانوية يخصون أنفسهم ويحترزون عن التزوج ويحترزون عن أكل الطعام الطيب والهند يحرقون أنفسهم ويرمون أنفسهم من شاهق الجبل، فهذان الطريقان مذمومان، والوسط المعتدل هو هذا الشرع الذي جاءنا به مُحَمَّد ﷺ.

وثانيها: أن التشديد في دين موسى عليه السلام غالب جداً، والتساهل في دين عيسى عليه السلام غالب جداً والوسط العدل شريعة مُحَمَّد ﷺ.

قيل: كان شرع موسى عليه السلام في القتل العمد استيفاء القصاص لا محالة، وفي

ـ ع عيسى عليه السلام العفو. أما في شرعنا فإن شاء استوفى القصاص على سبيل ـ ـئة، وإن شاء استوفى الدية وإن شاء عفا، وأيضاً شرع موسى يقتضي الاحتراز عظيم عن المرأة حال حيضها وشرع عيسى يقتضي حل وطء الحائض، والعدل ما حكم به شرعنا وهو أنه يحرم وطؤها احترازاً عن التلطخ بتلك الدماء الخبيثة أما لا ـجب إخراجها عن الدار.

وثالثها: أنه تعالى قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، يعني متباعدين عن طرفي الإفراط والتفريط في كل الأمور، وقال: ﴿والذين إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] وقال: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط﴾ [الإسراء: ٢٩] ولما بالغ رسول الله ﷺ في العبادات قال تعالى: ﴿طه ۞ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ١، ٢] ولما أخذ قوم في المساهلة قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]. والمراد من الكل رعاية العدل والوسط.

ورابعها: أن شريعتنا أمرت بالختان، والحكمة فيه أن رأس العضو جسم شديد الحس ولأجله عظم الالتذاذ عند الوقاع، فلو بقيت الجلدة على ذلك العضو بقي ذلك العضو على كمال القوة وشدة الإحساس فيعظم الالتذاذ أما إذا قطعت تلك الجلدة وبقي ذلك العضو عارياً فيلقى الثياب وسائر الأجسام فيتصلب ويضعف حسه ويقل شعوره فيقل الالتذاذ بالوقاع فتقل الرغبة فيه، فكأن الشريعة إنما أمرت بالختان سعياً في تقليل تلك اللذة، حتى يصير ميل الإنسان إلى قضاء شهوة الجماع إلى حد الاعتدال، وأن لا تصير الرغبة فيه غالبة على الطبع، فالإخصاء وقطع الآلات على ما تذهب إليه المانوية مذموم لأنه إفراط، وإبقاء تلك الجلدة مبالغة في تقوية تلك اللذة، والعدل الوسط هو الإتيان بالختان.

فظهر بهذه الأمثلة أن العدل واجب الرعاية في جميع الأحوال.

ومن الكلمات المشهورة قولهم: وبالعدل قامت السموات والأرض، ومعناه: أن مقادير العناصر لو لم تكن متعادلة متكافئة، بل كان بعضها أزيد بحسب الكمية وبحسب الكيفية من الآخر، لاستولى الغالب على المغلوب ووهى المغلوب، وتنقلب الطبائع كلها إلى طبيعة الجرم الغالب. ولو كان بعد الشمس من الأرض أقل مما هو

الآن، لعظمت السخونة في هذا العالم واحترق كل ما في هذا العالم، ولو كان بعدها أزيد مما هو الآن لاستولى البرد والجمود على هذا العالم. وكذا القول في مقادير حركات الكواكب ومراتب سرعتها وبطئها، فإن الواحد منها لو كان أزيد مما هو الآن أو كان أنقص مما هو الآن لاختلت مصالح هذا العالم.

فظهر بهذا السبب الذي ذكرناه صدق قولهم: وبالعدل قامت السماوات والأرض.

فهذه إشارة مختصرة إلى شرح حقيقة العدل.

وأما الإحسان فاعلم أن الزيادة على العدل قد تكون إحساناً وقد تكون إساءة مثاله: أن العدل في الطاعات هو أداء الواجبات أما الزيادة على الواجبات فهي أيضاً طاعات وذلك من باب الإحسان.

وبالجملة فالمبالغة في أداء الطاعات بحسب الكمية والكيفية هو الإحسان. والدليل عليه: أن جبريل لما سأل النبي ﷺ عن الإحسان قال: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

فإن قالوا: لم سمي هذا المعنى بالإحسان؟

قلنا: كأنه بالمبالغة في الطاعة يحسن إلى نفسه ويوصل الخير والفعل الحسن إلى نفسه، والحاصل أن العدل عبارة عن القدر الواجب من الخيرات، والإحسان عبارة عن الزيادة في تلك الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية، وبحسب الدواعي والصوارف، وبحسب الاستغراق في شهود مقامات العبودية والربوبية، فهذا هو الإحسان.

واعلم أن الإحسان بالتفسير الذي ذكرناه دخل فيه التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله.

ومن الظاهر أن الشفقة على خلق الله أقسام كثيرة وأشرفها وأجلها صلة الرحم لا جرم أنه سبحانه أفرده بالذكر فقال: ﴿**وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى**﴾ فهذا تفصيل القول في هذه الثلاثة التي أمر الله تعالى بها.

وأما الثلاثة التي نهى الله عنها، وهي الفحشاء والمنكر والبغي.

فنقول: إنه تعالى أودع في النفس البشرية قوى أربعة، وهي الشهوانية البهيمية والغضبيّة السَّبعيَّة والوهمية الشيطانية والعقلية الملكية وهذه القوة الرابعة أعني العقلية الملكية لا يحتاج الإنسان إلى تأديبها وتهذيبها، لأنها من جواهر الملائكة، ومن نتائج الأرواح القدسية العلوية، إنما المحتاج إلى التأديب والتهذيب تلك القوى الثلاثة الأخرى.

أما القوة الشهوانية، فهي إنما ترغب في تحصيل اللذات الشهوانية، وهذا النوع مخصوص باسم الفحش، ألا ترى أنه تعالى سمى الزنا فاحشة فقال: ﴿**إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا**﴾ [النساء: ٢٢].

فقوله تعالى: ﴿**وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ**﴾ المراد منه المنع من تحصيل اللذات الشهوانية الخارجة عن إذن الشريعة.

وأما القوة الغضبية السبعية فهي: أبداً تسعى في إيصال الشر والبلاء والإيذاء إلى سائر الناس، ولا شك أن الناس ينكرون تلك الحالة، فالمنكر عبارة عن الإفراط الحاصل في آثار القوة الغضبية.

وأما القوة الوهمية الشيطانية فهي أبداً تسعى في الاستعلاء على الناس والترفع وإظهار الرياسة والتقدم، وذلك هو المراد من البغي، فإنه لا معنى للبغي إلا التطاول على الناس والترفع عليهم.

فظهر بما ذكرنا أن هذه الألفاظ الثلاثة منطبقة على أحوال هذه القوى الثلاثة.

ومن العجائب في هذا الباب: أن العقلاء قالوا: أخس هذه القوى الثلاثة هي الشهوانية، وأوسطها الغضبية وأعلاها الوهمية. والله تعالى راعى هذا الترتيب فبدأ بالفحشاء التي هي نتيجة القوة الشهوانية، ثم بالمنكر الذي هو نتيجة القوة الغضبية، ثم بالبغي الذي هو نتيجة القوة الوهمية.

فهذا ما وصل إليه عقلي وخاطري في تفسير هذه الألفاظ، فإن يك صواباً فمن الرحمن، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله عنه بريئان والحمد لله على ما خصنا بهذا النوع من الفضل والإحسان إنه الملك الديان.

ثم قال تعالى: ﴿**يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ والمراد بقوله تعالى: ﴿**يَعِظُكُمْ**﴾ أمره

تعالى بتلك الثلاثة ونهيه عن هذه الثلاثة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. ا.هـ[(١)].

وقال **الإمام القُرطبيُّ** -رَحِمَهُ الله -: «تضمنت هذه الآية[(٢)]: الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

روى أن جماعة رفعت عاملها إلى أبي جعفر المنصور العباسي، فحاجَّها العامل وغلبها، بأنهم لم يثبتوا عليه كبير ظلم ولا جوره في شيء، فقام فتىً من القوم فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإنه عَدَل ولم يُحسن. قال: فعجب أبو جعفر من إصابته وعزل العامل»[(٣)].

عباد الله...

والشيء بالشيء يُذكر كما يقولون، فقد روى أهل السِّير والتاريخ:

«أنَّ الزُّهريّ -رَحِمَهُ الله - دخل يومًا عَلَى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، فقال له الوليد: ما حديث يحدثنا به أهلُ الشام؟ قال الزَّهريُّ: وما هو يا أمير المؤمنين؟

قال: يحدِّثوننا أن الله إذا استرعى عبدًا رعيّة كتب له الحسنات، ولم يكتب له السيئات؟

قال الزُّهريُّ: هذا باطلٌ يا أمير المؤمنين، أنبيٌّ خليفة أكرم عَلَى الله، أم خليفة غير نبيّ؟

قال: بل خليفة نبيّ.

قال الزُّهريُّ: فإن الله تَعَالَى يقول لنبيِّه داود عليه السَّلام: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]. فهذا وعيدٌ يا أمير المؤمنين لنبيّ خليفة، فما ظَنُّك بخليفة غير نبيّ؟!

قال أمير المؤمنين: إن النَّاس ليغروننا عن ديننا»[(٤)].

---

(١) «مفاتيح الغيب» (١٨/ ٦١٧ - ٦٢١) باختصار يسير.
(٢) يعني قوله تَعَالَى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان...﴾ الآية.
(٣) «تفسير القرطبي» (١٠/ ١٥٣).
(٤) «مجلة الأزهر» المحرم ١٤٢٩هـ، فبراير ٢٠٠٨م (ص١١٢).

اللَّهُمَّ ارزقنا فهمًا عن دينك، واتباعًا لنبيِّك ﷺ.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فإن للعدل ثمراتٌ:

طريق من طرق النَّجاة:

فعن أنسٍ بن مالكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**ثلاثٌ كفَّاراتٌ، وثلاثٌ دَرَجاتٌ، وثلاثٌ مُنْجِيَاتٌ، وثلاثٌ مُهلِكاتٌ:**

فأمَّا الكَفَّارَاتُ: فَإِسْبَاغُ الوُضُوءِ فِي السَّبَرَاتِ[1]**، وَنَقَلُ الأَقْدَامِ إِلَى الجُمُعَاتِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ**

وَأَمَّا الدَّرَجَاتُ: فَإِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَإِفْشَاءُ السَّلامِ، وَالصَّلاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ.

وَأَمَّا المُنَجِّيَاتُ: فَالعَدْلُ فِي الغَضَبِ، وَالرِّضَى، وَالقَصْدُ فِي الفَقْرِ وَالغِنَى، وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالعَلانِيَةِ.

فَأَمَّا المُهْلِكَاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ المَرْءِ بِنفْسِهِ»[2].

والعدل: طريق الكرامة، وعلوّ الدرجة، والشأن:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ الله عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ المُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَلَى يَمِينِ الرَّحْمَنِ - وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ - الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**»[3].

---

(١) **السبرات**: جمع سبرة، وهي شدّة البرد.

(٢) **حسن**: «كشف الأستار عن زوائد البزار» (١/ ٥٩، ٦٠)، و«مجمع الزوائد» (١/ ٩١).

(٣) رواه مسلم (١٨٢٧).

عباد الله...

وثمرات العدل كثيرة، ويكفي ما أشرنا إليه، والله المستعان، وعليه التكلان.

اللَّهُمَّ اجْعَلنَا نَخْشَاكَ حتى كأنَّنا نَرَاك، وأسْعِدنا بِتَقوَاك.

آمين... آمين... آمين

✪✪✪✪✪

الخطبة الثانية والسبعون:

[د] فقه عمر بن عبد العزيز واتِّباعه للسُّنة

درسٌ عظيم في الاتّباع، والإيمان بالقَدَر

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فأكتفي في هذه الخطبة بذكر كتاب أرسله عُمر بن عبد العزيز لسائل يسأله عن القدر، لما فيه من عظات ودروس وعبر، نحن في أمسِّ الحاجة إليها، والله المستعان، وعليه التكلان.

عباد الله...

عَن أَبِى الصَّلتِ قَالَ: كَتَبَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بنِ عَبدِ العَزِيزِ يَسأَلُهُ عَنِ القَدَرِ، فَكَتَبَ

أَمَّا بَعدُ...

أُوصِيكَ بِتَقوَى اللهِ وَالاِقتِصَادِ[١] فِى أَمرِهِ وَاتِّبَاعِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَتَركِ مَا أَحدَثَ المُحدِثُونَ بَعدَ مَا جَرَت بِهِ سُنَّتُهُ، وَكُفُوا مُؤنَتَهُ[٢]، فَعَلَيكَ بِلُزُومِ السُّنَّةِ فَإِنَّهَا لَكَ بِإِذنِ اللهِ عِصمَةٌ.

ثُمَّ اعلَم أَنَّهُ لَم يَبتَدِعِ النَّاسُ بِدعَةً إِلاَّ قَد مَضَى قَبلَهَا مَا هُوَ دَلِيلٌ عَلَيهَا أَو عِبرَةٌ فِيهَا، فَإِنَّ السُّنَّةَ إِنَّمَا سَنَّهَا مَن قَد عَلِمَ مَا فِى خِلاَفِهَا مِنَ الخَطَإِ وَالزَّلَلِ وَالحُمقِ وَالتَّعَمُّقِ، فَارضَ لِنَفسِكَ مَا رَضِيَ بِهِ القَومُ لأَنفُسِهِم، فَإِنَّهُم عَلَى عِلمٍ وَقَفُوا وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ كَفُوا، وَلَهُم عَلَى كَشفِ الأُمُورِ كَانُوا أَقوَى، وَبِفَضلِ مَا كَانُوا فِيهِ أَولَى فَإِن كَانَ الهُدَى مَا أَنتُم عَلَيهِ لَقَد سَبَقتُمُوهُم إِلَيهِ.

وَلَئِن قُلتُم: إِنَّمَا حَدَثَ بَعدَهُم مَا أَحدَثَهُ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَ غَيرَ سَبِيلِهِم وَرَغِبَ بِنَفسِهِ عَنهُم، فَإِنَّهُم هُمُ السَّابِقُونَ فَقَد تَكَلَّمُوا فِيهِ بِمَا يَكفِى، وَوَصَفُوا مِنهُ مَا يَشفِى، فَمَا دُونَهُم مِن مَقصَرٍ وَمَا فَوقَهُم مِن مَحسَرٍ، وَقَد قَصَّرَ قَومٌ دُونَهُم فَجَفَوا، وَطَمَحَ عَنهُم أَقوَامٌ فَغَلَوا، وَإِنَّهُم بَينَ ذَلِكَ لَعَلَى هُدًى مُستَقِيمٍ.

كَتَبتَ تَسأَلُ عَنِ الإِقرَارِ بِالقَدَرِ، فَعَلَى الخَبِيرِ بِإِذنِ اللهِ وَقَعتَ، مَا أَعلَمُ مَا أَحدَثَ النَّاسُ مِن مُحدَثَةٍ وَلاَ ابتَدَعُوا مِن بِدعَةٍ هِيَ أَبيَنُ أَثَرًا وَلاَ أَثبَتُ أَمرًا مِنَ الإِقرَارِ بِالقَدَرِ، لَقَد كَانَ ذَكَرَهُ فِى الجَاهِلِيَّةِ الجُهَلاَءُ يَتَكَلَّمُونَ بِهِ فِى كَلاَمِهِم وَفِى شِعرِهِم، يُعَزُّونَ بِهِ أَنفُسَهُم عَلَى مَا فَاتَهُم، ثُمَّ لَم يَزِدهُ الإِسلاَمُ بَعدُ إِلاَّ شِدَّةً، وَلَقَد ذَكَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِى غَيرِ حَدِيثٍ وَلاَ حَدِيثَينِ وَقَد سَمِعَهُ مِنهُ المُسلِمُونَ فَتَكَلَّمُوا بِهِ فِى حَيَاتِهِ وَبَعدَ وَفَاتِهِ يَقِينًا وَتَسلِيمًا لِرَبِّهِم، وَتَضعِيفًا لأَنفُسِهِم أَن يَكُونَ شَيءٌ لَم يُحِط بِهِ عِلمُهُ وَلَم يُحصِهِ كِتَابُهُ وَلَم يَمضِ فِيهِ قَدَرُهُ، وَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لَفِى مُحكَمِ كِتَابِهِ مِنهُ اقتَبَسُوهُ وَمِنهُ تَعَلَّمُوهُ.

وَلَئِن قُلتُم: لِمَ أَنزَلَ اللهُ آيَةَ كَذَا وَلِمَ قَالَ كَذَا؟

لَقَد قَرَءُوا مِنهُ مَا قَرَأتُم وَعَلِمُوا مِن تَأوِيلِهِ مَا جَهِلتُم، وَقَالُوا بَعدَ ذَلِكَ: كُلِّهِ بِكِتَابٍ

---

(١) **الاقتصاد في أمر الله:** الاعتدال فيه، فيقف حيث وقف به الشرع من كتاب وسنة.

(٢) **كفوا مؤنته:** لم يكلف بالبحث فيه وما يترتب عليه من عناء ومشقة.

وَقَدَرٍ، وَكُتِبَتِ الشَّقَاوَةُ، وَمَا يُقَدَّر يَكُن، وَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُن، وَلاَ نَملِكُ لأَنفُسِنَا ضَرًّا وَلاَ نَفعًا، ثُمَّ رَغبُوا بَعدَ ذَلِكَ وَرَهِبُوا [(١)].

عباد الله...

هذا أثرٌ جليلٌ، فيه فوائد ومنافع كثيرة.

قَالَ العلَّامة أبو الطَّيِّب مُحَمَّد شمسُ الحقّ العظيم آبادي - رَحِمَهُ الله - في شرحه لهذا الأثر:

«قوله: (يَسْأَلُهُ عَنْ القَدَر): بِفَتْحَتَيْنِ هُوَ الْمَشْهُور، وَقَدْ يُسَكَّن الدَّال. (أَخْبَرَنَا حَمَّاد ابْن دُلَيْل): بِالتَّصْغِيرِ، (فَكَتَبَ): أَيْ عُمَر بْن عَبْد العَزِيز.

(أَمَّا بَعْد أُوصِيك): أَيهَا الْمُخَاطَب الَّذِي سَأَلْتنِي عَنْ القَدَر.

(بِتَقْوَى اللَّه وَالِاقْتِصَاد): أَيْ التَّوَسُّط بَيْن الإِفْرَاط وَالتَّفْرِيط.

(فِي أَمْره): أَيْ أَمْر اللَّه أَوْ الِاسْتِقَامَة فِي أَمْره.

(وَ): أُوصِيك، (اِتِّبَاع): أَيْ بِاتِّبَاعِ (سُنَّة نَبِيّه ﷺ وَتَرْك مَا أَحْدَثَ الْمُحْدِثُونَ): بِكَسْرِ الدَّال أَيْ اِبْتَدَعَ الْمُبْتَدِعُونَ.

وَالْحَاصِل أَنَّهُ أَوْصَاهُ بِأُمُورٍ أَرْبَعَة: أَنْ يَتَّقِي اللَّه تَعَالَى، وَأَنْ يَقْتَصِد أَيْ يَتَوَسَّط بَيْن الإِفْرَاط وَالتَّفْرِيط فِي أَمْر اللَّه أَيْ فِيمَا أَمَرَهُ اللَّه تَعَالَى لَا يَزِيد عَلَى ذَلِكَ وَلَا يَنْقُص مِنْهُ، وَأَنْ يَسْتَقِيم فِيمَا أَمَرَهُ اللَّه تَعَالَى لَا يَرْغَب عَنْهُ إِلَى اليَمِين وَلَا إِلَى اليَسَار، وَأَنْ يَتَّبِع سُنَّة نَبِيّه ﷺ وَطَرِيقَته، وَأَنْ يَتْرُك مَا اِبْتَدَعَهُ الْمُبْتَدِعُونَ.

(بَعْدَمَا جَرَتْ بِهِ سُنَّته وَكُفُوا مُؤْنَته): ظَرْف لِأَحْدَثَ، وَقَوْله كُفُوا بِصِيغَةِ الْمَاضِي الْمَجْهُول مِنْ الكِفَايَة، وَالْمُؤْنَة الثِّقَل، يُقَال كَفَى فُلَانًا مُؤْونَته أَيْ قَامَ بِهَا دُونه فَأَغْنَاهُ عَنْ القِيَام بِهَا.

فَمَعْنَى (كُفُوا مُؤْونَته) أَيْ كَفَاهُمْ اللَّه تَعَالَى مُؤْونَة مَا أَحْدَثُوا، أَيْ: أَغْنَاهُمْ اللَّه تَعَالَى عَنْ أَنْ يَحْمِلُوا عَلَى ظُهُورهمْ ثِقَل الإِحْدَاث وَالِابْتِدَاع، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَكْمَلَ لِعِبَادِهِ دِينهم

---

(١) رواه أبو داود (٤٦١٢).

وَأَتَمَّ عَلَيْهِم نِعْمَته وَرَضِيَ لَهُمْ الإِسْلَام دِينًا فَلَمْ يَتْرُك إِلَيْهِمْ حَاجَة لِلْعِبَادِ فِي أَنْ يُحْدِثُوا لَهُمْ فِي دِينهمْ أَيْ يَزِيدُوا عَلَيْهِ شَيْئًا أَوْ يَنْقُصُوا مِنْهُ شَيْئًا، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «**شَرّ الأُمُور مُحْدَثَاتهَا**».

(فَعَلَيْك): أَيهَا الْمُخَاطَب، (بِلُزُوم السُّنَّة): أَيْ سُنَّة النَّبِيّ ﷺ وَطَرِيقَته،(فَإِنَّهَا): أَيْ السُّنَّة أَيْ لُزُومهَا، (لَك بِإِذْنِ الله عِصْمَة): مِنْ الضَّلَالَة وَالْمُهْلِكَات وَعَذَاب الله تَعَالَى وَنِقْمَته.

(ثُمَّ اِعْلَمْ): أَيهَا الْمُخَاطَب، (أَنَّهُ لَمْ يَبْتَدِع النَّاس بِدْعَة إِلَّا قَدْ مَضَى): فِي الكِتَاب أَوْ السُّنَّة، (قَبْلهَا): أَيْ قَبْل تِلْكَ البِدْعَة، (مَا هُوَ دَلِيل عَلَيْهَا): أَيْ عَلَى تِلْكَ البِدْعَة أَيْ عَلَى أَنَّهَا بِدْعَة وَضَلَالَة، (أَوْ): مَضَى فِي الكِتَاب أَوْ السُّنَّة قَبْلهَا مَا هُوَ، (عِبْرَة فِيهَا): أَيْ فِي تِلْكَ البِدْعَة أَيْ فِي أَنَّهَا بِدْعَة وَضَلَالَة.

وَالدَّلِيل عَلَى ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ: (فَإِنَّ السُّنَّة إِنَّمَا سَنَّهَا): أَيْ وَضَعَهَا، (مَنْ): هُوَ الله تَعَالَى، أَوْ النَّبِيّ ﷺ، (قَدْ عَلِمَ مَا فِي خِلَافهَا): أَيْ خِلَاف السُّنَّة أَيْ البِدْعَة، (مَنْ قَدْ عَلِمَ).

(مِنْ الخَطَأ وَالزَّلَل وَالْحُمْق وَالتَّعَمُّق): بَيَان لِمَا فِي خِلَافهَا، فَإِذَا كَانَتْ السُّنَّة إِنَّمَا سَنَّهَا وَوَضَعَهَا مَنْ قَدْ عَلِمَ مَا فِي خِلَافهَا مِنْ الخَطَأ وَالزَّلَل وَالْحُمْق وَالتَّعَمُّق وَهُوَ الله تَعَالَى أَوْ النَّبِيّ ﷺ فَكَيْف يُتْرَك بَيَان مَا فِي خِلَافهَا فِي كِتَابه أَوْ سُنَّة نَبِيّه ﷺ هَذَا مِمَّا لَا يَصِحّ وَالتَّعَمُّق الْمُبَالَغَة فِي الأَمْر.

قَالَ فِي «النِّهَايَة»: الْمُتَعَمِّق الْمُبَالِغ فِي الأَمْر الْمُتَشَدِّد فِيهِ الَّذِي يَطْلُب أَقْصَى غَايَته. اِنْتَهَى.

(فَارْضَ لِنَفْسِك مَا رَضِيَ بِهِ القَوْم): أَيْ الطَّرِيقَة الَّتِي رَضِيَ بِهَا السَّلَف الصَّالِحُونَ أَيْ النَّبِيّ ﷺ وَأَصْحَابه، (لِأَنْفُسِهِمْ): عَلَى مَا وَرَدَ فِي حَدِيث اِفْتِرَاق الأُمَّة عَلَى ثَلَاث وَسَبْعِينَ مِلَّة مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي.

وَعَلَّلَهُ بِقَوْلِهِ: (فَإِنَّهُمْ): أَيْ القَوْم الْمَذْكُورِينَ، (عَلَى عِلْم): عَظِيم عَلَى مَا يُفِيدهُ التَّنْكِير. مُتَعَلِّق بِقَوْلِهِ: (وَقَفُوا): أَيْ اِطَّلَعُوا.

وَقَوْله: (بِبَصَرٍ نَافِذ): أَيْ مَاضٍ فِي الأُمُور مُتَعَلِّق بِقَوْلِهِ: (كَفُّوا): بِصِيغَةِ المَعْرُوف مِنْ بَاب نَصَرَ أَيْ مَنَعُوا عَمَّا مَنَعُوا مِنْ الإِحْدَاث وَالاِبْتِدَاع.

(وَلَهُمْ): بِفَتْحِ لَام الاِبْتِدَاء لِلتَّأْكِيدِ وَالضَّمِير لِلسَّلَفِ الصَّالِحِينَ، (عَلَى كَشْف الأُمُور): أَيْ أُمُور الدِّين، مُتَعَلِّق بِقَوْلِهِ: (أَقْوَى): قُدِّمَ عَلَيْهِ لِلاهْتِمَام أَيْ هُمْ أَشَدّ قُوَّة عَلَى كَشْف أُمُور الدِّين مِنْ الخَلَف، وَكَذَا قَوْله: (وَبِفَضْلِ مَا كَانُوا): أَيْ السَّلَف الصَّالِحُونَ، (فِيهِ): مِنْ أَمْر الدِّين، مُتَعَلِّق بِقَوْلِهِ: (أَوْلَى): قُدِّمَ عَلَيْهِ لِمَا ذُكِرَ أَيْ هُمْ أَحَقّ بِفَضْلِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ الخَلَف. وَإِذَا كَانَ الأَمْر كَذَلِكَ فَاخْتَرْ لِنَفْسِك مَا اِخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الطَّرِيق القَوِيم.

(فَإِنْ كَانَ الهُدَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ): أَيْ الطَّرِيقَة الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا أَيُّهَا المُحْدِثُونَ المُبْتَدِعُونَ، (لَقَدْ سَبَقْتُمُوهُمْ إِلَيْهِ): أَيْ إِلَى الهُدَى وَتَقَدَّمْتُمُوهُمْ وَخَلَفْتُمُوهُمْ وَهَذَا صَرِيح البُطْلَان، فَإِنَّ السَّلَف الصَّالِحِينَ هُمْ الَّذِينَ سَبَقُوكُمْ إِلَى الهُدَى لَا أَنْتُمْ سَبَقْتُمُوهُمْ إِلَيْهِ، فَثَبَتَ أَنَّ الهُدَى لَيْسَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ.

وَقَوْله: (لَقَدْ سَبَقْتُمُوهُمْ إِلَيْهِ) جَوَاب القَسَم المُقَدَّر، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا تَقَدَّمَ القَسَم أَوَّل الكَلَام ظَاهِرًا أَوْ مُقَدَّرًا وَبَعْده كَلِمَة الشَّرْط فَالأَكْثَر وَالأَوْلَى اِعْتِبَار القَسَم دُون الشَّرْط فَيَجْعَل الجَوَاب لِلْقَسَمِ وَيَسْتَغْنِي عَنْ جَوَاب الشَّرْط لِقِيَامِ جَوَاب القَسَم مَقَامه، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

(وَلَئِنْ قُلْتُمْ): أَيُّهَا المُحْدِثُونَ المُبْتَدِعُونَ فِيمَا حَدَثَ بَعْد السَّلَف الصَّالِحِينَ، (إِنَّ مَا حَدَثَ): مَا مَوْصُوله أَيْ الشَّيْء الَّذِي حَدَثَ، (بَعْدهمْ): أَيْ بَعْد السَّلَف الصَّالِحِينَ.

(مَا أَحْدَثَهُ): مَا نَافِيَة أَيْ لَمْ يُحْدِث ذَلِكَ الشَّيْء، (إِلَّا مَنْ اِتَّبَعَ غَيْر سَبِيلهمْ): أَيْ سَبِيل السَّلَف الصَّالِحِينَ، (وَرَغِبَ بِنَفْسِهِ عَنْهُمْ): أَيْ عَنْ السَّلَف الصَّالِحِينَ وَهُوَ مَعْطُوف عَلَى اِتَّبَعَ، أَيْ فَضَّلَ نَفْسه عَلَيْهِمْ.

وَالحَاصِل أَنَّكُمْ إِنْ قُلْتُمْ: إِنَّ الحَادِث بَعْد السَّلَف الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِضَلَالٍ بَلْ هُوَ الهُدَى وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مُخَالِفًا لِسَبِيلِهِمْ. وَجَوَاب الشَّرْط مَحْذُوف تَقْدِيره: فَذَلِكَ

بَاطِل غَيْر صَحِيح.

وَقَوْله: (فَإِنَّهُمْ): أَيْ السَّلَف، (هُمْ السَّابِقُونَ): إِلَى الهُدَى عِلَّة لِلْجَوَابِ المَحْذُوف قَائِمَة مَقَامه. وَلَا يَجُوز أَنْ يَكُون هَذَا جَوَابًا لِلشَّرْطِ، فَإِنَّ كَوْن السَّلَف هُمْ السَّابِقِينَ مُتَحَقِّق المُضِيّ وَالجَزَاء لَا يَكُون إِلَّا مُسْتَقْبَلًا.

(فَقَدْ تَكَلَّمُوا): أَيْ السَّلَف، (فِيهِ): أَيْ فِيمَا يُحْتَاج إِلَيْهِ مِنْ أَمْر الدِّين، (بِمَا يَكْفِي): لِلْخَلَفِ، (وَوَصَفُوا): أَيْ بَيَّنُوا السَّلَف، (مِنْهُ): أَيْ مِمَّا يُحْتَاج إِلَيْهِ مِنْ أَمْر الدِّين، (مَا يَشْفِي): لِلْخَلَفِ، (فَمَا دُونهمْ): أَيْ فَلَيْسَ دُون السَّلَف الصَّالِحِينَ أَنَّ تَحْتهمْ أَيْ تَحْت قَصْرهمْ، (مِنْ مَقْصَر): مَصْدَر مِيمِيّ أَوْ اِسْم ظَرْف، أَيْ حَبَس أَوْ مَحَلّ حَبْس مَنْ قَصَرَ الشَّيْء قَصْرًا أَيْ حَبَسَهُ، (وَمَا فَوْقهمْ): أَيْ وَلَيْسَ فَوْقهمْ أَيْ فَوْق حَسْرهمْ، (مِنْ مَحْسَر): مَصْدَر مِيمِيّ أَوْ اِسْم ظَرْف أَيْضًا، أَيْ كَشَفَ أَوْ مَحَلّ كَشْف مِنْ حَسِرَ الشَّيْء حَسْرًا أَيْ كَشَفَهُ، يُقَال: حَسِرَ كُمّه مِنْ ذِرَاعه، أَيْ: كَشَفَهَا، وَحَسِرَتْ الجَارِيَة خِمَارهَا عَن وَجْههَا، أَيْ: كَشَفَتْهُ.

وَحَاصِله: أَنَّ السَّلَف الصَّالِحِينَ قَدْ حَبَسُوا أَنْفُسهمْ عَنْ كَشْف مَا لَمْ يُحْتَجْ إِلَى كَشْفه مِنْ أَمْر الدِّين حَبْسًا لَا مَزِيد عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ كَشَفُوا مَا اُحْتِيجَ إِلَى كَشْفه مِنْ أَمْر الدِّين كَشْفًا لَا مَزِيد عَلَيْهِ.

(وَقَدْ قَصَّرَ): مِنْ التَّقْصِير، (قَوْم دُونهمْ): أَيْ دُون قَصْر السَّلَف الصَّالِحِينَ، أَيْ قَصَرُوا قَصْرًا أَزْيَدَ مِنْ قَصْرهمْ، (فَجَفَوْا): أَيْ لَمْ يَلْزَمُوا مَكَانهمْ الوَاجِب قِيَامهمْ فِيهِ، مِنْ جَفَا جَفَاء إِذَا لَمْ يَلْزَم مَكَانه، أَيْ اِنْحَدَرُوا وَانْحَطُّوا مِنْ عُلُوّ إِلَى سُفْل بِهَذَا الفِعْل وَهُوَ زِيَادَة القَصْر، (وَطَمَحَ): أَيْ اِرْتَفَعَ مِنْ طَمَحَ بَصَره إِذَا اِرْتَفَعَ وَكُلّ مُرْتَفِع طَامِح، (عَنْهُمْ): أَيْ السَّلَف، (أَقْوَام): أَيْ اِرْتَفَعُوا عَنْهُمْ فِي الكَشْف، أَيْ كَشَفُوا كَشْفًا أَزْيَدَ مِن كَشْفهمْ، (فَغَلَوْا): فِي الكَشْف أَيْ شَدَّدُوا حَتَّى جَاوَزُوا فِيهِ الحَدّ، فَهَؤُلَاءِ قَدْ أَفْرَطُوا وَأَسْرَفُوا فِي الكَشْف كَمَا أَنَّ أُولَئِكَ قَدْ فَرَّطُوا وَقَتَّرُوا فِيهِ.

(وَإِنَّهُمْ): أَيْ السَّلَف، (بَيْن ذَلِكَ): أَيْ بَيْن القَصْر وَالطَّمْح أَيْ بَيْن الإِفْرَاط وَالتَّفْرِيط، (لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيم): يَعْنِي أَنَّ السَّلَف لَعَلَى طَرِيق مُسْتَقِيم، وَهُوَ الِاقْتِصَاد وَالتَّوَسُّط بَيْن الإِفْرَاط وَالتَّفْرِيط، لَيْسُوا بِمُفَرِّطِينَ كَالقَوْمِ القَاصِرِينَ دُونهمْ وَلَا

بِمُفَرِّطِينَ، كَالأَقْوَام الطَّامِحِينَ عَنْهُمْ.

(كَتَبْت تَسْأَل): أَيهَا الْمُخَاطَب، (عَنْ الإِقْرَار بِالقَدَرِ): هَلْ هُوَ سُنَّة أَوْ بِدْعَة، (فَعَلَى الخَبِير): أَيْ العَارِف بِخَبَرِهِ، (بِإِذْنِ الله): تَعَالَى، (وَقَعْت): أَيْ سَأَلْت بِإِذْنِ الله تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ الإِقْرَار مَنْ هُوَ عَارِف بِخَبَرِ ذَلِكَ الإِقْرَار، يُرِيد بِذَلِكَ نَفْسه.

(مَا أَعْلَم مَا أَحْدَثَ النَّاس): مَفْعُول أَوَّل لـ)أَعْلَم)، (مِنْ مُحْدِثَة): بَيَان لِمَا أَحْدَثَهُ النَّاس، (وَلَا اِبْتَدَعُوا مِنْ بِدْعَة): عَطْف تَفْسِير عَلَى أَحْدَثَ النَّاس مِنْ مُحْدَثَة، (هِيَ): فَصْل بَيْن مَفْعُولَيْ أَعْلَم، (أَبْيَن أَثَرًا): مَفْعُول ثَانٍ لَهُ، (وَلَا أَثْبَت أَمْرًا): عَطْف عَلَى أَبْيَن أَثَرًا، (مِنْ الإِقْرَار بِالقَدَرِ): مُتَعَلِّق بِأَبْيَن وَأَثْبَت عَلَى التَّنَازُع.

يَقُول: إِنَّ الإِقْرَار بِالقَدَرِ هُوَ أَبْيَن أَثَرًا وَأَثْبَت أَمْرًا فِي عِلْمِي مِنْ كُلّ مَا أَحْدَثَهُ النَّاس مِنْ مُحْدَثَة وَابْتَدَعُوهُ مِنْ بِدْعَة لَا أَعْلَم شَيْئًا مِمَّا أَحْدَثُوهُ وَابْتَدَعُوهُ أَبْيَن أَثَرًا وَأَثْبَت أَمْرًا مِنْهُ، أَيْ مِنْ الإِقْرَار بِالقَدَرِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الإِقْرَار بِالقَدَرِ مُحْدَثًا وَبِدْعَة لُغَة نَظَرًا إِلَى تَأْلِيفه وَتَدْوِينه فَإِنَّ تَأْلِيفه وَتَدْوِينه مُحْدَث وَبِدْعَة لُغَة بِلَا رَيْب. فَإِنَّ النَّبِيّ ﷺ لَمْ يُدَوِّنهُ وَلَا أَحَد مِنْ أَصْحَابه وَلَمْ يُسَمِّهِ مُحْدَثًا وَبِدْعَة بِاعْتِبَارِ نَفْسه وَذَاته، فَإِنَّهُ بِاعْتِبَارِ نَفْسه وَذَاته سُنَّة ثَابِتَة لَيْسَ بِبِدْعَةٍ أَصْلًا كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِيمَا بَعْد.

(لَقَدْ كَانَ ذَكَرَهُ): أَيْ الإِقْرَار بِالقَدَرِ، (فِي الجَاهِلِيَّة): أَيْ قَبْل الإِسْلَام، (الجُهَلَاء): بِالرَّفْعِ فَاعِل ذَكَرَ، (يَتَكَلَّمُونَ بِهِ): أَيْ بِالإِقْرَارِ بِالقَدَرِ، (فِي كَلَامهمْ): الْمَنْثُور، (وَفِي شِعْرهِمْ): أَيْ كَلَامهمْ الْمَنْظُوم، (يُعَزُّونَ): مِنْ التَّعْزِيَة وَهُوَ التَّسْلِيَة وَالتَّصْبِير أَيْ يُسَلُّونَ وَيُصَبِّرُونَ، (بِهِ): أَيْ بِالإِقْرَارِ بِالقَدَرِ، (أَنْفُسهمْ عَلَى مَا فَاتَهُمْ): فِي نِعَمه، (ثُمَّ لَمْ يَزِدْهُ) أَيْ الإِقْرَار بِالقَدَرِ، (الإِسْلَام بَعْد): مَبْنِيّ عَلَى الضَّمّ أَيْ بَعْد الجَاهِلِيَّة، (إِلَّا شِدَّة): وَإِحْكَامًا حَيْثُ فَرَضَهُ عَلَى العِبَاد، (وَلَقَدْ ذَكَرَهُ): أَيْ الإِقْرَار بِالقَدَرِ، (رَسُول الله ﷺ فِي غَيْر حَدِيث وَلَا حَدِيثَيْنِ): بَلْ فِي أَحَادِيث كَثِيرَة، (وَقَدْ سَمِعَهُ): أَيْ الإِقْرَار بِالقَدَرِ، (مِنْهُ): صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، (الْمُسْلِمُونَ): أَيْ الصَّحَابَة رَضِيَ الله عَنْهُمْ، (فَتَكَلَّمُوا): أَيْ الصَّحَابَة رَضِيَ الله عَنْهُمْ، (بِهِ): أَيْ بِالإِقْرَارِ بِالقَدَرِ، (فِي حَيَاته وَبَعْد وَفَاته): صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

(يَقِينًا وَتَسْلِيمًا لِرَبِّهِمْ وَتَضْعِيفًا لِأَنْفُسِهِمْ): قَالَ فِي «القَامُوس»: ضَعَّفَهُ تَضْعِيفًا عِدَّة

تَضْعِيفًا، (أَنْ يَكُون شَيْء): مِنْ الأَشْيَاء، (لَمْ يُحِطْ) مِنْ الإِحَاطَة، (بِهِ): أَيْ بِذَلِكَ الشَّيْء، (عِلْمه): أَيْ عِلْم اللَّه تَعَالَى، (وَلَمْ يُحْصِهِ): أَيْ ذَلِكَ الشَّيْء مِنْ الإِحْصَاء وَهُوَ العَدّ وَالضَّبْط أَيْ لَمْ يَضْبِطهُ، (كِتَابه): أَيْ كِتَاب اللَّه تَعَالَى وَهُوَ اللَّوْح المَحْفُوظ، (وَلَمْ يَمْضِ): أَيْ لَمْ يَنْفُذ، (فِيهِ): أَيْ فِي ذَلِكَ الشَّيْء، (قَدَره): أَيْ قَدَر اللَّه تَعَالَى.

وَالحَاصِل أَنَّ المُسْلِمِينَ أَيْ الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّه عَنْهُمْ أَقَرُّوا بِالقَدَرِ وَتَيَقَّنُوا بِهِ وَسَلَّمُوا ذَلِكَ لِرَبِّهِمْ وَضَعَّفُوا أَنْفُسهمْ أَيْ اِسْتَحَالُوا أَنْ يَكُون شَيْء مِنْ الأَشْيَاء مِمَّا عَزَبَ وَغَابَ عَنْ عِلْمه تَعَالَى لَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمه تَعَالَى وَلَمْ يَضْبِطهُ كِتَابه وَلَمْ يَنْفُذ فِيهِ أَمْره.

(وَإِنَّهُ) أَيْ الإِقْرَار بِالقَدَرِ، (مَعَ ذَلِكَ): أَيْ مَعَ كَوْنه مِمَّا ذَكَرَهُ الجُهَلاء فِي الجَاهِلِيَّة وَذَكَرَهُ رَسُول اللَّه ﷺ فِي أَحَادِيث كَثِيرَة وَأَقَرَّ بِهِ الصَّحَابَة وَتَيَقَّنُوا بِهِ وَسَلَّمُوهُ وَاسْتَحَالُوا نَفْيه، (لَفِي مُحْكَم كِتَابه): أَيْ لَمَذْكُور فِي القُرْآن المَجِيد، (مِنْهُ): أَيْ مِنْ مُحْكَم كِتَابه لَا مِنْ غَيْره، (اِقْتَبَسُوهُ) أَيْ اِقْتَبَسَ الإِقْرَار بِالقَدَرِ وَاسْتَفَادَهُ السَّلَف الصَّالِحُونَ رَسُول اللَّه ﷺ وَأَصْحَابه.(وَمِنْهُ): أَيْ مِنْ مُحْكَم كِتَابه لَا مِنْ غَيْره، (تَعَلَّمُوهُ): أَيْ تَعَلَّمُوا الإِقْرَار بِالقَدَرِ.

(وَلَئِنْ قُلْتُمْ): أَيُّهَا المُبْتَدِعُونَ، (لِمَ أَنْزَلَ اللَّه آيَة كَذَا وَلِمَ قَالَ كَذَا): فِي شَأْن الآيَات الَّتِي ظَاهِرهَا يُخَالِف القَدَر، (لَقَدْ قَرَءُوا): أَيْ السَّلَف، (مِنْهُ): مِنْ كِتَابه المُحْكَم، (مَا قَرَأْتُمْ وَعَلِمُوا): أَيْ السَّلَف، (مِنْ تَأْوِيله): أَيْ تَأْوِيل مُحْكَم كِتَابه، (مَا جَهِلْتُمْ وَقَالُوا): أَيْ السَّلَف أَيْ أَقَرُّوا، (بَعْد ذَلِكَ كُلّه): أَيْ بَعْدَمَا قَرَءُوا مِنْ مُحْكَم كِتَابه مَا قَرَأْتُمْ وَعَلِمُوا مِنْ تَأْوِيله مَا جَهِلْتُمْ، (بِكِتَابٍ وَقَدَر): أَيْ أَقَرُّوا بِكِتَابٍ وَقَدَر أَيْ بِأَنَّ اللَّه تَعَالَى كَتَبَ كُلّ شَيْء وَقَدَّرَهُ قَبْل أَنْ يَخْلُق السَّمَاوَات وَالأَرْض بِمُدَّةٍ طَوِيلَة، (وَ): أَقَرُّوا بِأَنَّ (مَا يُقْدَر): بِصِيغَةِ المَجْهُول وَمَا شَرْطِيَّة، (يَكُنْ): أَقَرُّوا بِأَنَّ (مَا شَاءَ اللَّه كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ): بِأَنَّا (لَا نَمْلِك لِأَنْفُسِنَا نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ثُمَّ رَغِبُوا): أَيْ السَّلَف الصَّالِحُونَ، (بَعْد ذَلِكَ): أَيْ بَعْد الإِقْرَار بِالقَدَرِ فِي الأَعْمَال الصَّالِحَة وَلَمْ يَمْنَعهُمْ هَذَا الإِقْرَار عَنْ الرَّغْبَة فِيهَا، (وَرَهِبُوا): الأَعْمَال السَّيِّئَة أَيْ خَافُوهَا وَاتَّقَوْهَا.

وَقَوْله (لَقَدْ قَرَءُوا... إِلَخْ) جَوَاب القَسَم المُقَدَّر، وَاسْتَغْنَى عَنْ جَوَاب الشَّرْط لِقِيَامِهِ مَقَامه كَمَا تَقَدَّمَ هَكَذَا أَفَادَهُ بَعْض الأَعْلَام فِي تَعْلِيقَات السُّنَن.

ثُمَّ اِعْلَمْ أَنَّ البِدْعَة هِيَ عَمَل عَلَى غَيْر مِثْل سَبَقَ.

قَالَ فِي «القَامُوس»: هِيَ الحَدَث فِي الدِّين بَعْد الإِكْمَال، وَالبِدْعَة أَصْغَر مِنْ الكُفْر وَأَكْبَر مِنْ الفِسْق، وَكُلّ بِدْعَة تُخَالِف دَلِيلًا يُوجِب العِلْم وَالعَمَل بِهِ فَهِيَ كُفْر، وَكُلّ بِدْعَة تُخَالِف دَلِيلًا يُوجِب العَمَل ظَاهِرًا، فَهِيَ ضَلَالَة وَلَيْسَتْ بِكُفْرٍ.

قَالَ السَّيِّد فِي «التَّعْرِيفَات»: البِدْعَة هِيَ الفِعْلَة المُخَالِفَة لِلسُّنَّةِ، سُمِّيَتْ بِدْعَة لِأَنَّ قَائِلهَا اِبْتَدَعَهَا مِنْ غَيْر مِثَال. اِنْتَهَى. وَهَذِهِ فَائِدَة جَلِيلَة فَاحْفَظْهَا»[١].

عباد الله...

ومدار هذا الكتاب الذي أرسله عُمر بن عبد العزيز للسائل عَلَى **ثلاثة أمور**:

الأمر الأول: الوصية بتقوى الله تَعَالى:

والوصية بالتقوى هي وصية الله تَعَالى للأولين والآخرين، قَالَ تَعَالى: ﴿**وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ**﴾ [النساء: ١٣١].

قَالَ الإمام القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله - في تفسيره هَذِهِ الآية: «أي الأمر بالتقوى كان عامًّا لجميع الأمم، ﴿**وَإِيَّاكُمْ**﴾ عطف على ﴿**الَّذِينَ**﴾.

و﴿**أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ**﴾ في موضع نصب، قَالَ الأخفش: أي بأن اتقوا الله.

وقال بعض العارفين: هَذِهِ الآية هي رَحَى آيِ القُرآن، لأنَّ جَمِيعَهُ يدورُ عليها». ا.هـ[٢].

وحقيقة التَّقوى كما قَالَ الحليميُّ: «فعلُ المأمور به والمندوب إليه، واجتنابُ المَنهيِّ عنه والمكروه المُنزَّه عنه، لأن المراد من التَّقوى: وقايةُ العَبدُ نَفْسهُ من النار، وهو إنَّما يقي نفسهُ من النار بما ذَكَرتُ».

وقال مالكُ بن أنسٍ - رَحِمَهُ الله -: بلغني أن رجلًا من بعض الفقهاء كتب إلى ابن الزُّبير رَضِيَ الله عَنْهُمَا يقول: «ألا إن لأهل التَّقوى علاماتٍ يُعرفون بها، ويعرفونها من

(١) «عون المعبود» (١٢/ ٢٣٨ - ٢٤٣).
(٢) «تفسير القرطبي» (٥/ ٣٤٩).

أنفسهم، مَنْ:

رَضِيَ بالقضاء.

وصَبَرَ عَلَى البلاء.

وشَكَرَ عَلَى النَّعماء.

وصَدَقَ في اللِّسان.

وَوَفَّى بالوعد والعهد.

وتَلَا لأحكام القُرآن.

وإنَّما الإمامُ سُوقٌ من الأسواقِ، فإن كان مِنْ أهلِ الحقِّ، حَمَلَ إليه أهلُ الحقِّ حَقَّهم، وإن كان من أهل الباطل حَمَلَ إليه أهلُ الباطل باطِلَهَم». ا.هـ[١].

والأمر الثاني: الحثُّ عَلَى اتِّباع السُّنَّة، ومخالفة أهل الأهواء والآراء:

قَالَ سهل بن عبد الله: «علامةُ حُبِّ الله: حُبُّ القُرآن، وعلامةُ حُبِّ القرآن: حُبّ النَّبيّ ﷺ، وعلامةُ حُبِّ النَّبيّ ﷺ: حُبُّ السُّنَّة، وعلامة حُبِّ ذَلِكَ كُلِّه: حُبُّ الآخرة»[٢].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالى يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

قَالَ الإمام ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ إشارةٌ إلى دليل المحبَّة وثمرتها وفائدتها، فدليلُها وعلامتُها: اتِّباع الرَّسُول ﷺ، وفائدتها: الاتباع، وثمرتها: محبَّةُ الله عَزَّ وجَلَّ، فإذا لم تَحْصُل المتابعةُ فَلَيْسَت محبتكم بحاصلة».

وقال أيضًا: «وعلى ذَلِكَ، فإنه لا تُنَالُ مَحَبَّةُ الله عَزَّ وَجَلَّ إلَّا باتباع الحَبيب ﷺ». ا.هـ[٣].

والخلاصة: أن الاتِّباع علامةٌ عَلَى صِدق العَبْد في حُبِّه لله تَعَالى، وأنَّ ثمرة هذا

---

(١) «جامع الأصول» (١١/ ٧٠٣).

(٢) «تفسير القرطبي» (٤/ ٤٠).

(٣) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٢ - ٣٩). بتصرف

الاتباع هي محبَّة الله عَزَّ وَجَلَّ وغفرانه[١].

فاتَّبعوا - عباد الله - ولا تبتدعوا، فقد كُفيتم، واعلموا أن الطرق كلَّها مسدودة إلَّا طريق مَن اقتفى آثار النَّبيّ ﷺ.

وها هو نبيّكم ﷺ يقول: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، إلاَّ مَنْ أَبى**». **قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبى؟ قَالَ**: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبى**»[٢].

فاعقدوا العزم - عباد الله - عَلَى الإخلاص وحُسن المتابعة، والله المسئول أن يجعلنا وإيَّاكم مِمَّن يُبادِرُ الفَوتَ، ويُراقبُ الموتَ، ويتأهب للرِّحْلَةِ قَبْلَ المات، وينتفعُ بما سَمِع مِن العِظَات، بِمَنِّه وكرمه[٣].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والأمر الثالث: الإيمان بالقدر:

والإيمان بالقدر يتضمن أربع درجات:

الدرجة الأولى: الإيمان بأن الله عَلَمَ ما كَانَ، وما سَيَكُون، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عليه شيء من الغيوب الماضية والمستقبلية، كله في علم الله عَزَّ وَجَلَّ سواء.

الدرجة الثانية: الإيمان بأنَّ الله كتبَ ذَلِكَ في اللَّوح المحفوظ الذي كتب فيه مقادير كل شيء، كما في الحديث: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى القَلَمُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: فَاكْتُبْ مَا يَكُونُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ**»، فنؤمن بأن كل ما

---

(١) «نضرة النعيم» (١٤).

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٠).

(٣) من كلام ابن رجب الحنبلي، انظر «أهوال القبور» (٤).

يجري وكل ما يقع، أن الله عَلِمه، وأن الله كتبه سُبْحَانَهُ وتَعَالى في اللوح المحفوظ، كما في قوله تَعَالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، فكل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ لا يتخلف منه شيء.

إن مقادير الخلق، وكتابة القدر في اللوح المحفوظ سابقة لخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما في الحديث الصحيح عن النَّبي ﷺ: «**فَما مِن شيء إلَّا وهو مُسجلٌ في اللوح المحفوظ**» كما قَالَ تَعَالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤].

الدرجة الثالثة: أن نؤمن بمشيئة الله الشاملة وإرادته لكل شيء، وأنَّ الله إذا أراد شيئًا بالإرادة الكونيّة وشاءه فلابد مِن وقوعه، وأنَّهُ لا يقع شيء في الكون إلا بإرادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالى ومشيئته وتدبيره.

الدرجة الرابعة وهي الأخيرة: أن نؤمن بأن كل شيء هو مخلوقٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالى، قَالَ الله عز وجل: ﴿اللَّـهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، كل ما في الكون ما كان وما يكون هو من خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالى وإيجاده، لا أحد يُوجِد في الكون شيئًا، ولا أحد يخلق شيئًا في هذا الكون من دون الله.

وهذا لا يمنع أن يكون للعبد إرادة ومشيئة وأن يكون له اختيار وفعل، وقدرة بها يقدر عَلَى الفعل والترك، وبها يقدر عَلَى اختيار الضار مِن النافع.

فالإنسان يفعل بإرادته الخير والحسنات والطاعات، وبإرادته يترك الطاعات والواجبات، وبها يفعل المعاصي والشرور والمخالفات، وهو يُحاسب عَلَى إرادته وعلى فعله، ولكن إرادته ومشيئته لا تخرج عن مشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ، كما قَالَ تَعَالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّـهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، فأثبت للعبد مشيئة، لكنه ربطها بمشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالى، ولهذا لَـمَّا قَالَ رجلٌ للنَّبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال له رَسُول الله ﷺ: «**أجعلتَني لله نِدًّا، قُل: مَا شَاء الله ثُمَّ شِئت، أو قُل: ما شَاءَ الله وَحده**».

عباد الله...

وانحرف في تفسير باب القَدر طوائف عدة، منها:

الطائفة الأولى: الجهمية، والجبرية:

فقالوا: إنَّ العَبْد مجبورٌ عَلَى فعله، لا اختيار له، ولا قدرة ولا إرادة، العَبد مِثْل الريشة في الهواء، ومثل ورقة الشجرة، تحركها الرياح بغير إرادة منها ولا اختيار، هذا ما تقوله الجبرية من الجهمية وغيرهم.

والطائفة الثانية: عَلَى النقيض وهم المعتزلة:

قالوا: إنَّ كل إنسان يخلق فعل نفسه، وليس لله تدبير، ولا إرادة بفعل العبد، وإنَّما العبد هو الذي يفعل الشيء باختياره وقدرته استقلالًا، لا ارتباط له بمشيئة الله، حَتَّى غلا بعضهم وقال: إن الله لا يعلم الأشياء قبل كونها، وإنَّما العبد هو يستأنفها، ولهذا يقولون الأمر أُنف، وهؤلاء غلاة المعتزلة ويُسمون بالقدرية النُفاة.

الطائفة الأولى تُسمى بالجبرية، وهؤلاء بالقدرية النُفاة، الطائفة الأولى أثبتوا القدر وغلوا فيه، وسلبوا العبد إرادته، والطائفة الثانية وهم المعتزلة عَلَى النقيض غلوا في مشيئة العبد وإثبات مشيئة العبد، حَتَّى ألغوا مشيئة الله وإرادته، وكُلا الطرفين ضالٌّ ومخطئ، خطأً عظيمًا.

وتوسَّط أهل السُّنَّة والجماعة، فأثبتوا للعبد قدرة واختيارًا وإرادة، ولكنها تابعة لمشيئة الله جل وعلا، وقدرته وإرادته، وأن أحدًا لا يستطيع أن يفعل شيئًا إلا بإرادة الله ومشيئته.

هذا؛ والقدرية يُقال إنهم مجوس هَذِهِ الأُمَّة، لماذا؟ لأنهم أثبتوا خالقين مَعَ الله، حيث قالوا: إن كل إنسان يخلق فعل نفسه استقلالًا، وبذلك ضلوا، وبذلك استحقوا المقت، والذَّم من أهل الحقِّ، لأنهم خلطوا في هذا الأصل العظيم وهو الإيمان بالقدر.

عباد الله...

والإيمان بالقدر هو من أصول الإيمان كما في حديث جبريل أَنَّهُ قَالَ للنبي ﷺ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ ﷺ: «**أَنْ تُؤْمِنَ باللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**». قَالَ: صَدَقْتَ.

وكما في قوله تَعَالَى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٩]، وكما في الحديث:

«احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

والأحاديث والنصوص في هذا كثيرة، وهذا أصلٌ معروف، والحقّ فيه والحمد لله واضح، وعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة فيه واضحة، ومبنيّة عَلَى ما جاء في الكِتاب والسُّنَّة، أمَّا مَن انحرف عن هذا الأصل، فإنه إنما أُوتي من قِبل نَفْسه، ومِن قِبل هواه، وإعراضه عن الكتاب والسُّنَّة.

وهكذا كل مَن حاول الخروج عن دلالة الكتاب والسُّنَّة فإنه يقع في الضَّلال كما قال تَعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ [الأنعام: ١٥٣]. ا.هـ[١].

۞۞۞۞۞

(١) «مجمل عقيدة السلف» للشيخ الفوزان (١٩ – ٢٤) باختصار وتصرف يسير.

الخطبة الثالثة والسبعون:

[هـ] لقطات وعظات من حياة عُمر بن عبد العزيز

من أخلاق السّلف الصّالح

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فكان من أخلاق سلفنا الصَّالح: البدء بإصلاح أنفسهم أولًا، ثم بيوتهم ثانيًا.

وهذا هو منهج الإسلام في الإصلاح والتغيير.

قال تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

قَالَ الفَخر الرَّازيّ - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «كلام جميع المفسِّرين يدلُّ عَلَى أن المراد: لا يغيِّر ما هم فيه من النِّعم بإنزال الانتقام إلَّا بأن يكون منهم المعاصي

والفساد». ا.هـ[(١)].

وقال عليٌّ رَضِيَ الله عَنْهُ: «ما نزل بلاءٌ إلَّا بذنب، وما رُفع إلَّا بتوبة».

فمن علامة توفيق الله للعَبْد: أن يبدأ بإصلاح نفسه، وهذا هو طريق الفلاح، قَالَ تَعَالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

قال العلَّامة الشوكاني -رَحِمَهُ الله- في تفسيره لهاتين الآيتين: «قوله تَعَالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ أي: قد فاز مَن زكَّى نَفسه وأنماها وأعلاها بالتقوى بكلّ مطلوب، وظفر بكل محبوب، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ أي: خَسِر مَن أضلَّها وأغواها.

قال أهل اللُّغة: دسَّاها أصله: دسسها، من التدسيس، وهو إخفاء الشيء في الشيء، فمعنى دسَّاها في الآية: أخفاها وأخملها ولم يُشهرها بالطاعة والعمل الصالح». ا.هـ[(٢)].

ومن علامة توفيق الله للعبد أيضًا: أن يبدأ بإصلاح بيته:

قال تَعَالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

قال الحافظ ابن كثير -رَحِمَهُ الله- في تفسيره لهذه الآية: «يقول: أدبوهم، عَلموهم. وقيل: اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، ومُروا أهليكم بالذكر، ينجيكم الله من النار. وقيل: اتقوا الله، وأوصوا أهليكم بتقوى الله.

وقيل: يأمرهُم بطاعة الله، وينهاهُم عن معصية الله، وأن يقومَ عليهم بأمر الله، ويأمرهم به ويُساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية، قَدَعْتَهم عنها وَزَجَرْتَهم عنها». ا.هـ[(٣)].

عباد الله...

وها هو عُمر بن عبد العزيز - رَحِمَهُ الله - يبدأ بإصلاح نَفْسه، ثم بإصلاح بيته، ثم بعد ذَلِكَ شرع في إصلاح الرعيّة، وإذا طاب الملك طابت جُنودُه.

(١) «مفاتيح الغيب» (٩/ ٢٠٩).
(٢) «فتح القدير» (٥/ ٤٤٩).
(٣) «صحيح تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٧٩).

قَالَ فرات بن السَّائب: «قَالَ عُمر بن عبد العزيز لامرأته فاطمة بنت عبد الملك - وكان عندها جوهر أمر لها أبوها به لم يُر مثله -: اختاري إما أن تردي حُليَّك إلى بيت المال، وإما أن تأذني لي في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت واحد، قالت: لا بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لي، قال: فأمر به فحمل حتى وضع في بيت مال المسلمين، فلما مات عمر واستخلف يزيد قال لفاطمة: إن شئت رددتهُ عليك، قالت: لا والله لا أطيب به نفسًا في حياته وأرجع فيه بعد موته؟. فلما رأى ذلك قسمه بين أهله وولده».

ومنذ اللحظة الأولى التي استُخلف فيها عمر ظهرت بركاتُ خلافته.

فعن مالك بن دينار قَالَ: «لَـمَّا ولي عُمر بن عبد العزيز قالت رعاءُ الشاة في رءوس الجبال: مَن هذا الخليفة الصَّالح الذي قَدْ قام عَلَى النَّاس؟ قَالَ: فقيل لهم: وما علمكم بذلك؟ قالوا: إنه إذا قام خليفة صالح كَفَّت الذِّئاب والأسد عن شائنا»[١].

ويقول حسن القصَّاب: «رأيت الذئاب ترعى مَعَ الغَنم بالبادية في خلافة عُمر بن عبد العزيز، فقلت: سبحان الله، ذئب في غنم لا يضرها؟ فقال الراعي: إذا صلح الرأس فليس عَلَى الجسد بأس»[٢].

عباد الله...

وكان عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة مُنعَّمًا، يلبس أجود الثِّياب، ويأكل أطيب الطعام، وله مشيته الخاصة، التي سُمِّيت بالمشية العمرية، فلما تولى الخلافة خلع كل ذَلِكَ، واكتفى باليسير من الدُّنْيَا.

قال جويرية بن أسماء: قال عمر بن عبد العزيز: إن نفسي توَّاقة، وإنها لم تُعط من الدنيا شيئًا إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه، فلما أُعطيتُ ما لا أفضل منه في الدنيا، تاقت إلى ما هو أفضلُ منه - يعني الجَنَّة.

لقد أعلن عُمر حالة التَّقشف عَلَى نفسه وعلى أهل بيته طول مُدّة خلافته.

---

(١) «صفة الصفوة» (٢/ ٨٤).

(٢) «تاريخ الخلفاء» (٢٣٣).

يقول مَسلمَةُ بن عبد الملك: دخلتُ عَلَى عُمر وقميصهُ وسخٌ، فقلت لامرأته - وهي أخت مَسلمة-: اغسلوه، قالت: نفعل، ثم عدتُ فَإِذَا القميصُ عَلَى حاله، فقلت لها، فقالت: والله ما له قميصٌ غيره!!

ويروي لنا عون بن المعتمر: أن عمر بن عبد العزيز قَالَ لامرأته: عندك درهمٌ أشتري به عنبًا؟ قالت: لا، قَالَ: فعندك فلوس؟ قالت: لا، أنت أمير المؤمنين ولا تقدر عَلَى دِرهم! قَالَ: هذا أهونُ من معالجة الأغلال في جهنم.

عباد الله...

أين هَذِهِ الأخلاق في الدُّنْيَا اليوم؟

كِدْنَا لا نسمع عنها إلَّا في كتاب أو تحت التُّراب!!

أيُّهَا المسلمون...

ولم يَنْتِهِ الأمر إلى هذا الحدّ، بل وصل بِعُمر الحال حَتَّى أصبح لا ينام اللَّيل خوفًا من رَبِّه.

تحكي لنا السَّيِّدة فاطمة امرأة عُمر بن عبد العزيز حاله مَعَ رَبِّه في بيته فتقول: «ما رأيت أحدًا أشد فرقًا(١) من رَبِّه منه، كان إذا صَلَّى العِشاء، قعد في مسجده(٢)، ثم يرفعُ يديه، فلم يزل يبكي حتى تغلبَه عينُه، ثم ينتبه، فلا يزالُ يدعو رافعًا يديه يبكي حتى تغلبه عينهُ، يفعل ذلك ليله أجمع». وكان يحاول إخفاء بكائه ما استطاع إلى ذَلِكَ سبيلا.

وعن ميمون بن مهران قال لِي عمر بن عبد العزيز: حَدِّثني، فَحَدَّثْتُهُ، فبكى بكاء شديدًا، فقلت: لو علمتُ لحدثتُك ألينَ منه، فقال: إنا نأكل العَدَس، وهي ما علمت مُرِقَّةٌ للقلب، مُغْزِرةٌ للدمعة، مُذِلَّة للجسد.

وعن عبد السلام مولى مَسلمةُ بن عبد الملك قَالَ: بكى عمر بن عبد العزيز فبكت فاطمة، فبكى أهلُ الدَّار لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلّت عنهم العبرة، قالت

---

(١) الفرق: الخوف.

(٢) كان السلف يتخذون مساجد صغيرة في بيوتهم للتعبد والتهجّد.

نه فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين مِمَّ بكيت؟ قَالَ: ذكرت منصرف القوم من بين يدي لله عَزَّ وَجَلَّ، فريقٌ في الجَنَّة وفريق في السَّعير، ثم صرخ وغُشي عليه.

عباد الله...

وكان عُمر - رَحِمَهُ الله - شديد التورّع عن أموال الدولة، يتوقّى منها وَيُحذِّر من التَّفريط فيها.

عن حفص بن عمر بن أبي الزبير، قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: أن أدِقَّ قلمك، وقارب بَيْن أسطُرك، فإني أكره أن أُخْرِج من أموال المسلمين ما لا ينتفعون به.

وعن عمر بن مهاجر: أن عمر بن عبد العزيز كانت تُسرج عليه الشمعةُ ما كان في حوائج المسلمين، فَإِذَا فرغ أطفأها وأسرج عليه سراجه.

ويروي لنا الفِهريّ عن أبيه قَالَ: «كان عمر بن عبد العزيز يقسّم تُفاح الفَيء، فتناول ابنٌ صغير له تُفاحة، فانتزعها من فِيهِ فأوجعه، فسعى إلى أُمِّه مُستعبرًا[١]، فأرسلت إلى السوق فاشترت له تفاحًا، فلما رجع عمر وجد ريح التفاح، فقال: يا فاطمة هل أتيت شيئًا من هذا الفَيء؟ قالت: لا، وقصَّت عليه القصّة، فقال: والله لقد انتزعتُها من ابني لكأنما نزعتُها من قلبي ولكن كرهتُ أن أُضيِّع نَصيبي من الله عَزَّ وَجَلَّ بتفاحةٍ من فيء المسلمين».

يا خالق هذا الإنسان سُبحانك، أرأيتم كيف ربَّى الإسلام رجاله؟!

قارنوا بين حاله وحالنا.

أما حاله فقد تقدَّم ذِكرُ بَعْضِه، وسيأتي بَعدُ المَزيد - إن شاء الله.

أمَّا حالنا فحدِّث عن الغش والنَّصب والسَّرقة والظُّلم والجُور، ولا حرج، وإلى الله المُشتكى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) أي: يبكي.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن أخلاق عُمر أيضًا: التواضع الجمّ.

دخل رجلٌ عَلَى عُمر -رَحِمَهُ الله - فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ مَن كان قبلك كانت الخلافة لهم زينًا، وأنت زَيْنُ الخِلافة، فأعرض عنه عُمر.

وعن عبد العزيز بن عُمر بن عبد العزيز قال: قال لي رجاء بن حَيْوة: ما أكمل مروءة أبيك، سَمَرتُ عنده فَعَشى السِّراج، وإلى جانبه وصيفٌ نائم، قلتُ: ألا أُنبِّهُهُ؟ قال: لا، دَعْه، قلتُ: أنا أقوم، قال: لا، ليس من مروءة الرجل استخدامه ضيفه، فقام إلى بَطَّةِ[1] الزيت، وأصلح السِّراج، ثم رجع، وقال: قمتُ وأنا عُمر بن عبد العزيز، ورجعتُ وأنا عُمر بن عبد العزيز.

وقال ابن عُيينة: قال رجل لِعُمر بن عبد العزيز: جزاك الله عن الإسلام خيرًا، قال: بل جزى الله الإسلام عنِّي خيرًا.

عباد الله ...

هكذا صنع الإسلامُ الرِّجال، فاقْتَفُوا أثرهم، والزَمُوا غَرْزَهم، وإيَّاكم وأهل الضلالة من المُلحدين والكافرين، وأصحاب الهوى، احذروهم عَلَى دينكم:

ومَـنْ يَـتَّخذ الغُـرابَ لـه دلـيلاً يَمُــرُّ بــه عَلَــى جِـيَفِ الكِــلاب

اللَّهُمَّ اهدنا، واهْدِ بنا، واجعلنا سببًا لِمَن اهتدى

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

---

(١) **البطة**: الدبة بلغة أهل مكة، لأنها تُعمل عَلَى شكل البطة من الحيوان، وهي إناء كالقارورة.

الخطبة الرابعة والسبعون:

[و] لقطات وعظات من حياة عُمر بن عبد العزيز

عبر وعظات ومواعظ تستمطر الدمع

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فهذه هي الخُطبة الأخيرة في ذِكر حياة عُمر بن عبد العزيز - رَحِمَهُ الله - نذكر فيها طرفًا من أخلاقه الحميدة، ثم نختمها بذكر وفاته رَحِمَهُ الله.

عباد الله...

والهدف مِن ذِكر هذا القَصص هو: العِبرة والتَّأسِّي، وعُلوّ الهِمّة في الطاعة، والزُّهد في الدنيا والرغبة فيما عند الله تَعالى.

فينبغي عَلَى كُل عاقل أن يَحْتَاطَ لدينه، وأن يكون ضَنِينًا بيقينه، وأن يَلْزَم غَرْزَ العُلماء، فإنهم يلزمون غَرْز النَّبيّ ﷺ، مَنْ تنكَّب سَبيلَهم هَلَك، ومَنْ لم يَلْزَم غَرْزَهم ضَلَّ فيما سَلَك[١].

أيُّها المسلمون...

عن السَّائب بن مُحَمَّد قال: «كتب الجرَّاح بن عبد الله إلى عُمر بن عبد العزيز: إن أهل خُراسان قوم ساءت رعيتُهم، وإنه لا يصلحهم إلَّا السَّيف والسَّوط، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ذَلِكَ. فكتب إليه عُمر: أما بعد.. فقد بلغني كتابك تذكر أن أهل خُراسان قَدْ ساءت رِعيَّتُهم، وأنه لا يصلحهم إلَّا السَّيف والسَّوط، فقد كذبت، بل يصلحهم العدل والحق، فابسط ذَلِكَ فيهم، والسلام».

إنه التطبيق العملي لمنهج الإسلام، إنها رحمة الدِّين الخَاتم الذي يأمر بالعدل والإحسان.

لقد كان عُمر بن عبد العزيز يتحرَّى الحقّ في كل شيء، ويطلب من كبار العلماء والصَّالحين أن يوجهوه بل ويقوُّموه.

وأخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره» عن محمد بن كعب القرظيّ - رَحِمَهُ الله - قال: «دعاني عمر بن عبد العزيز فقال: صِف لي العَدْل فقلت: بخٍّ! سألت عن أمرٍ جسيم، كُنْ لصغير الناس أبًا ولكبيرهم ابنًا، وللمِثل منهم أخًا، وللنِّساء كَذَلِك، وعاقب النَّاس على قدر ذنوبهم، وعلى قَدْر أجسادهم، ولا تضربنَّ لغضبك سوطًا واحدًا فَتُعَد من العادين».

وعن عمرو بن مهاجر قال: «قال لي عمر بن عبد العزيز: إذا رأيتني قَدْ مِلتُ عن الحقّ فَضَع يدك في تلبابي ثُم هُزَّني ثم قُل: يا عمر ما تصنع؟».

لقد رفض المحاباة، وكره الجور، وأبغض المدح والفخر، وحاسب نفسه أشدَّ المحاسبة، وحَمَلَ نفسه عَلَى الورع التَّام، فكان صورة مشرقة مضيئة للحاكم المسلم،

(١) من كلام الدكتور مُحَمَّد سعيد رسلان، حفظه الله.

ـذي قاد أُمّة الإسلام إلى الله تَعَالى، ونفسه قبلها طوعًا أَوْ كرهًا.

وعَن عمرو بن مهاجر قال: «اشتهى عُمرُ بن عبد العزيز تفاحًا، فأهدى له رجلٌ من أهل بَيته تفاحًا، فقال: ما أطيب ريحه وأحسنَه. وقال: ارفعه يا غلام للذي أتى به، وأقرِئ مَولاك السلام، وقل له: إن هديتك وقعت عندنا بحيث تُحبُّ!! فقلت: يا أمير المؤمنين، ابنُ عمّك، ورجلٌ من أهل بيتك، وقَدْ بلغك أنَّ رَسُول الله ﷺ كان يأكل الهَديَّة، قال: وَيْحك، إن الهَدِّية كانت له هَديّة، وهي اليَوم لنا رِشوةٌ».

وفارقٌ كبير – أيها المسلمون – بين الهَديَّة والرِشوة، فانتبّهوا حتى لا تَقعوا في المحظور وأنتم لا تشعرون.

ولقد كان –رَحِمَهُ الله – رفيقًا برعيّته إلى أبعد الحدود، يأخذهم باللِّين ويسوقهم إلى الله تَعَالى بالرفق.

قال شُعيب: حُدِّثتُ أنَّ عبد الملك بن عُمر بن عبد العزيز دخل على أبيه فقال: يا أمير المؤمنين ما أنت قائل لربك غدًا إذا سألك؟ فقال: رأيت بدعةً فلم تمتها أو سُنةً فلم تحيها؟

فقال أبوه: رحمك الله وجزاك من ولد خيرًا، يا بُنَيَّ إن قومك قد شدُّوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعُروْة عُرْوة، ومتى أردت مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليَّ فتقًا يكثر فيه الدِّماء، والله لزوالُ الدنيا أهون عليَّ من أن يُراق في سببي محجمة من دم، أَوَمَا ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يُميتُ فيه بدعة ويحيى فيه سُنَّةً؟.

عباد الله...

وإليكم شيئًا من مواعظه، عسى أن تُوقظ النائمين، وتنبِّه الغافلين، وتشدّ عزم السَّائرين والسَّالكين.

عَن الأوزاعيّ قال: «كتب إلينا عُمر بن عبد العزيز رسالةً، لم يحفظها غيري وغيرُ مكحول: أمّا بعد.. فإنه مَنْ أكثر ذكر الموت، رضا من الدنيا باليسير، ومَن عدَّ كلامه من عمله قلَّ كلامه إلَّا فيما ينفعه، والسَّلام».

وعن عبد العزيز بن يزيد الأيليّ قال: حجَّ سُليمان - أي: ابن عبد الملك - ومعه عُمر بن عبد العزيز، فأصابهم برقٌ ورعدٌ حَتَّى كادت تنخلع قلوبُهم، فقال سُليمان: يا أبا حفص! هل رأيت مثل هذه الليلة قطّ، أو سمعت بها؟ قال: يا أمير المؤمنين هذا صوت رحمة الله، فكيف لو سمعت صوت عذاب الله؟!

أيها المسلمون...

ومن علامات الإيمان العميق: الرضا عند حلول البلاء، ونزول المصائب.

في يوم من أيام خلافته، انتقل ولدُه عبد الملك إلى رحمة الله تَعَالَى، فتجلَّد عُمر للمصيبة، وتجرَّع ألم المُصاب بصبرٍ جميل.

عَنْ زياد بن أبي حسَّان: أنَّهُ شهد عُمر بن عبد العزيز حين دفن ابنه عبد الملك استوى قائمًا فأحاط به النَّاس فقال: «والله يا بُنَيّ لقد كنت برًّا بأبيك، والله ما زلتُ منذ وهبك الله لي مسرورًا بك، ولا والله ما كنتُ قطُّ أشد سرورًا بك ولا أرجى لحظي من الله منك مذ وضعتك في المنزل الذي صيَّرك الله إليه، فرحمك الله وغفر لك ذنبك وجزاك بأحسن من عملك، ورحم كلَّ شافع يشفع لك بخير من شاهد أو غائب، رضينا بقضاء الله وسلَّمنا لأمره، والحمد لله رب العالمين»، ثم انصرف.

فيا مَنْ حَلَّ بساحته القَضَاءُ، ونَزَل به البَلاءُ، وأحاطت به المصائبُ؛ اصْبِر وتجلَّد، واعلم أنَّ الصَّبرَ ضياء، كما قال خَاتم الأنبياء ﷺ، واسمع إلى ربك وهو يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ولله دَرُّ الشَّافعيُّ حين قال:

دَع الأيَّام تفعلُ مَا تشاءُ ... وَطِبْ نَفْسًا إذا حَكَمَ القَضاءُ

ولا تَجْزَع لحادثةِ اللَّيالي ... فما لحوادثِ الدُّنيا بقاءُ

عباد الله...

وقبل أن يموت عُمر بأيام، خطب في النَّاس خطبةً كأنها موعظة مودِّع.

عن أبي سليم الهُذَليّ قال: خطب عُمر بن عبد العزيز فقال: «أما بعد.. فإنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ

ـ يخلقكم عبثًا ولم يدع شيئًا من أمركم سُدًى، وإن لكم معادًا، فخاب وخسر مَن خرج من رحمة الله وحُرم الجَنَّة التي عرضها السموات والأرض واشترى قليلًا بكثير، وفانيًا ـ ق، وخوفًا بأمن.

ألا تَرَون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفها بعدكم الباقون؟ كذلك حتى ترد ـ خير الوارثين، في كل يوم وليلة تُشَيِّعون غاديًا ورائحًا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قضى نَحبُه وانقضى أجله حتى تُغيِّبوه في صدع من الأرض في بطن صدع ثم تدعونه غير مُمَهَّد ولا مُوسَّد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وسكن التراب، وواجه الحساب، مرتهنًا بعمله، فقيرًا إلى ما قدَّم، غنيًّا عما ترك.

فاتقوا الله قبل نزول الموت، وايم الله أني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب ما أعلم عندي، وما يُبلغني عن أحد منكم ما يسعه ما عندي إلا وددت أنه يمكنني تغييره حتى يستوي عيشنا وعيشه، وايم الله لو أردت غير ذلك من الغضارة والعيش لكان اللسان مني به ذلولا عالما بأسبابه، ولكن سبق من الله عَزَّ وَجَلَّ كتاب ناطق وسُنَّة عادلة دل فيها على طاعته، ونهى فيها عن معصيته.

ثم وضع طرف ردائه على وجهه فبكى وشهق، وبكى النَّاس، وكانت آخر خطبة خطبها[1].

عباد الله...

وكان لموت عمر قصّة، سنذكرها بعد قليلٍ - إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

(١) «صفة الصفوة» (٢/ ٨٧).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

لقد تآمر بعضُ بني أميَّة عَلَى عُمر بن عبد العزيز لما ضَيَّق عليهم وأخذ بعض ما في أيديهم ووضعه في بيت مال المسلمين كما تقدّم، فسقوه السُّم.

يقول مجاهد: قال لي عمر بن عبد العزيز: ما يقول الناس فيَّ؟ قلت: يقولون مسحور، قال: ما أنا بمسحور وإني لأعلم الساعة التي سقيتُ فيها، ثم دعا غلامًا له فقال له: ويحك ما حملك على أن تُسقيني السُّم؟ قال: ألف دينار أُعطيتها وعلى أن أُعتق، قال: هاتها، قال: فجاء بها فألقاها في بيت المال، وقال: اذهب حيث لا يراك أحدٌ[1].

وكتب عُمر وصيته إلى يزيد بن عبد الملك:

وقال قَتَادة: كتب عُمر بن عبد العزيز إلى ولي العهد من بعده: «بسم الله الرحمن الرحيم، مِن عبد الله «عمر» إلى «يزيد بن عبد الملك» سلامٌ عليك، فإنِّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد... فإني كتبت وأنا دَنِفٌ من وَجِعي، وقد علمت أني مسئولٌ عما وُليتُ، يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة، ولستُ أستطيع أن أخفي عليه من عملي شيئًا، فإن رضي عني فقد أفلحت ونجوت من الهوان الطويل، وإن سخط عليَّ فيا ويح نفسي إلى ما أصير، أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يُجيرنَي من النار برحمته، وأن يمنَّ عليَّ برضوانه والجنة، فعليك بتقوى الله، الرَّعية الرَّعية فإنك لن تبقى بعدي إلا قليلًا، والسلام».

عباد الله...

واشتدّ الألم عَلَى عُمر وظهرت عليه آمارات الموت، ودخل عليه مَسْلمةُ بن

(١) «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (٢٤٦).

عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين إنك أفقرت أفواه ولدك مِن هذا المال وتركتهم عَيلةً لا شيء لهم، فلو وصيت بهم إليَّ وإلى نظرائي من أهل بيتك؟

فقال: «أسندوني، ثم قال: أمَّا قولك إني أفقرتُ أفواه ولدي من هذا المال، فوالله إني ما منعتهم حقًّا هو لهم، ولم أعطهم ما ليس لهم، وأما قولك لو أوصيت لهم، فإن وصيي ووليي فيهم الله الذي نزَّل الكتاب وهو يتولَّى الصَّالحين.

بنيّ أحد الرجلين: إمَّا رجلٌ يتقي الله فسيجعل الله له مخرجًا، وإمَّا رجلٌ مكبّ عَلَى المعاصي، فإني لم أكن أقويه عَلَى معاصي الله، ثم بعث إليهم وهم بضعة عشر ذكرًا، فلما أتوه، نظر إليهم فذرفت عيناه، ثم قال: «بنفسي الفَتيةُ الذين تركتهم عَيلة لا شيء لهم[1]، فإني بحمد الله قَدْ تركتهم بخير.

أي بَنيّ إن أباكم مَثُلَ بين أمرين: بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار، أَوْ تفتقروا ويدخل أبوكم الجَنَّة، فكان أن تفتقروا ويدخل الجَنَّة أحبُّ إليه من أن تستغنوا ويدخل النار، قوموا عصمكم الله».

قال المغيرة بن حكيم: قلتُ لفاطمة بنت عبد الملك: كُنتُ أسمع عمر بن عبد العزيز في مرضه يقول: اللَّهُمَّ أخف عليهم أمري ولو ساعة، قالت: قلت له - أي عمر -: ألا أخرجُ عنك، فإنك لم تنم، فخرجتُ، فجعلت أسمعه يقول: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالـعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [القصص: ٨٣]، مرارًا، ثم أطرق، فلبثتُ طويلًا لا يسمع له حسٌّ، فقلت لوَصِيف: ويحك ! انظر، فلما دخل، صاح، فدخلتُ فوجدتُه ميّتًا، قَدْ أقبل بوجهه على القبلة، ووضع إحدى يديه على فِيهِ، والأُخرى على عينيه[2].

قَالَ الإمامُ السيوطي: تُوفيِّ عُمر بن عبد العزيز رَضِيَ الله عَنْهُ بِدير سِمْعان - بكسر

---

(١) تتبع أهل السِّير ولد عُمر بن عبد العزيز، فرأوا كل ولد منهم قَدْ ملك بعد وفاة أبيه مساحات من الأرض كبيرة، قَدْ أغناهم الله الكريم من فضله، ورأوا بعض أولاد خلفاء بني أمية يتكففون النَّاس، إن في ذَلِكَ لعبرة.

(٢) إسناده قوي: أورده أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٣٥)، وقال الأرناؤوط في تعليقه عَلَى السير (٥/ ١٤٢): سنده قوي.

السين - من أعمال حِمْص لعشر بقين، وقيل: لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة، وله حينئذ تسع وثلاثون سنة وستة أشهر، وكانت وفاته بالسُّم كانت بنو أميَّة قد تَبَرَّموا به لكونه شدَّد عليهم وانتزع من أيديهم كثيرًا مما غصبوه، وكان قد أهمل التحرُّز فسقوه السُّم[1].

وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأيامًا.

قال أيوب: قيل لعمر بن عبد العزيز: لو أتيت المدينة فإن مُتَّ دُفنت في موضع القبر الرابع مع رَسُول الله ﷺ، فقال: «والله لئِن يُعذبني الله بكل عذاب إلّا النَّار أحَبُّ إليَّ مِن أن يعلم الله منِّي أنِّي أراني لذلك الموضع أهلًا».

أدب تامّ، واحترام كبير، رحمك الله يا أمير المؤمنين، ورضي الله عنك.

اللَّهُمَّ مَن أحيَيْتَه منَّا فأحيِه عَلَى الإسلام، ومَنْ توفَّيتَه مِنَّا فتوفَّاه عَلَى الإيمان

آمين... آمين... آمين

✡✡✡✡✡

(١) «تاريخ الخلفاء» (٢٤٦).

الخطبة الخامسة والسبعون:

[أ] لقطات وعظات من حياة: أبي مُسلم الخولانيّ

مجاهدة النفس

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد روى الإمام أحمد في «المسند» والترمذي (١٦٢١) بإسنادٍ حسن عن فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِي الله عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلاَّ الَّذِى مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُنْمَى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَيَأْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ**». وَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ**».

وعَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِهٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ

الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ[(١)]، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلَامِ فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ؟ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ.

ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَةِ فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟ وَإِنَّمَا مَثَلُ المُهَاجِرِ كَمَثَلِ الفَرَسِ فِي الطِّوَلِ[(٢)]، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ.

ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ المَرْأَةُ وَيُقْسَمُ المَالُ؟ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ»[(٣)].

عباد الله...

بيَّن النَّبيُّ ﷺ في هذين الحديثين فضل مُجاهدة النَّفس، وثمرة مجاهدتها.

والنُّفوس تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

١- **النَّفْسُ الأمَّارةُ:** وهِيَ التِي تُمِيلُ إلى الطَّبيعَةِ البَدَنِيَّةِ وتَأمُرُ باللَّذَّاتِ والشَّهواتِ الحِسِّيَّةِ، وتَجْذِبُ القَلْبَ إلى الجِهَةِ السُّفليَّة، فَهِيَ مَأوَى الشُّرُورِ، ومَنْبَعُ الأخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ. (وَهَذِهِ هي النَّفْسُ التي يَجِبُ مُجَاهَدَتُهَا).

٢- **النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ:** وهِيَ التِي تَنَوَّرَت بِنُورِ القَلْبِ قَدْرَ مَا تَنَبَّهَتْ بِهِ عَنْ سِنَةِ الغَفْلَةِ، وكُلَّمَا صَدَرَت عَنْهَا سَيِّئَةٌ بِحُكمِ جِبِلَّتِهَا أخَذَت تَلُومُ نَفْسَهَا.

٣- **النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ:** وهِيَ التِي تَمَّ تَنَوُّرُهَا بِنُورِ القَلْبِ، حَتَّى انْخَلَعَتْ عَنْ صِفَاتِهَا الذَّمِيمَةِ وتَخَلَّقَت بالأخلاقِ الحَمِيدَةِ[(٤)].

وقالَ الجَاحِظُ: وللنَّفْسِ ثَلاثُ قُوَى، وَهِيَ تُسَمَّى أيضًا نُفوسًا، وَهِيَ:

- **النَّفْسُ الشَّهْوَانيَّةُ:** ويَشْتَرِكُ فِيهَا الإنْسَانُ وسَائِرُ الحَيَوَانِ.

---

(١) يريد جمع طريق.

(٢) الطول: الحبل.

(٣) إسناده حسن: رواه النسائي (٦/ ٢١، ٢٢)، وحسنه الحافظ في «الإصابة» (٣/ ٦٤).

(٤) «التعريفات» (٢٦٣) بإيجاز وتصرف يسير.

- النَّفْسُ الغَضَبِيَّةُ: وهيَ أيضًا قَاسِمٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الإنْسَانِ والحَيَوانِ.
- النَّفْسُ النَّاطِقَةُ: وهِيَ التي يَتَمَيَّزُ بِهَا الإنْسَانُ عَلَى سَائِرِ الحَيَوانِ[١].

مجاهدة النَّفس:

مُحَارَبَةُ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بالسُّوءِ بِتَحمِيلِهَا مَا يَشُقُّ عَلَيْهَا بِمَا هُوَ مَطْلُوبٌ في الشَّرْعِ[٢].

وقَالَ المُنَاوِيُّ: وَقِيلَ المُجَاهَدَةُ هِيَ حَمْلُ النَّفْسِ عَلَى المَشَاقِّ البَدَنِيَّةِ ومُخَالَفَةُ الهَوَى، وقِيلَ: هِيَ بَذْلُ المُستَطَاعِ في أمْرِ المُطَاعِ - أي المَولَى عَزَّ وَجَلَّ[٣].

عباد الله...

فَإِذَا بَذل المُسلم المستطاع في أمر المطاع سُبْحَانَهُ وَتَعَالى، وحمَل نَفسه عَلَى مُخالفة هَوى، ارتقى في منازل العبوديّة، ووصل إلى درجة الولاية، فأجرى الله عَلَى يديه الخَير، وعصمه من الشُّبهات المردية، والشهوات الدنيَّة، وقَدْ تظهر عَلَى يديه الكرامات.

وضيفنا في هذا اليَوم تابعيٌّ جليل، جاهد نفسه في الله، حَتَّى وصل إلى درجة الولاية.

فمن هو؟

هو أبو مُسلم الخَولانيّ، عبد الله بن ثُوَب، سيِّد التَّابعين وزاهدُ العصر، حكيم الأُمَّة، وأحد الأعلام، مِن خَولان ببلاد اليمن، أسلم في أيَّام النَّبي ﷺ وأتى المدينة وقَدْ قُبض النَّبيُّ ﷺ واستُخلف أبو بكر.

ومن فضائل هذا العبد الصَّالح:

قَالَ عبد الملك بن عُمَير: كان أبو مُسلم الخَولانيّ إذا استسقى سُقِي[٤].

وقال علقمة بن مرثد: انتهى الزُّهد إلى ثمانية من التَّابعين، منهم أبو مُسلم الخَولانيّ.

---

(١) «تهذيب الأخلاق» للجاحظ (١٥).

(٢) كتاب «التعريفات» (٢٠٤).

(٣) «التوقيف» (٢٩٧)، وانظر «نضرة النعيم» (٣٣٠٥).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١١).

وقال مالك بن دينار: بلغنا أن كعبًا رأى أبا مُسلم فقال: مَن هذا؟ قالوا: هذا أبو مُسلم الخَولانيّ، قَالَ: هذا حكيم هَذِهِ الأُمَّة.

وقال أحمد بن حنبل: حُدِّثنا عن مُحَمَّد بن شعيب عن بعض المشيخة، قَالَ: أقبلنا من أرض الروم فمررنا بالعُمَيرِ عَلَى أربعة أميال من حِمص في آخر الليل، فاطَّلع راهبٌ من صومعة، فقال: هل تعرفون أبا مُسلم الخولانيّ؟ قلنا: نعم، قَالَ: إذا أتيتموه فأقرِؤوه السلام، فإنا نجده في الكتب: رفيقَ عيسى ابن مريم، أما إنكم لا تجدونه حيًّا، قَالَ: فلما أشرفنا عَلَى الغوطة، بلغنا مَوتُهُ.

عباد الله...

ويحدِّثنا بعضُ مَن عاصروه ببعض الكرامات التي أجراها الله عَلَى يديه:

عن شُرحبيل بن مُسلم الخولاني قال: بينا الأسود بن قيس العنسي تنبأ[1] باليمن فأرسل إلى أبي مسلم فقال له: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، قال: فتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: فأمر بنار عظيمة فأججت فطرح فيها أبو مسلم فلم تضره، فقال له أهل مملكته: إن تركت هذا في بلادك أفسدها عليك.

فأمره بالرحيل فقدم المدينة وقد قُبض رَسُولُ الله ﷺ واستُخلف أبو بكر فقام إلى سارية[2] من سواري المسجد يُصلِّي، فبصر به عمر بن الخطاب فقال: من أين الرجل؟ قال: من اليمن.

قَالَ عمر: فما فعل عَدوُّ الله بصاحبنا الذي حرقه بالنار فلم تضره؟

فقال أبو مسلم: ذاك عبد الله بن ثُوَب[3].

قَالَ عمر: نشدتك بالله أنت هو؟

قال: اللَّهُمَّ نعم.

قال: فَقبَّل ما بين عينيه، ثم جاء به حتى أجلسه بينه وبين أبي بكر، وقال: الحمد لله

---

(١) أي: ادَّعى النبوة.

(٢) عمود.

(٣) اسم أبي مسلم.

الذي لم يُمتني حتى أراني من أُمّة محمد ﷺ مَنْ فُعل به كما فُعل بإبراهيم خليل الرحمن عليه السلام[١].

وروى عثمان بن عطاء عن أبيه قال: كان أبو مسلم الخَولاني إذا انصرف من المسجد إلى أهله كبَّر على باب منزله فتُكبّر امرأته، فإذا كان في صحن داره كبَّر فتجيبه امرأته.

فانصرف ذات ليلة فكبَّر عند باب داره فلم يجبه أحد، فلما كان في الصحن كبَّر فلم يجبه أحد، فلما كان في باب بيته كبّر فلم يجبه أحد، وكان إذا دخل بيته أخفت امرأته رداءه ونعليه ثم أتته بطعامه. قال: فدخل فإذا البيت فيه سراج وإذا امرأته جالسة منكسة تنكث بعودٍ معها - أي تضرب به الأرض - فقال لها: ما لك؟ قالت: أنت لك منزلة من معاوية[٢] وليس لنا خادم، فلو سألته فأخدمنا وأعطاك.

فقال: اللَّهُمَّ من أفسد عليَّ امرأتي فأعمِّ بَصَرُهُ.

قال: وكانت قد جاءتها امرأة قبل ذلك فقالت: زوجك له منزلة من معاوية فلو قُلتِ له كتب إلى معاوية بخدمة، ويعطيه، عِشْتُم.

قال: فبينا تلك المرأة جالسة في بيتها أنكرت بصرها فقالت: ما لسراجكم طُفيء؟ قالوا: لا، فعرفت ذنبها فأقبلت إلى أبي مسلم تبكي وتسأله أن يدعو لها الله عَزَّ وَجَلَّ أن يَرُد عليها بصرها. فرحمها أبو مسلم فدعا الله عَزَّ وَجَلَّ فرد عليها بصرها[٣].

عباد الله...

لم يَصِل أبو مُسلم لِما وصل إليه مِن فراغ، ولكنه جاهد نفسه في الله فحملها عَلَى طاعة الله طَوعًا وكَرهًا، فأفاض الله تَعَالَى عليه مِن نوره، وأضفى عليه مهابةً وحلاوةً.

يقول عثمان بن أبي العاتكة: علَّق أبو مُسلم سَوطًا في المسجد، فكان يقول: أنا أولى

---

(١) انظر «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص١٥٩)، و«الحلية» (٢/ ١٢٨)، و«البداية» (٥/ ٦٥١)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٩)، وقال الذهبي: رواه عبد الوهاب بن نجدة، وهو ثقة، عن إسماعيل، لكن شرحبيل أرسل الحكاية.

(٢) كان أبو مسلم قَدْ رحل إلى الشام، واستقرّ به المقام هناك.

(٣) أخرجه ابن عساكر (٩/ ١٩)، وانظر «تاريخ الإسلام» (٣/ ١٠٥).

بالسَّوط من البهائم، فَإِذَا فتر مشق ساقيه[١] سوطًا أو سَوطَين، وكان يقول: لو رأيتُ الجَنَّة عيانًا أو النار عيانًا، ما كان عندي مستزاد.

وعن شُرحبيل: أن رجلين أتيا أبا مُسلم، فلم يجداه في منزله، فأتيا المسجد فوجداه يركع، فانتظراه، فأحصى أحدهما أَنَّهُ ركع ثلاثمائة ركعة، والآخر أربعمائة ركعة قبل أن ينصرف، فقالا له: يا أبا مسلم كنا قاعدين خلفك ننتظرك، فقال: إني لو عرفت مكانكما لانصرفتُ إليكما أن تحفظا عليَّ صلاتي، وأقسم لكما بالله إن خير كثرة السجود ليوم القيامة.

وعن عطية بن قيس قَالَ: دخل ناسٌ من أهل دمشق عَلَى أبي مسلم وهو غازٍ في أرض الروم، وقَدْ احتفر جُورة في فُسطاطه[٢]، وجعل فيه نِطْعًا وأفرغ فيه الماء وهو يتَصلّق فيه[٣] وهو صائم، فقالوا: ما حملك عَلَى الصيام وأنت مسافر؟ قَالَ: لو حَضَر قتالٌ لأفطرتُ، ولتهيأتُ له وتقوَّيتُ، إن الخيل لا تجري الغايات[٤] وَهُنَّ بُدَّن، إنَّما تجري وهنَّ ضُمَّر، ألا وإن أيامنا باقية جائية لها نَعمل.

وكان - رَحِمَهُ الله تَعَالَى - يقول: لو قيل إن جهنم تُسعَّر ما استطعتُ أن أزيد في عملي.

عباد الله...

إنَّ جِهَادُ النَّفْسِ أَسَاسٌ كَبيرٌ في تَهيُّؤِ الإنْسَانِ للخِلافَةِ في الأرْضِ، وحتَّى تَطْهُرَ تِلكَ النَّفسُ بِالمُجاهَدَةِ فإنَّ لِذَلِكَ أسبَابَهُ ودَوَاعِيَهُ.

يَقُولُ الرَّاغِبُ: «والذي يُطَهِّرُ النَّفْسَ: العِلمُ والعِبَادَاتُ المُوظَّفَةُ التي هي سَببُ الحيَاةِ الأُخرَويَّةِ، كَمَا أنَّ الذي يَطْهُرُ بِهِ البَدَنُ هُوَ المَاءُ الذي هُوَ سَبَبُ الحَيَاةِ الدُّنيويَّةِ، ولِذَلِكَ سَمَّاهَا: الحَيَاة، وسُمِّي مَا أنزَلَ الله تَعَالى في كِتَابِهِ المَاءَ، فَقَالَ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**

---

(١) **مشق ساقيه**: ضربهما بسرعة.
(٢) **الفسطاط**: البيت من الشَّعر (الخيمة).
(٣) **تصلق**: تقلّب وتلوّى عَلَى جنبيه.
(٤) **الغايات**: النهايات.

ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فَسَمَّى العِلمَ والعِبَادةَ حَيَاةً، من حَيثُ إنَّ النَّفْسَ مَتى فَقَدَتهما هَلَكَت هَلاكَ الأبَدِ، كَمَا قالَ في وصفِ الماءِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وَطَهَارَةُ النَّفْسِ تَتَحَقَّقُ بإصْلَاحِ الفِكْرِ بالتَّعَلُّم حَتَّى يَميزَ بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ في الاعتِقَادِ، وبين الصِّدقِ والكَذِبِ في المَقَالِ، بَيْنَ الجَمِيلِ والقَبيحِ في الفِعَالِ، وإصْلَاحِ الشَّهوَةِ بالعِفَّةِ حَتَّى تَسْلَسَ بالجُودِ، والمُوَاسَاةِ المحمُودَةِ بِقَدْرِ الطَّاقةِ، وإصْلَاحِ الحَمِيَّةِ بإِسْلَاسِها حَتَّى يَحصُلَ التَّحَكُّمُ، وَهُوَ كَفُّ النَّفْسِ عن قَضَاءِ وَطَرِ الخَوفِ وعنِ الحِرصِ المَذمُومَينِ، وبإصْلَاحِ هَذِهِ القُوَى الثَّلاثِ يَحصُلُ للنَّفْسِ العَدَالَةُ والإحْسَانُ»[١].

فجاهدوا أنفسكم - عباد الله - في الله، واجعلوا نُصب أعينكم قوله تَعَالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وفَّقني الله تَعَالى وإيَّاكم لطاعته، ووصلني وإيَّاكم بِمَراضيه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فيقول بعض العارفين في قوله تَعَالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾: ومن جملة المجاهدات: مُجاهدةُ النَّفْس بالصَّبر عند الابتلاء، لِيعْقُبَ ذَلِكَ أُنسَ الصَّفَاءِ، ويَنْزَعَ عنه لباسَ الجَفَاءِ[٢].

وقال العلَّامة السَّعْدي - رَحِمَهُ الله تَعَالى - في تفسيره لهذه الآية: «قوله تَعَالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ وهم الذين هاجروا في سبيل الله، وجاهدوا أعداءهم، وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنهم محسنون.

(١) «الذريعة» للراغب (٣٨، ٤٨).
(٢) «دليل الفالحين» (١/ ٣٠٢).

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالعون والنصر والهداية. دل هذا على أن أحرى النَّاس بموافقة الصَّواب أهل الجهاد، وعلى أن مَنْ أحسن فيما أمر به؛ أعانه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جَدَّ واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهيَّة، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم. فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نَوْعَي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين» ا.هـ[١].

عباد الله...

إنَّ النَّفْس لأمَّارةٌ بالسُّوء، تدعو صاحبها إلى الشَّهوات المحرَّمة كالزنا وشُرب الخمر، والتعامل بالرِّبا، وقذف المُحصنات، وأكل الحرَّام، وغير ذَلِكَ مِن سائر المحرَّمات.

كما تدعو صاحبها إلى ترك الصَّلوات، وتضيع سائر الواجبات، والتَّفريط في القُربات والتطوعات.

والعلاج الناجع لها لتستقيم: هو المُجَاهدة.

ولقد ذكر الحافظ ابن رجب -رَحِمَهُ الله - في «جامع العلوم والحكم» (١٧١): أن رجلًا سأل عَبْد الله بنَ عُمر رَضِيَ الله عَنْهُمَا عن الجِهاد، فقال له: «ابدأ بِنَفْسِك فَجَاهِدها، وابدأ بنفسِك فاغْزُها».

۞۞۞۞۞

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (٦٣٦).

الخطبة السادسة والسبعون:

[ب] لقطات وعظات من حياة: أبي مسلم الخولاني

[أ] الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشّيطان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن الكرامة ثابتة لأولياء الله الصَّالحين، اتفق عَلَى ذَلِكَ أهل السُّنَّة والجماعة.

وفي هذه الخطبة وبمناسبة الحديث عن كرامات الأولياء، نتكلم - إن شاء الله تَعَالَى - عن «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان».

وذلك لأنَّ الأمر اختلط عَلَى كثير من النَّاس، فقد ظنَّ مَنْ لا علم عنده؛ أن أولياء الله جماعةٌ مِن البُلْه - يهرفون بما لا يعرفون - بَوَّالون عَلَى أعقابهم، يسيل لعابُهم عَلَى صدورهم!!

كما اعتقد كثير من النَّاس أن أولياء الله قومٌ سقطت عنهم التكاليف، فيُباح لهم م حُرِّم عَلَى غيرهم!!

عباد الله...

إن هناك فرقًا بين أولياء الرَّحمن وأولياء الشَّيطان.

« وإذا عُرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء كما فرق الله ورسوله بينهما، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ [يونس:٦٢، ٦٣].

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وليًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ ولابُدَّ لَهُ مِنْهُ**»[(١)] اهـ[(٢)].

قَالَ الشيخ صالح عبد العزيز آل الشيخ - حفظه الله - في شرحه لهذا الحديث[(٣)]:

«الفرائض أحب إلى الله جل وعلا من النوافل، وزيادة تقرب العبد بالنوافل سبب في محبة الله جل وعلا لعبده قال: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ**» سمعَه يعني يسدد في سمعه، كان الله سمع الولي يعني سدده في سمعه فلا يسمع إلا ما يحب ربه ومولاه: «**وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ**» يعني أسدده في بصره فلا يبصر إلا ما أحب، ولا يستأنس في بصره إلا بما أحب: «**وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**» يعني يسدد في هذا كله؛ فلا يبطش بيده إلا فيما أذن الله جل وعلا به، ولا يمشي برجله إلا بما يحب الله جل وعلا،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِي الله عَنْهُ.
(٢) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٦).
(٣) في شرحه لكتاب «الفرقان» (٧- ٩).

قال: «**وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ**» يعني أنه مجاب الدعاء، «**وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ ولابُدَّ لَهُ مِنْهُ**» التردد هنا، تكلم عليه أهل العلم بكلمات وأصح ذلك أن التردد مثل الصفات الأخر التي هي صفة المكر والاستهزاء ونحو ذلك من جهة أنّه يكون نقصا ويكون كمالا:

فيكون نقصًا إذا كان التردد مع عدم علم بالعاقبة؛ لأنّه يكون من نتائج الجهل، فالمتردد يتردد ويكون نقْصا في حقه أنه تردد؛ لأنه لا يعلم العاقبة، أو لخوفه وعدم جرأته على الأمر، أو لعدم قدرته عليه؛ يشك هل هو يقدر أو لا يقدر، أو هل سيقوى أو لا يقوى، وعدم علمه بالعاقبة هي سبب هذا التردد، وهذا التردد نقص وهذا منفي عن الله جل وعلا.

والنوع الثاني وهو تردد بين أمرين كل منهما هو حق ومحمود في نفسه، لكن يختلف الاختيار بحسَب تعلقه بالمختار له، مثل - في حياة البشر- تريد أن تشتري لمن تحب شيئا، تردد بين هذا وهذا لا من جهة عدم علمك بالأفضل، ولكن من جهة الإكرام...، هذا التردد ليس بنقص، أنت الآن بين كرم وبين أكرم، فهذا ليس نقصا، هذا تردد فيما يناسب المختار له، هذا هو الذي من جنسه جاء هذا الحديث، (**وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ**) هذا التردد الحق، التردد الذي هو كمال الذي لا نقص فيه، بوجه من الوجوه.

هذا من أحسن الأجوبة على ذلك وهو طريقة المحققين.

◆ السمع والبصر معنويان؛ يعني نوعان من أنواع الإدراكات معنويان، تشوف السمع؟ ما تشوفه، تشوف البصر؟ ما تشوفه، لكن اليد والرجل هذا ظاهران، فمثل بشيئن معنويين وبشيئين ظاهرين، وهذا له نظائر في القرآن: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ**﴾ [الفرقان: ٤٤]، ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وكقوله في آخر السورة: ﴿**أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ**﴾ [الأعراف:١٩١، ١٩٢] إلى آخر الآيات، المقصود من ذلك أنه يُرد التمثيل بالحواس، فهذا ليس المراد به الحصر؛ كنت سمعه وبصره وأيضا لسانه

وفهمه وتفكيره، خذ فيه رواية موضوعة يستدل بها الصوفية وهي مكذوبة في هذا الحديث بعد قوله: (**وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وحتى يقول للشيء كن فيكون**)، هذه موجودة في بعض كتب الحديث مسندة لكنها موضوعة، يستدل بها بعض الصوفية في أن الله جل وعلا يُعطي الأولياء ملكوته يتصرفون فيه بما يريدون، وهذا باطل من جهة الاستدلال وباطل من جهة الأصول القطعية على أنّ الله جل وعلا لا ينازعه أحد في ملكه وليس له شريك في مُلكه» ا.هـ.

قَالَ شيخ الإسلام: «وأصل الولاية المحبَّة والقُرب، وأصل العداوة البغض والبعد»[(١)].

وقد قيل: أن الولي سُمِّي وليًّا من موالاته للطاعات أي متابعته لها والأول أصح والولي القريب فيقال هذا يلي هذا؛ أي يقرب منه.

ومنه قوله ﷺ: «**أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَهْوَ لأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ**»[(٢)]. أي لأقرب رجل إلى الميت، وأكده بلفظ الذكر ليبين أنه حكم يختص بالذكور ولا يشترك فيه الذكور والإناث كما قال في الزكاة «**فابن لبون ذكر**»[(٣)]، فإذا كان ولي الله هو الموافق

---

(١) قال الشيخ صالح آل الشيخ: هذا الأصل في الموالاة والمعاداة هو القدر الواجب في الولاء والبراء، القدر الذي به فلا يصح الإسلام، فلا يصح إسلام أحد حتى يكون عنده موالاة ومعاداة؛ عنده ولاء وبراء.

الولاء الذي يصحّ به أصل الإسلام: هو المحبة؛ محبة الله، محبة دينه، محبة رسوله، محبة توحيده، هذه المحبة هي الأصل، لها لاوازم في الظاهر، هذه لها أحكامُها.

العداوة أو البراء: هو بغض الشرك، بغض الضلال، بغض الشيطان، بغض عبادة غير الله، بغض الكفر، هذا القدْر هو الشرط من لم يأتِ به فلا إسلام له.

فكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) هذه مشتملة على الولاء والبراء، مشتملة على الموالاة والمعاداة، لكن الولاء والبراء منه قدر مجزئ لا يصح إسلام أحد إلا به؛ يعني مجزئ في صحة الإسلام، ومنه قدْر آخر واجب لكن ليس شرطا في الصحة، القدْر الواجب هو ما كان من قبيل الحب والبغض، أصل المعنى، وهو الموجود في القلب، فمحبة التوحيد وبغض الشرك هذا أصل في الإسلام وهو معنى الولاء والبراء ومعنى كلمة التوحيد، فمن لم يكن عنده حب للتوحيد وبغض للشرك فلا إسلام له أصلا، بخلاف محبة أهل التوحيد، محبة أهل الشرك ونحو ذلك، فهذه فيها أحوال وتفصيلات.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٤٨).

لمتابع له فيما يحبه ويرضاه ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه، كان المعادي لوليه معاديا له كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة:١]، فمن عادى أولياء الله فقد عاداه ومن عاداه فقد حاربه فلهذا قَالَ: «مَنْ عَادَى لِي وليًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ»(١) وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وعليهم وسلم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٧، ٨].

وأفضل أولي العزم محمد ﷺ خاتم النبيين وإمام المتقين وسيد ولد آدم وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا وخطيبهم إذا وفدوا، صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، وصاحب لواء الحمد وصاحب الحوض المورود وشفيع الخلائق يوم القيامة وصاحب الوسيلة والفضيلة الذي بعثه الله بأفضل كتبه وشرع له أفضل شرائع دينه وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم وهم آخر الأمم خلقا وأول الأمم بعثا، كما قال ﷺ في

---

(١) قَالَ الشيخ صالح آل الشيخ مُعلِّقًا: هذا من شيخ الإسلام ذكر لبعض شروط الولي من جهة اللغة فإنه فسّر لفظ الولي والموالاة بما تضمنه كلامه السابق وفيه شروط الولي، فمن شروطه:

- يأمر بما أمر الله يأتمر بذلك.
- ينهى ما ينهى عنه الله وينتهي عن ذلك.
- يرضى ما يرضي الله ويسخط ما يسخط الله جل وعلا.
- ويحب ما أحب الله ويبغض ما أبغض الله.

فهذا جاء من جهة اللغة مع ضميمة أيضا الذين آمنوا وكانوا يتقون، تخلص من ذلك إلى أن صفات الأولياء التي منها ماهو صفة شرط؛ يعني صفة إذا لم توجد لم يكن وليا مأخوذة من قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يعني كلمة الإيمان والتقوى، ومأخوذة أيضا من جهة اللفظ؛ لفظ الولي؛ لأن الولي هو المحب التابع الناصر، وهذه المحبة تقتضي موافقته فيما أحب، موافقته فيما نهى عنه جل وعلا، وهكذا، وهذا من نوع الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان ا.هـ.

الحديث الصحيح: «نَحْنُ الآخِرُونَ السابقون، بَيْدَ أَنَهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فهذا اليوم الذي كتب الله عليهم، فاختلفوا فيه، -يعني يوم الجمعة- فهدانا الله له، فالنَّاسُ لَنَا تَبَعٌ فِيهِ، غَداً لِلْيَهُودُ، وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى» (١).

وقال ﷺ : «وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقَ عَنْهُ الأَرْضُ» (٢)، وقال ﷺ : «آتِي بَابَ الجَنَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ. فَأَسْتَفْتِحُ. فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لاَ أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ» (٣).

وفضائله ﷺ وفضائل أمته كثيرة ومن حين بعثه الله جعله الله الفارق بين أوليائه وبين أعدائه، فلا يكون وليًا لله إلا من آمن به وبما جاء به واتبعه باطنا وظاهرا، ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله بل من خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

قال الحسن البصري رحمه الله: ادعى قوم إنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنة لهم، وقد بين الله فيها أن من اتبع الرسول فإن الله يحبه ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول ﷺ فليس من أولياء الله، وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء الله ولا يكونون من أولياء الله، فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه قال تعال ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة:١٨] الآية، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١١، ١١٢]، وكان مشركو العرب يدعون إنهم أهل الله لسكناهم مكة ومجاورتهم البيت وكانوا يستكبرون به على غيرهم كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٦، ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال:٣٠-٣٤]،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٨)، ومسلم (٨٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٨١) بلفظ: «فأكون أول من تنشق عنه الأرض»، ومسلم (٢٢٧٨) بلفظ: «وأول من ينشق عنه القبر».

(٣) أخرجه مسلم (١٩٧).

فبين سبحانه أن المشركين ليسوا أولياءه ولا أولياء بيته إنما أولياؤه المتقون.

وثبت في الصحيحين عن عمرو بن العاص ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول جهارا من غير سر: «**إنّ آل فلان ليسوا لي بأولياء – يعني طائفة من أقاربه– إنما ولي الله وصالح المؤمنين**»[١]. ا.هـ[٢].

عباد الله...

وذكر الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أولياء الشيطان فقال: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ**﴾ [النحل:٩٨-١٠٠].

وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾ [النساء:٧٦]، وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا**﴾ [الكهف:٥٠]، وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَّخِذْ الشَّيْطَانَ وليًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا**﴾ [النساء:١١٩].

وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٥].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا**﴾ إلى قوله: ﴿**إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [الأعراف:٢٧-٣٠].

وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ**﴾ [الأنعام:١٢١].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥).

(٢) «الفرقان» (١١ – ١٣).

وقال الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ [مريم:٤٥].

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الممتحنة:١-٥].

عباد الله...

ومِمَّا سبق يتبيَّن لنا الفارق الكبير بين أولياء الرَّحمن وأولياء الشَّيطان، حَتَّى لا يُلبِّس الشَّيطان علينا أمر ديننا.

اللَّهُمَّ أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، ولا تجْعَله مُلْتَبِسًا علينا فَنَضِلّ.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومِمَّا ينبغي معرفته: «أن الوَلاية ليست على مرتبة واحدة، وأنّ الأولياء متفاوتون، وذاك لأنّ شرطي الوَلاية الإيمان والتقوى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٢، ٦٣]، ومن المتقرر أنّ الإيمان في أهله متفاضل، وأنّ التقوى في أهلها متفاضلة، فنتج من ذلك أن ما ترتب منهما وهي الوَلاية تتفاضل؛ لأنّ الإيمان متفاضل والتقوى متفاضلة، فالوَلاية متفاضلة، فالولي قد يكون عنده بعض نقص، في الإيمان والتقوى، ولكن هو له نصيب من وَلاية الله جل وعلا لما معهم من الإيمان والتقوى، لهذا نقول كل مؤمن له نصيب من الوَلاية وليس كل مسلم، لكن كل مؤمن عنده إيمان له نصيب من ولاية الله جل وعلا، وهؤلاء يتفاوتون، ومَنْ وصل إلى مرتبة الإيمان فهو من أولياء الله إذا كان من المتقين، لكن درجته فيه مختلفة، وسبب نقص الإيمان أو نقص التقوى في الولي ليس هو ارتكاب المعاصي، وإنما هو إما من جهة الاقتصاد، وإما من جهة أنّه لم يسابق في الخيرات.

فإذًا الأولياء ليسوا بظالمي أنفسهم، وإنما هم من المؤمنين المتقين، والمتقي أقلّ درجاته أن يكون تاركًا للمحرّمات ممتثلًا للواجبات، وأكمل درجات هؤلاء: أن يكون مسابقًا في الخيرات»[1].

وللحديث بقية إن شاء الله.

✡✡✡✡✡

(١) من تعليق الشيخ صالح آل الشيخ عَلَى كتاب «الفرقان» (٢٨).

الخطبة السابعة والسبعون:

[جـ] لقطات وعظات من حياة: أبي مُسلم الخَولاني

[ب] الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن «**الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**» سائلًا المولى التوفيق.

عباد الله...

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة -رَحِمَهُ الله -: «وأولياء الله على طبقتين، سابقون مقربون وأصحاب يمين مقتصدون، ذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه العزيز في أول سورة

الواقعة وآخرها، وفي سورة الإنسان، والمطففين، وفي سورة فاطر، فإنه سبحانه وتعالى ذكر في الواقعة القيامة الكبرى في أولها، وذكر القيامة الصغرى في آخرها فقال في أولها ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا * وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة:١-١٤].

فهذا تقسيم الناس إذا قامت القيامة الكبرى التي يجمع الله فيها الأولين والآخرين، كما وصف الله سبحانه ذلك في كتابه في غير موضع ثم قال تعالى: في آخر السورة ﴿فَلَوْلَا﴾ أي فهلَّا ﴿إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٨٣-٩٦].

وقال تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا * إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان:٣-١٢] الآيات.

وكذلك ذكر في سورة المطففين فقال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ إلى أن قال ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:١٨-٢٨].

وعن ابن عباس رَضِيَ الله عَنْهُمَا وغيره من السلف قالوا يمزج لأصحاب اليمين

مزجا ويشرب بها المقربون صرفا، وهو كما قالوا فإن الله تعالى قَالَ: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ ولم يقل: (يشرب منها) لأنه ضمَّن ذلك قوله: ﴿يَشْرَبُ﴾ يعنى يروى بها، فإن الشارب قد يشرب ولا يروى. فإذا قيل: (يشربون منها) لم يدل على الري، فإذا قيل: (يشربون بها) كان المعني يروون بها، فالمقربون يروون بها فلا يحتاجون معها إلى مادونها، فلهذا يشربون منها صرفًا، بخلاف أصحاب اليمين فإنها مزجت لهم مزجا وهو كما قال تعالى: في سورة الإنسان: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٥، ٦]، فعباد الله هم المقربون المذكورون في تلك السورة وهذا لأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر.

وقد ذكر النبي ﷺ عمل القسمين في حديث الأولياء فقال: «يَقول اللَّهَ: مَنْ عَادَى لِي وليًا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»[١].

فالأبرار أصحاب اليمين هم المتقربون إليه بالفرائض يفعلون ما أوجب الله عليهم ويتركون ما حرم الله عليهم ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات ولا الكف عن فضول المباحات. وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ففعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم أحبهم الرب حبًّا تاما. كما قال تعالى: «ولا يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»؛ يعني الحب المطلق كقوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٦، ٧]، أي أنعم عليهم الإنعام المطلق التام المذكور في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]، فهؤلاء المقربون صارت المباحات في حقهم طاعات يتقربون بها إلى الله عز وجل فكانت أعمالهم كلها عبادات لله، فشربوا صرفا، كما عملوا له صرفا، والمقتصدون كان في أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم فلا يعاقبون عليه ولا يثابون عليه فلم

(١) أخرجه البخاري، وقَدْ تقدم.

يشربوا صرفا بل مزج لهم من شراب المقربين بحسب ما مزجوه في الدنيا.

ونظير هذا انقسام الأنبياء عليهم السلام إلى عبدٍ رسولٍ ونبيٍ ملك، وقَدْ خَيَّرَ الله سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بين أن يكون عبدًا رسولًا وبين أن يكون نبيًّا ملكًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا(١)؛ فالنبي الملك مثل داود وسليمان ونحوهما عليهما الصلاة والسلام، قال الله تعالى في قصة سليمان الذي قال ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:٣٥-٣٩] أي: اعط من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك. فالنبي الملك يفعل ما فرض الله عليه ويترك ما حرم الله عليه ويتصرف في الولاية والمال بما يحبه ويختار من غير إثم عليه.

وأما العبد الرسول فلا يعطي أحدًا إلَّا بأمر ربه ولا يعطي من يشاء ويحرم من يشاء، بل يعطي من أمره ربه بإعطائه، ويولي من أمره ربه بتوليته، فأعماله كلها عبادات لله تعالى كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال «**مَا أُعْطِيكُمْ وَلاَ أَمْنَعُكُمْ، أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ**»(٢)، ولهذا يضيف الله الأموال الشرعية إلى الله والرسول كقوله تعالى ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال:١]، وقوله تعالى ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الحشر:٧]، وقوله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال:٤١].

ولهذا كان أظهر أقوال العلماء أن هذه الأموال تصرف فيما يحبه الله ورسوله بحسب اجتهاد ولي الأمر كما هو مذهب مالك وغيره من السلف. ويذكر هذا رواية عن أحمد، وقد قيل في الخمس أنه يقسم عل خمسة كقول الشافعي وأحمد في المعروف عنه، وقيل على ثلاثة كقول أبي حنيفة - رَحِمَهُ الله -.

والمقصود هنا أن العبد الرَّسول هو أفضل من النبي الملك كما أن إبراهيم وموسى

---

(١) صحيح: أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٣٦٥)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦١٠٥)، وانظر «السلسلة الصحيحة» (١٠٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣١١٧).

وعيسى ومحمَّدًا عليهم الصلاة والسلام أفضل من يوسف وداود وسليمان عليهم السلام، كما أن المقربين السابقين أفضل من الأبرار أصحاب اليمين الذين ليسوا مقربين سابقين فمن أدى ما أوجب الله عليه وفعل من المباحات ما يحبه فهو من هؤلاء، ومن كان إنما يفعل ما يحبه الله ويرضاه ويقصد أن يستعين بها أُبيح له على ما أمره الله فهو من أولئك» ا.هـ. [(١)].

عباد الله...

وعلَّق الشيخ صالح عبد العزيز آل الشيخ - حفظه الله - عَلَى الكلام المتقدم لشيخ الإسلام ابن تيمية، قائلًا:

«هذه مباحث متنوعة لكن يجمعُها أنّ أولياء الله جل وعلا لا يكونون من الظالمين لأنفسهم، بل أولياء الله إمّا مقربون سابقون بالخيرات، وإمّا مقتصدون أصحاب يمين، وأمّا الظالم لنفسه الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئًا من الأشياء التي لا تكفر مثل يعني الكبائر وأشباه ذلك، فإنّ هذا لا يسمى وليًّا بالاتفاق، وله نصيب من الوَلاية؛ ولاية الله لعبده بقدر ما عنده من الإيمان، لكن ليس له اسم الولي؛ فالأولياء هم الصالحون من عباد الله القائمون بحقوقه وحقوق عباده إمّا مقتصدون وإما مقربون سابقون بالخيرات، وهؤلاء لهم محبة الله جل وعلا وعوْنه وتوفيقه ومعيته الخاصة، ذَكر أيضا أن هذا نظير امتثال الأنبياء والرّسل إلى عبد رسول وإلى نبي ملِك، فالعبد الرسول كأولِي العزم من الرسل، والنبي الملك كيوسف وداوود وسليمان عليهم الصلاة والسلام، ففرّق بينهما:

- لأن النبيّ الملِك يتصرّف في المال باختياره؛ يعني أنه ينظر للمصالح العامة وفيما يراه فيتصرف في المال بما يراه، إذ المال بيده فيتصرف فيه كيف يشاء فيما لم يأتِ فيه أمر أو نهي بخصوصه.
- أما العبد الرسول فإنه قاسم يضع المال حيث أمره الله جل وعلا ولا يجتهد فيه، هذا باعتبار الغالب، وقد يجتهد فيه في بعض الأحوال، كما اجتهد الرسول ﷺ في بعض

---

(١) «الفرقان» (٢٩ - ٣٢) باختصار.

قسمة الفيء فأعطى رجلا واحدا ما بين جبلين من الإبل والماشية، وهكذا.

لهذا اختلف الصحابة رضوان الله عليهم كما ذكر لك أنّ أصح قولي العلماء أن ولي الأمر والإمام يتصرف في المال بما فيه المصلحة الدينية حيث أمر الله جل وعلا، والقول الآخر لأهل العلم أن ولي الأمر يتصرف في المال حيث ينظر هو المصلحة فيه فيما يتعلق لما فيه المصالح والمفاسد من قسمة الفيء ونحو ذلك، ولا يلزم له الرجوع لأهل العلم ولا لما يشاوَر فيه بل بما ينظر فيه، وشيخ الإسلام بسط هذه المسألة طويلا في كتابه (منهاج أهل السنة النبوية) لمّا ذكر طعن الرافضة في عثمان وأنّه تصرف في الأموال كيف شاء، قال شيخ الإسلام هناك ما حاصله: إنّ أهل العلم في مسألة تصرف الوالي في المال على قولين:

الأول: منهم من يقول يأخذون بما عليه العبد الرسول، فلا يضعون المال إلا فيما أمر الله به في الشرع، وإذا لم يكن ثَم أمر ونهي في خصوصه وتعرضت له المصلحة فإن عليه أن يشاور في وضع المال، وعلى هذا سيرة أبي بكر وعمر فإنهما لم يجتهدا في المال رضي الله عنهما.

والقول الآخر: أنّ ولي الأمر له أن يأخذ بسيرة النبي الملك، فيتصرف في المال كيف شاء بما يراه فيه مصلحة، ولو كان فيه محاباة لبعض أهله وأقاربه. قال: وعلى هذا يخرّج فعل عثمان ﷺ، وفعل معاوية ﷺ؛ وهما عثمان أحد الخلفاء الراشدين ولم يخطئه أحد من أهل السنة في فعله؛ في تصرفه في المال، إنما خطّأه الضلّال، وذاك معاوية خير ملوك المسلمين وتصرف في المال على هذا النحو.

المقصود من هذا -المسألة تحتاج إلى زيادة تفصيل- لكن التنبيه إلى أصل هذه المسألة حيث أشار شيخ الإسلام هنا بقوله؛ في أصح قولي العلماء أن ولي الأمر يتصرف في المال حيث المصلحة الشرعية فيما يحبه الله ورسوله بحسب اجتهاده. والقول الآخر أن له أن يتصرف حيث يرى هو المصلحة دون الرجوع لأهل العلم إلا فيما فيه أمر ونهي من أداء الزكاة وصرفها في مصارفٍ شرعية أما الفيء الذي يَفِيؤُه الله جل وعلا في الأموال العامة فله أن يجتهد فيها بحسب ما يرى، فهما قولان لأهل العلم، وحبذا مراجعة المسألة في كتاب منهاج أهل السنة فقد بسطها وأجاب عن قول الرافضة

والخوارج في طعنهم على عثمان وعلى معاوية رضي الله عنهما في التصرف في المال، وقال: إنّ أهل السنة لم يطعن أحد منهم في عثمان لأجل تصرفه في المال من جهة محاباته لأقاربه وتوليته بعض الولايات لذوي رحمه؛ لأنّ هذا راجع إلى تخريج شرعي، وعثمان أجل من أن يظن فيه أنه يسير في ذلك وفق هواه، وإنما يسير في ذلك وفق الاجتهاد الشرعي الذي يراه لكونه نائب في هذا المال عن النبي وله أنْ يُعطي وله أن يمنع بحسب ما يراه، فهما قولان والصحيح ما ذكر هنا منْ أنّ ولي الأمر يتصرف في المال على وفق ما يحبه الله ورسوله.

إذا تقرر هذا فإنّ أولياء الله يوصفون بأنهم متنزهون عن فضول المباحات، وشيخ الإسلام حرّم على المسلم أنْ يأتي كل مباح، سواء كان من مباحات النّظر أم من مباحات السماع أم من مباحات العمل، قال: للمسلم أن يعمل بعض المباحات لكن أنْ يأتي كل مباح دون تنزه عن فضول المباحات، قال هذا لا يجوز، وأخذ هذا من ظاهر قول الله جل وعلا لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٣١]، وظاهر قوله جل وعلا: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف:٢٠] فيرى أنّ التمتع بفضول المباحات لا يجوز.

والقول الآخر لأهل العلم: أن التمتع بفضول المباحات جائز وهذا هو الظاهر؛ لأن قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ﴾ هذا للنبي عليه الصلاة والسلام خاصة، وهذا يدل على تكْميله عليه الصلاة والسلام، وأنْ لا يتعرض إلى ما فيه إنقاص لمرتبته العليا عليه الصلاة والسلام، أما قوله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ فهي في الكفار وليست في المسلمين.

فأولياء الله يتنزهون عن فضول المباحات وليس كل مباح يأتونه، بل هناك مباحات لا تناسبهم ولو كانت مباحات في الشرع، ولكن تناسب غيرهم من المسلمين، فالأولياء يتنزهون عن كثير من المباحات، إما من جهة الورع وإما من جهة ترك خوارم المروءة وإما من جهة أشياء قد يراها الولي لا تناسبه، مثاله مثلا كثرة المزاح والضحك بأنْ يغلب هذا على المرء وإنْ كان مباحا إذا لم يكن ينطق بكذب وأشباه هذا، لكن أولياء الله

في قلوبهم فإجلال الله وخشيته والرغبة فيما عنده ما يجعلهم لا يُكثرون من هذا، وإنما إن فعلوا فيكون من جهة الاستنباط الوارد عنه الصلاة والسلام، وهذا أصل في أن الأولياء فيما يفعلون من فضول المباحات، يتابعون النبي ﷺ في أصول ما فعل، فيضحكون بعضا من الوقت لأنه ضحك عليه الصلاة والسلام وتبسم، ويفعلون بعض الأشياء التي فيها ترويح بما لا يكون قادحا وأشباه ذلك بنية الاقتداء ونية العمل، وهذا في بعض المباحات ما في كل المباحات، والولي لا يمد أن يكون متنزها عن فضول المباحات، أمّا الولي لا يتصور فيه من حيث الواقع أنْ يأتي كل مباح، بل الولي من حيث الواقع ومن حيث دِلالة العمل الأول عليه أنّه لابد أن يكون متنزها على مباحات كثيرة لأسباب». ا.هـ.

عباد الله...

هذا علم مهم جدًّا، ينبغي ألّا ننساه، خصوصًا في هَذِهِ الأيام التي اختلط فيها الحقّ بالباطل.

نسأل الله تَعَالى فهمًا في دينه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد وصف النَّبيُّ ﷺ أولياءَ الله بأوصاف، منها ما جاء في الحديث التالي:

عَنْ عُمَرَ بْنَ الخَطَّاب قَالَ: «سمعت رَسُول الله ﷺ يَقول: «**إنَّ مِنْ عِبَادِ الله عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى**». قِيلَ: يا رَسُول الله مَنْ هُمْ لَعَلَّنَا نُحِبُّهُمْ؟ قَالَ: «**هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِنُورِ الله مِنْ غَيْرِ أَرْحَام وَلاَ انْتِسَابٍ، وُجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، لاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾» [1].

أسأل الله تَعَالى أن يَجعلني وإيَّاكم منهم، إنه وليُّ ذَلِكَ والقَادِرِ عليه.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٨/٢٢١٤١) نحوه، والترمذي (٢٣٩٠) مختصرًا، وقال: حسن صحيح.

الخطبة الثامنة والسبعون:

[د] لقطات وعظات من حياة: أبي مُسلم الخَولاني

[جـ] الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن «**الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**»، سائلًا المولى التوفيق.

عباد الله...

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: «ذكر الله تعالى أولياءه المقتصدين والسابقين في سورة فاطر في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ**

لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر:٣٢-٣٥].

لكن هذه الأصناف الثلاثة في هذه الآية هم أمة محمد ﷺ خاصة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾، وأمة محمد ﷺ هم الذين أورثوا الكتاب بعد الأمم المتقدمة، وليس ذلك مختصًا بحفّاظ القرآن بل كل من آمن بالقرآن فهو من هؤلاء، وقسّمهم إلى ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق، بخلاف الآيات التي في الواقعة والمطففين والانفطار فإنه دخل فيها جميع الأمم المتقدمة كافرهم ومؤمنهم، وهذا التقسيم لأمة محمد ﷺ، فالظالم لنفسه أصحاب الذنوب المصرون عليها، والمقتصد المؤدي للفرائض المجتنب للمحارم، والسابق للخيرات هو المؤدي للفرائض والنوافل، كما في تلك الآيات، [(١)] ومن تاب من ذنبه أي ذنب كان توبة صحيحة لم يخرج بذلك عن السابقين والمقتصدين كما في قوله تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٦].

---

(١) قَالَ الشيخ صالح آل الشيخ معلِّقا عَلَى هذا الكلام: أنّ الأمم التي سبقت أمة محمد ﷺ فالمؤمنون فيها قسمان: مقتصدون وظالمون لأنفسهم، أما السابقون بالخيرات في الأمم السالفة هم الأنبياء والرسل، وفي أمة محمد ﷺ فيهم ثلّة من الأولين وقليل من الآخرين، فالأمم السالفة قسمان، كما قال جل وعلا في سورة المائدة : ﴿أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٦] وعلى هذا أكثر أهل التفسير بأن الأمم السالفة تنقسم على ظاهر هذه الآية -يعني من استجاب إلى الرسل- إلى ظالم لنفسه وإلى مقتصد، والسبْق بالخيرات هذا من فضل الله جل وعلا لهذه الأمة.

والمقتصد المؤدي للفرائض المجتنب للمحارم، والسابق بالخيرات هو المؤدي للفرائض والنوافل كما في تلك الآيات، وقوله ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرعد:٢٣] مما يستدل به أهل السُّنَّة على أنه لا يخلد في النار أحدٌ من أهل التوحيد.

وأما دخول كثير من أهل الكبائر النار فهذا مما تواترت به السنن عن النبي ﷺ كما تواترت بخروجهم من النار وشفاعة نبينا محمد ﷺ في أهل الكبائر، وإخراج من يخرج من النار بشفاعة نبينا ﷺ وشفاعة غيره [(١)]، فمن قال أن أهل الكبائر مخلدون في النار وتَأَوَّلَ الآية على أن السابقين هم الذين يدخلونها، وأن المقتصد أو الظالم لنفسه لا يدخلها، كما تأوله من المعتزلة، فهو مقابل بتأويل المرجئة الذين لا يقطعون بدخول أحد من أهل الكبائر النار، ويزعمون أن أهل الكبائر قد يدخل جميعهم الجنة من غير عذاب [(٢)]، وكلاهما مخالف للسنة المتواترة عن النبي ﷺ، ولإجماع سلف الأمة وأئمتها وقد دل على فساد قول الطائفتين قول الله تعالى في آيتين من كتابه وهو قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، فأخبر تعالى أنه لا يغفر الشرك، وأخبر أنه يغفر ما دونه لمن يشاء، ولا يجوز أن يراد بذلك التائب كما يقوله من

---

(١) **قَالَ الشيخ صالح آل الشيخ معلِّقا عَلَى هذا الكلام**:هذا كله استطراد البحث كان في الأولياء وأنّ الأولياء قسمان مقتصدون وسابقون بالخيرات، أما الظالم لنفسه فلا يكون وليا وهو المصر على الذنوب، أما المقتصد قد يكون وليا، السابق بالخيرات قد يكون وليًّا لله جل جلاله، ثم استطرد رحمه الله لذكر الأقسام الثلاثة وماذا يراد بهذه الأقسام وشرح ذلك، لكن أصل الكلام حتى لا يغيب عنك الكلام في أنّ الأولياء قسمان: صفة الولي أن يكون أما مقتصدا أو يكون سابقا بالخيرات، مع أن الجميع مع الظالم لنفسه موعود بالجنة بفضل الله وكرمه. ا.هـ.

(٢)**قَالَ الشيخ صالح آل الشيخ معلِّقا عَلَى هذا الكلام**: لاحظ هنا قوله: **(أن أهل الكبائر قد يدخل جميعهم الجنة من غير عذاب)** هذا قول المرجئة، وأهل السنة يقولون: **(أهل الكبائر قد يدخلون الجنة بلا عذاب)** واضح الفرق بين القولين؟ الفرق بينهما أن أولئك يُجَوِّزُونَ دخول الجميع للجنة بلا عذاب، وأهل السنة يُجَوِّزُونَ دخول البعض الجنة بلا عذاب؛ لأنّ الله جل وعلا قال : ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٤٠] ووعيده حق جل وعلا فلا بد أن يصيب بعضا منهم وواجب بأن يغفر لمن يشاء وحق فلا بد أن يصيب بعضا منهم. فإذن المرجئة يقولون أهل الكبائر قد يدخلون جميعا الجنة بلا عذاب، هذا غلط بل الصواب أن أهل الكبائر قد يدخل بعضهم الجنة بلا عذاب فيغفر الله جل وعلا له : ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٤٠]، الفرق في إطلاق لفظ جميعهم. ا.هـ.

يقوله من المعتزلة، لأن الشرك يغفره الله لمن تاب، وما دون الشرك يغفره الله أيضا للتائب، فلا يتعلق بالمشيئة. ولهذا لما ذكر المغفرة للتائبين، قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، فهنا عمم المغفرة وأطلقها فإن الله يغفر للعبد أي ذنب تاب منه، فمن تاب من الشرك غفر الله له، ومن تاب من الكبائر غفر الله له، وأي ذنب تاب العبد منه غفر الله له، ففي آية التوبة عمم وأطلق، وفي تلك الآية خصص وعلق، فخص الشرك بأنه لا يغفره، وعلق ما سواه على المشيئة، ومن الشرك التعطيل للخالق، وهذا يدل على فساد قول من يجزم بالمغفرة لكل مذنب، ونبه بالشرك على ما هو أعظم منه كتعطيل الخالق، أو يجوز أن لا يعذب بذنب، فإنه لو كان كذلك لما ذكر أنه يغفر البعض دون البعض، ولو كان كل ظالم لنفسه مغفورا له بلا توبة ولا حسنات ماحية لم يعلق ذلك بالمشيئة.

وقوله تَعَالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، دليل على أنه يغفر البعض دون البعض، فبطل النفي والعفو العام».

عباد الله...

ويواصل شيخ الإسلام كلامه فيقول:

«وإذا كان أولياء الله عز وجل هم المؤمنون المتقون، والناس يتفاضلون في الإيمان والتقوى، فهم متفاضلون في وَلاية الله بحسب ذلك، كما أنهم لما كانوا متفاضلين في الكفر والنفاق كانوا متفاضلين في عداوة الله بحسب ذلك، وأصل الإيمان والتقوى الإيمان برسل الله، وجِماع ذلك الإيمان بخاتم الرسل محمد ﷺ، فالإيمان به يتضمن الإيمان بجميع كتب الله ورسله، وأصل الكفر والنفاق هو الكفر بالرسل وبما جاءوا به، فإن هذا هو الكفر الذي يستحق صاحبه العذاب في الآخرة، فإن الله تعالى أخبر في كتابه أنه لا يعذب أحدا إلا بعد بلوغ الرسالة؛ قال الله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ

نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥].

وقال تعالى: عن أهل النار ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك:٨، ٩]. فأخبر أنه كلما أُلقي في النار فوج أقروا بأنهم جاءهم النذير فكذبوه، فدل ذلك على أنه لا يلقى فيها فوج إلا من كذب النذير.

وقال تعالى في خطابه لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٥]، فأخبر أنه يملؤها بإبليس ومن اتبعه، فإذا ملئت بهم لم يدخلها غيرهم، فعلم أنه لا يدخل النار إلا من تبع الشيطان، وما تقدم يدل على أنه لا يدخلها من لا ذنب له، فإنه ممن لم يتّبع الشيطان، ولم يكن مذنبا، وما تقدم يدل على أنه لا يدخلها إلا من قامت عليه الحجة بالرسل»[١].

انتهى كلام شيخ الإسلام - رَحِمَهُ الله - ويعلّق الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله عَلَى ما تقدَّم فيقول:

«ذكرنا أن الأصل في الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان هو قول الله جل وعلا: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٢، ٦٣]، وإذا كان كذلك، فإنّ أولياء الله هم المؤمنون المتقون والإيمان يتبعض والناس ليسوا فيه سواء، وكذلك التقوى تتبعض والناس ليسوا في التقوى بسواء فحصل من ذلك أن وَلاية الله جل وعلا لعباده المؤمنين المتقين ليست واحدة بل متفاضلة، فالله جل وعلا يحبّ المؤمن المتقي بعامة، ومن كان أكثر إيمانا وتقوى كان أحب إلى الله جل وعلا، وهذا من جهة محبة الله جل وعلا للعبد فإنّ كل مؤمن مُتّقٍ له نصيب من ولاية الله جل وعلا وله نصيب من محبة الله جل وعلا ونصرَتِه على حسب ما معه من الإيمان والتقوى، كذلك إذا كان معه عصيان وضلال وبدع وفسوق وفجور فله نصيب من بغض الله جل وعلا له، فعندنا أنه يجتمع في حق المعين ما يوجب الولاية

---

(١) «الفرقان» (٣٥ - ٣٩).

وما يوجب العداوة، هذا من جهة الوصف أما من جهة الاسم أو اسم الولي فإنما يطلق في الاصطلاح على من حقق الإيمان والتقوى وكل ذلك بحسبه وسعته وطاقته؛ فلا يقال فلان ولي لحصول أصل الإيمان والتقوى فيه لأن كل مسلم عنده أصل الإيمان وأصل التقوى، فإنّ كل مسلم عنده قدر من الإيمان، وكل مسلم عنده قدر من التقوى، فالمقصود أنّ الولي هو من حقق الإيمان والتقوى هذا من حيث الاصطلاح، أما من حيث الشرع فكما ذكر في أول الكلام أنّ الولي هو المؤمن التقي، وأنّ كل واحد له نصيب من هذه الولاية إذا كان عنده إيمان وتقوى.

ذكر شيخ الإسلام بعد ذَلِكَ: أنّ أصل حصول الولاية إنما هو باتباع الرسل، فإن الإيمان إيمان بالرسل وما جاءت به الرسل، والتقوى هي اتقاء ما حذرت عنه الرسل وأنذرت وخوفت، وإذا كان كذلك رجعت الوَلاية وحصول هذه المحبة والنصرة من الله جل وعلا، رجعت إلى الإيمان بالرسل وإلى متابعة الرسل والتصديق بما جاءت به الرسل، كلٌّ بحسب الرسول الذي بُعث إليه، ولما بعث المصطفي محمد عليه الصلاة والسلام صار الإيمان والتقوى راجعا إلى هذه الوسيلة العظيمة وهو محمد عليه الصلاة والسلام، فكلّ ادعاء لوَلاية ليست سببها الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام واتقاء ما حذر عنه عليه الصلاة والسلام فهو ادعاء كاذب. وبهذا سيفصل في ذكر الإيمان بالرسل لتحقيق أنّ الوَلاية لا تكون إلا باتباع الرسول عليه الصلاة والسلام». ا.هـ.

عباد الله...

ونعود إلى كلام شيخ الإسلام - رَحِمَهُ الله -:

قَالَ قدَّس الله سِرَّه: «ومن الناس من يؤمن بالرسل إيمانا عاما مجملا، وأما الإيمان المفصل فيكون قد بلغه كثير مما جاءت به الرسل ولم يبلغه بعض ذلك، فيؤمن بما بلغه عن الرسل وما لم يبلغه لم يعرفه ولو بلغه لآمن به، ولكن آمن بما جاءت به الرسل إيمانا مجملا، فهذا إذا عمل بما علم، إن الله أمره به مع إيمانه وتقواه، فهو من أولياء الله تعالى، له من ولاية الله بحسب إيمانه وتقواه، وما لم تقم عليه الحجة به فإن الله تعالى لم يكلفه معرفته، والإيمان المفصل به، فلا يعذبه على تركه، لكن يفوته من كمال ولاية الله بحسب ما فاته من ذلك، فمن علم بما جاء به الرسل وآمن به إيمانا مفصلا وعمل به فهو أكمل

إيمانا وولاية لله ممن لم يعلم ذلك مفصلا ولم يعمل به وكلاهما ولي لله تعالى والجنة درجات متفاضلة تفاضلا عظيما، وأولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم، قال الله تبارك وتعالى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاء وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:١٨-٢١]، فبيَّن الله سبحانه وتعالى أنه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة من عطائه، وأن عطاءه ما كان محظورا من بر ولا فاجر.

ثم قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فبيَّن الله سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا، وأن درجاتها أكبر من درجات الدنيا، وقد بين تفاضل أنبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء:٥٥].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيّ خَيْرٌ وَأَحَبّ إلى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضّعِيفِ. وَفِي كُلّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ. وَلاَ تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنّي فَعَلْتُ لكان كذا وكذا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ. وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشّيْطَانِ»[١].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قَالَ: «إِذَا اجتهد الحَاكِمُ فَأَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَد فَأَخطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ»[٢]، وقد قال الله تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أعظم دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد:١٠].

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء:٩٥، ٩٦].

وقال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أعظم دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة:١٩-٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:١١]». ا.هـ[1].

عباد الله...

ولهذا الكلام بيان، سيأتي بعد قليل إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ويعلّق الشيخ صالح آل الشيخ - حفظه الله - عَلَى كلام شيخ الإسلام الذي ذكرناه قبل قليل فيقول:

«هذا استطراد من شيخ الإسلام رحمه الله، ليبين أن المؤمنين بالرسل من هذه الأمة

(١) «الفرقان» (٤٠، ٤١).

ليسوا على مرتبة سواء، فبعضهم إيمانه مجمَل وليس عنده إيمان مفصل، فيكون مؤمنا تقيا؛ مؤمنا بما جاءه وما عنده من الإيمان المجمَل، وهناك من إيمانه مفصل يعني عمل ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام فآمن به مفصَّلا، ومنهم من آمن فما جاءه مفصلا لكن ما جاء غيره أكثر لما عنده من العلم، فصار الذين يؤمنون بالرسول عليه الصلاة والسلام متفاضلين فبعضهم أعظم إيمانًا من بعض لما وصله من العلم. كذلك من جهة العمل فإنّ الإيمان منه العمل فإذا عمل بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام كان أعظم إيمانا به، ونتج من ذلك أنه أعظم وَلاية، فإذن الأولياء ليسوا على مرتبة واحدة، ثم ذكر الأدلة الدالة على أنّ التفاضل بين أهل الإيمان كثير في النصوص، فذكر أنّ الرسل فضل الله جل وعلا بعضهم على بعض، وذكر أنّ المؤمنين فضل الله بعضهم على بعض في عدة نصوص من القرآن، وكذلك المجاهدين فضل الله بعضهم على بعض، ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [الحديد:١٠].

والصحابة يختلفون في مراتبهم و«**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير**»، فهذا الاستطراد يدل على أن الأصل الذي أصله معروف في الشريعة. وهذا تنتبه له في طريقة شيخ الإسلام رحمه الله في أنّه يقرر في صدر الكلام ما يريده، ثم يستحضر سؤالًا أو استشكالًا يورده عليه من أنشأ الرسالة لأجله - هذه الرسالة أو غير هذه الرسالة - فيأتي بالنظائر التي تدل على أن أصله الذي أصله سليم من جهة الاستدلال وسليم من جهة النظر، وهذا لا شك أنه قوة في الحجة سيما مع المجادلين والمبتدعة لأن هذه الكتب ألفها شيخ الإسلام لهداية من ضل في باب السلوك». ا.هـ.

وللحديث بقيّة، إن شاء الله تَعَالَى.

۞۞۞۞۞

الخطبة التاسعة والسبعون:

[هـ] لقطات وعظات من حياة: أبي مُسلم الخَولاني

[د] الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» سائلًا المولى - جلَّت قدرته - التوفيق.

عباد الله...

يعتقد كثيرٌ من عوام المسلمين أنَّ أولياء الله جماعةٌ مِن المجاذيب والمجانين، يبولون عَلَى أعقابهم، ولا يتحفّظون مِن لُعَاب أفواههم!!

وهذا ظنٌّ خاطئ، واعتقادٌ غريب.

وردًا عَلَى هؤلاء يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ الله تَعَالَى - في كتابه القيِّم: ((الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)):

«وإذا كان العبد لا يكون وليًا لله إلا إذا كان مؤمنا تقيًا لقوله تعالى ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ [يونس:٦٢، ٦٣].

وفي «صحيح البخاري» الحديث المشهور وقد تقدم، يقول الله تبارك وتعالى فيه: «**وَمَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»، ولا يكون مؤمنًا تقيًّا حتى يتقرَّب إلى الله بالفرائض، فيكون من الأبرار أهل اليمين، ثم بعد ذلك لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يكون من السابقين المقربين، فمعلوم أن أحدا من الكفار والمنافقين لا يكون وليًّا لله، وكذلك من لا يصح إيمانه وعباداته وإن قُدِّر أنه لا إثم عليه مثل أطفال الكفار ومن لم تبلغه الدعوة، وإن قيل إنهم لا يعذبون حتى يرسل إليهم رسولا فلا يكونون من أولياء الله إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين، فمن لم يتقرب إلى الله لا بفعل الحسنات ولا بترك السيئات لم يكن من أولياء الله، وكذلك المجانين والأطفال، فإن النبي ﷺ قَالَ: «**رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ المَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ**»[١].

وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث علي وعائشة رضي الله عنهما، واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقَبول، لكن الصبي المميز تصح عباداته ويثاب عليها عند جمهور العلماء، وأما المجنون الذي رُفع عنه القلم فلا يصح شيء من عباداته باتفاق العلماء، ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات، بل لا يصلح هو عند عامة العقلاء لأمور الدنيا كالتجارة والصناعة، فلا يصلح أن يكون بزازا ولا عطارا ولا حدادا ولا نجارا، ولا تصح عقوده باتفاق العلماء، فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إقراره ولا شهادته ولا غير ذلك من أقواله، بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعي[٢]، ولا ثواب ولا عقاب، بخلاف الصبي

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٣٩٨)، وابن ماجه (٢٠٤١)، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٢) لا يتعلق بها حكم شرعي، المقصود به التكليفي أما الوضعي فيؤاخذ به.

ـمييز فإن له أقوالا معتبرة في مواضع بالنص والإجماع، وفي مواضع فيها نزاع.

وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل وامتنع أن يكون وليًّا لله فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي لله، لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه، أو نوع من تصرف مثل أن يراه قد أشار إلى أحد فمات أو صُرع، فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين من المشركين وأهل الكتاب لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية كالكهان والسحرة وعُبَّاد المشركين وأهل الكتاب، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص وليًّا لله وإن لم يعلم منه ما يناقض وَلاية الله، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله، مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي ﷺ باطنًا وظاهرًا، بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة، أو يعتقد أن لأولياء الله طريقًا إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو يقول إن الأنبياء ضيّقوا الطريق، أو هم على قدوة العامة دون الخاصة، ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعي الولاية، فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان فضلا عن ولاية الله عز وجل، فمن احتج بما يصدر عن أحدهم من خرق عادة على وَلايتهم كان أضل من اليهود والنصارى، وكذلك المجنون فإن كونه مجنونا يناقض أن يصح منه الإيمان والعبادات التي هي شرط في وَلاية الله، ومن كان يُجَنُّ أحيانا ويُفيق أحيانا إذا كان في حال إفاقته مؤمنا بالله ورسوله ويؤدي الفرائض ويجتنب المحارم فهذا إذا جُنَّ لم يكن جنونه مانعا من أن يثيبه الله على إيمانه وتقواه الذي أتى به في حال إفاقته، ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك، وكذلك من طرأ عليه الجنون بعد إيمانه وتقواه فإن الله يثيبه ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه، ولا يحبطه بالجنون الذي أبتلي به من غير ذنب فعله، والقلم مرفوع عنه في حال جنونه، فعلى هذا فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدي الفرائض ولا يجتنب المحارم، بل قد يأتي بما يناقض ذلك، لم يكن لأحد أن يقول هذا ولي لله فإن هذا إن لم يكن مجنونا بل كان متولها من غير جنون، أو كان يغيب عقله بالجنون تارة ويفيق أخرى، وهو لا يقوم بالفرائض، بل يعتقد أنه لا يجب عليه اتباع الرسول ﷺ فهو كافر، وإن كان مجنونا باطنا وظاهرا قد ارتفع عنه القلم، فهذا وإن لم يكن معاقبا عقوبة الكافرين فليس هو مستحقا لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من

كرامة الله عز وجل، فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه ولي لله، ولكن إن كان له حالة في إفاقته كان فيها مؤمنًا بالله متقيا كان له من ولاية الله بحسب ذلك، وإن كان له في حال إفاقته فيه كفر أو نفاق أو كان كافرا أو منافقا ثم طرأ عليه الجنون فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه، وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق». ا.هـ[1].

عباد الله...

وعلّق سماحةُ الشيخ صالح آل الشيخ - حفظه الله - عَلَى هذا الكلام قائلًا:

«ذَكَر أن شبهة المعتقدين في الجنون والمجنونين والمجذوبين والمتولهين ما يحصل لهم من نوع خوارق للعادات سواء كانت خوارق علمية بذكر أشياء، يقول أنت تقول كذا، وحصل منك كذا، وهو مجنون فيوافق صوابا، أو خوارق من جهة القُدْرة كما ذكر يشير إلى أحد فيموت، أو يشير إلى الماء فيمشي عليه أو يحلق بإصبعه فينزل عليه رغيف وأشباه ذلك من أنواع القدرة والعلم، هذه أنواع خوارق والمتقرر أن الخوارق حصلت للكهان، حصلت للسحرة، وحصلت للمشعوذين وللشياطين وللكفار، وحصلت أيضا الخوارق للمؤمنين وحصلت أيضا الخوارق للرسل والأنبياء، لهذا قسم العلماء الخوارق إلى ثلاثة أقسام من جهة من تحصل له باعتبار من حصلت له.

قالوا الخوارق: قد تحصل للأنبياء والرسل؛ وهذه تسمى آيات وبراهين.

والقسم الثاني: خوارق تحصل لأتباع الرسل، هذه تسمى الكرامات.

والثالث: خوارق تحصل للمنافقين والعاصين للرسل، فهذه خوارق شيطانية ليست إكراما من الله عز وجل لهم؛ لأن الله لايكرم من لم يتبع رسله عَلَيهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

فإذن ليس اعتبار المرء محبوبا لله، وليًّا لله، أنه يحصل له خارق؛ لأن الخارق يحصل للشياطين وللكفار وللمنافقين، إذن لابد في النظر فيمن حصلت له، فإنْ حصل الخارق لمطيع للرسل معظم لهم متبع لهم في الظاهر والباطن صارت هذه الخوارق كرامات،

(١) «الفرقان» (٤٢ - ٤٥).

وإنْ حصلت لمنافق عاص للرسل مبتدع أو مجنون فنقول هذه من الشياطين لإيقاع الناس في الفتنة أو في الكفر والشرك. هذا باعتبار.

وباعتبار آخر، فإن الخوارق راجعة من حيث الصفات إلى نوعين من الصفات: وهي صفتي الغنى والقدرة. ومعلوم أن غنى المغتني وقدرته على الشيء إنما هي بإقدار الله جل وعلا له وبإغتنائه جل وعلا، وإذا كان كذلك فإن:

الخارق للعادة إذا كان راجعًا إلى صفة الغنى فقد يكون لحاجة من حصل له الخارق، فالخارق حصل له لأجل إغنائه، فهذا يدل على أنّ من حصل له الخارق لا يُفضَّل على من لم يحصل له الخارق؛ لأنّ الخوارق راجعة إلى صفتي الغنى والاقتدار، فإذا كان ليس بغني ومحتاج وضعفت نفسه فقد يكون يحصل له خارق، وهو ليس كالولي الذي لم يحصل له خارق، لهذا نجد أنَّ بعض الصحابة كان أكثر خوارق ممن كان أفضل منه كأبي بكر وعمر، وذلك لكمال غنى أبي بكر وعمر الكمال البشري، وافتقار ذلك إلى ما يقوي إيمانه ويصحح أويثبت يقينه.

فحصول الخارق من حيث هو باعتبار صفات الكمال راجع إلى النقص، فيحصل الخارق لفائدة الشخص لرفع النقص عنه في صفات الكمال أو لزيادته في صفات الكمال، فإذا كان ضعيفا من جهة الغنى زِيد في غناه بالخارق ليقوى إيمانه.

كذلك من جهة القدرة ربما أُعطي ليظهر إيقانه كما يحصل للمجاهدين فإنّ بعضهم يُكرم بأشياء؛ لأنهم لم يحققوا من أمر الله جل وعلا ما يوجب اغتناءهم عن الكرامات، فيكون إتيانهم بالكرامات لأجل عدم قدرتهم والله جل وعلا يريد نصر دينه ونصر أتباع دينه على أعدائه وأعداء دينه.

وهذه مسألة تحتاج إلى مزيد بسط لمعرفة أفراد صفات الغنى وتقسيماتها، وأفراد صفات الاقتدار والقدرة وتقسيماتها، وهي مبسوطة في كتب أهل العلم.

المقصود من هذا أن المجنون لا يجوز أن يوصف بأنه من الأولياء لأن ليس له اختيار وليس له فعل بنفسه، وإنما الأولياء هم المؤمنون المتقون». ا.هـ.

عباد الله...

والخلاصة: أنَّهُ لا يجوز أن يُوصف المجنون بأنه من أولياء الله، فأولياء الله جمعوا بين

العلم النَّافع والعمل الصَّالح.

قَالَ بعض العلماء: «ما اتَّخَذَ الله مِنَ وَلِيٍّ جاهل، ولو اتَّخَذه لَعلَّمه».

وسيأتي بعد قليل - إن شاء الله تَعَالَى - مزيد بيان.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وأختم خطبة اليوم بكلام متين، ذكره الشيخ صالح آل الشيخ - حفظه الله - في تعليقه عَلَى كلام شيخ الإسلام المتقدّم.

قال - حفظه الله -: «بعد أن بيّن شيخ الإسلام ابن تيميَّة - رَحِمَهُ الله تَعَالى-: أنّ التقوى والإيمان سبب ولاية الله لعبده، وأنّ الولي هو المؤمن التقي، بين أنّ الإيمان والتقوى لا تصح من العبد إلا إذا كان باختياره، يعني إذا كان مكلفًا وصار متقيا لرغبته واختياره، وصار مؤمنا برغبته واختياره، وأمّا منْ رفع عنه القلم لا يوصف بالإيمان والتقوى، حتى ولو حصل منه بعض الأشياء التي هي منَ العبادات فإنّه لا يوصف بالإيمان والتقوى حتى يأتيها اختيارا، ومثَّل بذلك بالمجنون لأنّ الصوفية لهم اعتقاد في المجانين كما سيأتي في بقية الكلام، فالمجنون هذا لم يقع منه في جنونه إيمان وتقوى برغبة واختيار وطاعة لله، فإذن تعريف الولي بأنه كل مؤمن تقي وليس بنبي هذا لا يصدق عليه لأنه لم يأتِ الإيمان والتقوى طاعة لله واختيارا، بل هو عاقل أو مجنون والمجنون مرفوع عنه القلم، ومثَّل له أنّ الناس مجمعون على أن المجنون لا يبايع ولا ينكح إلى آخره، ويأباه الناس حتى لا يقعوا في تصرفات له لا يعقلوها، وكذلك أعظم الأمور وأهم المهمات وهو الإيمان فإنه لا يوصف المجنون بذلك، معلوم أنه إذا كان الجنون عرض له فإنّه إذا مات عليه فإن حاله على ما كان قبل الجنون؛ يعني إذا كان قبل الجنون رجلا صالحا فإنّه إلى حين أن يُجَن فيعتبر رجلا صالحا، وما بعد ذلك لا يوصف بصلاح ولا بغيره، بل بداية الجنون كنزول الموت، فيقال كان كذا، كان

رجلا صالحا، أما في حال جنونه من جهة تصرفاته وعطائه الشرعي فإنّه مرفوع عنه القلم، يعني قلم التكليف، قد يقع من المجنون أشياء غريبة وتوافق صوابا في نفسها.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في مرة أن أحد ولاة دمشق مرّ في سوق، وكان في الطريق رجل من المجانين فلما مرّ عليه فصاح هذا بالوالي (يا هذا ما فعلت الخبزة؟) فارتاع الوالي لهذه الكلمة ونزل، وسأل عنه، قال: هذا المجنون فلان، وكانوا يعتقدون في المجانين، وأخذه وقبّل يده. فقال: فكان هذا المجنون ربما أتى في مجلس الوالي وبصق في وجهه وذاك مسرور بفعله.

لأنهم يعتقدون أن الجنون سببه إنجذاب الروح عن المخلوق إلى الخالق، فالظاهر في ما بينه وبين الناس أنّه لا عقل له لأن عقله مع ربه جل وعلا، لهذا يعدلون عن اسم المجنون إلى اسم المجذوب يعني الذي جُذب عقله وروحه إلى ربّه فغاب عقله عن الناس وصار مع ربه، فلهذا يقولون أنه إذا تصرف فهو يتصرف بأمر الله، وأشباه ذلك مما يتنزه العقلاء من ظنّه فضلا عن اليقين به، وفي هذا قال قائلهم في وصف المجانين:

والمجـانين إلا أنّ سـر جـنونهم عزيـز علـى أبـوابه يـسجد العقـل

يعني أن سبب الجنون هو كمال المحبة والإنجذاب إلى الله جل وعلا. نسأل الله العافية». ا.هـ.

وللحديث بقيّة إن شاء الله تَعَالى.

۞۞۞۞۞

الخطبة الثمانون:

[و] لقطات وعظات من حياة أبي مُسلم الخَولاني

[هـ] الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، ولأهمية الموضوع واتِّصاله بالاعتقاد، تعمَّدتُ إطالةَ النَّفَس فيه، والله المستعان.

عباد الله...

ومن صفات عباد الله: أنهم ليس لهم زيٌّ يَتَمَيَّزون به.

قَالَ شيخ الإسلام ابن تيميَّة - رَحِمَهُ الله تَعَالى -: «وليس لأولياء الله شيء يتميزون به

عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات، فلا يتميزون بلباس دون لباس، إذا كان كلاهما مباحا، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ظفره إذا كان مباحا، كما قيل كم من صِدِّيق في قَبَاء، وكم من زنديق في عَبَاء، بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ، إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور، فيوجدون في أهل القرآن وأهل العلم، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف، ويوجدون في التجار والصناع والزراع، وقد ذكر الله أصناف أمة محمد ﷺ في قوله تعالى ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ**﴾ [المزمل:٢٠].

وكان السَّلف يُسَمُّونَ أهل الدِّين والعلم: القُرَّاء، فيدخل فيهم العلماء والنساك، ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء، واسم الصوفية هو نسبة إلى لباس الصوف، هذا هو الصحيح، وقد قيل إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء، وقيل إلى صوفة بن أد بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك، وقيل إلى أهل الصفة، وقيل إلى الصفا، وقيل إلى الصفوة، وقيل إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى، وهذه أقوال ضعيفة فإنه لو كان كذلك لقيل صِفِّي أو صفائي أو صَفوي أو صَفِّي ولم يقل صوفي، وصار أيضا اسم الفقراء يعنى به أهل السلوك، وهذا عُرف حادث، وقد تنازع الناس أيهما أفضل مسمى الصوفي أو مسمى الفقير، ويتنازعون أيضا أيهما أفضل الغني الشاكر أم الفقير الصابر، وهذه المسألة فيها نزاع قديم بين الجنيد وبين أبي العباس بن عطاء.

وقد روي عن أحمد بن حنبل فيها روايتان، والصواب في هذا كله ما قاله الله تبارك وتعالى حيث قال ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات:١٣].

وفي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «**أَتْقَاهُمْ**». فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: «**فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ**». قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: «**فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونَ،**

خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقُهُوا»[١].

فدل الكتاب والسنة أن أكرم الناس عند الله أتقاهم». ا.هـ[٢].

عباد الله...

وعلَّق الشيخ صالح آل الشيخ - حفظه الله - عَلَى هذا الكلام تعليقًا نفيسًا، نذكره بتمامه لنفاسته:

قَالَ - حفظه الله -: «ذكرنا أن الولي هو كل مؤمن تقي وليس بنبي، والولي هو من حصّل الإيمان والتقوى، ومعلوم أنّ الإيمان والتقوى لا يشترط على أهله أنْ يكونوا على صفة ما في المأكل أو المشرب أو في اللباس، إلا أنْ يكون ذلك إتيان الحلال و ترك الحرام، فإنّ هذا هو الذي جعلهم أولياء مؤمنين أتقياء، تميّز الأولياء بلباس خاص يُشار إليهم به ليس له أصل، وتميّزهم بشكل في شعورهم ليس له أصل، إما بحلق الرأس أو بتكثيره أو ما أشبه ذلك، فهذا كله ليس له أصل، وكذلك تميّزهم في مآكلهم أو في مراكبهم أو في مشاربهم ونحو ذلك، هذا كله ليس له أصل، بل يختلفون في هذه إذا كان ما يأتون من المباح لهم. نعم، مِن صفة أولياء الله جل وعلا أنهم لا يتوسّعون في المباحات؛ يعني ليس كل مباح يأتونه لأنّ الله جل وعلا نهى نبيه عن ذلك بقوله: **﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾** [طه:١٣١].

وذَكر أنّ مدّ النظر إلى ما مُتِّع به الناس من زهرة الحياة الدنيا أنّ هذا من عاجلة الدنيا، ونُهي النبي ﷺ عن مدِّ العين إلى كل المباحات في الآية، وأنّ رزق الله خير وأبقى يعني في الآخرة، هذا يدل على أنّ من صفة العُبّاد ومن صفة أولياء الله الذين كمّلوا الإيمان والتقوى أنهم لا يتوسّعون في المباحات، فربما كان الشيء مباحا وتُرك لأنّ فيه نوع تعلق بالدنيا، لكن مِن جهة الأمور لا يختلفون عن غيرهم إلا فيما يكون فيه نوع خرم للمروءة ودناءة أو أشباه ذلك فإنهم يتنزهون عنه، لهذا كان الناس يأتون النبي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة.

(٢) «الفرقان» (٤٧، ٤٨).

ﷺ في مجلسه فيسألون أيكم محمد؟ لأنّه لم يكن عليه الصلاة والسلام يتميز عنهم بمكان أو بلباس أو بشارة ونحو ذلك عليه الصلاة والسلام.

وأمّا إحداث بعض الألبسة لخاصة من الناس فإنما حدث في المائة الثانية، كما حدث أنّ للصوفية لباس خاص يعني للزهاد أو للفقراء، وكما حدث في المائة الثامنة أنْ يُخصّ آل البيت بلباس أخضر يجعلونه على أكتافهم أو بعمامة خضراء؛ ليدلوا الناس على أن هذا من آل البيت حتى يعطوه حقه الذي أوجبه الله جل وعلا له.

هذه كلّها أمور حادثة، فعُلم منه أنّ الصالحين والأولياء والمتقين ليس لهم لباس خاص، ومن منع بعض الأشياء لأجل أنها ليست من لباس الأولياء؛ فهذا من جنس المُحدثين في الدين وإن اعتقد صار ذلك بدعة وقولا على الله جل وعلا بلا علم، وهذا له أصناف شتى قد يقع الناس فيه من حيث لا يشعرون، يرون مثلا أنّ بعض الألوان تناسب وبعض الألوان لا تناسب، ويرون مثلا أنّ بعض الأغذية تناسب وبعض الأغذية لاتناسب، وبعض المراكب تناسب وبعض المراكب لا تناسب... وأشباه هذا.

وهذا إذا كان من جهة الرّأي فلا أصل له، أما إذا كان من جهة ترك مشابهة الفسّاق فإن هذا مطلوب، فإنّ الأولياء الصالحين لا يلبسون لباسا يشابهون فيه لباس الفساق وإن كان مباحا، ولا يعملون عملا يشابهون فيه الفسّاق ولو كان مستحبا، بل ربما تركوه لترك المشابهة.

وقد ذكر الحافظ ابن عبد البر رحمه الله في «التمهيد» حينما أتى لبيان حال النبي ﷺ في شعره وأنّه عليه الصلاة والسلام كانت له جُمَّة تضرب إلى أنصاف أذنيه وكان له غَدائر يعني شعر طويل ربما جعله غدائر، قَالَ: وكان على هذا العلماء حتى فشى في فسقة الجُنْد أنهم يتخذون الشعر للزينة عند أهل الفسق والمجون، لما شاع ذلك فيهم ترك العلماء إكرام الشعر وتربيته واختاروا قَصَّهُ مخالفة لفسقة الجند. وهذا أصل معروف وشاع في الأزمنة المتأخرة أنه يكون من صفة أهل الفسق أو من صفة أهل عدم الطاعة أنّ لهم كذا وكذا من الأحوال، فهي وإنْ كانت مباحة فتترك إذا كانت مميزة له، هذا يتميز به الصالحون لا حرج في ذَلِكَ.

أما أنْ يُعتقد شيء من المباحات (أنه) لأهل الصلاح، أو يُعتقد في شيء من

المباحات أنه لا يجوز في أهل الصلاح دون سبب شرعي من مشابهة ونحو ذلك فإنه لا يسوغ، بل أولياء الله هم المؤمنون المتقون كما وصفهم الله جل وعلا لأنهم من جميع الفئات، فمنهم العابد، ومنهم العالم، ومنهم التاجر، ومنهم المعلم، ومنهم الغازي في سبيل الله، وأشباه هؤلاء في أصناف الأمة، كما قال الله جل وعلا في آخر سورة المزمل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ [المزمل:٢٠] الآية، فذكر فيها أصناف الناس وأن منهم الذين يضربون في الأرض ويبتغون من فضل الله، وأنّ منهم من يقاتل في سبيل الله، وهذا يعم من أنواعا كثيرة.

أما لفظ الصوفية ولفظ الفقراء؛ فهذان لفظان حادثان من جهة وسم المتعبدين الزهاد بذلك، وذكر عدة أقوال في الصوفية واشتقاقها، وذكر الصحيح منها أنها نسبة إلى الصّوف، ولِبْس الصوف في الصيف والشتاء -الصوف الخشن- يدلّ على بعد عن التلذذ في الحياة الدنيا، ولذلك صار سُنّة لهم أنهم لا يلبسون الرقيق من الثياب ولا القطن ولا الكَتّان وأشباه ذلك من الثياب الناعمة؛ لأنّ فيها نوع تلذذ ونوع إقبال على الدنيا، وهذا بلا شك في أصله خروج عن السنّة؛ لأنّ النبي عليه الصلاة والسلام كان يلبس الثياب ما جرت عادة قومه بلبسه ما لم يكن مما يخص المشركين في هيئتهم الظاهرة أو يخص أهل الكتاب في هيئتهم الظاهرة، فلبِسَ الإزار والرداء، ولبس القميص والسراويلات، ولبس العمائم وترك، ولبس الصوف ولبس الخزّ ولبس الكتان ولبس القطن ونحو ذلك، وهذا يدل على أن لبس الخشن من الثياب لأهل الصلاح أنه بدعة.

قَالَ: الصحيح أنهم نسبوا إلى الصوف، فقيل لهم صوفية نسبة إلى الصوف، وهذا أرجح الأقوال كما ذكر، ومن القوال أيضا في نسبتهم التي لم يذكرها أنهم منسوبون إلى كلمة يونانية هي كلمة (صوفيا) وهؤلاء هم متنسكة اليونان الذين يطلبون الحكمة. فالفلسفة (فلا صوفيا) وبالعربية تكون بالسين وبالصاد.

وإذا عرفتَ تاريخ ظهور هؤلاء الصوفية في بلاد الإسلام، عرفتَ أنه جاء من جهة النصارى، فإنّ اتصال بعض من لا علم عنده من المتزهّدة بالنصارى وانقطاع أولئك مع النصارى في معابدهم في الكنائس والأديرة خارج البلدان المعمورة خارج المدن، أنشأ هذا المذهب أو هذه الطريقة الصوفية، كما هو ظاهر من كتاب الديارات للسابُسكي

وغيره مما هو معروف في تاريخ الصوفية، يعني أنهم يطلبون - يعني: الصوفية- أنهم أهل لإشراق الروحي أو أهل الحكمة السلوكية. هذا قول نصره أيضا طائفة من العلماء». ا.هـ.

عباد الله...

وبهذا الكلام المتين نأتي إلى خِتام الخطبة الأولى، سائلًا المولى التوفيق لطاعته.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وخلاصة ما تقدَّم: ليس لأولياء الله زيٌّ يتميَّزون به، بل ليس للمسلم زيّ يتميز به عن بقيّة المسلمين، فالإسلام أباح للمسلم لبس ما شاء من الثِّياب، ما عدا ما حذَّر منه الشَّرع المطهَّر.

وهذه أحاديثٌ صحيحة تدلُّ عَلَى ما ذكرناه، منها:

(١) عَنْ قَتَادَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**كُلُوا وَتَصَدَّقُوا وَالبَسُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ**»[١].

(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا أَسْفَلَ مِنْ الكَعْبَيْنِ مِنْ الإِزَارِ فَفِي النَّارِ**»[٢].

(٣) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ يوم القيامة إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ**»[٣].

(٤) عنْ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِي الله عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لاَ تَلْبَسُوا**

(١) **حسن**: رواه النسائي وابن ماجه، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٩٠٤).

(٢) رواه البخاري والنسائي.

(٣) رواه مالك، والبخاري، ومسلم، وغيرهم.

الحَرِيرَ[1] فَإِنَّهُ مَنْ لَبِسَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ». رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، وزاد: وقال ابن الزبير: مَن لبسه في الدنيا لم يدخل الجنَّة، قال الله تَعَالَى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

(٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قال: لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ المَرْأَةِ وَالمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ[2].

(٦) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ فِي الدُّنْيَا أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ أَلْهَبَ فِيهِ نَارًا»[3].

(٧) وعَنْ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قال: رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيَّ ثَوْبَيْنِ مُعَصْفَرَيْنِ فَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ مِنْ ثِيَابِ الكُفَّارِ فَلاَ تَلْبَسْهَا»[4].

عباد الله...

هذا هو المَنهيُّ عنه في ثوب الرِّجال، وما عدا ذَلِكَ فيُباحُ لِبسَهُ، والله الموفق لما يُحبُّ ويرضى.

۞۞۞۞۞

(١) النَّهيُّ للرجال.

(٢) صحيح: رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم، وانظر «صحيح الجامع» (٥٠٩٥).

(٣) حسن: رواه ابن ماجه، وحسنه المنذري كما في «الترغيب والترهيب» (٢٩٩٩)، والألباني كما في «صحيح الجامع» (٦٥٢٦).

(٤) رواه مسلم (٢٠٧٧).

الخطبة الحادية والثمانون:

[ز] لقطات وعظات من حياة أبي مسلم الخَولاني

[و] الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن «**الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**»، وأسأل الله التوفيق

عباد الله...

هناك من العوام من يعتقد عصمة الأولياء!!

بل هناك مَن أصابه الشطح والشطط، فاعتقد أن الأولياء خاضوا بحرًا وقفت

الأنبياءُ بساحله!!

وقَدْ ردَّ شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ الله - عَلَى هؤلاء وأولئك فقال:

«وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطىء، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ومما نهى الله عنه، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى وتكون من الشيطان لبَّسها عليه لنقص درجته، ولا يعرف أنها من الشيطان وأن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى، فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، فقال تعالى: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أو أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** [البقرة:٢٨٥، ٢٨٦].

وقد ثبت في الصحيح أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء وقال: «**قَدْ فَعَلْتُ**»، ففي «صحيح مسلم» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: **﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾** قَالَ: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا». قَالَ: فَأَلْقَى اللَّهُ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾** قَالَ الله: «**قَدْ فَعَلْتُ**»، **﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾** قَالَ: «**قَدْ فَعَلْتُ**»، **﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** قَالَ: «**قَدْ فَعَلْتُ**»[(١)].

وقد قال تعالى: **﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾** [الأحزاب:٥].

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٦).

وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعًا أنه قال «**إِذَا اجتهد الحَاكِمُ فَأَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَد فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ**»، فلم يؤثم المجتهد المخطئ بل جعل له أجرا على اجتهاده وجعل خطأه مغفورا له، ولكن المجتهد المصيب له أجران فهو أفضل منه، ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلَط لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي لله إلا يكون نبيا، بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه إلا أن يكون موافقا للشرع، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاما ومحادثة وخطابا من الحق، بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ، فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف فيه.

الناس في هذا الباب ثلاثة أصناف: طرفان ووسط، فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي لله وافقه في كل ما يظن أنه حدّثه به قلبه عن ربه وسلم إليه جميع ما يفعله، ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية الله بالكلية وإن كان مجتهدا مخطئا، وخيار الأمور أوساطها، وهو أن لا يجعل معصوما ولا مأثوما، إذ كان مجتهدا مخطئا فلا يتبع في كل ما يقوله ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده[١]، والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله، وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء ووافق قول آخرين لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف، ويقول هذا خالف الشرع.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال «**قَدْ كَانَ فِي الأُمم قَبْلَكُم محدَّثُون فَإِنْ يَكُن فِي أُمَّتي أحدٌ، فَعُمر منهم**»[٢].

ومع هذا فكان عمر ﷺ يفعل ما هو الواجب عليه فيعرض ما يقع له على ما جاء به

---

(١) المقصود من (مع اجتهاده) فيما يسوغ فيه الاجتهاد، أمّا الاجتهاد في المسائل المجمع عليها أو في العقيدة؛ عقيدة أهل السنة أو ما أشبه ذلك فهذه لا يسوغ فيها الاجتهاد، ومن خالف واجتهد فيما ليس مجالا للاجتهاد فهو مؤثّم، أما المسائل التي يقبل فيها الاجتهاد لا يلام صاحبها بل يشكر، ولا يؤثم إذا أخطأ بل يقال أخطأ وأراد الخير حيث اجتهد فيما يسوغ فيه الاجتهاد.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦٩)، ومسلم (٢٣٩٨)، ومعنى «مُحدَّث»: أي: مُلهَم، يُلقى الصواب في روعه فيدركه: يأتيه.

الرسول ﷺ فتارة يوافقه فيكون ذلك من فضائل عمر كما نزل القرآن بموافقته غير مرة[١]، ووافق ربه غير مرة، وتارة يخالفه فيرجع عمر عن ذلك، كما رجع يوم الحديبية لما كان قد رأى محاربة المشركين. والحديث معروف في البخاري[٢] وغيره فإن النبي ﷺ قد اعتمر سنة ست من الهجرة ومعه المسلمون نحو ألف وأربعمائة، وهم الذين بايعوه تحت الشجرة، وكان قد صالح المشركين بعد مراجعة جرت بينه وبينهم على أن يرجع في ذلك العام ويعتمر من العام القابل، وشرط لهم شروطا فيها نوع غضاضة على المسلمين في الظاهر، فشق ذلك على كثير من المسلمين، وكان الله ورسوله أعلم وأحكم بما في ذلك من المصلحة، وكان عمر فيمن كره ذلك، حتى قال للنبي ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟ قَالَ: «بَلَى» قَالَ: أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: فَفِيمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: **«إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي»**، ثم قَالَ عُمر: أَوَلَسْتَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: **«أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ العَامَ؟»** قُلْتُ: لَا، قَالَ: **«فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُتَطَوِّفٌ بِهِ»**.

فذهب عمر إلى أبي بكر رضي الله عنهما فقال له مثل ما قال النبي ﷺ، ورد عليه أبو بكر مثل جواب النبي ﷺ، ولم يكن أبو بكر يسمع جواب النبي ﷺ فكان أبو بكر رضي الله عنه أكمل موافقة لله وللنبي ﷺ من عمر، وعمر رضي الله عنه رجع عن ذلك وقال: فعملت لذلك أعمالا. وكذلك لما مات النبي ﷺ أنكر عمر موته أولا، فلما قال أبو بكر أنه مات رجع عمر عن ذلك[٣].

وكذلك في قتال مانعي الزكاة قال عمر لأبي بكر كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا»**، فقال له أبو بكر رضي الله عنه ألم يقل **«إِلَّا بِحَقِّهَا»** فإن الزكاة من حقها، والله لو منعوني

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٣)، ومسلم (٢٣٩٩).
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١).
(٣) أخرجه البخاري (١٢٤٢).

عَناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعلمت أنه الحق[١].

فالمحدَّث، يأخذ عن قلبه أشياء وقلبه ليس بمعصوم فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي المعصوم ﷺ، ولهذا كان عمر ﷺ يشاور الصحابة رضي الله عنهم ويناظرهم ويرجع إليهم في بعض الأمور، وينازعونه في أشياء فيحتجِ عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة، ويُقِرُّهم على منازعته ولا يقول لهم أنا محدِّث ملهم مخاطب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني، فأي أحد ادعى أو ادعى له أصحابه أنه ولي لله وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ولا يعارضوه ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة فهو وهم مخطئون، ومثل هذا من أضل الناس، فعمر بن الخطاب ﷺ أفضل منه وهو أمير المؤمنين، وكان المسلمون ينازعونه فيما يقوله وهو وهم على الكتاب والسنة، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل، وتجب طاعتهم فيما يأمرون به، بخلاف الأولياء فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به، ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به، بل يُعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله، وماخالف الكتاب والسنة كان مردودًا وإن كان صاحبه من أولياء الله، وكان مجتهدا معذورا فيما قاله له أجر على اجتهاده، لكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئا، وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع.

وهذا الذي ذكرته من أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة، هو مما اتفق عليه أولياء الله عز وجل، من خالف في هذا فليس من أولياء الله سبحانه، الذين أمر الله باتباعهم، بل إما أن يكون كافرا، وإما أن يكون مفرطا في الجهل، وهذا كثير في كلام المشايخ، كقول الشيخ أبي سليمان الداراني، أنه ليقع في قلبي

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩)، ومسلم (٢٠).

النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين الكتاب والسنة.

وقال أبو القاسم الجنيد رحمة الله عليه: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لايصلح له أن يتكلم في علمنا أو قال لا يقتدى به.

وقال أبو عثمان النيسابوري: مَن أمّر السنة على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالحكمة. ومن أمّر الهوى على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالبدعة، لأن الله تعالى يقول: ﴿**وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا**﴾ [النور:٥٤].

وقال أبو عمرو بن نجيد كل وَجْدٍ لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل. وكثير من الناس يغلَط في هذا الموضع فيظن في شخص أنه ولي لله، ويظن أن ولي الله يقبل منه كل ما يقوله، ويسلم إليه كل ما يقوله ويسلم إليه كل ما يفعله، وإن خالف الكتاب والسنة، فيوافق ذلك الشخص له ويخالف ما بعث الله به رسوله، الذي فرض الله على جميع الخلق تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه، وبين أهل الجنة وأهل النار، وبين السعداء والأشقياء، فمن اتبعه كان من أولياء الله المتقين وجنده المفلحين وعباده الصالحين، ومن لم يتبعه كان من أعداء الله الخاسرين المجرمين، فتجره مخالفة الرسول وموافقة ذلك الشخص أولا إلى البدعة والضلال، وآخرا إلى الكفر والنفاق.

ويكون له نصيب من قوله تعالى ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَاوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا**﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

وفي المسند وصححه الترمذي عن عدي بن حاتم في تفسيره هذه الآية لما سأل النبي ﷺ عنها فقال: ما عبدوهم، فقال النبي ﷺ: «**أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم، وكانت هذه عبادتهم إيَّاهم**»[1]، ولهذا قيل في مثل هؤلاء: إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول، فإن أصل الأصول تحقيق الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ.

فلابد من الإيمان بالله ورسوله وبما جاء به الرسول ﷺ، فلابد من الإيمان بأن

---

(١) **حسن**: أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وحسنه الألباني.

محمدا رسول الله ﷺ إلى جميع الخلق إنسهم وجنهم وعربهم وعجمهم علمائهم وعُبّادهم ملوكهم وسوقتهم، وأنه لا طريق إلى الله عز وجل لأحد من الخلق إلا بمتابعته باطنا وظاهرا، حتى لو أدركه موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء لوجب عليهم اتباعه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:٨١، ٨٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما ما بعث الله نبيًّا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث مُحَمَّد وهم أحياء ليؤمننَّ به ولينصرنه». ا.هـ[1].

عباد الله...

هــذا الحــقُّ لــيس بــه خَفَــاءُ فَــدَعْني مِــن بُنَــيَّاتِ الطَّــريقِ

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

«فقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء، وقد رتّب الله عباده السعداء المنعم عليهم أربع مراتب، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وأفضل الأمم أمة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢]،

---

(١) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (٥٦ – ٦٧) باختصار.

وقال النبي ﷺ في الحديث الذي في المسند «أنتم تُوَفُّونَ سبعين أُمّة أنتم خيرها وأكرمها على الله»[١]، وأفضل أمة محمد ﷺ القرن الأول.

وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه أنه قال «خَيْرُ أُمَّتِي القَرْنُ الَّذِينَ بُعِثْتُ فِيهِمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[٢] وهذا ثابت في الصحيحين من غير وجه.

وفي الصحيحين أيضا عنه ﷺ أنه قَالَ: ((لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»[٣].

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل من سائر الصحابة، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أعظم دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠].

والسابقون الأولون الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، والمراد بالفتح صُلح الحديبية فإنه كان أول فتح مكة، وفيه أنزل الله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:١، ٢] فقالوا يا رسول الله أَوَ فَتْحٌ هو؟ قال «نعم»[٤].

وأفضل السابقين الأولين الخلفاء الأربعة، وأفضلهم أبو بكر ثم عمر، وهذا هو المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الأمة وجماهيرها، وقد دلّت على ذلك دلائل بسطناها في منهاج أهل السنة النبوية في نقض كلام أهل الشيعة والقدرية.

وأفضل أولياء الله تعالى أعظمهم معرفة بما جاء به الرسول ﷺ واتباعا له كالصحابة الذين هم أكمل الأمة في معرفة دينه واتباعه، وأبو بكر الصديق أكمل معرفة بما جاء به وعملا به، فهو أفضل أولياء الله، إذْ كانت أمة محمد ﷺ أفضل الأمم، وأفضلها أصحاب محمد ﷺ، وأفضلهم أبو بكر ﷺ. وقد ظن طائفة غالطة أنّ خاتم

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، وحسّنه الألباني.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم.
(٤) أخرجه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٧٨٥).

الأولياء أفضل الأولياء قياسا على خاتم الأنبياء، ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين بخاتم الأولياء إلا محمد بن علي الحكيم الترمذي، فإنه صنّف مصنفا غلط فيه في مواضع، ثم صار طائفة من المتأخرين يزعم كل واحد منهم أنه خاتم الأولياء، ومنهم من يدعي أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله، وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته، كما زَعم ذلك ابن عربى صاحب كتاب الفتوحات المكية وكتاب الفصوص فخالف الشرع والعقل مع مخالفة جميع أنبياء الله تعالى وأوليائه، كما يقال لمن قال فخَرَّ عليهم السقف من تحتهم. لا عقل ولا قرآن، ذلك أن الأنبياء أفضل في الزمان من أولياء هذه الأمة، والأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام أفضل من الأولياء، فكيف الأنبياء كلُّهم والأولياء إنما يستفيدون معرفة الله ممن يأتي بعدهم ويدعي أنه خاتم الأولياء، وليس آخر الأولياء أفضلهم كما أن آخر الأنبياء أفضلهم، فإن فضل محمد ﷺ ثَبَتَ بالنصوص الدَّالة على ذلك، كقوله ﷺ: «**أنا سيِّد ولد آدم ولا فخر**»[١]، وقوله «**آتي باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أُمرت أن لا أفتح لأحد قبلك**»[٢].

وليلة المعراج رفع الله درجته فوق الأنبياء كلِّهم، فكان أحقهم بقوله تعالى ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ**﴾ [البقرة:٢٥٣] إلى غير ذلك من الدلائل، كلٌّ منهم يأتيه الوحي من الله لا سيما محمد ﷺ لم يكن في نبوته محتاجا إلى غيره؛ فلم تحتج شريعته إلى سابق ولا إلى لاحق، بخلاف المسيح أحالهم في أكثر الشريعة على التوراة، وجاء المسيح فكمَّلها، ولهذا كان النصارى محتاجين إلى النبوات المتقدمة على المسيح كالتوراة والزبور وتمام الأربع وعشرين نبوة، وكان الأمم قبلنا محتاجين إلى محدَّثين، بخلاف أمة محمد ﷺ فإنّ الله أغناهم به فلم يحتاجوا معه إلى نبي ولا إلى محدَّث، بل جمع له من الفضائل والمعارف والأعمال الصالحة وما فرَّقه في غيره من الأنبياء، فكان ما فضّله الله به من الله بما أنزله إليه وأرسله إليه، لا بتوسُّط بشر، وهذا بخلاف الأولياء فإنّ كل من بلغه رسالة محمد ﷺ لا يكون وليًّا لله إلا باتباع

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) دون قوله: «ولا فخر».
(٢) أخرجه مسلم (١٧٩).

محمد ﷺ، وكل ما حصل له من الهدى ودين الحق هو بتوسط محمد ﷺ، وكذلك من بلغه رسالة رسول إليه لا يكون وليًّا لله إلا إذا اتبع ذلك الرسول الذي أُرسل إليه.

ومن ادعى أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ من له طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلى محمد فهذا كافر ملحد، وإذا قال أنا محتاج إلى محمد في علم الظاهر دون علم الباطن، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة، فهو شرٌّ من اليهود والنصارى الذين قالوا إنّ محمدا رسول إلى الأميين دون أهل الكتاب، فإن أولئك آمنوا ببعض وكفروا ببعض، فكانوا كفّارا بذلك، وكذلك هذا الذي يقول إن محمدا بُعث بعلم الظاهر دون علم الباطن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر، وهو أكفر من أولئك؛ لأن علم الباطن الذي هو على إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق الإيمان الباطنة وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة.

فإذا ادعى المدعى أن محمدًا ﷺ إنما علم هذه الأمور الظاهرة دون حقائق الإيمان. وأنه لا يأخذ هذه الحقائق عن الكتاب والسنة فقد ادعى أن بعض الذي آمن به مما جاء به الرسول دون البعض الآخر، وهذا شر ممن يقول أؤمن ببعض وأكفر ببعض ولا يدعي أن هذا البعض الذي آمن به أدنى القسمين، وهؤلاء الملاحدة يدعون أن الولاية أفضل من النبوة، ويُلبِّسون على الناس فيقولون ولايته أفضل من نبوته، وينشدون:

مقـــام النــــبوة في بـــــرزخ فويـــق الرســـول ودون الولـــي

ويقولون: نحن شاركناه في ولايته التي هي أعظم من رسالته، وهذا من أعظم ضلالهم، فإن وَلاية محمد لم يماثله فيها أحد لا إبراهيم ولا موسى، فضلا عن أن يماثله هؤلاء الملحدون، وكلُّ رسول نبيٌّ وليٌّ، فالرسول نبي ولي، ورسالته متضمنة لنبوته، ونبوته متضمنة لوَلايته، وإذا قدروا مجرد إنباء الله إياه بدون وَلايته لله فهذا تقدير ممتنع، فإنه حال إنبائه إياه ممتنع أن يكون إلا وليًّا لله، ولا تكون مجردة عن وَلايته، ولو قُدرت مجردة لم يكن أحد مماثلا للرسول في وَلايته، وهؤلاء قد يقولون كما يقول صاحب «الفصوص» ابن عربى: أنهم يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول!!

والمعدن عنده هو العقل، والملك هو الخيال، والخيال تابع للعقل، وهو بزعمه

يأخذ عن الذي هو أصل الخيال، والرسول يأخذ عن الخيال، فلهذا صار عند نفسه فوق النبي، ولو كان خاصة النبي ما ذكروه، ولم يكن هو من جنسه فضلا عن أن يكون فوقه، فكيف وما ذكروه يحصل لآحاد المؤمنين، والنبوة أمر وراء ذلك فإن ابن عربى وأمثاله وإن ادعوا أنهم من الصوفية فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة ليسوا من صوفية أهل العلم، فضلًا عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسُّنَّة كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي والجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله التستري وأمثالهم رضوان الله عليهم أجمعين». ا.هـ[(١)].

عباد الله...

وإتمامًا للفائدة، أنقل لحضراتكم كلامًا جيِّدًا يُضاف لما سبق، لسماحة الشيخ صالح آل الشيخ، حفظه الله.

قال - حفظه الله -: «وتفضيلُ النَّبيِّ على الولي ظاهر من جهة الدليل، كما ذكر شيخ الإسلام بالأدلة الكثيرة في الباب، وظاهر أيضا من جهة التعليل؛ فإنّ الولي لم يكن وليًّا إلاّ باتباعه للنبي فبسبب اقتداءه بالنبي واتباعه له صار وليًّا وجاءته الكرامة من جهة اتباعه للنبي عليه الصلاة والسلام، فهو دائما أقلّ رتبة والأولياء في هذه الأمة أكملهم وأرفعهم درجة الأربعة الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

والطوائف التي فضلت الأولياء على الأنبياء، أو فضلت خاتم الأولياء على خاتم الأنبياء ثلاث طوائف:

أما الأولى: فهم غلاة الصوفية.

والثانية: هم الرافضة والإسماعيلية باعتبار أصلهم بأنهم طائفة واحدة.

والثالثة: الفلاسفة.

الطائفة الأولى: غلاة الصوفية: فزعموا أن جهة تفضيل الولي على النبي، أنّ النبي إنما يأخذ من الملَك، وأما الولي فإنه يأخذ من المعدن الذي أخذ منه الملَك، كما قال ابن عربي

---

(١) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (٧٩ - ٨١).

في فصوصه؛ فالنبي يأخذ بواسطة والولي يأخذ بلا بواسطة ولهذا كتب ابن عربي كتابه المعروف (الأربعين عن رب العالمين) يعني التي حَدّث بها عن رب العالمين مباشرة فـ سمعه منه. وهذا من حيث التفضيل أنّ الولي يصل به المكاشفة إلى حيث لا يكون هناك حجاب، والأنبياء حُجبوا منهم من كلموا في بعض الأحيان، أما الولي فإنه إذا اختار أن يسمع الكلام فما عليه إلا أنْ يصفي قلبه ويعمل بالرياضات الخاصة عندهم: الرياضات الروحية، ثم ينكشف له الحجاب فيصبح يرى ما يحدث في الملكوت ويسمع أوامر الحق جل وعلا للملائكة.

والطائفة الثانية الرافضة والإسماعيلية: فإن الرافضة يزعمون أن أئمتهم لهم من المقام ما ليس للأنبياء، وعندهم هذا من ضروريات المذهب حيث يقول بعض أئمتهم: من ضروريات مذهبنا أنّ لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل. يعني مما لا يُحتاج إلى استدلال أصل معروف، الأئمة الاثنى عشر ابتداء من علي إلى العسكري. هؤلاء لا يبلغهم ملَك مقرب ولا نبي مرسل، قال: وأنهم كانوا قبل خلق هذا العالم أنوارا فجعلهم الله بعرشه محدثين وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لم يجعله لأحد من العالمين. والإسماعيلية القرامطة والعبيديين والنصيرية والدروز زعموا أن الأولياء؛ أولياؤهم أعظم من الأنبياء من جهة أنّ الولي -وهم أولياء سبعة عندهم أو أربعة - أنّ الولي يحل فيه الحق جل وعلا، وليس كل شيء يستحق هذه المنزلة، فالأولياء تميزوا على الأنبياء لأنهم يحل فيهم الحق جل وعلا فيصبحون صورة لله جل وعلا؛ صورة ناسوتية وليست لاهوتية يعني بحلول الحق جل وعلا، فالجسمان جسمان إنساني ولكن العلم والحكمة والأمر والنَّهي إلهي.

والطائفة الثالثة ممن يقولون بتفضيل الأولياء على الأنبياء الفلاسفة: فإنهم يقولون النبوة والفلسفة تجتمع في شيء واحد، وهو أن الجميع فيه تحصيل غاية الحكمة، والنبوة تحصيل الحكمة فيها بواسطة الملَك لا دور للنبي في تحصيل الحكمة بإدراكه وعقله وسعيه وبذله، وأما الفيلسوف الحكيم فإنه حصل له هذا المقام وإدراك الحكمة بفعله وإدراكه وبذله وعقله وفهمه، ولهذا الفيلسوف تساوى مع النبي في إدراك الحكمة، ولكن زاد على أنه أدركها بعقله وبحثه ونظره، وذاك بواسطة، ومن أدرك بنفسه أرفع

درجة ممن أدرك بواسطة.

وهذا القول وكل الأقوال السالفة زندقة وكل من قال بهذا القول فهو زنديق يستتاب على الكفر فإن تاب وإلا قتل. وكلام أهل العلم قالوا: يجب قتله بلا استتابة؛ من أظهر هذا القول فإنه يجب قتله بلا استتابة؛ لأنّ هذا القول مما لا شبهة فيه أصلا وإنما هي زندقة محضة». ا.هـ.

أقول: والذي يتولَّى قتله الحاكم أو مَن يَنُوب عنه، وليس لآحاد النَّاس أن يقوم بذلك، لأنه يعدُّ افتياتًا عَلَى الحاكم، وَيُحدث فوضى لا زِمامَ لها ولا خطام.

عباد الله...

وبهذا القدر نكتفي، ومَن أراد المزيد فليراجع كتاب: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام ابن تيمية، بتعليق سماحة الشيخ صالح عبد العزيز آل الشيخ - حفظه الله.

اللَّهُمَّ أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله مُلتبِسًا علينا فَنَضِلّ.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وقبل أن أنهي خطبة اليوم، أذكِّركم بأنَّ الحديث عن الوليّ المبارك أبي مُسلم الخَولاني لم ينته بعد، لذا نذكر ما تبقَّى من حياته:

كان أبو مُسلم -رَحِمَهُ الله - إذا وعظ أثَّرت موعظته في القلوب، وهكذا كان كلامُ سلفنا الصَّالح.

ومن مواعظه:

عن صفوان بن مُسلم قال: قال أبو مُسلم الخَولاني: كان النَّاس ورقًا لا شوك فيه،

فإنهم اليوم شَوكٌ لا ورق فيه، إن ساببتهم سابُّوك، وإن ناقدتهم ناقدوك، وإن تركتهم يتركوك، وإن نفرت منهم يدركوك، قال: فما أصنع؟ قال: هب عِرضك ليوم فقرك. وخذ شيئًا من لا شيء.

وعن شُرحبيل بن مُسلم عن أبي مُسلم الخَولاني: أنه كان إذا وقف عَلَى خَربة[1] قال: يا خربة أين أهلك؟ ذهبوا وبقيت أعمالهم، وانقطعت الشهوات وبقيت الخطيئة!! ابن آدم ترك الخطيئة أهون من طلب التوبة.

وعن أبي قِلابة، عن أبي مُسلم قال: مِثْل الإمام كَمَثل عينٌ عظيمة صافية طيبة الماء. يجري منها إلى نهر عظيم فيخوض النَّاس النهر فيكدرونه، ويعود عليهم صفو العين. فإن كان الكَدَر من قبل العين فسد النَّهر.

قال: ومِثل الإمام ومثل النَّاس كمثل فسطاط لا يستقيل إلا بعمود، لا يقوم العمود إلا بالأطناب أَوْ قال: بالأوتاد - فكلما نزع وتدًا زاد العمود وَهْنًا[2]، لا يصلح النَّاس إلا بالإمام، ولا يصلح الإمام إلا بالناس.

عباد الله...

ومِن إكرام الله لعبده الصَّالح أبي مُسلم، أن رَبَّنا سُبْحَانَهُ وتَعَالى تفضَّل عليه فمات غازيًا.

قَالَ الإمام الذهبيّ - رَحِمَهُ الله -: قال سعيد بن عبد العزيز: مات أبو مسلم بأرض الروم - أي غازيًا - وكان شتا مع بُسر بن أبي أرطاة، فأدركه أَجَلُهُ، فعاده بُسْر، فقال له أبو مسلم: يا بُسر، اعقد لي على مَنْ مات في هذه الغزاة، فإني أرجو أن آتي بهم يوم القيامة على لوائهم. ولما وصل نبأ وفاته إلى «معاوية» تأسّف عَلَى موته، وقال: إنَّما المصيبة كُلُّ المصيبة بموت أبي مسلم الخَولاني، وكُرَيب بن سيف الأنصاري. قَالَ الذهبي: إسناده صالح.

رَحِمَ الله أبا مُسلم ورضي عنه.

---

(١) الخربة: المقبرة.

(٢) الوهن: الضعف.

الخطبة الثانية والثمانون:

[أ] لقطات وعظات من حياة الإمام: زين العابدين

فضلُ طلب العلم

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنبدأ خطبة اليوم بمقولة تكتب بماء الذَّهب، قال أصحابُ مُحَمَّد ﷺ: «مَن حَجَبَ الله عنه العِلم عذَّبه عَلَى الجهل، وأشدُّ منه عذابًا مَن أقبل إليه العلمُ وأدبر عنه، ومَن أهدى الله إليه علمًا فلم يعمل به فقد رَغَبَ عن هَدِيَّةِ الله، وقَصَّر بها»[١].

(١) «عيون الأخبار» لابن قتيبة (٢/ ٣٥٩).

عباد الله...

ومِن العلماء الرَّبانيِّين، والزُّهاد المتقيِّن: زَينُ العَابدين.

فمن هو زينُ العَابدين؟

هو: عليُّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب، السيد الإمام، زَيْنُ العابدين، الهاشميّ العلويّ. يُكنى أبا الحُسَيْن ويقال: أبو الحسن.

وأُمُّه أمُّ ولد، اسمها «سُلافة» بنت ملك الفرس «يَزْدجرد»، وقيل: غزالة.

ولد - رَحِمَهُ الله - في سنة ثمان وثلاثين، ظَنًّا.

وحدَّث عن أبيه الحُسين رَضِيَ الله عَنْهُ، وكان معه يوم كربلاء وله ثلاث وعشرون سنة، وكان يومئذٍ مَوعُوكًا[1] فلم يُقاتل، ولا تعرَّضوا له، بل أحضروه مع آله إلى دمشق، فأكرمه يزيد بن معاوية، وردَّهُ مع آله إلى المدينة.

قَالَ ابن سعد: هو عليٌّ الأصغر، وأمَّا أخوه عليٌّ الأكبر، فَقُتل مَعَ أبيه بِكَربلاء.

وكان عليٌّ بن الحُسين - رَحِمَهُ الله - ثقةً، مأمونًا، كثير الحديث، عاليًا، رفيعًا، ورعًا.

وقال الزُّهريُّ: ما رأيتُ قرشيًّا أفضل من عليٍّ بن الحُسين.

وكان - رَحِمَهُ الله - يلبس في الصَّيف ثَوبين مُمَشَّقَينَ من ثياب مِصر، ويتلو: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال مُحَمَّد ابن هلال: رأيتُ عليّ بن الحُسين يَعْتَمُّ، ويُرخي منها خلف ظهره.

وكان - رَحِمَهُ الله - له جلالةٌ عجيبة، وَحُقَّ له والله ذَلِكَ، فقد كان أهلًا للإمامة العُظمى لشرفه وسؤدده، وتألهه وعلمه، وكمال عقله.

ويُروى أن هشام بن عبد الملك حج قبيل ولايته الخلافة، فكان إذا أراد استلام الحجر زُوحِم عليه، وإذا دنا عليُّ بن الحُسين مِن الحَجَر تفرَّقوا عنه إجلالًا له، فوجم لها هشام وقال: من هذا؟ فما أعرفه، فأنشأ الفرزدق يقول:

هـذا الـذي تعـرفُ الـبَطحاءُ وطأتَـهُ ... والبـيتُ يَعـرفُه والحِـلُّ والحَـرَمُ

---

(١) موعوكًا: مريضًا.

هـذا ابـنُ خَـيرِ عـبادِ الله كُلِّهـم — هـذا التَّقـيُّ النَّقـيُّ الطَّاهـر العَلَـمُ

إذا رَأتـهُ قُـريشٌ قَـالَ قائِلُهـا — إلى مكـارمِ هـذا يَنتهـي الكَـرَمُ

يكـادُ يُمسِكُه عِرفانُ راحـتِهِ — رُكـن الحطَـيم إذا مـا جـاء يَـستَلِمُ

يُغْـضِي حـياءً ويُغـضَى مهابـته — فمـا يُكلَّـم إلا حـين يَبتَـسِمُ

هـذا ابـن فاطمـةٍ إن كُـنتَ جاهِلَـهُ — بجـدِّهِ أنبـياءُ الله قَـدْ خُـتِمُوا

وهي قصيدة طويلة.

فأمر هشامٌ بحبس الفرزدق، فحُبس بُعسفان، وبعث إليه عليُّ بن الحسين باثني عشر ألف درهم، وقال: اعذر أبا فراس. فردها وقال: ما قلتُ ذَلِكَ إلا غضبًا لله ولرسوله. فردَّها إليه وقال: بحقّي عليك لما قَبلتها، فقد علم الله نيّتك ورأى مكانك، فقبلها. وقال في هشام:

أيَحبِـسُني بـين المديـنة والـتي — إلـيها قلـوبُ الـنَّاس يُهـوِي مُنيـبها

يُقلِّـب رأسًـا لم يكـن رأس سـيِّدٍ — وعَيْـنَين حَـولاوَين بـادٍ عـيوبُها[1]

عباد الله...

وعلى الرغم من جلالة عليّ بن الحُسين وعلوّ كَعبه، إلا أنَّهُ كان لا يستحيي أن يجلس بين يدي العلماء سائلًا ومستفتيًا.

قَالَ نافع بن جُبير لعليّ بن الحُسين: إنك تجالس أقوامًا دونًا، قَالَ: آتي مَن أنتفعُ بمجالسته في ديني.

وكان - رَحِمَهُ الله - يجالس (أسلم مولى عُمر) فقيل له: تدعُ قريشًا، وتجالس عبد بني عديّ؟ فقال: إنَّما يجلس الرجل حَتَّى ينتفع.

وكان - رَحِمَهُ الله - يدخل المسجد فَيشُقُّ النَّاس حَتَّى يجلس في حلقة «زيد بن أسلم»، فقال له نافع بن جُبير: غفر الله لك، أنت سيِّد النَّاس، تأتي تتخطى حَتَّى تجلس

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٩٩).

مَعَ هذا العبد؟! فقال عليّ بن الحُسين: العلم يُبتغى ويُؤتى، ويُطلَبُ مِن حيثُ كان.

أيُّها المسلمون...

هَذِهِ أخلاقُ سَلَفَنا الصَّالح، يتعلَّمون، ويتواضعون لمن يتعلَّمون منه، وفي هذ إشارة لأهمية العلم وفضله أهله.

وقَدْ وردت آيات وأحاديث كثيرة تشير إلى فضل العلم وأهله.

فمن الآيات:

قوله تَعَالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [الزمر: ٩].

ومن الأحاديث:

عَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ**»[(١)].

الأحاديث في هذا المقام كثيرة.

والمقصود: أن العلم هو حياة هَذِهِ الأُمَّة، وهو سبب إنقاذها في الآخرة.

ونقصد بالعلم هنا: العلم المُصَفَّى.

قَالَ ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله -: «وقَدْ قيل: مَن أخذ العلم مِن عَين العلم ثَبت، ومَن أَخَذَهُ مِن جَرَيانه أخذته أمواج الشُّبه، ومالت به العبارات، واختلفت عليه الأقوال». ا.هـ[(٢)].

ومن أجمل ما قرأت: مقالًا بعنوان «العلماء والإصلاح» للعلَّامة الشيخ مُحَمَّد الخضر حُسين، شيخ الأزهر الأسبق، رَحِمَهُ الله، قَالَ فيه:

«نَودُّ من صميم قلوبنا أن تكون نهضتنا المدنيّة راسخة البناء، رائعة الطلاء، محمودة

---

(١) رواه البخاري (٧١).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٤).

عاقبة، ولا يرسخ بناؤها ويروع طلاؤها، وتحمد عاقبتها، إلَّا أن تكون موصولة بنظم الدين، مصبوغة بآدابه، والوسيلة إلى أن يجري فيها روح من الدين يجعلها رشيدة في وجهتها، بالغة غايتها، أن يزداد الذين درسوا علوم الشريعة عناية بالقيام عَلَى ما استحفظوا من هداية، فلا يذروا شيئًا يشعرون بأنه موكول إلى أمانتهم إلَّا أحسنوا أداءه.

ينظر أهل العلم في حال النَّاس من جهة ما يتقربون به إلى الخالق، ويزِنُون أعمالهم ليميزوا البدعة من السنة، ويرشدوهم على أن يعملوا صالحًا، ومن الذي لا يدرك أن البدع تقف كقطع من الليل المظلم فتغطي جانبًا من محاسن الشريعة الغرَّاء، وهي بعد هذا ضلالات تهوي بأصحابها في ندامة وخُسران.

ينظرون في أحوال النَّاس من جهة ما يدور بينهم من المزاعم الباطلة والأحاديث المصنوعة، وينفون خبثها نفي النار لخبث الحديد، يفعلون هذا ليكون الناشئ المسلم نقي الفكر صافي البصيرة، لا يحمل في نفسه إلا عقائد خالصة وحقائق ناصعة، ينظرون في أحوال النَّاس من جهة ما يجري بينهم من المعاملات، فيصلحون ما كان فاسدًا، ويَصِلون ما كان منقطعًا.

وما شاعت المعاملات التي نهى عنها الدين في غير هوادة كالربا والميسر إلا حيث قلّ مَن يعظ النَّاس في ارتكابها ويبسط القول في شئوم عاقبتها.

ينظرون في أحوال النَّاس من جهة ما يمسهم من السرَّاء والضرَّاء، ويسعون ما استطاعوا في كشف الضر عنهم ولو بعرض حالهم عَلَى أولي الشأن، وإثارة دواعيهم إلى أن يعالجوا العسر حَتَّى ينقلب بفضل تدبيرهم يسرًا.

يحدِّثنا الكاتبون في تاريخ الأندلس أن العلماء المقيمين في ضواحي قرطبة كانوا يأتون يوم الجمعة للصلاة مَعَ الخليفة ويطالعونه بأحوال بلدهم، وقال أحد علمائهم:

وأتعب إن لم أمنح النَّاس راحة ... وغير إن لم يُتْعِبِ النَّاس يَتْعَب

ينظر أهل العلم بعين الاحتراس إلى كل مَن يدعو إلى مذهب باسم الدين، ويتخذون الوسائل إلى الاطلاع عَلَى حقيقة قصده، ومن أسباب وهن حبل الإسلام

وتقطع أوصاله مذاهب يبتدعها ملاحدة يمكرون، أو جهَّال لا يفقهون، أفلم يكن المذهب البهائي يعمل لهدم قواعد الإسلام واستهواء أبناءه من خلف ستار، وقَدْ أحس بعض أتباعه اليوم بقوة فصاروا يخطبون عَلَى منابر بعض النوادي ويجهرون بشيء من مزاعمه، وعرف بعض خصوم الإسلام قصدهم فقاموا يشدون أزرهم ويرددون الثناء عَلَى مذهبهم.

نحن نعلم أن في كل أمة فئة يفتحون صدورهم لقبول كل دعوة توافق أهواءهم. أو تأتيهم في طلاء يلائم أذواقهم، ولكن نهوض العلماء بعزم وحكمة إن لم يسحق آراء زعماء هَذِهِ الفئة سحقًا، فإنه يكشف عما فيها من سوء، فلا يسكن إليها إلا مَن هم إلى الحيوان الأعجم أقرب منهم إلى الإنسان.

يرقب أهل العلم كل حركة تقوم بها جماعة من الأمة، فينقدونها بالنظر الخالص. ويصدعون فيها بآرائهم مدعومة بالأدلة المقنعة، ولا تعد هَذِهِ المراقبة وهذا النقد خارجين عن خطة العالم الإسلامي، بل هما واجبان في عنقه كواجب التعليم والإفتاء، وإذا قص علينا التاريخ أن فريقًا من أهل العلم قضوا حياتهم في بحث المسائل العلمية البحتة، فقد قصّ علينا أن أمة من عظمائهم كانوا ينظرون في الشئون العامة، ويمثلون السِّيرة التي تكسو صاحبها جلالة، وترفع له بين الخلائق ذِكرًا.

كان أهل العلم يوجهون هممهم إلى الوسائل التي تقي الأمة مِمَّن يبغونها الأذى، فهذا أبو بكر بن العربي قاضي أشبيلية رأى ناحية من سور أشبيلية محتاجة إلى إصلاح ولم يكن في الخزانة مال موفر يقوم بسدادها، ففرض عَلَى النَّاس جلود ضحاياهم وكان ذَلِكَ في عيد الأضحى، فأحضروها وصرفت أثمانها في إصلاح تلك الناحية المتهدمة، وكان مُحَمَّد بن عبد الله بن يحيى الليثي قاضي قرطبة كثيرًا ما كان يخرج إلى الثغور ويتصرف في إصلاح ما وهى منها، حَتَّى مات في بعض الحصون المجاورة لِطُليطلة.

وظهور العلماء في أمثال هَذِهِ المواقف يغرس لهم في نفوس الأمة ودًّا واحترامًا، ويورثهم في رأي أولي الأمر مقامًا كريمًا، أفلا نذكر أيام كان أمراء الإسلام يعرفون في طائفة من العلماء رجاحة الرأي وصراحة العزم وخلوص السريرة، فيلقون إليهم بقيادة الجيوش فيكفون بأس أعدائهم الأشداء، وما كان أسد بن الفرات قائد الجيش الذي

فتح صقلية إلا أحد الفقهاء الذين أخذوا عن مالك بالمدينة ومحمد بن الحسن في بغداد وعبد الرحمن بن القاسم في القاهرة.

ينظر أهل العلم إلى ما غرق فيه بعض شبابنا من التشبه بالمخالفين وتقليدهم في عادات لا تُغني من الرُّقي شيئًا، وقَدْ يرى بعضهم انحطاط كثير من أبنائنا في هذا التشبه والتقليد، فيعده قضاء مبرمًا، ويملكه خاطر اليأس حَتَّى ينتكث من التعرض للشئون العامة ومعالجتها، ولكن الذي يعرف علة هذا التسرع ويكون قَدْ قرأ التاريخ ليعتبر، يرى الأمر أهون من أن يصل بالنفوس إلى التردد في نجاح الدعوة، بل اليأس من نجاحها.

وأذكر بهذا أن كاتبًا كتب في إحدى المجلات مقالًا تحت عنوان «وحدة العالم» يدعو فيه إلى مسايرة أوروبا في السفور ونحوه، وقال في علة الدعوة إلى هَذِهِ المسايرة: ليخرج الشرق والغرب في مدينة واحدة، وأشار إلى دعاة الإصلاح في الشرق بأن لا يقفوا في سبيل هَذِهِ المَدنيَّة زاعمًا أنهم لا يستطيعون مقاومتها، ولا يزيدون عَلَى أن يجعلوا سيرها بطيئًا، ورغب إليهم أن يحثوا النَّاس عَلَى المسارعة إلى قبولها.

والذين ينظرون إلى مدنية أوروبا باعتبار، يبصرون فيها عَلَى البداهة ما لا يرتضيه العقل ولا يقبله الشرع، واختلاف الأمم بالحق خير من اتحادها عَلَى الباطل، ولا يفوت الحكمة أن تجد نفوسًا مهذبة وعقولًا سليمة فتقبلها، فَحَقِيقٌ عَلَى العلماء أن يبتسموا لهذا الرأي تبسم الازدراء ولا يقيموا لمثله وزنًا إلا أن يكشفوا سريرته ويعرضوا عَلَى الأنظار سوء مغبته، والعالِم بِحق من يتدرع بالإيمان والثقة بما وعد الله به الداعي إلى الحق من الظهور عَلَى أشياع الباطل وإن أوتوا زخرفًا من القول وسعة من المال وكانوا أكثر قبيلا.

لا ينبغي لأهل العلم أن يغفلوا عن سير أرباب المناصب والولايات، فمن واجبهم أن يكونوا عَلَى بينة من أمرهم، حَتَّى إذا أبصروا عوجًا نصحوا لهم بأن يستقيموا، أو رأوا حقًّا مهملًا لفتوا إليه أنظارهم وأعانوهم عَلَى إقامته.

أمرَ السلطان سليم بِقتل مائة وخمسين رجلًا من حفَّاظ الخزائن، فبلغ هذا النبأ الأستاذ علاء الدين الجمالي وكان متوليًا أمر الفتوى، فذهب إلى السلطان وقال له:

وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا عَلَى آخرة السلطان، وهؤلاء الرجال لا يجوز قتلهم شرعًا، فعليك بالعفو عنهم، فغضب السلطان سليم، وقال له: إنك تتعرض لأمر السلطنة وليس ذَلِكَ من وظيفتك، فقال الأستاذ علاء الدين: لا بل أتعرض لأمر آخرتك، وإنه من وظيفتي، فإن عفوت فلك النجاة، وإلا فعليك عقاب عظيم. فانكسرت سورة غضب السلطان وعفا عن الجميع.

ومتى كان في ولاة الأمور شيء من العدل، وكان في الداعي إلى الإصلاح حكمة وإخلاص، نجحت الدعوة في سعيها، وبلغت بتأييد الله مأربها.

يكون العالِمِ رفيقًا في خطابه ليِّنًا في إرشاده، أما إذا أراده ذو قوة عَلَى أن يقول ما ليس بحق أو يأتي ما ليس بمصلحة، أخذ بالتي هي أرضى للخالق، وكان مثالًا للاستقامة صالحًا.

أذكر أن أحمد بن طولون دعا القاضي بكار بن قتيبة إلى خلع الموفق من ولاية العهد فأبى، فحبسه وكرر عليه القول، فأصر عَلَى الإباء، وبقي في السجن حَتَّى ثقل ابن طولون في مرض الوفاة، فبعث إلى القاضي بكار يقول له: أَرُدُّك إلى منزلتك أو أحسن منها، فقال بكار للرسول: قل له: شيخٌ فانٍ، والملتقى قريب، والقاضي الله عَزَّ وَجَلَّ. فأبلغ الرسول ابن طولون ذَلِكَ، فأطرق ساعة ثم قَالَ: شيخ فان، والملتقى قريب، والقاضي الله عَزَّ وَجَلَّ، وأمر بنقله من السجن إلى دار اكتريت له.

وإنَّما يقوم العالِم بإسداء النصيحة إلى ذي قوة أو لا يوافقه فيما يخدش أمانته وتقواه، متى قدر مقامه العلمي قدره، وكان شأن العلم أسمى في نظره من كل شأن، وهذا الشعور هو الذي يهيئه بعد داعية الغيرة لأن يجاهد في سبيل الحق مستهينًا بكل ما يعترضه من أذى.

ومن أدب العُلماء أن ينصحوا للأمة فيما يقولون أو يفعلون، ويحتملوا ما ينالهم في سبيل النصيحة من مكروه، وكم من عالم قام في وجه الباطل فأُوذي فتجلد للأذى، وأجاب داعي التقوى متأسيًا بقوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ اغفر لقومي فإنَّهم لا يَعلمُون**»[١].

---

(١) رواه البخاري (٤/ ٢١٤)، ومسند أحمد (١/ ٤٤١).

ومن جرى عَلَى هذا الخلق المتين أبو بكر بن العربي يوم كان قاضيًا بإشبيلية، قَالَ في كتاب «العواصم من القواصم»: حكمت بين النَّاس فألزمتهم الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حَتَّى لم يك يرى في الأرض منكر، واشتد الخطب عَلَى أهل الغصب، وعظم عَلَى الفسقة الكرب، فتألبوا وألبوا، وثاروا عليَّ فاستسلمت لأمر الله وأمرت كل من حولي ألا يدفعوا عن داري، وخرجت عَلَى السطوح بنفسي، فعاثوا عليّ حَتَّى أمسيت سليب الدار، ولولا ما سبق من حُسن الأقدار، لكنت قتيل الدار[1].

ولا يستحق لقب عالِمٍ أو مُصلح ذَلِكَ الذي يدعو النَّاس إلى العمل الصالح ويقبض عنه يده، أو ينهاهم عن العمل السيئ ولا يصرف عنه وجهه، فمن أدب العلماء أن يسابقوا الأُمة إلى اجتناب ما يؤاخذ عنه، وعمل ما يُحمد عليه كأن ينفقوا في وجوه البر والمشروعات الصالحات ما ينفقه أمثالهم من المكثرين أو المقلين، فإن ذَلِكَ أدلّ عَلَى إخلاصهم، وأدعى إلى توقيرهم وقبول نصائحهم.

وإذا كان العدد القليل فيما سلف يكفي لحراسة الدين وإرشاد من ينحرف عنه حَتَّى يعود إليه، فلأن سلطان الإسلام يومئذٍ غالب، وصوت الجهل عليه خافت، أما اليوم فالحال ما ترون وما تسمعون، فلا يمكن للدعوة أن تأتي بفائدتها إلا أن تضم المعاهدة الإسلامية بين جدرانها طوائف كثيرة من أولي الغيرة والعزم، يصرفون جهدهم في الدفاع عن الدين والدعوة إلى الخير، ويعيدون الدعوة مرة أخرى». ا.هـ.

عباد الله...

وبهذا الكلام الجيِّد نأتي إلى خِتام الخطبة الأولى، سائلًا المولى - جلّت قدرته - التوفيق لطاعته.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

❊❊❊❊

---

(١) يعني مثل سيدنا عثمان بن عفَّان حيث قتل في داره.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فالحديث عن العلم وفضل أهله يطول، وعن فضله يقول الإمامُ الشَّافعيُّ رَحِمَهُ الله: «مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ عَظُمَتْ قِيمَتُهُ، وَمَنْ تَعَلَّمَ الفِقْهَ نَبُلَ مِقْدَارُهُ، وَمَنْ كَتَبَ الحَدِيثَ قَوِيَتْ حُجَّتُهُ، وَمَنْ تَعَلَّمَ الحِسَابَ جَزَلَ رَأْيُهُ، وَمَنْ تَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ رَقَّ طَبْعُهُ، وَمَنْ لَمْ يَصُنْ نَفْسَهُ لَمْ يَنْفَعْهُ عَمَلُهُ» [١].

وقبل ذَلِكَ يقول الله تَعَالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ [٢] أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ [٣] الكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ [٤] أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ [٥] لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» [٦].

فهيَّا - عباد الله - إلى هذا الشَّرف، واعلموا أن الجهل موت قبل الموت، كما قَالَ

---

(١) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (٢٨).

(٢) **الغيث**: المطر.

(٣) **الكلأ والعشب والحشيش**: كلها أسماء للنبات.

(٤) **أجادب**: هي الأرض التي لا تُنبت كلأ.

(٥) **قيعان**: جمع قاع، وهي الأرض المستوية، وقيل: الملساء، وقيل: التي لا نبات فيها، وهذا هو المراد في هذا الحديث، كما صرح به ﷺ.

(٦) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢) واللفظ له.

شاعر:

وفي الجهلِ قَبْلَ الموتِ موتٌ لأهله ... وأجسامُهم قَبْلَ القُبورِ قبورُ

وأرواحُهم في وَحْشَةٍ من جسومهم ... وليس لهم حَتَّى النّشور نشورُ

اللَّهُمَّ علِّمنا ما جَهِلنا، وانفعنا بما عَلَّمتنَا.

آمين... آمين... آمين

✡✡✡✡✡

الخطبة الثالثة والثمانون:

[ب] لقطات وعظات من حياة الإمام: زَينُ العابدين

أخلاق إسلامية، تحتاج إليها الأمة الإسلامية

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة «زَينُ العابدين عليّ بن الحُسين» رَحِمَهُ الله.

عباد الله...

ونذكر في خطبة اليوم - إن شاء الله - أخلاقًا إسلامية تحلَّى بها زَينُ العابدين، الأمَّة في أمسِّ الحاجة اليوم إليها.

من هَذِهِ الأخلاق:

حُسن الخُلق:

العلم النَّافع يثمر سلوكًا قويمًا، وخُلقًا حسنًا، وكان عليّ بن الحُسين - رَحِمَهُ الله - مِن أحسن النَّاس أخلاقًا، ولا غرو في ذَلِكَ، أليس جِدَّه رَسُول الله ﷺ الذي وصفه ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قَالَ ابن كثير - رَحِمَهُ الله -: قَالَ عدد من العلماء: وإنك لعلى دينٌ عظيم، وهو الإسلام، وقيل: لعلى أدبٌ عظيم.

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: أَخْبِرِينِي يا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَتْ: تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ فقلتُ: نعم، فقالت: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ[١]. ا.هـ[٢].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ**»[٣].

ويَحكي أهل السِّير عن زَينُ العابدين أنَّهُ كان مِن أحسن النَّاس أخلاقًا، ومِمَّا ذكروه عنه:

قَالَ أبو يعقوب المدنيّ: كان بين حسن بن حسن وبين ابن عمِّه عليِّ بن الحسين شيء، فما ترك حسن شيئا إلا قاله، وعليٌّ ساكت، فذهب حسن، فلما كان في الليل، أتاه عليٌّ، فخرج، فقال عليّ: يا ابن عمِّي إن كنت صادقًا فغفر الله لي، وإن كنت كاذبًا، فغفر الله لك، السلام عليك.

قال: فالتزمه[٤] حسن، وبكى حتى رثى له. ثم قَالَ: لا جرم لا عُدت في أمرٍ تكرهه، فقال عليّ: وأنت في حِلٍّ مِمَّا قُلت لي.

وكلَّمه رجلٌ فافترى عليه، فقال عليّ: إن كنَّا كما قلت فنستغفر الله، وإن لم نكن كما

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦).
(٢) «صحيح تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٩٥).
(٣) حسن: أخرجه أحمد (٢/ ٣٨١).
(٤) التزمه: احتضنه.

قلت فغفر الله لك، فقام إليه الرجل فقبَّل رأسه وقال: جُعِلتُ فداك، ليس كما قلتُ فاستغفر لي، فقال عليّ: غفر الله لك، فقال الرجل: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وعن عبد الغفار بن القاسم قال: كان عليّ بن الحسين خارجًا من المسجد فلقيه رجل فسبَّهُ، فثارت إليه العبيد والموالي فقال عليّ بن الحسين: مهلاً عن الرجل. ثم أقبل على الرجل فقال: ما سُتر عنك من أمرنا أكثر. ألك حاجة نُعينكَ عليها؟ فاستحيى الرجل. فألقى عليه خميصة[1] كانت عليه وأمر له بألف درهم، فكان الرجل بعد ذلك يقول: أشهد أنك من أولاد الرسول[2].

ومن أخلاقه - رَحِمَهُ الله -:

الاجتهاد في العبادة مَعَ شدّة الخوف:

كان - رَحِمَهُ الله - إذا توضأ يصفرّ - أي يتغيّر لونه - فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: تدرون بين يدي مَن أُريد أن أقوم؟

وكان - رَحِمَهُ الله - إذا مشى لا تجاوز يديه فخده، ولا يخطر بيده، وكان إذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة، فقيل له: ما لك؟ فقال: ما تدرون بين يدي مَن أقوم ومَن أُناجي؟

وعن أبي نوح الأنصاري قَالَ: وقع حريقٌ في بيت فيه عليّ بن الحُسَين وهو ساجد. فجعلوا يقولون له: يا ابن رسول الله؛ النار، يا ابن رَسُول الله؛ النار، فما رفع رأسه حَتَّى أُطفئت، فقيل له: ما الذي ألهاك عنها؟ قَالَ: ألهتني عنها النارُ الأخرى.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قَالَ: إن عليّ بن الحسين كان لا يُحب أن يُعينه أحدٌ على طَهورِهِ، وكان يستقي الماء لطهوره ويخمره[3] قبل أن ينام. فإذا قام من الليل بدأ بالسواك ثم يتوضأ ثم يأخذ في صلاته، وكان يقضي ما فاته من صلاة النهار بالليل ثم يقول: يا بني ليس هذا عليكم بواجبٍ ولكن أُحب لمن عوَّد نفسه منكم عادة من الخير أن يدوم عليها.

---

(١) الخميصة: كساء أسود له علمان.

(٢) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٢/ ٧١).

(٣) يُخمره: يغطّيه.

وعن سفيان: حجّ عليّ بن الحُسين فلما أحرم، اصفرّ وانتفض ولم يستطع أن يُلبِّي، فقيل: ألا تُلبِّي؟ قَالَ: أخشى أن أقول: لبيْك، فيقول لي: لا لَبيك، فلما لبَّى غُشي عليه وسقط عَلَى راحلته، فلم يزل بعضُ ذَلِك به حَتَّى قضى حجَّه.

عباد الله...

لقد جمع زَينُ العابدين بين الاجتهادات في العبادة، وشدّة الخوف، فكان - رَحِمَهُ الله - مِمَّن قَالَ الله تَعَالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾. [المؤمنون: ٥٧- ٦١].

قَالَ الحسن - رَحِمَهُ الله - في قوله تَعَالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ يؤتون الإخلاص ويخافون ألَّا يُقبل منهم.

وعن عَائِشَةَ رَضِي الله عَنْهَا: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: «لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ»[١].

عباد الله...

وهكذا كان حالُ سلفِنا الصّالح، يجمعون بين شدّة الاجتهاد في العبادة، وبين شدّة الخوف من الله تَعَالى.

فماذا عن حالنا؟

غفلة.

وتفريط.

وتضييع للفرائض.

وانتهاك للمحارم.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٣٤٠١)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وصححه الألباني.

ومسارعة في العصيان.

ثم نتكل عَلَى رحمه ربّنا وعفوه، وننسى أَنَّهُ شديد العقاب، وهذا هو الاغترار، كما قَالَ يحيى بن معاذ - رَحِمَهُ الله -: «من الاغترار انتظار الجنَّة بعمل أهل النار». أو قَالَ كلامًا يقارب هذا الكلام.

وقال - رَحِمَهُ الله - أيضًا: «عملٌ كالسّراب، وقلبٌ من التقوى خرابٌ، وذنوبٌ بعدد الرّمل والتراب، ثم تَطمعُ في الكواعب الأتراب؟ ما أقواك لو خَالفتَ هواك»[1].

عباد الله..

إن الرجاء يأتي عقب أعمالٌ صالحة، قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢١٨].

وقال تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ**﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

وقال الحافظ ابن حجر - رَحِمَهُ الله -: «وَالمَقصُود مِن الرَّجَاء أَنَّ مَن وَقَعَ مِنهُ تَقصِير فَليُحسِن ظَنَّهُ بِاللَّهِ وَيَرجُو أَن يَمحُوَ عَنهُ ذَنبَهُ، وَكَذَا مَن وَقَعَ مِنهُ طَاعَة يَرجُو قَبُولهَا، وَأَمَّا مَن اِنهَمَكَ عَلَى المَعصِيَة رَاجِيًا عَدَم المُؤَاخَذَة بِغَيرِ نَدَم وَلَا إِقلَاع فَهَذَا فِي غُرُور، وَمَا أَحسَن قَول أَبِي عُثمَان الجِيزِيّ: مِن عَلَامَة السَّعَادَة أَن تُطِيع، وَتَخَاف أَن لَا تُقبَل. وَمِن عَلَامَة الشَّقَاء أَن تَعصِي، وَتَرجُو أَن تَنجُوَ» ا.هـ[2].

أسأل الله أن يوفِّقنا لأحسن الأعمال، لا يوفِّق لأحسنها إلَّا هو، وأن يصرف عنَّا سيئَها، لا يَصْرف عنَّا سيِّئها إلَّا هو.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) «أحاسن المحاسن» (٥٦٠).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٣٠١).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن أخلاق زَين العَابدين -رَحِمَهُ الله - التي تحلَّى بها ونحن في أمسِّ الحاجة إليها:

دفاعه عن أصحاب النَّبيّ ﷺ :

عَنْ جعفر بن مُحَمَّد، عن أبيه، قال: جاء رجلٌ إلى أبي فقال: أخبرني عن أبي بكر؟ قال: عن الصِّدِّيق تسأل؟ قال: وتُسمِّيه الصِّدِّيق؟! قال: ثَكلتُك أُمّك قد سمَّاه صدِّيقًا مَن هو خَير منِّي، رَسُول الله ﷺ، والمهاجرون، والأنصار، فمَن لم يُسمِّه صدِّيقًا، فلا صدق الله قوله، اذهب فأحِبَّ أبا بكر وعمر، وتولَّهما، فما كان من أمرٍ ففي عُنُقي[١].

وعن محمد بن حاطب، عن عليّ بن الحسين أنه أتاه نفرٌ من أهل العراق فقالوا في أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم. فلما فرغوا فقال: ألا تخبروني: أنتم المهاجرون الأوّلون ﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ [الحشر: ٨]؟ قالوا: لا. قال: فأنتم ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ [الحشر: ٩]؟ قالوا: لا، قال: أما أنتم فقد تبرأتم أن تكونوا من أحد هذين الفريقين. ثم قال: أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الحشر: ١٠]؟ اخرجوا، فعل الله بكم[٢].

فما أحوجنا اليوم إلى هذه الأخلاق، فالذَّبُّ عن أصحاب النَّبيّ ﷺ من الإيمان.

لقد طالت ألسنُ السُّفهاء عَلَى الصحابة، وهدفهم مكشوف، ألا وهو هدم الإسلام.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٤/ ٣٩٥).

(٢) «صفة الصفوة» (٢/ ٦٩).

فأفيقوا أيها المسلمون وهُبُّوا للدفاع عن صحابة النَّبيِّ ﷺ. ردُّوا سِهام الأعداء عنهم. واعلموا أن مَن أحبّ قومًا حُشر معهم.

اللَّهُمَّ إنَّا نسألك حُبَّك وحُبَّ مَن يُحِبّك، وحُبّ كل عمل يُقرِّبنا مِن حُبِّك.

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

۞۞۞۞۞

الخطبة الرابعة والثمانون:

[جـ] لقطات وعظات من حياة الإمام: زين العابدين

منزلةُ الصدقة في الإسلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة «**زَيْنُ العابدين عليّ بن الْحُسَين**» رَحِمَهُ الله.

عباد الله...

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ

القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ[١].

وقال الزَّبيديُّ: الجوَّادُ: هو الذي يُعطي بلا مسألةٍ صيانةً للآخذ من ذُلّ السُّؤال.

وقال:

وما الجودُ مَنْ يُعْطِي إذا ما سألتَهُ ... ولكنَّ مَنْ لا يُعْطي بغيرِ سُؤَالِ[٢]

وقال الحسن البصريّ - رَحِمَهُ الله -: «بَذْلُ المجهودِ في بَذْلِ الموجودِ مُنْتَهى الجُودِ»[٣].

عباد الله...

هذا عن الجُودِ، أمَّا عن الصَّدقة، ففضائلها كثيرة؛ منها:

قوله تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ صَدَقَةَ السِّرِّ تُطْفِيءُ غَضَبَ الرَّبِّ تبارك وتعالى»[٤].

والمقصود - هنا - أن زَينُ العَابدين جمع بين الجود والصَّدقة، وكان - رَحِمَهُ الله - حريصًا عَلَى صدقة السِّر لما لها من فضل وأجر.

فقد كان -رَحِمَهُ الله - يحمل الخبز بالليل عَلَى ظهره يَتَّبَعُ به المساكين في الظُّلمة، ويقول: إن الصدقة في سواد الليل تُطفئ غضب الرَّب.

وعن مُحَمَّد بن إسحاق قال: كان ناسٌ من أهل المدينة يعيشون، لا يدرون من أين كان معاشُهم، فلما مات عليٌّ بن الحُسَين، فقدوا ذَلِكَ الذي كانوا يُؤتَون بالليل.

وعن عمرو بن ثابت: لما مات عليٌّ بن الحُسين وجدوا بظهره أثرًا مِمَّا كان ينقُل الجُربَ بالليل إلى منازل الأرامل.

وقال شيبة بن نعامة: لما مات عليٌّ وجدوه يَعُولُ مائة أهل بيت.

---

(١) رواه البخاري (٥)، ومسلم (٢٣٠٨).

(٢) «تاج العروس» للزَّبيدي (٤/ ٤٠٣).

(٣) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٧٢٤).

(٤) **حسن**: رواه الطبراني في «الكبير» وحسنه الألباني.

قَالَ الذهبي رَحِمَهُ الله: لهذا كان يُبخَّل[1]، فإنه يُنفِقُ سِرًّا ويظنُّ أهله أنه يجمع نَدَراهم.

وعَن عمرو بن دينار، قال: دخل عليّ بن الحسين على مُحَمَّد بن أُسامة بن زَيد في مرضه، فجعل مُحَمَّد يبكي، فقال: ما شأنك؟ قال: عليَّ دَيْن، قال: وكم هو؟ قال: بضعة عشر ألف دينار، قال: فهي عليَّ.

وكان إذا أتاه سائل رَحَّب به وقال: مرحبًا بمن يحمل زادي إلى الآخرة.

فأين هذه الأخلاق في الدنيا اليوم؟

لقد جفَّت أصابعُ كثيرة من المسلمين عن العطاء، ولو أعطى أحَدُهم صدقةً، تمنَّى لو تناقلتها وسائلُ الإعلام المسموعة والمكتوبة والمرئية.

فأين صدقة السِّر؟!

وأين الإخلاص؟

إنني أعرف أُناسًا أصابتهم الأمراض كالضغط والسُّكر وتصلُّب الشرايين من التُّخمة!!

وأعرف أُناسًا يَتَضَوَّرون جُوعًا، يفترشون الأرض ويلتحفون السماء!!

فأين أهلُ العطاء؟

أين أهل الجُود والكرم؟

أين أخلاق السَّلف الصَّالح؟

عباد الله...

ومن التاريخ الإسلامي، ألتقط إلى حضراتكم صورًا رائعة، ومواقف إيمانية لأهل الجود والكرم، عسى أن تُهيِّج الخير في نفوس أهل الخير:

يقول أبو عبد الله الواقدي العلّامة الأخباري: أضقت مرة من المرار وأنا مع يحيى

---

(١) أي: يُتهم بالبخل.

ابن خالد البرمكي، وحضر عيدٌ، فجاءتني جارية فقالت: قد حضر العيد وليس عندنا من النفقة شيء، فمضيت إلى صديق لي من التجار فعرفته حاجتي إلى القرض فأخرج إلي كيسًا مختومًا فيه ألف دينار ومائتا درهم، فأخذته وانصرفت إلى منزلي، فما استقررت فيه حتى جاءني صديق لي هاشميّ، فشكى إليَّ تأخر غلته وحاجته إلى القرض، فدخلت إلى زوجتي فأخبرتها فقالت: على أي شيء عزمت؟ قلت: على أن أقاسمه الكيس.

قالت: ما صنعت شيئًا، أتيت رجلاً سوقة فأعطاك ألفًا ومائتي درهم، وجاءك رجل له من رسول الله ﷺ رحمٌ ماسة تعطيه نصف ما أعطاك السوقة، ما هذا شيئًا أعطه الكيس كله.

فأخرجت الكيس كله فدفعته إليه، ومضى صديقي التاجر إلى الهاشمي وكان له صديقاً فسأله القرض فأخرج الهاشمي إليه الكيس، فلما رأى خاتمه عرفه وانصرف إليَّ فخبرني بالأمر، وجاءني رَسُول يحيى بن خالد يقول: إنما تأخَّر رسولي عنك لشغلي بحاجات أمير المؤمنين، فركبت إليه فأخبرته بخبر الكيس.

فقال: يا غلام هات تلك الدنانير فجاءه بعشرة آلاف دينار فقال: خذ ألفي دينار لك، وألفين لصديقك، وألفين للهاشمي، وأربعة آلاف لزوجتك فإنها أكرمكم[1].

وهذه صورة أخرى من أروع صور الإيثار:

يقول أبو الجهم بن حذيفة العدويّ: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمي، ومعي شنة من ماء، وإناء، فقلت: إن كان به رمق سقيته من الماء، ومسحت به وجهه، فإذا أنا به ينشغ[2]، فقلت له: أسقيك؟ فأشار أن نعم، فإذا رجل يقول: آه، فأشار إليَّ ابن عمي أن انطلق به إليه، فإذا هو هشام بن العاص أخو عمرو بن العاص، فأتيته، فقلت: أسقيك؟ فسمع آخر يقول: آه، فأشار هشام أن انطلق به إليه، فجئته فإذا هو قد مات، ثم رجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات، ثم أتيت ابن عمي، فإذا هو قد مات[3].

---

(١) «تاريخ بغداد» (٣/ ١٩)، و«سير أعلام النبلاء» (٩/ ٤٦٦).

(٢) النشغ: الشهيق وعلوّ النَّفس الصعداء، حتى يكاد يبلغ الغشي.

(٣) «الزهد» لابن المبارك (٥٢٥).

عباد الله...

ونختم الخطبة الأولى بهذه الوصية الذهبية التي أوصى بها زَينُ العَابدين ولده:

عن أبي جعفر محمد بن علي قال: أوصاني أبي قال: «لا تصحبن خمسةً ولا تُحادثهم ولا تُرافقهم في طريق.

قال: قلت: جُعلت فِداءك يا أبتِ مَنْ هؤلاء الخمسة؟

قال: لا تصحبنَّ فاسقًا فإنه يبيعك بأكلةٍ فما دونها. قال: قلتُ: يا أبتِ وما دونها؟ قال: يطمع فيها ثم لا ينالها.

قال: قلت: يا أبتِ ومن الثاني؟ قال: قال: لا تصحبنَّ البخيل فإنه يقطع بك في ماله أحوج ما كنت إليه.

قال: قلت: يا أبتِ ومَن الثالث؟ قال: لا تصحبنَّ كذابًا فإنه بمنزلة السَّراب يبعد منك القريب ويقرِّب منك البعيد.

قال: قلت: يا أبتِ ومَن الرابع؟ قال: لا تصحبنَّ أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك.

قال: قلت: يا أبتِ ومَن الخامس؟ قال: لا تصحبنَّ قاطع رحم، فإني وجدته ملعونًا في كتاب الله في ثلاثة مواضع».

وصية تُكتب بماء الذَّهب، فأوصوا أولادكم بها، فالمرءُ عَلَى دِين خَليله، فليَنظُر أحدكم مَن يُخالل.

نسأل الله التوفيق لطاعته.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن أخلاق زَينُ العابدين:

كثرة تَضرّعه ومناجاته لمولاه:

فقد ذكر أهلُ السِّير أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك أن تُحسِّن في لوائح العيون علانيتي، وتقبِّح في خفيَّات العيون سريرتي، اللَّهُمَّ كما أسأتُ وأحسنتَ إليَّ، فإذا عُدتُ، فَعُد عليَّ».

وكان يدعو: اللَّهُمَّ لا تكلني إلى نفسي، فأعجز عنها، ولا تكلني إلى المخلوقين فيضيعونني.

وعن طاوس: سمعت عليَّ بن الحُسَين وهو ساجدٌ في الحِجْر[1] يقول: عُبَيدك بفنائك، مسكينكُ بِفنائك، فقيرك بِفنائك، قال: فوالله ما دعوتُ في كَربٍ قطُّ إلَّا كُشف عَنِّي.

عباد الله...

وبعد هذه الرحلة المباركة آن لسيِّدنا أن يصل إلى قراره الموعود مع المقرَّبين الشهود - إن شاء الله - وفي ليلة الثلاثاء في سنة أربع وتسعين، استدعاه مولاه، ونزلت ملائكته لقبض روحه، فلبَّى النِّداء.

وخرجت الرُّوح الطَّيِّبة من الجسد الطَّيِّب، وهناك في البقيع يَنام زَينُ العَابدين -رَحِمَهُ الله - مع أصحاب النَّبي الأطهار.

۞۞۞۞۞

---

(١) حِجرُ الكعبة.

الخطبة الخامسة والثمانون:

[أ] لقطات وعظات من حياة: الربيع بن خُثيم

مكانة الإخلاص من دين الإسلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن الإخلاص عملٌ يُعين عَلَى الخَلاص.

وقيل: هو تصفية السِّرّ والقول والعمل[١].

وقال الجُرجَانيُّ: الإخلاصُ: أَلَّا تَطلُبَ لِعَمَلِكَ شَاهِدًا غيرَ الله تَعَالى.

---

(١) «الكليات» للكفوي (٦٤).

وأجمَعُوا عَلَى أنَّ الإخلاصَ في الطَّاعةِ تَرْكُ الرِّيَاءِ[1].

وقال الفُضَيلُ بن عِيَاضٍ: تَركُ العَمَلِ لأجْلِ النَّاسِ رِيَاءٌ، والعَمَلُ لأجْلِهم شِركٌ. والإخلاصُ: الخَلَاصُ مِنْ هَذَينِ. وفي رِوَايَةٍ عَنهُ: والإخْلاصُ: أنْ يُعَافِيَكَ الله مِنْهُمَا[2].

وسُئل بعض العارفين: كيف أتخلَّص من الرِّياء؟

فقال: بعلِمك أن قَلب مَن تُرائي بيَدِ مَنْ عَصَيت.

عباد الله...

وقَدْ جاء الأمر بالإخلاص في القُرآن والسُّنَّة.

فمن القُرآن:

(١) قوله تَعَالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

(٢) وقوله تَعَالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ومن السُّنَّة:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلاً غَزَا يَلْتَمِسُ الأَجْرَ وَالذِّكْرَ مَا لَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لاَ شَيْءَ لَهُ**». فَأَعَادَهَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لاَ شَيْءَ لَهُ**». ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إِلاَّ مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**»[3].

عباد الله...

وحَقِيقةُ الإخلاصِ، باعْتِبَارِهِ التِزَامًا في مَوَاقِفِ الحَياةِ، لا مُجَرَّدَ تَصوُّرٍ نَظَرِيٍّ، وهُوَ: «التَّبَرِّي عَنْ كُلِّ مَا دُونَ الله» يَجعَلُنَا نَنْظُرُ إليهِ مِنْ زَاوِيتَينِ:

---

(١) «التعريفات» (١٣).

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ٩٥).

(٣) **حسن**: رواه النسائي (٦/ ٢٥)، وحسنه الألباني.

الأُولَى: مِنْ جِهَةِ تَعَلُّقِهِ بِالعَمَلِ، أو مِنْ حَيثُ كَونُهُ وَاقِعًا يتعَلَّقُ بِحَياةِ النَّاسِ ومَواقِفِهَا، أو مِنْ حَيثُ كَونُهُ يتعَلَّقُ بِسُلُوكِ الإنسَانِ:

مِنْ هَذَا القَبِيل نَجِدُ أنَّ العَمَلَ الصَّادِرَ عَنِ الإنْسَانِ - أيًّا كَانَ - إِذَا قَصَدَ بِهِ وَجهَ الله، وَظَهَرتِ الشَّواهِدُ عَلَى ذَلِكَ، فإنَّه يُعَدُّ عملًا مُخلَصًا، لأنَّهُ خَالِصٌ مِنَ الشِّرك، والرِّياءِ، والمُرَاءَاةِ، والشُّهرَةِ، لأنَّ العَمَلَ الإنسَانيَّ قَدْ يَشُوبُهُ شَيءٌ مَا مِنْ ذَلِكَ، فَإذَا صَفَا عَنْ شُوبِهِ، وخَلُصَ مِنهُ سُمِّيَ: خَالِصًا، فالإخلاصُ يُنَافِي الإشْرَاكَ والرِّيَاءَ، والغِشَّ، والخِدَاعَ، والاحتِيَالَ، والكَذِبَ، ولِذَا قَدْ نَجِدُ بَينَهُ وبَينَ الصِّدقِ قَرَابَةَ مَعْنًى، وَكَذَلِك يَمتدُّ إلى مَعنَى الصَّراحةِ، ويَلتَقِي بمَفهُومِ الوُضُوحِ، والأمَانَةِ والصَّفَاءِ.

وإذَا كَانَت كُلُّ المَعَانِي السَّابِقَةِ مِنْ رِيَاءٍ وَغِشٍّ وخَدَاعٍ، واحتِيَالٍ، وكَذِبٍ، تَمتَدُّ إلى الشِّركِ بِمَعنًى مَا، فإنَّ مِن الشِّركِ مَا هُوَ خَفِيٌّ ومَا هُو جَلِيٌّ، وكَذَا الإخلاَصُ، وكِلاهُمَا يَرِدُ عَلَى قَلْبِ المُسلِم ويَكُونُ ذَلِكَ فِي المَقْصُودِ والنِّيَّةِ، ولِذَا يَأتِي الفِعْلُ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ، إمَّا مُخْلَصًا أو غَيرَ مُخلَصٍ، فَمَنْ كَانَ قَصْدُهُ مِنْ عَمَلِهِ الرِّياءَ، فَهُوَ غَيرُ مُخلِصٍ، ومَنْ كَانَ غَرَضُه التَّقَرُّب إلى الله تَعالى فهُوَ مُخلِصٌ، إلَّا أنَّ العَادَةَ جرَتْ بِتَخصِيصِ الإخلاصِ عَلَى قَصْدِ التَّقَرُّبِ إلى الله تَعَالى وتَخليصِهِ مِن جَميع مَا يَشُوبُه.

وكُلُّ عَمَلٍ بَاعِثُهُ التَّقَرُّبُ إلى الله تَعَالى، وإنضَافَ إليهِ خَطْرَةٌ بَشَرِيَّةٌ حَتَّى صَارَ العَملُ مَوسُومًا بِهَا، وأخفَّ مِنْ جِهَتِهَا مِنْ حَيثُ الإتْيَانُ، فَقَدْ خَرَجَ العَمَلُ عَنِ الإخلاصِ، وخَرَج عَنْ أن يَكُونَ خَالِصًا لِوجهِ الله تَعالى، وبِالتَّالِي خَرَجَ مِنْ أن يَكُون مُحَقِّقًا لإنسَانيَّةِ الإنسَانِ.

وكَمَا يَقُولُ الإمَامُ الغَزَالِيُّ: «كُلُّ حَظٍّ مِن حُظُوظِ الدُّنْيَا تَستَرِيحُ إليه النَّفْسُ، ويَميلُ إليهِ القَلبُ، قَلَّ أَمْ كَثُرَ، إذا تَطَرَّقَ إلى العَمَلِ تَكَدَّرَ بِهِ صَفْوُهُ، وزَالَ بِهِ إخلاصُهُ، والإنسَانُ مُرتَبِطٌ فِي حُظُوظِهِ، مُنغَمِسٌ فِي شَهواتِهِ، قَلَّما يَنْفَكُّ فِعلٌ مِنْ أفعَالِهِ، وعِبَادَةٌ مِنْ عِبَاداتِهِ، عَنْ حُظُوظٍ وأغرَاضٍ عَاجِلَةٍ مِنْ هَذِهِ الأجْنَاسِ، فَلِذَلِكَ قِيلَ: مَنْ سَلِمَ لَهُ مِنْ عُمْرِهِ لَحظَةٌ خَالِصَةٌ لِوَجهِ الله نَجَا، وذَلِكَ لِعِزَّةِ الإخلاصِ وعُسْرِ تَنْقِيَةِ القَلْبِ عَنْ

هَذِهِ الشَّوائِبِ، بَلِ الخَالِصُ هُوَ الذي لا بَاعِثَ لَهُ إلَّا طَلَبُ القُرْبِ مِنَ الله تَعَالى»[(١)].

وقَدْ ذَكَرَ ابنُ تَيميَّةَ أنَّ إخلاصَ الدِّينِ هُوَ الذِي لا يَقْبَلُ الله تَعَالى سِواهُ، وهُوَ الذي بَعَثَ الله بِهِ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ مِنَ الرُّسُلِ، وأنْزَلَ بِهِ جَميعَ الكُتُبِ، واتَّفَقَ عَلَيْه أئِمَّةُ أهْلِ الإيمَانِ وهذا هُوَ خُلاصَةُ الدَّعوةِ النَّبويَّةِ، وهُوَ قُطْبُ القُرآنِ الذي تَدُورُ عَلَيْهِ رَحَاهُ[(٢)].

بِنَاءً عَلَى مَا سَبَقَ فإنَّ الإخلاصَ هُوَ تَصفِيَةُ السِّرِّ والقَلْبِ والعَمَلِ، والخَالِصُ هُوَ الذي لا بَاعِثَ لَهُ إلَّا طَلَبُ الحَقِّ، والإخلاصُ لا يَكُونُ إلَّا بَعْدَ الدُّخولِ في العَملِ، والإخلاصُ لله هُوَ أن لا يَفْعَلَ المُخْلِصُ فِعلًا إلَّا لله تَعَالى.

الثَّانِيَةُ: مِنْ جِهَةِ مَعناه وشُرُوطِهِ كَمَوقِفٍ يَلتَزِمُ به الإنْسَانُ في حَيَاتِهِ:

الإخْلاصُ يَنْقَسِمُ بِحَسَبِ مَا يَظْهَرُ مِنَ العَبْدِ، يُمكِنُ أنْ يَشْمَلَ كُلَّ فِعْلِ الإنسَانِ، ولِذَا يُقَالُ: إنَّ الإخلاصَ أربَعَةُ أقْسَامٍ:

- إخلاصٌ فِي الأقْوَالِ.
- وإخلاصٌ في الأفعَالِ.
- وإخلاصٌ في الأعمالِ أي: العِبَاداتِ.
- وإخلاصٌ في الأحوالِ أي: إلهامَاتِ القَلبِ وَوَارِدَاتِ الغَيبِ.

والدِّينُ شَامِلٌ لِكُلِّ هذا، وبِاعتِبَارِ أنَّ الإخلاصَ التِزَامٌ حَيَوِيٌّ أكثرُ مِمَّا هُوَ تَصَوُّرٌ نظَرِيٌّ، فإنَّ مَوقِفَ الإخلاصِ يَستَلزِمُ عِدَّةَ أُمُورٍ، وهِيَ:

١- **الاسْتِمرَارِيَّةُ**: حَيثُ إنَّ حَياةَ الإنْسَانِ عِبَارَةٌ عَنْ تَوَاصُلٍ واستِمرَارٍ، ومَوَاقِفُ الحَيَاةِ مُستَمِرَّةٌ ومُتَكَامِلَةٌ، ولِذَا لا يَنْبَغِي أنْ يَتَفَكَّكَ الإخلاصُ أو يَتَبعثَرَ، لأنَّهُ لا يَتَعلَّقُ بالموقِفِ المُعَاصِرِ فَقَط، ولا بالمَاضِي فَقَط، ولا بالمُستَقْبَلِ فَقط، وإنَّما هُوَ مَوقِفٌ مُستَمِرٌّ، ومِنْ ثَمَّ كَانَت الاستِمرَارِيَّةُ صِفَةً أسَاسِيَّةً في الإخلاصِ.

٢- **التَّكَامُلُ**: بِمَعنَى انْضِوَاءِ الشَّخْصِ بِجَميعِ مُكَوِّنَاتِهِ في أهدافِ وُجُودِهِ المُستَمَدَّةِ مِنَ

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٦٨)، و«مفردات الراغب» (١٥٤).

(٢) «التحفة العراقية في أعمال القلوب» (٥٨).

الإِطَارِ الإِسْلامِيِّ للحَيَاةِ، حَتَّى يَتَمَكَّنَ مِنْ بُلُوغِ أكْمَلِ دَرجةٍ مُمكِنَةٍ مِنْ صِيَاغَةِ الذَّاتِ بِطَرِيقَةٍ مُتَكامِلَةٍ، وذَلِكَ عَبْرَ محبَّةٍ قَوِيَّةٍ لله ولِلحَقِّ والحَقِيقَةِ، وللآخَرينَ المُخلصِين، هذا إلى جَانِبِ التَّكَامُلِ بَيْنَ النِّيَّةِ والفِعْلِ.

٣- **العِلْمُ**: حَيْثُ إنَّ الإخلاصَ يَسْتَلزِمُ وَعْيَ الإنْسَانِ بِوُجُودِهِ في إطَارِ التَّعَالِيمِ الإسلامِيَّةِ، وهَذَا الوَعْيُ لا يُمْكِنُ أنْ يَتِمَّ بِغَيْرِ مَعرِفَةٍ؛ لأنَّهُ لا يُمكِنُ أن يَتَأَتَّى عَن جَهْلٍ، وجَهلُ الإنسَانِ لا يُمكِنُ أن يُؤدِّيَ إلى إخلاصٍ حَقِيقيٍّ، ومِن ثَمَّ كانَ العِلمُ شَرْطًا ضَرُوريًّا لِتَحقيقِ الإخلاصِ، هذَا إلى جَانِبِ ضَرُورةِ العِلمِ بِمَا يُحَقِّقُ الإخلاصَ.

٤- **التَدرُّجُ**: باعتِبارِ أنَّ الإخلاصَ جُهْدٌ بَشَريٌّ مِنْ أجلِ الوُصُولِ إلى كَمَالِ الإنْسَانِ بِوُصُولِهِ إلى حَقِيقَةِ العُبُوديَّةِ والتَّحَقُّقِ بِهَا، وَلِذَا فإنَّ الإنسَانَ يَتَعَثَّر ويَنْهَضُ مِرَارًا وتكرَارًا، بِهَدَفِ بُلُوغِ المَرتَبَةِ العَالِيَةِ، إنَّ التَّجْرِبَةَ صَعْبَةٌ في مَواقِفِ حَياةِ الإنسَانِ، ولِذَا فَهُوَ يَحتاجُ إلى التَّدرُّجِ، وهذا شَرطٌ لِكَمَالِ الإخلاصِ.

٥- **الأمَانَةُ**: باعتِبَارِهَا رِعَايَةً لِحَقِّ الله تَعَالى، وأداءً للفَرَائِضِ والوَاجِبَاتِ، وهذا يتَطَلَّبُ عَدَمَ الخِيَانَةِ وحِفظَ الحُقُوقِ، وهِي خَيرُ شَاهِدٍ خَارجيٍّ عَلَى الإخلاصِ، وخَاصَّةً أنَّ المُنزَلَقَاتِ التي يُمكِنُ أن تُطِيحَ بالأمَانَةِ اللَّازِمَةِ للإخلاصِ وَفيرَةٌ، وهَذِهِ تُوَفِّرُ حُظُوظًا للنَّفْسِ تُفْسِدُ الإخلاصَ، ولِذَا كانَ لابُدَّ مِنْ تَوَافُرِ الأمَانَةِ لِتَوَافُرِ الإخلاصِ والتَمَسُّكِ بِهِ.

وخُلاصَةُ الأمرِ: أنَّ الإخلاصَ تَصْفِيَةٌ للعَمَلِ والقَولِ والعِبَادَةِ مِمَّا يَشُوبُهَا مِنْ رِيَاءٍ ومُرَاءَاةٍ أو خِدَاعٍ أوْ كَذِبٍ، ويَأتِي فِي مَرَاتِبَ عَدِيدَةٍ، وهِيَ: طَرْحُ العَمَلِ وعَدمُ رُؤيَتِهِ، فَضْلًا عَنْ طَرْحِ طَلَبِ العِوَضِ عَنْهُ، والخَجَلُ مِنَ العَمَلِ مَعَ بَذْلِ الوُسعِ والغَايَةِ فِيهِ، مَعَ رُؤيَةِ التَّوفيقِ فِي العَمَلِ المُخلَصِ عَلَى أنَّهُ جُودٌ مِنَ الله تَعَالى، ثُمَّ إخْلاصُهُ بالخَلاصِ مِنْهُ، أي: جَعْلُهُ خَالِصًا لِوَجْهِ الله تَعَالى[1].

---

(١) «نضرة النعيم» (١٢٥ - ١٢٧).

عباد الله...

هَذِهِ توطئةٌ مهمّة بين يدي حديثنا عن الوليّ الصَّالح، والتَّابعيُّ الجليل: «الربيع بن خُثيم».

فمن هو الرَّبيع بن خُثيم؟

هو: أبو يزيد الثوريّ الكوفيّ، أدرك زمان النَّبيِّ ﷺ، وأرسل عنه، كان قليل الرواية، إلّا أنَّهُ كان كبير الشأن، وكان أحد أصحاب ابن مسعودٍ، وكان ابن مسعودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ يُجلّه كثيرًا ويقول له: ما رأيتُك قطّ إلَّا ذكرتُ المُخبتين، ولو رآك رَسُولُ الله ﷺ لأحبَّك.

وهذه منقبة عظيمة للرَّبيع.

وكان - رَحِمَهُ الله - يُعَدُّ من عقلاء الرجال.

قَالَ الإمام الشَّعبي: كان الربيع مِن معادن الصِّدق، وكان أروع أصحاب ابن مسعودٍ، وقال ابن معين: لا يسأل عن مثله.

كان - رَحِمَهُ الله - يجتهد في إخفاء أعماله الصالحة كي لا تخرج من ديوان السِّرِّ إلى ديوان العلانية قدر جهده.

عَنْ سفيان، قال: أخبرتني سرية الربيع بن خُثيم، قالت: كان عمل الربيع كله سرًّا، إن كان ليجيء الرجل وقد نشر المصحف، فيغطيه بثوبه.

وعن مُنذر الثَّوري، عن الربيع بن خثيم، أنه قال لأهله: اصنعوا لنا خبيصًا[(١)]، فصنعوا له فدعا رجلاً به خَبَلٌ[(٢)] فجعل يلقمه ولعابه يسيل، فلما ذهب قال أهله: تُكلفنا وصنعنا، ما يدري هذا ما أكل، فقال الربيع: لكنَّ الله - أي يعلم.

وكان - رَحِمَهُ الله - يقول: «كل ما لا يبتغي به وجه الله تَعَالى يضمحل».

نعم يا سيِّدي، كل ما لا يُبتغى به وجه الله تَعَالى يَضمحل.

---

(١) الخبيص: نوع من أنواع الحلوى.

(٢) الخبل: الجنون.

فهل يعلم المرائون ذَلِكَ؟!

عباد الله...

إن الرياء داء عُضال، ومرضٌ فتَّاك، فاحذروه.

فما هو الرِّياء؟

هذا ما سوف أجيب عنه بعد قليل - إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فالرِّياء: تركُ الإخلاصُ في العمل بمراعاة غير الله فيه[١].

وقال الغزاليُّ -رَحِمَهُ الله -: «طلب المنزلة في قلوب الناس بإبراءهم خصال الخير، واسمُ الرِّياء مخصوصٌ - بِحُكم العادة - بِطَلب المنزلة في القلوب بالعبادة وإظهارها، ومن ثَمَّ يكون الرِّياء (المذموم شرعًا) هو إرادةُ العباد بطاعة الله» ا.هـ[٢].

وقال ابن حجر الهيتميّ -رَحِمَهُ الله -: «وَحَدُّ الرِّيَاءِ المَذْمُوم: إرَادَةُ العَامِلِ بِعِبَادَتِهِ غَيْرَ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى، كَأَنْ يَقْصِدَ اطِّلَاعَ النَّاسِ عَلَى عِبَادَتِهِ وَكَمَالِهِ حَتَّى يَحْصُلَ لَهُ مِنْهُمْ نَحْوُ مَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ ثَنَاءٍ» ا.هـ[٣].

وقال ابن حجر العَسقلانيّ - رَحِمَهُ الله -: «الرِّيَاءُ: إِظْهَارُ العِبَادَةِ لِقَصْدِ رُؤْيَة النَّاس لَهَا فَيَحْمَدُوا صَاحِبَهَا». ا.هـ[٤].

---

(١) «التعريفات» (١١٩).
(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٩٧).
(٣) «الزواجر» (١/ ٤٣).
(٤) «فتح الباري» (١١/ ٣٤٤).

عباد الله...

ما الفرقُ بين الرِّياءُ والشِّرك الأكبر؟

وما هي أقسام الرِّياء؟

وما هي درجاته؟

وما حُكمه؟

وما هي ثمراته؟

وكيف نُعالجه؟

هذا ما سوف نجيب عنه في الخطبة القادمة إن شاء الله تَعَالى.

فإلى اللِّقاء.

۞۞۞۞۞

الخطبة السادسة والثمانون:

[ب] لقطات وعظات من حياة: الربيع بن خُثيم

الرِّياءُ: أضراره وعلاجه

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

تكلَّمنا في الخُطبة الماضية عن الإخلاص، وذكرنا مواقف من حياة الوليّ المخلص: «الربيع بن خُثيم» تَدلُّ عَلَى عُمق إخلاصه، وشِدَّة تحفظه من الرِّياء.

ثم تكلَّمنا عن تعريف الرِّياء، وقلنا - ما مختصره -: الرِّياء هو: تركُ الإخلاصُ في العمل بمراعاة غير الله فيه.

واليوم - إن شاء الله تَعَالى - نتكلم عن:

- **الفرق بين الرِّياء والشِّرك الأكبر.**
- **أقسام الرِّياء.**
- **درجاته.**
- **عقوباته.**
- **حُكمه.**
- **وكيف نُعالجه؟**

وأسأل الله تَعَالى التوفيق.

عباد الله...

أما عن الفرق بين الرِّياء والشِّرك الأكبر:

فيقول الإمامُ ابن حَجْر الهيتميّ: يَتَّضِحُ الفَرْقُ بَيْنَ الرِّيَاءِ (وهُوَ الشِّركُ الأصغرُ) وبَيْنَ الشِّركِ الأكبَرِ بِمِثَالٍ هُوَ: أَنَّ المُصَلِّيَ مُرَاءَاةً يَكُونُ رِيَاؤُهُ سَبَبًا بَاعِثًا لَهُ عَلَى العَمَلِ، وهُوَ تَارَةً يَقْصِدُ بِعَمَلِهِ تَعْظِيمَ اللهِ تَعَالَى، وَتَارَةً لَا يَقْصِدُ بِهِ شَيْئًا، وَفِي كُلٍّ مِنْهُمَا لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ مُكَفِّرٌ، بِخِلَافِ الشِّرْكِ الأَكْبَرِ، الذي لا يَحْدُثُ إِلَّا إِذَا قَصَدَ تَعْظِيمَ غَيْرِ اللهِ تَعَالَى، وعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ المُرَائِيَ إِنَّمَا حَدَثَ لَهُ هذَا النَّوعُ مِنَ الشِّرْكِ بِتعظِيمِهِ قَدْرَ المَخْلُوقِ عِنْدَهُ حَتَّى حَمَلَهُ ذَلِكَ عَلَى الرُّكُوعِ والسُّجُودِ، فَكَانَ ذَلِكَ المَخْلُوقَ هُوَ المُعَظَّمُ بِالسُّجُودِ مِنْ وَجْهٍ، وَذَلِكَ غَايَةُ الجَهْلِ[١].

وأمَّا عن أقسَام الرِّياء:

فقد ذكر الإمامُ الغزاليُّ: أنَّ الرِّياءَ بِحَسَبِ مَا يُراءَى بِهِ خَمسَةُ أقسَام:

الأوَّلُ: الرِّياءُ في الدِّينِ بِالبَدَنِ، وذَلِكَ بإظْهَارِ النُّحُولِ والصَّفَارِ لِيُوهِمَ بِذَلِكَ شِدَّةَ الاجْتِهَادِ، وَعِظَمَ الحُزنِ عَلَى أمرِ الدِّينِ وغَلَبَةِ خوفِ الآخِرَةِ.

---

(١) «الزواجر» (١/ ٤٤) باختصار وتصرّف.

أَمَّا رِيَاءُ أهلِ الدُّنْيَا فَيَكُونُ بإظْهَارِ السِّمَنِ وصَفَاءِ اللَّونِ واعتِدَالِ القَامَةِ، وحُسْنِ الوَجهِ ونَظَافَةِ البَدَنِ وقُوَّةِ الأعضَاءِ.

الثَّاني: الرِّياءُ بالهَيئَةِ والزِّيِّ، وذَلِكَ بِتَشْعِيثِ شَعْرِ الرَّأسِ، وإبقَاءِ أثَرِ السُّجُودِ عَلَى الوَجْهِ، وغِلَظِ الثِّيابِ وتَقصِيرِ الأكْمَامِ وتَرْكِ تَنْظِيفِ الثَّوبِ وتَرْكِهِ مُخَرَّقًا، كُلُّ ذَلِكَ لإظْهَارِ أنَّهُ مُتَّبِعٌ للسُّنَّةِ.

أَمَّا مُراءاةُ أهلِ الدُّنْيَا فَبالثِّيَابِ النَّفِيسَةِ، والمَرَاكِبِ الرَّفِيعَةِ، وأنْوَاعِ التَّوسُّعِ والتَّجمُّلِ في المَلبَسِ والمَسْكَنِ.

الثَّالِثُ: الرِّياءُ بالقَولِ، ويَكُونُ مِنْ أهلِ الدِّينِ بالوَعْظِ والتَّذْكِيرِ والنُّطقِ بالحِكمَةِ وحِفظِ الأَخْبَارِ والآثَارِ لإظْهَارِ غَزَارَةِ العِلمِ، ومِنْ ذَلِكَ تَحريكُ الشَّفَتَيْنِ بالذِّكرِ في مَحضَرِ النَّاسِ، والأمْرُ بالمعرُوفِ والنَّهيُ عَنْ المُنكرِ أمَامَهُم.

وأَمَّا أهلُ الدُّنْيَا فَيَكُونُ رِيَاؤُهم بِحِفظِ الأشْعَار والأمْثَالِ، والتَّفَاصُحِ بالعِبَارَاتِ، وحِفظِ الغَرِيبِ مِنَ النَّحْوِ واللُّغَةِ للإغْرَابِ عَلَى أهلِ الفَضْلِ.

الرَّابِعُ: الرِّياءُ بالعَمَلِ، وذَلِكَ كَمُراءَاةِ المُصَلِّي بِطُولِ القِيَامِ والرُّكُوعِ والسُّجُودِ ونَحوِ ذَلِكَ.

أَمَّا أهْلُ الدُّنْيَا فَمُراءَاتُهم بالتَّبَخْتُرِ والاخْتِيَالِ وغَيرِهِمَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الجَاهِ والحِشْمَةِ.

الخَامِسُ: المُرَاءَاةُ بالأصْحَابِ والزَّائِرِينَ، كأنْ يَطْلُبَ المُرَائي مِنْ عَالِمٍ أن يَزُورَهُ لِيُقَالَ: إنَّ فُلانًا قَدْ زَارَ فُلانًا، ومِنْ ذَلِكَ كَثرَةُ ذِكرِ الشُّيُوخِ.

قَالَ الغَزالِيُّ: فَهذِهِ الخَمسَةُ هي مَجَامِعُ مَا يُرائِي به المُراءُونَ، وكُلُّهم يَطلُبُونَ بِذَلِكَ الجَاهَ والمنزِلَةَ في قُلُوبِ العِبَاد.

عباد الله...

أما عن درجات الرِّياء:

فللرِّيَاءِ بِحَسَبِ قَصْدِ المُرَائي أربَعُ دَرَجاتٍ:

الأُولى وَهِيَ أغْلَظُهَا: ألَّا يَكُونَ مُرَادُهُ الثَّوَابَ أصلًا، كالذي يُصَلِّي أمَامَ النَّاسِ، ولَوِ انْفَرَدَ فإنَّهُ لا يُصَلِّي، ورُبَّما دَفَعُه الرِّياءُ إلى الصَّلاةِ مِنْ غَيرِ طُهْرٍ.

الثَّانيةُ: أنَّ قَصْدَهُ للثَّوابِ أقَلُّ مِنَ قَصْدِهِ لإظْهَارِ عَمَلِهِ. وهذَا النَّوعُ قَرِيبٌ مِمَّا قَبْلَهُ في الإثْمِ.

الثَّالِثَةُ: أن يَتَسَاوَى قَصْدُ الثَّوَابِ وقَصْدُ الرِّياءِ، بِحَيثُ إنَّ أحدَهُمَا وَحْدَهُ لا يَبْعَثُهُ عَلَى العَملِ، ولَكِن لَـمَّا اجتَمَعَ القَصْدَانِ انْبَعَثَتْ فيهِ الرَّغْبَةُ في العَمَلِ، وهَذَا قَدْ أفْسَدَ بِمِقدارِ مَا أَصْلَحَ، وظَوَاهِرُ الأخْبَارِ تَدُلُّ عَلَى أنَّهُ لا يَسْلَمُ مِنَ العِقَابِ.

الرَّابِعَةُ: أنْ يَكُونَ اطِّلاعُ النَّاسِ مُرَجِّحًا ومُقوِّيًا لِنَشَاطِهِ، ولَوْ لَمْ يَكُن ذَلِكَ مَا تَرَكَ العَبَادَةَ، وهذا النَّوعُ لا يُحبطُ أصْلَ الثَّوابِ ولكِنَّهُ يُنْقِصُ مِنْهُ أو يُعَاقَبُ صَاحِبُهُ عَلَى مِقدَارِ قَصْدِ الرِّياءِ، ويُثَابُ عَلَى مِقدارِ قَصْدِ الثَّوابِ[1].

عباد الله...

أما عن عقوبات الرِّياء:

فللرياء عقوبات، نذكر منها:

العقوبة الأولى: البُغض في قلوب الخَلق:

قَالَ الله تَعَالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾ [مريم: ٩٦].

روى ابن أبي حاتم عن الحسن البصريّ -رَحِمَهُ الله - قال: قال رجلٌ: والله لأعبدنَّ الله عبادةً أُذكر بها، فكان لا يُرى في حين صلاة إلَّا قائمًا يُصلِّي، وكان أوَّل داخل إلى المسجد وآخر خارج، فكان لا يُعَظَّم، فمكث بذلك سبعة أشهر، وكان لا يَمُرُّ على قوم إلَّا قالوا: «انظروا إلى هذا المُرائي» فأقبل على نفسه فقال: لا أراني أُذكر إلا بِشَرّ، لأجعلنَّ عملي كله لله عَزَّ وَجَلَّ، فلم يزد على أن قَلَبَ نِيَّته، ولم يزد على العمل الذي كان يعمله، فكان يَمُرُّ بَعْدُ بالقوم، فيقولون: رحم الله فلانًا الآن، وتلا الحسن: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾[2].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٩٧ - ٣٠٢) باختصار وتصرف، بواسطة «نضرة النعيم» (٤٥٥٣، ٤٥٥٤).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٢٦).

العقوبة الثانية: ذِهاب العمل وعدم قُبوله:

عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**». قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الرِّيَاءُ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ تُجَازَى العِبَادُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟**»[١].

العقوبة الثالثة: الوقوع في الشِّرك الأصغر:

عن شَدَّاد بن أوس رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ صَلَّى يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ وَمَنْ صَامَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ وَمَنْ تَصَدَّقَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ...**» الحديث[٢].

العقوبة الرابعة: دخول النَّار - عياذًا بالله تَعَالى:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جُبِّ[٣] الحُزْنِ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا جُبُّ الحُزْنِ؟ قَالَ: «**وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمُ[٤] كُلَّ يَوْمٍ أَرْبَعَمِائَةِ مَرَّةٍ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنْ يَدْخُلُهُ؟ قَالَ: «**أُعِدَّ لِلْقُرَّاءِ المُرَائِينَ بِأَعْمَالِهِمْ وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ القُرَّاءِ إِلَى اللَّهِ الَّذِينَ يَزُورُونَ الأُمَرَاءَ**»[٥]. قَالَ المُحَارِبِيُّ الجَوَرَةَ[٦].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ:**

رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٤٢٩)، وقال العراقي: أخرجه أيضًا البيهقي في «الشعب»، ورجاله ثقات.
(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦).
(٣) الجُبّ: البئر لم تطو.
(٤) لعل المراد: أهل جهنم.
(٥) هذه الزيادة من المحاربي لبيان أن المقصود المنع من زيارة أهل الجَور من الأُمراء لا جميعهم.
(٦) رواه ابن ماجه (٢٥٦).

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ القُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ. فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[1].

عباد الله...

أما عن حُكم الرِّياء:

فقد ذَكَرَ الذَّهبيُّ الرِّياءَ ضَمنَ الكَبَائِرِ، وذَكَرَ أدِلَّةَ ذَلِكَ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ وآثارِ السَّلفِ الصَّالِحِ، وعَدَّهُ ابنُ حَجَرٍ الكَبِيرةَ الثَّانيةَ بَعْدَ الشِّركِ بالله، وقَالَ: شَهِدَ بِتَحريمِهِ الكِتَابُ والسُّنَّةُ وانْعَقَدَ عَلَيهِ إِجْمَاعُ الأُمَّةِ، وبَعْدَ أن أشْبَعَ القَولَ في ذِكرِ أدِلَّةِ تَحريمِهِ، قال: المَعْنَى فِي تَحْرِيمِهِ وَكَوْنِهِ كَبِيرَةً وَشِرْكًا - مُقْتَضِيًا لِلَّعْنِ - أَنَّ فِيهِ اسْتِهْزَاءً بِالحَقِّ تَعَالَى وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الرِّيَاءُ مِنْ كَبَائِرِ الكَبَائِرِ المُهْلِكَةِ، وَلِهَذَا سَمَّاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الشِّرْكَ الأَصْغَرَ».

وفِي الرِّيَاءِ أَيْضًا تَلْبِيسٌ عَلَى الخَلْقِ لِإِيهَامِ المُرَائِي أَنَّهُ مُخْلِصٌ مُطِيعٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَهُوَ بِخِلَافِ ذَلِكَ[2].

وقال ابنُ حَجَرٍ أيضًا: إذا أُطلِقَ لَفْظُ الرِّياءِ - شَرعًا - فالمُرادُ الرِّياءُ المَذمُومُ (وهُوَ العِبَادةُ التي يُرادُ بِهَا غَيرُ وَجهِ الله تَعَالى)، وَقَدْ يُطْلَقُ الرِّيَاءُ عَلَى أَمْرٍ مُبَاحٍ وَهُوَ طَلَبُ نَحْوِ الجَاهِ وَالتَّوْقِيرِ بِغَيْرِ عِبَادَةٍ، كَأَنْ يَقْصِدَ بِزِينَةِ لِبَاسِهِ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ بِالنَّظَافَةِ وَالجَمَالَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَوَجْهُ عَدَمِ حُرمَةِ هَذَا النَّوْعِ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ مَا فِي الرِّيَاءِ المُحَرَّمِ مِنَ التَّلْبِيسِ بِالدِّينِ

(١) رواه مسلم (١٩٠٥).
(٢) «الزواجر» (٢/ ٤٤).

وَالِاسْتِهْزَاءِ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

وأَقْبَحُ أنْوَاعِ الرِّياءِ ما تَعَلَّقَ بأصلِ الإيمانِ وهُوَ شأنُ المُنافِقِينَ، يَلِي ذَلِكَ المُراءَاةُ بأُصولِ العِبَاداتِ الوَاجِبةِ، كأن يَعتَادَ تَركَهَا في الخَلوَةِ، ويَفعَلَهَا في الملأ خوفَ المَذَمَّةِ، وهذا يُؤدِيّ إلى أعلَى أنوَاعِ المَقْتِ، يَلِي ذَلِكَ المُرَاءَاةُ بالنَّوافِلِ التي يَفْعَلُهَا المُرائِي باعْتِيَادِ أمَامَ النَّاس ويَرغَبُ عَنْهَا في الخَلوةِ، ويَلِي ذَلِكَ في القُبحِ المُراءَاةُ بأوصَافِ العِبَاداتِ كَتَحسِينِهَا وإظْهَارِ الخُشُوعِ فِيهَا في المَلأ والاقتِصَارِ في الخَلوةِ عَلَى أدنَى دَرَجَاتِهَا[١].

عباد الله...

فكيف نُعالج الرِّياء؟

هذا ما سوف أذكره بعد قليل - إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

قال الغَزاليُّ ما خُلاصَتُهُ: لا يَستَطيعُ أحدٌ أنْ يَقْمَعَ الرِّياءَ إلَّا بِمُجاهَدَةٍ شَديدةٍ ومُكَابَدَةٍ لِقُوَّةِ الشَّهَواتِ، ويَكُونُ ذَلِكَ بأمْرَينِ:

الأَوَّلُ: قَلْعُ عُرُوقِهِ واسْتِئصَالُ أُصُولِهِ وَهِي: لَذَّةُ المَحمَدَةِ والفِرَارُ مِن ألَمِ الذَّمِّ، والطَّمَعُ فِيمَا في أيدي النَّاسِ، وهَذِهِ الثَّلاثَةُ رَاجِعةٌ إلى حُبِّ المَنزِلَةِ والجَاهِ.

الثَّانِي: أنْ يُشَمِّرَ الإنْسَانُ عَنْ سَاعِدِ الجِدِّ لِدَفعِ مَا يَعْرِضُ مِنْ خَاطِرِ الرِّياءِ، وخَواطِرُهُ ثلاثةٌ أيضًا وهي: العِلمُ باطِّلاعِ الخَلْقِ ورَجَاءِ اطِّلاعِهِم، ثُمَّ هَيَجَانُ الرَّغبةِ مِنَ النَّفسِ في حَمدِهِم، وحُصُولِ المَنزلَةِ عِندَهُم، ويَعقُبُ ذَلِكَ هَيَجَانُ الرَّغبةِ في قَبُولِ النَّفْسِ لَهُ (أي الحَمدِ والمَنزِلَةِ)، والرُّكُونِ إليهِ وعَقْدِ الضَّميرِ عَلَى تَحقِيقِهِ.

---

(١) «الزواجر» (١/ ٤٣ - ٤٦) باختصار وتصرف.

والخَاطِرُ الأوَّلُ يُسَمَّى: مَعرِفَةً، والثَّاني: رَغبَةً وشَهوَةً، والثَّالثُ: هُوَ العَزمُ.

وكَمَالُ القُوَّة في دَفعِ الخَاطِرِ الأوَّلِ قَبْلِ أن يَعقُبَهُ الثَّاني، فإذا خَطَرَ لَهُ مَعرِفَةُ اطِّلاعِ الخَلْقِ أَوْ رَجَاءُ اطِّلاعِهِم دَفَعَ ذَلِكَ بأنْ قال مَا لي وللخَلقِ، عَلِمُوا أَوْ لَم يَعلَمُوا، والله عَالِمٌ بِحَالي فأيُّ فَائدةٍ في عِلمِ غَيرِهِ؟ فإن هَاجَت الرَّغبةُ إلى لَذَّةِ الحَمدِ فَعَليهِ أن يَذكُرَ تَعَرُّضَ المُرائِي للمَقتِ عِندَ الله يَومَ القِيَامةِ وخَيْبَتَهُ - في أحوجِ أوقَاتِهِ - إلى أعمَالِهِ،وعِندئِذٍ تَثُورُ عِنْدَهُ كَراهَةٌ للرِّياءِ تُقَابِلُ تِلكَ الشَّهوةَ إذ يَتفَكَّرُ في تَعَرُّضِهِ لِمَقتِ الله وعِقَابِهِ الأليم. والشَّهوةُ تَدْعُوهُ إلى القَبولِ والكَراهَةُ تَدعُوهُ إلى الإباءِ والنَّفسُ تُطَاوِعُ - لا مَحَالَةَ - أَقْوَاهُمَا.

ويَتَضِحُ مِنْ ذَلِكَ أنَّهُ لابُدَّ في رَدِّ الرِّياءِ الذي خَطَرَ أَثْنَاءَ العِبَادةِ مِنْ المعرِفَةِ والكَرَاهَةِ والإبَاءِ.

أمَّا مِن الناحية العملية: فإنَّ دَفْعَ الرِّياءِ يَستَلزِمُ مِنَ المَرءِ أنْ يَعُوِّدَ نَفْسَهُ إخْفَاءَ العِبَاداتِ، وإغْلاقَ الأبوابِ دُونَهَا، كَمَا تُغْلَقُ الأبوابُ دُونَ الفَوَاحِشِ، حتى يُقْنِعَ قَلبَهُ بِعلمِ الله وَلا تُنَازِعُهُ نَفسُهُ بِطَلَبِ عِلمِ غَيرِ الله بِهِ، وهَذَا وإنْ كَانَ يَشُقُّ في البِدَايَةِ إلَّا أنَّهُ يَهُونُ بالصَّبرِ عَلَيهِ وبِتَواصُلِ ألطَافِ الله عَزَّ وَجَلَّ ومَا يَمُدُّ بِهِ عِبَادَهُ مِنَ التَّأيِيدِ والتَّسْدِيدِ[1].

✿✿✿✿✿

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣١٠ - ٣١٤) بتصرّف، وانظر «نضرة النعيم» (٤٥٥٥).

الخطبة السابعة والثمانون:

[جـ] لقطات وعظات من حياة: الربيع بن خُثيم

[أ] حفظ اللسان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد كان «الربيع بن خُثيم» -رَحِمَهُ الله - من أملك النَّاس للسانه، وأحفظهم لنظره.

فعن بعض أصحابه قال: صحبتُ الربيع عشرين عامًا، ما سمعتُ منه كلمةً تُعَاب[١].

---

(١) «الطبقات» لابن سعد (٦/ ١٨٥).

وقال آخر: جالستُ الربيع بن خُثيم سنين، فما سألني عن شيءٍ مِمَّا فيه النَّاس إلَّا أنَّهُ قَالَ لِي مَرَّة: أُمُّك حَيَّة؟ وقال مرة: كم لكم مسجدًا؟

عباد الله...

اعلموا أن أعظم خطايا ابن آدم في لِسانه، لذا أمر الإسلام بحفظهِ، وأوصى بصيانته، وحذَّر من مغبَّة إطلاقه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٣- ٢٥].

وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا * وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧، ٥٨].

وقال تَعَالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

قال ابن كثير -رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهاتين الآيتين: «قوله تَعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني: المَلَكَيْن اللَّذَيْن يَكْتُبان عَمَلَ الإنسان. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: مُتَرَصِّد.

﴿مَا يَلْفِظُ﴾ أي: ابنُ آدم ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ أي: ما يتكلَّم بكلمة ﴿إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: إلَّا ولها مَن يُرَاقِبها مُعْتَدٌ لِذَلِكَ يَكتُبُها، لا يترك كلمةً ولا حركةً.

وقد اختلف العلماءُ: هل يكتبُ المَلَكُ كُلَّ شيء مِنْ الكلام؟ أو إنما يكتبُ ما فيه ثوابٌ وعقابٌ؟ على قولين، وظاهرُ الآية الأوّل، لعموم قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾» ا.هـ[1].

وعن الحسن البصري - رَحِمَهُ الله - أَنَّهُ تلا هَذِهِ الآية: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٧٨).

قَعِيدٌ ﴾ ثم قال: «يا ابن آدم بُسطت لك صحيفة، ووكِّل بك مَلَكَان كَريمان، أحدهما عن يمينك، والآخر عن يسارك، فأمَّا الذي عن يمينك فيحفظ الحسنات، وأمَّا الذي عن يسارك فيحفظ السَّيِّئات، فاعمل ما شئت، أقلل أَوْ أكثر، حتى إذا مِتّ طُويت صحيفتُك، وجُعِلت في عُنُقِك مَعَك في قَبرِك حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذَلِكَ يقول الله تَعَالى: ﴿**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

ثم يقول الحسن: «عدلٌ والله فيك مَن جعلك حسيب نفسك».

وقال تَعَالى: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢].

قال ابن كثير -رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآيات: «يعني: وإنَّ عليكم لملائكةً حَفَظَةً كِرامًا كاتِبِينَ فلا تُقابلوهم بالقبائح، فإنهم يكتبون عليكم جميعَ أعمالِكم» ا.هـ.

عباد الله...

اعلموا أن خطر اللِّسان عظيم، ولا نجاة منه إلَّا بالنُّطق بالخير.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ - أَوْ قَالَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»[١].

وكان ابن مسعودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ يقول: يا لسان قُل خَيرًا تغنم، واسكتُ عن شَرٍّ تَسلم من قبل أن تندم.

وعنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَن كَفَّ لِسانَهُ ستر الله عَورتَهُ، ومَن مَلَكَ غَضَبَهُ وقاهُ الله عَذَابَه، ومَن اعتذَرَ إلى الله قَبِلَ الله عُذْرَهُ**»[٢].

وقال ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَسْكُتْ**»[٣].

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٥/ ٢٣١)، والترمذي (٢٦١٦)، وغيرهما.
(٢) **إسناده حسن**: أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» بسند حسن، قاله العراقي.
(٣) **صحيح**: رواه البخاري ومسلم.

عباد الله...

وآفات اللِّسان كثيرة.

الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعني:

قال الشيخ القاسمي -رَحِمَهُ الله - في «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين»:

اعلم أن رأس مال العبد أوقاته، فمهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدَّخر بها ثوابًا في الآخرة فقد ضيَّع رأس ماله. ولهذا قال النَّبي ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»[(١)].

وسببه الباعث عليه هو الحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها.

وعلاج ذلك كله: أن يعلم أن أنفاسه رأس ماله. وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الخيرات الحِسان، فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين.

والآفة الثانية: فضول الكلام:

وهو أيضًا مذموم، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني، والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة، فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر، ويمكنه أن يجسّمه ويكرره. ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فإن ذكر كلمتين فالثانية فضول - أي فضل عن الحاجة - وهو أيضاً مذموم - لما سبق - وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر.

واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور في كتاب الله تعالى قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [النساء: ١١٤].

فانظر كيف قلَّب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان، قَالَ عطاء: إن مَن كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تَعَالى وسُنة رَسُول الله ﷺ أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٩٧٦)، والترمذي (٢٣١٧)، وصححه الألباني.

أو تنطق لحاجتك في معيشتك التي لابُد لك منها. أتنكرون أن ﴿عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١]، و﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨]، أما يستحيي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه.

وقال ابن عمر: إن أحق ما طهَّر الرجل لسانه.

الآفة الثالثة: الخوض في الباطل:

وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتكبر الجبابرة ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة، فإن كل ذلك مِمَّا لا يَحِل الخوض فيه. وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخوض في الباطل. وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها، فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا.

وقَدْ جاء التحذير من الخوض في الباطل:

قال تَعَالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٣٨- ٤٨].

وقال رَسُولَ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ»[(١)].

عباد الله...

وهناك آفات أخرى، سيأتي بعضُها بعد قليل - إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) صحيح: أخرجه مالك في «الموطأ» (٦٠٩)، وابن ماجه (٣٩٦٩)، وغيرهما.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والآفة الرابعة والخامسة من آفات اللسان: المراء والجدال:

وذلك منهيٌّ عنه، قال رَسُول الله ﷺ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلاَّ أُوتُوا الجَدَلَ**»[1].

وقال بلال بن سعد: إذا رأيت الرجل لجوجًا مماريًا معجبًا برأيه فقد تمت خسارته.

وقال ابن أبي ليلى: لا أماري صاحبي فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه.

وما ورد في ذمِّ المراء والجدال أكثر من أن يُحصى.

وحدُّ المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه؛ إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المتكلم. وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض. فكل كلام سمعته فإن كان حقًّا فصدق به، وإن كان باطلاً أو كذبًا ولم يكن متعلقًا بأمور الدين فاسكت عنه.

والواجب إن جرى الجدل في مسألة علمية: السكوت، أو السؤالُ في معرض الاستفادة لا عَلَى وجه العناد والنكادة، أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن.

أما قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه، فهي المجادلة المحظورة التي لا نجاة من إثمها إلا بالسكوت.

وما الباعث عليها إلا الترفع بإظهار العلم والفضل والتهجم عَلَى الغير بإظهار نقصه. وهما صفتان مذمومتان مهلكتان، ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل، ويقدح في

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٢)، وابن ماجه (٤٨)، والترمذي (٣٢٥٣)، وحسنه الألباني.

قائله بكل ما يتصور له؛ فيثور الشجار بين المتمارين.

وأما علاجه: فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله، والسَّبُعية الباعث له على تنقيص غيره». ا.هـ[1].

عباد الله...

وللحديث بقية - إن شاء الله.

فإلى اللِّقاء.

✡✡✡✡✡

(١) «موعظة المؤمنين» (٢٦٧ - ٢٧١) باختصار وإضافة.

الخطبة الثامنة والثمانون:

[د] لقطات وعظات من حياة: الربيع بن خُثيم

[ب] التحذير من آفات اللسان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل - إن شاء الله تَعَالَى - الحديث عن «**آفات اللسان**»، سائلًا المولى - تبارك وتعالى - أن يوفِّقنا وإيَّاكم لصالح الأعمال، وأن يُجَنِّبنا وإيَّاكم شِرارها.

عباد الله...

والآفة السادسة من آفات اللسان: آفة الخصومة:

وهي أيضًا مذمومة وهي وراء الجدال والمراء، وحقيقتها لجاج في الكلام ليستوفي

بها مال أو حق مقصود، وفي الحديث: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ»[١].

ولا تكون الخصومة مذمومة إلا إن كانت بالباطل أو بغير علم كالذي يدافع قبل أن يعلم الحق في أيّ جانب، أو يمزج بخصومته كلمات مؤذية لا حاجة لها في نصرة الحُجة وإظهار الحق، أو يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال، وفي الناس من يُصرِّح به ويقول: إنما قصدي عناده وكسر غرضه، وإني إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي، وهذا مقصوده اللَّدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جدًّا.

فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً، فإنَّ ضبط اللِسان في الخصومة على قدر الاعتدال متعذر، والخصومة توغر الصدر وتهييج الغضب، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقي الحقد بين المتخاصمين، حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرّض لهذه المحذورات، وقال ما فيه تشويش خاطره حتى إنه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حدّ الواجب.

فالخصومة مبدأ كل شرّ، وكذا المراء والجدل، فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جدًّا. نعم أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طِيبُ الكلام.

وقَدْ قَالَ الله تَعَالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال ابن عباس رَضِيَ الله عَنْهُمَا: «مَنْ سَلَّم عليك مِنْ خَلق الله فَاردُد عليه السَّلام وإن كان مَجُوسيًّا، إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]، وقال ابن عباس أيضاً: «لو قال لي فِرعون خيرًا لرددت عليه».

وفي الحديث: «الكلمةُ الطَّيِّبة صدقةٌ»[٢]. وقال عمر رَضِيَ الله عَنْهُ: «البرُّ شيء هين:

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وجهٌ طليق وكلام ليِّن». وقال بعض الحكماء: «الكلام اللَّيِّن يَغسِل الضغائن المستكنة في الجوارح». وقال آخر: «كل كلام لا يُسخط رَبَّك إلا أنك ترضي به جليسك فلا تكن به عليه بخيلاً، فلعله يعوضك منه ثواب المحسنين».

والآفة السابعة: التفقّه في الكلام:

وهو التشدُّق وتكلّف السَّجع والفصاحة والتَّصنع فيه، فإنه من التكلف الممقوت، إذ ينبغي أن يقتصر في كل شيء عَلَى مقصوده، ومقصود الكلام التفهيم للغرض وما وراء ذَلِكَ تصنُّع مذموم، ولا يدخل في هذا تحسين ألفاظ التذكير والخطابة من غير إفراط ولا إغراب، فَلِرشاقة اللفظ تأثير في ذَلِكَ.

والآفة الثامنة: الفحش والسَّب وبذاءة اللسان:

وهو مذمومٌ ومنهيٌّ عنه، ومصدره الخبث واللؤم.

قَالَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالفُحْشَ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الفُحْشَ وَلاَ التَّفَحُشَ**»[(١)].

وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيْسَ المُؤْمِنُ بِطَعَّانٍ وَلاَ بِلَعَّانٍ وَلاَ بِالفَاحِشِ البَذِيءِ**»[(٢)].

وحدّ الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوِقاع وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون عنها ويدلون عليها بالرموز والكناية. وقال ابن عباس: إن الله حييٌّ كريم يعفو ويكنو، كنّي باللَّمس عن الجماع، فالمسيس والمس والدخول كنايات عن الوِقاع وليست بفاحشة. وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويُستعمل أكثرها في الشتم والتعيير، وكل ما يخفى يستحيا منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش.

والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفسَّاق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السَّبُّ.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ١٥٩)، وغيره، وصححه الألباني.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٤٠٤)، وغيره، وصححه الألباني.

رُوي أن أعرابيًا قَالَ لرسُول الله ﷺ: أوصني، فقَالَ: «**اتَّقِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنِ امْرُؤٌ شَتَمَكَ وَعَيَّرَكَ بِأَمْرٍ يَعْلَمُهُ فِيكَ فَلاَ تُعَيِّرْهُ بِأَمْرٍ تَعْلَمُهُ فِيهِ، فَيَكُونَ لَكَ أَجْرُهُ وَعَلَيْهِ إِثْمُهُ وَلاَ تَسُبَّنَّ أَحَدًا**». قَالَ: فما سببت شيئًا بعده[١].

وعنه ﷺ: «**سِباب المؤمن فُسوقٌ وقتالُهُ كُفرٌ**»[٢].

وعنه ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ**» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «**يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ**»[٣].

الآفة التاسعة: اللّعن:

اللعن إما لحيوان أو جماد أو إنسان وكل ذلك مذموم، قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**المُؤمن ليس بِلَعَّان**»[٤]، واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى، وذلك غير جائز إلا على من اتَّصف بصفة تبعده من الله عَزَّ وَجَلَّ وهو الكفر والظلم، وفي لعن فاسق معيَّن خطر فليجتنب ولو بعد موته بل قَدْ يكون أشدَّ إن كان فيه أذًى للحيّ، وفي الحديث: «**لا تَسبُّوا الأموات فَتؤذوا به الأحياء**»[٥].

قَالَ الشيخ سعيد بن وهف القحطانيّ: «اللَّعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ومن صفات المؤمن أن لا يكون لعّانًا، ولا طعَّانًا، ولا فاحشًا، ولا بذيئًا، إنَّما ذَلِكَ من سِمات وأخلاق الفُسَّاق ناقصي الإيمان». ا.هـ[٦].

عباد الله...

وآفة اللَّعن انتشرت بين المسلمين في العصور المتأخرة انتشار النار في الهشيم، فلا يكاد يخلو مجلس من سبّ أو لعن!!

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٦٣، ٦٤)، وأبو داود (٤٠٧٥)، وغيرهما.
(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
(٣) صحيح، وقَدْ تقدم.
(٤) صحيح، وقَدْ تقدم.
(٥) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٢)، والترمذي (١٩٨٢)، وصححه الألباني.
(٦) «آفات اللسان» (١٤٠).

وإليكم هذا الحديث الذي يُبيِّن عاقبة هَذِهِ الآفة، عسى أن يكون رادعًا للناس:

عن أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِنَّ العَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الأَرْضِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالاً، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِى لُعِنَ، فَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلاً وَإِلاَّ رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا»** [1].

هذا؛ واعلموا - عباد الله - أَنَّهُ يجوز لعن أصحاب المعاصي والكفَّار عمومًا بدون تعيين أحدٍ بِعَيْنِهِ.

قَالَ الإمامُ النووي - رَحِمَهُ الله -: «اعلم أن لعن المسلم المصون حرامٌ بإجماع المسلمين، ويجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة، كقولك: لعن الله الظَّالمين، لعن الله الكافرين، لعن الله اليهود والنصارى، لعن الله الفاسقين، لعن الله المصوّرين، ونحو ذلك» ا.هـ [2].

يعني: دون تعيين، أمَّا مَن عيَّن الشَّرع لعنه، وتأكدنا موته عَلَى الكفر فيجوز لعنه.

قَالَ الإمام الغزاليُّ - رَحِمَهُ الله -: «لا يجوز لعن مَن اتَّصف بشيء مِن المعاصي إذا كان معلومًا بعينه إلَّا في حقّ مَن عُلِمَ بِعَيْنِهِ، وقَدْ علمنا أَنَّهُ مات عَلَى الكفر، وذَلِكَ لأننا لا ندري ما يُختم به لهذا الفاسق، أو الكافر، فكم رأينا وكم سمعنا مِن أُناسٍ كانوا متلبّسين بالمعاصي أو الكفر فهداهم الله وختم لهم بخير، فأصبحوا من أنصار الحق بعد أن كانوا من أنصار الباطل» [3].

عباد الله...

هَذِهِ بعضُ آفاتِ اللِّسان، وسيأتي بعضُها بعد قليل - إن شاء الله تَعَالَى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٢٧٧).
(٢) «الأذكار» للنووي (٣٠٤).
(٣) «آفات اللسان» (١٤٦).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والآفة العاشرة والحادية عشرة من آفات اللسان: آفة الغناء والشعر:

والمذموم منها: ما اشتمل عَلَى محرّم أَوْ دعاء إليه، كَتَشْبِيبه بِمُعَيَّن وهجاء وتشبّه بالنِّساء وتهييج لفاحشة، ولحوق بأهل الخلاعة والمجون، وصرف الوقت إليه، ونحو ذَلِكَ، وما خلا ذَلِكَ فهو مباح.

وقَدْ ورد ذمّ الغناء في القُرآن والسُّنَّة وفي أقوال سلف الأُمَّة:

فمن القُرآن:

(١) قال تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

قال ابن مسعود رَضِي الله عَنْهُ في تفسير ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾: هو والله الغناء[١].

(٢) وقال تَعَالَى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

صحّ عن مجاهد قوله: صوت الشيطان: الغناء والمزامير[٢].

ومن الأحاديث:

(١) عن أبي هريرة رَضِي الله عَنْهُ أن النَّبيّ ﷺ قال: «**إن في أُمَّتي خَسفًا ومَسخًا وقذفًا**» قالوا: يا رسول الله، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله؟ قال: «**نعم، إذا ظهرت المعازفُ والخمورُ، ولبس الحرير**»[٣].

---

(١) **حسن**: أخرجه ابن جرير في «تفسيره» والحاكم في «مستدركه»، وغيرهما.

(٢) انظر «الرد عَلَى من يحب السماع» لأبي الطيب الطبري (٣٥).

(٣) انظر «صحيح الجامع» (٢١٢٨).

(٢) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لاَ تَبِيعُوا الْقَيْنَاتِ وَلاَ تَشْتَرُوهُنَّ وَلاَ تُعَلِّمُوهُنَّ وَلاَ خَيْرَ فِي تِجَارَةٍ فِيهِنَّ وَثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ»[١].

ومن الآثار:

(١) عن عبد الله بن دينار، قال: مَرّ ابن عُمر بجارية تُغني، فقال: «لو ترك الشَّيطان أحدًا ترك هذه»[٢].

(٢) وأخرج في «الأدب المفرد» والبيهقي بإسناد صحيح: أن عائشة رَضِي الله عَنْهَا مَرَّت بمغن يتغنى ويحرّك رأسه طربًا في البيت، وكان ذا شعر كثير، فقالت: أفّ، شيطان، أخرجوه، أخرجوه.

عباد الله...

إن الغناء يصدّ عن ذِكر الله، وعن الصلاة، ولذا سمّاه ابن القيِّم: قرآن الشيطان.

وقال الأستاذ/ عبد الرحمن حنبكة الميدانيّ: «وقَدْ عرف أعداءُ الإسلام ما للأغاني والأناشيد من تأثير عَلَى نفوس الجماهير، فأسرعوا للسيطرة عَلَى المغنيين، والمغنيات، وواضعي الألحان، ومؤلفي كلمات الأغاني العاطفية والمضحكة، وغيرها وعملوا عَلَى تجنيدهم بالمغريات المختلفة لتوجيه ما يقدّمونه من الأغاني والأناشيد توجيهًا يخدم أهداف الغزو الفكري والنَّفسي والسلوكي الذي يقومون به ضد الإسلام والمسلمين» ا.هـ[٣].

عباد الله...

أمّا الشِّعر، فالشِّعر نوعان:

الأول: ما فيه مدحٌ للإسلام والمسلمين ونصرة للحق وأهله، وهذا لا بأس به، قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ الشِّعر لَحِكمة».

---

(١) صحيح: «صحيح الترمذي» (١٠٣١).

(٢) أثرٌ صحيح عن ابن عمر، انظر «أحاديث ذمّ المعازف» (١٥٢).

(٣) «غزو في الصميم» (ص١٧٣) بتصرف يسير.

والثاني: ما فيه مدح قومٌ بباطل، أَوْ ذمّ قومٌ بباطل، أَوْ قول زور وبهتان، فهذا النوع محرَّم ومِن أعظم آفات اللسان.

قال الله تَعَالى: ﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**﴾ [الشعراء: ٢٢٤- ٢٢٧].

عباد الله...

هذه بعض آفات اللِّسان، وللحديث بقيّة - إن شاء الله.



الخطبة التاسعة والثمانون:

[هـ] لقطات وعظات من حياة: الربيع بن خُثيم

[جـ] التحذير من آفات اللسان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل - إن شاء الله تَعَالَى - الحديث عن «**آفات اللِّسان**» سائلًا الله تَعَالَى أن يُعيننا عَلَى حفظه.

عباد الله...

الآفة الثانية عشرة: آفة المِزاح:

والمنهيُّ عنه المذموم منه: المداومة عليه والإفراط فيه.

فأما المداومة فلأنه اشتغال باللعب والهزل، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك، وتورث الضغينة في بعض الأحوال، وتسقط المهابة والوقار. أما ما يخلو عن هذه الأمور فلا يُذم، كما رُوي عن النبي ﷺ أنه قَالَ: «**إنِّي لأمزحُ ولا أقولُ إلَّا حقًّا**»[١]، ألا إن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقًّا، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يُضحِّكَ الناس كيفما كان. وقَدْ قال عُمر رَضِيَ الله عَنْهُ: مَن مزح استخفَّ به، وقال سعيد بن العاص لابنه: يا بنيَّ لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدَّنيء فيجترئ عليك.

وقيل: لكل شيء بذور وبذور العداوة المزاح. ويقال: المزاح مسلبة للنهي مقطعة للأصدقاء.

ومن الغلط العظيم أن يتخذ المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول ﷺ، وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله ﷺ أَذِن لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد، وهو خطأ.

وبالجملة: فإن كنت تقدر عَلَى أن تمزح ولا تقول إلا حقًّا ولا تؤذي قلبًا ولا تفرط فيه وتقتصر عليه أحيانًا عَلَى الندور فلا حرج عليك فيه، ومن مطايباته ﷺ ما رُوي أن عجوزًا أتته فقال لها: «**لا يَدخُلُ الجَنَّةَ عَجوزٌ**»[٢]، فبكت فقال لها: «**إنَّك لست بعجوز يومئذٍ**» قَالَ الله تَعَالى: ﴿**إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا**﴾ [الواقعة: ٣٥، ٣٦].

وجاءت امرأة أخرى فقالت: يا رسول الله احملني عَلَى بعير، فقال: «**بل نَحملُك عَلَى ابنِ البَعير**»، فقالت: ما أصنع به إنه لا يحملني؟ فقال ﷺ: «**ما مِنْ بَعيرٍ إلَّا وَهُوَ ابنُ بَعيرٍ**»[٣].

وقال أنس: كان لأبي طلحة ابنٌ يُقال له: أبو عمير، وكان رَسُول الله ﷺ يأتيهم ويقول: «**أبا عُميرٍ ما فعلَ النُّغَيرُ**»[٤]، النغير: كان يلعب به وهو فرخ العصفور.

---

(١) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «الكبير»، وانظر «صحيح الجامع» (٢٤٩٤).
(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي في «الشمائل» وحسنه الألباني في «مختصر الشمائل» (٢٠٥).
(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣/ ٢٦٧)، وأبو داود (٤٩٩٨)، وغيرهما.
(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣/ ١١٩)، وهو في الصحيحين.

فأكثر هَذِهِ المطايبات منقولة مَعَ النِّسَاء والصبيان، وكان ذَلِكَ منه ﷺ معالجة لضعف قلوبهم من غير مَيلٌ إلى هزل.

وقال ﷺ مرَّة لِصُهيب وبه رمد وهو يأكل تمرًا: «أتأكلُ التمر وأنتَ رَمِدٌ» فقال: إنَّما آكل بالشِّق الآخر يا رَسُول الله، فتبسم ﷺ[1]. وقال بعض الرواة: حَتَّى نظرت إلى نواجذه.

وكان نعيمان الأنصاريّ رجلًا مزَّاحًا لا يدخل المدينة طرفة إلا اشترى منها، ثم أتى النبي ﷺ فيقول: يا رسول الله هذا قد اشتريته لك وأهديته لك، فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله أعطه ثمن متاعه، فيقول له ﷺ: «أوَلَم تهده لنا» فيقول: يا رسول الله إنه لم يكن عندي ثمنه وأحببت أن تأكل منه، فيضحك النبي ﷺ ويأمر لصاحبه بثمنه.

فهذه مطايبات يُباح مثلها على الندور لا على الدوام.

الآفة الثالثة عشرة: السخرية والاستهزاء:

وهو مُحَرَّمٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١].

ومعنى **السخرية**: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء. ومرجع ذلك إلى استحقار الغير والضحك عليه والاستهانة به والاستصغار له. وعليه نبه الله تعالى بقوله: ﴿عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي لا تستحقره استصغارًا فلعلَّهُ خيرٌ منك.

وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به، فأمَّا مَن جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به؛ كانت السخرية في حقه من جملة المزاح - وقد سبق ما يذم منه وما يمدح - وإنما المحرَّم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون. وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (٤/ ٦١)، وابن ماجه (٣٤٤٣).

على حفظه وعلى صنعته، أو على صورته وخلقته لعيب فيه. فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهيُّ عنها.

الآفة الرابعة عشرة: إفشاء السِّرِّ:

وهو مَنهيٌّ عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء.

قال النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الحَدِيثَ ثُمَّ التَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ**»[(١)].

فإفشاء السِّرِّ خيانة وهو حرام إذا كان فيه إضرار، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار.

ومن إفشاء السِّر المحرَّم: إفشاء سِرِّ الزَّوج أَوْ الزَّوجة.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ: الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ**[(٢)] **وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا**»[(٣)].

وهذا أعظم خيانة الأمانة.

عباد الله...

وحديث الرجل عما يدور بينه وبين زوجه، وحديث المرأة عمَّا يدور بينهما وبين زوجها من أمور الجماع ونحوه، فاكهة المجالس في هَذِهِ الأيام دون خجل ولا حياء!!

وهذا - كما لا يخفى - قَدْ يؤدِّي إلى فساد عريض، وشرّ مستطير، فأين الحياء يا عباد الله؟!

وهناك آفات أخرى للسان، سيأتي بعضها بعد قليل - إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) قال العراقي في تخريجه لأحاديث «الإحياء» (٣/ ١٣٢): رواه أبو داود والترمذي وحسنه.

(٢) **يفضي إلى امرأته**: أي يصل إليها بالمباشرة أَوْ المجامعة.

(٣) «صحيح مسلم» (٢/ ١٠٦١).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

الآفة الخامسة عشرة: الوعد الكاذب:

فإن اللِّسان سبَّاق إلى الوعد ثم النَّفْس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفًا، وذلك من أمارات النِّفاق، قال الله تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقَدْ أثنى الله تَعَالَى عَلَى نبيِّه إسماعيل - عليه السلام - في كتابه العزيز فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤].

ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاةُ قال: إنه كان خطب إليَّ ابنتي رجلٌ من قريش وقَدْ كان مني إليه شِبه الوعد، فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق، أشهدكم أني قَدْ زوجته ابنتي.

وكان ابن مسعود لا يَعِدُ وَعدًا إلَّا ويقول: إن شاء الله، وهو الأوْلى، ثم إذا فهم مع ذَلِكَ الجزم في الوعد فلابدّ من الوفاء إلَّا أن يتعذر، فإن كان عند الوعد عازمًا عَلَى أن لا يفي فهذا هو النفاق، قال رَسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ فَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ لَمْ تَزَلْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَتْرُكَهَا»[1]. وقال ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ خَالِصٌ وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[2].

وهذا ينزل عَلَى مَن إذا وعد وهو عَلَى عزم الخلف أَوْ ترك الوفاء من غير عذر، فأما مَن عزم عَلَى الوفاء فعنّ له عُذر منعه من الوفاء لم يكن منافقًا وإن جرى عليه ما هو

---

(١) صحيح.

(٢) رواه البخاري (١/ ١٥)، ومسلم (١/ ٥٦)، وغيرهما.

صورة النفاق، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضًا كما يحترز من حقيقته ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذورًا من غير ضرورة». ا.هـ[(١)].

عباد الله...

وللحديث بقية إن شاء الله تَعَالى.

۞۞۞۞۞

(١) «موعظة المؤمنين» (٢٧٥ - ٢٨٠) باختصار وإضافة.

الخطبة التسعون:

[و] لقطات وعظات من حياة: الربيع بن خُثيم

[د] التحذير من آفة اللسان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل - إن شاء الله تَعَالَى - الحديث عن «**آفات اللِّسان**» والله أسأل أن يُعيننا عَلَى كبح جِماح ألسنتنا، إنه وليُّ ذَلِكَ والقادر عليه.

عباد الله...

الآفة السادسة عشرة: الكذب في القول واليمين:

وهو من قبائح الذنوب، وفواحش العيوب، قَالَ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ فَإِنَّهُ مَعَ

الفُجُورِ وَهُمَا فِي النَّارِ»[١].

وعنه ﷺ قَالَ: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: المَنَّانُ بِمَا أَعْطَى، وَالمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الكَاذِبِ»[٢].

وعنه ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»[٣].

هذا، وقَدْ رخَّص الإسلام في الكذب في عدّة مواطن:

قَالَ صاحب «موعظة المؤمنين»: «قَدْ يتعلق بالكذب مصلحة فيكون مأذونًا فيه، وربما كان واجبًا، كما إذا كان في الصِّدق سفك دم امرئ قَدْ اختفى من ظالم، فالكذب فيه واجب».

وكما إذا لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البيِّن أو استمالة قلب المجنيّ عليه أو تعاشر الزوجين إلا بكذب، فالكذب مباح، إلا أنه يقتصر فيه عَلَى حد الضرورة لئلا يتجاوز إلى ما يستغنى عنه، وفي معنى ذَلِكَ وردت أحاديث كثيرة، قَالَ ثوبان: الكذب كله إثم إلَّا ما نفع به مسلمًا أو دفع عنه ضررًا.

هذا، وقَدْ حذَّر سلفنا من الكذب بالمعاريض.

فقد نقل عن السَّلف أن في المعاريض مندوحة عن الكذب وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب، فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعًا، ولكن التعريض أهون. ومثال التعريض ما رُوى أن مطرفًا دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض وقال: ما رفعت جنبي مذ فارقت الأمير إلا ما رفعني الله.

وكان معاذ بن جبل عاملاً لعمر رَضِيَ الله عَنْهُ فلما رجع قالت له امرأته: ما جئت به مما يأتي به العمال إلى أهلهم؟ وما كان قد أتاها بشيء. فقال: كان عندي ضاغط، قالت: كنت أمينًا عند رسول الله ﷺ وعند أبي بكر رَضِيَ الله عَنْهُ. فبعث عمر معك ضاغطاً؟

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٢٤)، وابن ماجه (٣٨٤٩)، وغيرهما.

(٢) رواه مسلم، وغيره.

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر، فلما بلغه ذلك دعا معاذًا وقال: بعثت معك ضاغطاً؟ قال: لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك، فضحك عمر رَضِيَ الله عَنْهُ وأعطاه شيئًا فقال: ارضها به - ومعنى قوله ضاغطًا يعني رقيبًا، وأراد به الله تَعَالى.

وكان النخعي إذا طلبه مَن يكره أن يخرج إليه وهو في الدار قَالَ للجارية: قولي له: اطلبه في المسجد ولا تقولي: ليس ههنا كي لا يكون كذبًا. ومِمَّا تباح به المعاريض قصد تطييب قلب الغير بالمزاح كقوله ﷺ: «**لا يَدخُل الجَنَّة عَجُوزٌ**» (١).

ومِمَّا يتسامح به، ما جرت به العادة في المبالغة كقوله: قلت لك كذا مائة مرة، فإنه لا يريد به تفهيم المرَّات بعددها، بل تفهيم المبالغة إلا أَنَّهُ إذا لم يكن قَالَ ذَلِكَ إلا مرة واحدة كان كاذبًا.

وأما ما يعتاد التساهل به في الكذب في مثل أن يُقال: كلِ الطعامَ، فيقول: لا أشتهيه، فذلك منهيٌّ عنه وهو حرام إن لم يكن فيه غرض صحيح، ومثل ذَلِكَ أن يقول: يعلم الله فيما لا يعلمه.

وأما الكذب في حكاية المنام فالإثم فيه عظيم، وفي الحديث: «**إِنَّ أَعْظَمَ الفِرْيَةِ ثَلاثٌ: أَنْ يَفْتَرِىَ الرَّجُلُ عَلَى عَيْنَيْهِ يَقُولُ رَأَيْتُ وَلَمْ يَرَ، وَأَنْ يَفْتَرِىَ عَلَى وَالِدَيْهِ يُدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، وَأَنْ يَقُولَ قَدْ سَمِعْتُ وَلَمْ يَسْمَعْ**» (٢).

الآفة السابعة عشرة: الغيبة:

قَدْ نصّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَلَى ذمها في كتابه الكريم، وشبَّه صاحبها بآكلِ لحم الميتة، فقال تَعَالى: ﴿**وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال ﷺ: «**كُلُّ المسلم عَلَى المُسلم حرامٌ؛ دَمُهُ ومَالَهَ وعِرضُهُ**» (٣). والغيبة تتناول العرض.

---

(١) تقدم.

(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري.

(٣) صحيح، وقَدْ تقدم.

وقال ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ، لاَ تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ» (١).

وعن مجاهد أنه قال في قوله تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]: الهمزة: الطعَّان في النَّاس، واللمزة: الذي يأكل لحوم النَّاس.

وقال بعضهم: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكفّ عن أعراض النَّاس. وقال ابن عَبَّاس: إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك.

عباد الله...

ويقول صاحب «موعظة المؤمنين»: «اعلم أن حدّ الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في حلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه، حتى في ثوبه وداره ودابته.

أما البدن: فذكرك العَمش والحَول والقَرع والقصر والطول والسواد والصفرة، وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان.

وأما النسب: فبأن تقول: أبوه فاسق أو خسيس أو زبَّال، أو شيء مما يكرهه.

وأما الخلق: فبأن تقول: هو سيئ الخُلق، بخيل، متكبر، مُراء، شديد الغضب، جبان، متهوِّر، وما يجري مجراه.

وأما أفعاله المتعلقة بالدين: فكقولك: هو سارق، كذاب، شارب خمر، خائن، ظالم، متهاون بالصلاة أو الزكاة، لا يحترز من النجاسات، ليس بارًّا بوالديه، ونحوه.

وأما فعله المتعلق بالدنيا: فكقولك: إنه قليل الأدب، متهاون بالناس، كثير الكلام، كثير الأكل، نؤوم، يجلس في غير موضعه.

وأما في ثوبه فكقولك: إنه واسع الكم، طويل الذيل، وسخ الثياب، ونحوه.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٠)، وأبو داود (٤٨٨٠)،وصححه الألباني.

والقول الجامع في الغيبة ما جاء من قوله ﷺ: **«الغَيْبَةُ ذِكرُكَ أخاكَ بما يَكرَهُهُ»** [١]، وإنَّما حرَّم الذكر باللسان لما فيه من تفهيم الغير نقصان أخيه وتعريفه بما يكرهه، ولذا كان التعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول، والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكلُّ ما يُفهِمُ المقصود فهو داخل في الغيبة، وهو حرامٌ، فمن أومأ بيده إلى قِصر أحد أو طوله أو حاكاه في المشي كما يمشي فهو غيبة، والكتابة عن شخص في عيب به، غيبة، لأن القلم أحد اللسانين.

وكذا قولك: مَن قَدِم من السفر، أو بعض من مرّ بنا اليوم، إذا كان المخاطب يفهمه، فهو غيبة. وكذا من يفهم عيب الغير بصيغة الدعاء كقوله: الحمد لله الذي لم يبتلينا بكذا، وكذلك قَدْ يقدمُ مدحَ مَن يريد غيبته فيقول: ما أحسن أحوال فلان ولكن ابتلي بما يبتلي به كلنا وهو كذا، فيذكر نفسه، ومقصوده أن يذمّ غيره في ضمن ذَلِكَ.

ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعضُ الحاضرين فيقول: سبحان الله ما أعجب هذا! حتى يصغي إليه ويعلم ما يقول، فيذكر الله تعالى ويستعمل الاسم آلةً في تحقيق خبثه. وكذلك يقول: ساءني ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به، فيكون كاذبًا في دعوى الاغتمام لأنه لو اغتمّ به لاغتمّ بإظهار ما يكرهه. وكذلك يقول: ذلك المسكين قد بلي بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه، فهو في كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره وخفيّ قصده، وهو لجهله لا يدري أنه قد تعرض لمقت أعظم.

ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب فإنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة فيندفع فيها، وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول: عجيب ما علمتُ أنه كذلك! كنت أحسب فيه غير هذا، عافانا الله من بلائه، فإن كل ذلك تصديق المغتاب والتصديق بالغيبة غيبة بل الساكت شريك المغتاب، إلَّا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف، وفي الحديث: **«مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ القِيَامَةِ»** [٢]. ا.هـ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٠، ٣٨٤)، ومسلم (٨/ ٢١)، وأبو داود (٤٨٧٤)، والترمذي (١٩٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (١٠/ ١٣٩٨٥ تحفة) عن أبي هريرة.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد في «المسند» والترمذي، وصححه الألباني في «غاية المرام» (٤٣١).

عباد الله...

وهناك أسباب باعثة عَلَى الغيبة:

منها: التشَّفيّ: وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه، فإنه إذا هاج غضبه فيشتفى بذكر مساوئه فسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثَمَّ دين وازع، وقد يمتنع تشفى الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن فيصير حقدًا ثابتًا فيكون سببًا دائمًا لذكر المساوئ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة.

ومنها: موافقة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام، فإنهم إذا كانوا يتفكَّهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة، وقد يغضب رفقاؤه فيضطر إلى أن يغضب لغضبهم إظهارًا للمساهمة في السرَّاء والضرَّاء فيخوض معه في ذكر العيوب والمساوئ.

ومنها: إرادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره.

ومنها: الحسد، وهو أن يحسد مَن يُثني النَّاس عليه ويحبونه ويكرمونه، فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلاً إليه إلا بالقدح فيه، حتى يكفوا عن الثناء عليه وإكرامه لأنه يثقل عليه ذَلِكَ.

ومنها: اللعب والهزل وتزجية الوقت بالضحك، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة والتعجب.

ومنها: السخرية والاستهزاء استحقارًا له، وذَلِكَ ومنشؤه التكبر واستجهال المستهزأ به.

وثمة أسباب غامضة فيها دسائس للشيطان، وهي أن يذكر اسم إنسان في حالة التعجب أو الرحمة والغضب لله تَعَالى، فيقول مثلًا: تعجبتُ من فلان، كيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل، فيكون تعجبه من المنكر لصدقه، أو يقول: مسكين فلان قد غمَّني أمره وما ابتلي به، وهو صادق في الاغتمام، وكذا قَدْ يغضب عَلَى منكر قارفه إنسان فيظهر غضبه ويذكر اسمه، والواجب في ذَلِكَ ستر اسمه وعدم إظهاره عَلَى غيره ولا عذر في ذكر الاسم في ذَلِكَ[1].

(١) «موعظة المؤمنين» (٢٨٦).

عباد الله...

ما هو العلاج الذي به يمنع اللِّسان عن الغيبة؟

يجيب صاحب كتاب «موعظة المؤمنين» عن هذا السؤال فيقول:

«اعلم أن مساوئ الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل.

وعلاج كفّ اللسان عن الغيبة إجمالًا: أن يعلم أَنَّهُ يتعرض لسخط الله تَعَالى إذا ارتاب لارتكابه ما نهى الله عنه، فمهما آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفًا من ذَلِكَ، وينفعه أيضًا أن يتدبر في نفسه فإن وجد فيها عيبًا اشتغل بعيب نفسه.

ومهما وجد عيبًا فينبغي أن يستحيي من أن يترك ذم نفسه ويذمّ غيره، بل ينبغي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذَلِكَ العيب كعجزه، وهذا إن كان عيبًا يتعلق بفعله واختياره، وإن كان أمرًا خلقيًا فالذمَّ له ذم للخالق، فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها، وإذا لم يجد العبد عيبًا في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه بريءٌ من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم العيوب، وينفعه أن يعلم أن تألُّم غيره بغيبته كتألمه بغيبه غيره له، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يُغتاب فينبغي أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه.

وبالجملة: فمن قويّ إيمانه، انكفّ عن الغيبة لسانه» ا.هـ.

هذا، واعلموا أن الغيبة لا تكون باللسان فقط، ولكن تكون بالقلب أيضًا، وهذا أمر قَدْ لا يتنبَّه إليه كثير منَّا.

يقول صاحب كتاب «موعظة المؤمنين»: «اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول، فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوئ الغير، فليس لك أن تحدِّث نفسك وتُسيء الظن بأخيك، ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره ظنًّا بأمر سيئ، فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفوّ عنه ولكن المنهيَّ عنه أن يظن، والظن عبارة عما تركنُ إليه النفس ويميل إليه القلب. فقد قال الله تَعَالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾ [الحجرات: ١٢].

وسبب تحريمه: أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علَّام الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءًا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل، فإن لم ينكشف كَذَلِك فإنما الشيطان يلقيه إليك، فينبغي أن تُكذِّبه فإنه أفسق الفسَّاق، وقد قال الله تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات: ٦].

وحينئذ فَإِذَا خطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر.

فإن قلت: فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث؟ **فتقول:** أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورًا ما، ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه؛ والمخرج منه أن لا يحققه، أي: لا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل ولا في القلب ولا في الجوارح. وربما يلقي الشيطان أن هذا من فطنتك وسرعة تنبهك وذكائك، وأن المؤمن ينظر بنور الله تَعَالَى، وهو عَلَى التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته.

ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه في السرّ ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه.

ومن ثمرات سوء الظن: التجسس؛ فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضًا منهي عنه، قال الله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢]، فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهيٌّ عنه في آية واحدة.

ومعنى التجسس: أن لا يترك عبادَ الله تحت ستر الله، فيتوصل إلا الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستورًا عنه كان أسلم لقلبه ودينه». ا.هـ.

أيُّهَا المسلمون...

وبهذا الكلام المهمّ، نأتي إلى خِتام الخطبة الأولى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومِمَّا ينبغي معرفته: أن الإسلام الحنيف رخَّص الغيبة في بعض الأمور:

قال القاسمي -رَحِمَهُ الله -: «اعلم أَنَّهُ إذا لم يمكن التوصل إلى غرض صحيح في الشرع إلا بذكر مساوئ الغير فإنه يرخَّص فيه ولا إثم، وذَلِكَ في أمور:

منها: التظلم وذَلِكَ كمظلوم يرفع ظلامته عَلَى إنسان إلى أمير ليستوفي له حقه، إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا بنسبته إلى الظّلْم، قَالَ ﷺ: «**إن لِصاحب الحقّ مقالًا**»[١]، وعنه ﷺ: «**مَطْلُ الغنيّ ظلمٌ**»[٢].

ومنها: الاستعانة عَلَى تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهج الصلاح.

ومنها: الاستفتاء، كما يقول للمفتي: ظلمني أبي أو زوجتي أو أخي، إذا لم يفد الإبهام أو التعريض، وذَلِكَ لما رُوي عن هند بنت عُتبة أنها قالت للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي أفآخذه من غير علمه؟ فقال: «**خُذي ما يكفيك وولدك بالمعرُوف**»[٣]،فذكرت الشحّ والظلم لها ولولدها ولم يزجرها ﷺ إذ كان قصدها الاستفتاء.

ومنها: تحذير المسلم من الشر، كما إذا علمت من إنسان ضررًا فحذرت شخصًا منه، وكالمزكي يطعن في الشاهد إذا سُئل عنه، وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه عَلَى قصد النصح للمستشير لا عَلَى قصد الوقيعة.

ومنها: أن يكون الإنسان معروفًا بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش، فلا

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

حرج في ذكره لضرورة التعريف، لأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن صار مشهورًا به. نعم إن وجد عنه معدلًا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى، ولذلك يقال للأعمى: البصيرُ، عدولًا عن اسم النقص.

ومنها: أن يكون مجاهرًا بالفسق متظاهرًا به، ولا يكره أن يُذكر به فلا غيبة له بما يتظاهر به». ا.هـ.

عباد الله...

وقَدْ يسأل سائل: ما هي كفَّارة التوبة؟

ويجيب عن هذا السؤال الإمام الغزاليّ -رَحِمَهُ الله - فيقول: «الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب، ويتأسَّف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه، ثم يستحلَّ المغتاب ليحلَّه فيخرج من مظلمته!

وقال الحسن. يكفيه الاستغفار دون الاستحلال.

وقال مجاهد: كفَّارة أكلك لحم أخيك: أن تثني عليه وتدعو له بخير.

وسُئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة قَالَ: أن تمشي إلى صاحبك فتقول له: كذبتُ فيما قلت، وظلمتُك وأسأتُ، فإن شئتَ أخذتَ بحقك، وإن شئتَ عفوتَ، وهذا هو الأصحّ، ففي الحديث الصحيح: «**مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ**»[(١)].

فإذن لابد من الاستحلال إن قَدِر عليه، فإن كان غائبًا أَوْ ميِّتًا فينبغي أن يُكثر له الاستغفار والدعاء ويُكثر من الحسنات.

فإن قلت: فالتحليل هل يجب؟

فأقول: لا، لأنه تبرع، والتبرُّع فضل، وليس بواجب، ولكنه مستحسن، وسبيل المعتذر أن يبالغ في الثناء عليه والتودد إليه ويلازم ذَلِكَ حتى يطيّب قلبه، فإن لم يطب

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة. ا.هـ[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة -رَحِمَهُ الله -: «مَن ظلم إنسانًا فقذفه، أَوْ اغتابه، أَوْ شتمه، ثم تاب قَبِلَ الله توبته، لكن إن عرف المظلوم مكَّنه من أخذ حقِّه، وإن قذفه أَوْ اغتابه ولم يبلغه ففيه قولان للعلماء، هما روايتان عن أحمد، أصحَّهما: أنه لا يُعلمه أنِّي اغتبتك. وقَدْ قيل: بل يُحسن إليه في غيبته كما أساء إليه في غيبته» ا.هـ[(٢)].

عباد الله...

وبهذا يكون قَدْ وضح طريق التوبة أمام أهل الغيبة، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصَّالحات.

۞۞۞۞۞

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٥٣، ١٥٤) باختصار.

(٢) «قاعدة أهل السنة والجماعة في رحمة أهل البدع والمعاصي» لشيخ الإسلام (٢٨).

الخطبة الحادية والتسعون:

[ز] لقطات وعظات من حياة: الربيع بن خُثيم

[هـ] التحذير من آفات اللسان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل - إن شاء الله تَعَالَى - الحديث عن «**آفات اللِّسان**»، وأسأل الله - تَعَالَى- الإصابة في القول والعمل.

عباد الله...

الآفة الثامنة عشرة: النَّميمة:

قال الله تَعَالَى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١]، وقال تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ

لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، قيل: الهُمزة: النَّمام، وقال تَعَالَى: ﴿حَمَّالَةَ الحَطَبِ﴾ [المسد: ٤]، قيل: إنها نَمَّامة حمالة للحديث. وقال ﷺ: «لا يَدخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ» (١)، وعنه ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقًا، المُوَطَّئُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ المَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ، المُفَرِّقُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ، المُلْتَمِسُونَ لِلْبُرَآءِ العَنَتَ، العَيْبَ» (٢).

وحدّ النميمة هو كشف ما يكره كشفه، سواء كُرْهُهُ المنقول عنه أو المنقول إليه، أو كرهه ثالث. وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال، وسواء كان ذَلِكَ عيبًا ونقصًا في المنقول عنه أو لم يكن، بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية، كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود عليه.

والباعث عَلَى النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه أو إظهار الحب للمحكي له، أو التفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل.

وكل من حُملت إليه النميمة فعليه أن لا يسارع إلى ظن صدقه، لقوله تَعَالَى: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، وأن ينهاه وينصح له وأن لا يظن بالغائب سوءًا وأن لا يحمله ذَلِكَ عَلَى التجسس.

وقال الحسن: من نَمَّ إليك نَمَّ عليك. وهذه إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يُبغض ولا يُوثق بقوله ولا بصداقته. وكيف لا يُبغض وهو لا ينفك عن الغدر والخيانة والإفساد بين النَّاس، وهو ممن يسعى في قطع ما أمر الله به أن يُوصل ويفسدون في الأرض؟ وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢]، والنمام منهم.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) حسن: رواه الترمذي، وحسنه، ووافقه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٠١).

وقال ﷺ: «إِنَّ مِن شِرَارِ النَّاس مَن اتَّقاهُ النَّاس لِشرِّهِ» (١)، والنمام منهم.

وقيل لمحمد بن كعب القرظي: أي خصال المؤمن أوضع له؟ فقال: كثرة الكلام وإفشاء السرِّ، وقبول قول كل أحد. وقال بعضهم: لو صحّ ما نقله النَّمام إليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك، والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك.

الآفة التاسعة عشرة: كلام ذي الوجهين:

وهو ذو اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه من الثناء عليه في معاداته وذمه الآخر، ووعده بأن ينصره عَلَى خصمه، وهو من علامات النفاق، نعم إذا دخل عَلَى متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقًا فيه لم يكن منافقًا ولا ذا لسانين، ولا منافقًا، فإن الإنسان يصادق متعاديين، وأما لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النمام، لأن النمام ينقل من أحد الجانبين فقط وهذا يزيد النقل من الجانب الآخر ويريد أن يحسّن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مَعَ صاحبه.

نعم من ابتلى بمراعاة أحد الجانبين في قول ما لضرورة وخاف من تركه فهو معذور فإن اتقاء الشر جائز.

قَالَ أبو الدرداء رَضِيَ الله عَنْهُ: إنا لنكشّرُ في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم.

وعن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّ رَجُلاً اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «ائْذَنُوا لَهُ فَبِئْسَ رَجُلُ الْعَشِيرَةِ». فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَلاَنَ لَهُ الْقَوْلَ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: قُلْتَ لَهُ الَّذِى قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْقَوْلَ؟. فَقَالَ: «أَىْ عَائِشَةُ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ» (٢).

ولكن هذا ورد في الإقبال وفي الكشر والتبسم، وإلا فلا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل، فإن فعل ذلك فهو منافق، بل ينبغي أن ينكر، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه، وللضرورات حكمها.

(١) رواه البخاري ومسلم بنحوه.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

الآفة العشرون: آفة المدح:

وهو منهيٌّ عنه في بعض المواضع. أما الذمّ فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها.

والمدح يدخله ستُّ آفات: أربع في المادح، واثنتان في الممدوح.

فأما المادح، فالأولى: أنه قد يفرط فينتهي به إلى الكذب.

والثانية: أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب، وقد لا يكون مضمرًا له ولا معتقدًا لجميع ما يقوله فيصير به مرائيًا منافقًا.

والثالثة: أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه.

والرابعة: أَنَّهُ قَدْ يُفرحُ الممدوح وهو ظالمٌ أو فاسق وذَلِكَ غير جائز. قَالَ الحسن: من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحبّ أن يُعصى الله في الأرض.

وأما الممدوح، فيضرّه من وجهين:

أحدهما: أَنَّهُ يحدث فيه كِبرًا وإعجابًا وهما مهلكان.

والثاني: هو أَنَّهُ إذا أثنى عليه فرح وفتر ورضي عن نفسه وقلَّ تشميره للعمل.

فإن سلم المدح من هَذِهِ الآفات في حقّ المادح والممدوح لم يكن به بأس، بل ربما كان مندوبًا إليه.

وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور، ويتذكر أَنَّهُ يعلم من نفسه ما لا يعلمه المادح، وأَنَّهُ لو انكشف له جميع أسراره وما يجري عَلَى خواطره لكفّ المادح عن مدحه، وكان عليّ رَضِيَ الله عَنْهُ إذا أُثني عليه يقول: اللَّهُمَّ اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيرًا مِمَّا يظنون.

وعلى المادح أن لا يجزم القول إلا بعد خبرة باطنة.

سمع عمر رَضِيَ الله عَنْهُ رجلًا يثني عَلَى رجل، فقال: أسافرت معه؟ قَالَ: لا، قَالَ: أخالطته في المبايعة والمعاملة؟ قَالَ: لا، قَالَ: أفأنت جاره صباحه ومساءه؟ قَالَ: لا، فقال: والله الذي لا إله إلا هو لا أراك تعرفه.

وفي الحديث: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلانًا، وَلاَ أُزَكِّي عَلَى

اللهِ أَحَدًا، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ»[١].

الآفة الحادية والعشرون: الخطأ في دقائق لفظية:

ينبغي التنبيه لدقائق الخطأ في فحوى الكلام والحذر عن الغفلة عنها لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته، مثاله ما جاء في الحديث عنه ﷺ: «لا يَقُل أَحَدُكُمْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ. وَلَكِنْ لِيَقُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ»[٢].

وذَلِكَ لأن العطف المطلق تشريكًا وتسوية، وهو خلاف الاحترام، وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك، ولولا الله وفلان، ويجوّز أن يقول: أعوذ بالله ثم بك، ولولا الله ثم فلان.

وعن ابن عباس رَضِيَ الله عَنْهُمَا: إنَّ أحدكم ليشرك حَتَّى يشرك بكلبه، فيقول: لولاه لسُرقنا الليلة.

وقال عمر رَضِيَ الله عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلاَ إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، وَإِلاَّ فَلْيَصْمُتْ»[٣]. قَالَ عمر: فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها.

وقال أبو هريرة: قَالَ رسول الله ﷺ: «لا يَقولَنَّ أحدُكم: عبدي ولا أَمتي، كُلُّكُم عبيدُ الله وكلُّ نسائكُم إماءُ الله، وليقل: غُلامي وجاريتي، ولا يَقل المملوكُ: رَبِّي ولا ربَّتي، وليقل: سيِّدي وسَيدتي، فكلُّكم عبيدُ الله، والرَّبُّ الله سبحانه وتعالى»[٤].

وقال ﷺ: «لا تَقولُوا للمُنافِق: سيِّدُنا فإنَّه إن يكن سَيِّدكُم فَقَد أسخطتُم ربَّكُم»[٥].

فعلى المتكلّم أن يوافقه ورع حافظ، ومراقبة لازمة ليسلم عن الخطر.

الآفة الثانية والعشرون: سؤال العوام عن الغوامض:

من حق العوام الاشتغال بالعمل الصالح إلَّا أنَّ الفضول خفيف عَلَى القلب،

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، وغيره، وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٨/ ٦٤)، ومسلم (٥/ ٨٠)، وغيرهما.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢١٠)، وأبو داود (٤٩٧٥)، وغيرهما.

(٥) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٦٠)، وأبو داود (٤٩٧٧)، وغيرهما.

والعاميّ يفرح بالخوض في العلم، إذ الشيطان يُخيِّل إليه أنه من العلماء وأهل الفضل، ولا يزال يحبب إليه ذلك حتى قد يتكلم في العلم بما هو كفر وهو لا يدري.

وكل مَن سأل عن علمٍ غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم فإنه بالإضافة إليه عاميّ.

وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلاَثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ»[1].

وفي قصة موسى والخضر - عليهما السلام - تنبيه عَلَى المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه، إذ قَالَ: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]، فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حَتَّى اعتذر وقال: ﴿لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣]، فلما لم يصبر حَتَّى سأل ثلاثًا، قَالَ له الخضر: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨]، وفارقه، فسؤال العوام عن غوامض الدِّين من أعظم الآفات فيجب منعهم من ذَلِكَ وزجرهم[2].

عباد الله...

هَذِهِ بعض آفات اللِّسان، فاتَّقوها واحذروها، فإنَّ خطرها عظيم، ومصرعها وخيم.

وبالجملة: ففي اللِّسان آفتان عظيمتان:

الأولى: آفة الكلام بالباطل.

والثانية: آفة السكوت عن الحق.

فالسَّاكتُ عن الحقّ شيطانٌ أخرس، عاصٍ لله، مُراءٍ، مداهنٍ، إذا لم يخف عَلَى نفسه القتل ونحوه.

والمتكلِّم بالباطل شيطانٌ ناطق، عاصٍ لله، وأكثر البشر منحرف في كلامه وسكوته بين هذين النوعين، وأهل الوسط: كفّوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم.

(٢) «موعظة المؤمنين» (٢٩٠ - ٢٩٥).

عليهم نفعهُ[١].

نسأل الله تَعَالَى أن يجعلنا منهم بِمنِّه وكرمه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ونختم خطبة اليوم بكلام جيِّد للإمام النووي -رَحِمَهُ الله -.

قال -رَحِمَهُ الله -: «اعلم أنه ينبغي لكل مكلَّف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، إلَّا كلامًا تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة، فالسُّنَّة الإمساك عنه، لأنه قد ينجرّ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، بل هذا كثير أو غالب في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء». ا.هـ[٢].

ولله دَرُّ القائل:

احفظ لسانك أيُّها الإنسان ... لا يلدغنَّك إنه ثُعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تُهاب لقاءَه الشُّجعان

اللَّهُمَّ احفظنا بالإسلام قائمين، واحفظنا بالإسلام قاعدين، واحفظنا بالإسلام راقدين، ولا تُشمت بنا أعداءً ولا حاسدين.

آمين... آمين... آمين

---

(١) «الداء والدواء» لابن القيم (٢٨١).

(٢) «الأذكار» للنووي (٢٨٤).

الخطبة الثانية والتسعون:

[حـ] لقطات وعظات من حياة: الربيع بن خُثيم

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة الوليّ الصَّالح، والتَّابعيّ الجليل «**الرَّبيع بن خُثيم**».

وأُذَكِّر بأن الهدف مِن تراجم هؤلاء الأعلام هو التَّشبّه بهم في: إخلاصهم، وتعبُّدهم، وخوفهم، وجودِهم، وجِهادهم، وبرّهم، والانتفاع بوصاياهم وموعظهم.

ورحمه الله بشر بن الحارث حين قال: «بحسبك أن أقوامًا موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن أقوامًا أحياء تعمي الأبصارُ بالنَّظر إليهم»[(١)].

---

(١) «المنتظم» لابن الجوزي (٢/ ٢١٩).

عباد الله...

واليوم نتحّدث - إن شاء الله - عن خَوف الرَّبيع، وتعبُّده، ووصيته عند موته، والله الموفَّق لما يُحبُّ ويَرضى.

أما عن خوفه:

عن أبي وائل قال: خرجنا مع عبد الله بن مسعود، ومعنا الربيع بن خثيم، فمررنا عَلَى حدَّاد فقام عبد الله ينظر حديدة في النار، فنظر الربيع إليها فتمايل ليسقط، فمضى عبد الله حتى أتينا عَلَى أتون[1] عَلَى شاطئ الفرات، فلما رأى «عبد الله» النَّار تلتهب في جوف الأتون قرأ هذه الآية: ﴿**إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا**﴾ [الفرقان: ١٢، ١٣]. قَالَ: فَصُعِقَ الرَّبيعُ فاحتملناه فجئنا به إلى أهله، قَالَ: ثم رابطه إلى المغرب فلم يفق، ثم إنه أفاق فرجع عبد الله إلى أهله.

وعن عبد الرحمن بن عجلان، قَالَ: بِتُّ عند الربيع بن خُثيم ذات ليلة فقام يُصَلي، فمرّ بهذه الآية: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ [الجاثية: ٢١]، فمكث ليلته حَتَّى أصبح ما جاوز هَذِهِ الآية إلى غيرها ببكاء شديد.

عباد الله...

وهكذا كانت القلوب رقيقة رفيقة نديّة بِذِكر الله، فكانت العيون دامعة، يبكي أصحابُها مِمَّا عَرَفوا من الحق، أو بِمَّا اجترحوا مَعَ الخلق.

قَالَ مكحول الدمشقي: أرقّ النَّاس قلوبًا، أقلّهم ذنوبًا[2].

ويُذكر أن فتًى من الأزد بكى حَتَّى أظلم بصره، فعُوتب في ذَلِكَ فقال:

ألم يــرث الــبُكاءُ أنــاس صِــدق ... فقــادهم الــبُكاءُ خــير المقــام

---

(١) **الأتون**: الفرن.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد في «الزهد» (٣٨٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٨٠).

ألم يَقُــل الإلــهُ إلــيَّ عــبدي فكــلّ الخــير عــندي في المعــاد

والله لأبكينَّ أيام الدُّنْيَا، فَإِذَا جاءت الآخرة فعند الله أحتسب مصيبتي في تقصيري.

فأين الذين يبكون من خطاياهم، فيضمخون أنفسهم بهذا العطر الحلال؟ أين الذين يبكون عَلَى طاعة فاتتهم بعد أن وافتهم، ومن معصيةٍ ركبتهم بعد أن تركتهم؟

فيا مَن جلّت غفلته، وطالت سكرته، تأمَّل عطف المولى عليك وإحسانه إليك، فبالله عليكم حطوا بالتوبة عَن ظهوركم أحمال الخطايا والذنوب، وأقبلوا بقلوبكم عَلَى علَّام الغيوب، واغسلوا وجوهكم بقطرات الدُّموع، واشتملوا بأردية التذلل والخضوع.

يا غافلًا عن مصيره، يا واقفًا مَعَ تقصيره، سبقك أهل العزائم، وأنت في بحر الغفلة عائم، قف عَلَى الباب وقوف نادم، ونكِّس رأس الذُّل وقُل: أنا ظالم، ونادِ في الأسحار مُذنبٌ وراحم، وتشبَّه بالقوم وإن لم تكن منهم وزاحم، وابعث بريح الزفرات سحاب دمع ساجم، وقُم في الدُّجى مناديًا، وقف عَلَى الباب تائبًا، واستدرك مِن العمر ذاهبًا، ودع اللَّهو جانبًا، وطلِّق الدُّنْيَا إن كنت للآخرةِ طالبًا.

لا بأس أن يبكي المتَّقون، تذلَّلا، وتوددًا إلى الخالق سبحانه، إنه البكاء الصابر المحتسب، والتي تستعيد به النَّفْس توازنها عندما تحيل القضية برُمتها إلى الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول حافظ إبراهيم:

يــا مــن حلقــت الدمــع لطفــا مــــنك بالباكـــي الحـــزين
بـــارك لعـــبدك في الدمـــوع فإنهــــا نعــــم المُعــــين

ولقد بكى ﷺ عند موت ابنه إبراهيم وقال: «**إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرْضَى رَبُّنَا**». وما يرضاه هو ما قاله العارفون: الحمد لله الذي لا يُحمد عَلَى مَكروهٍ سواه.

عباد الله...

وأمَّا عن تعبُّد الربيع:

كان الرَّبيع - رَحِمَهُ الله - إذا سجد (كان) كأنه ثوب مطروح، فتجيء العصافير فتقع عليه، أي: تحسبه جِذع شجرة.

وعن سفيان، قال: بلغنا أن أُمّ الربيع بن خُثيم كانت تنادي ابنها الربيع فتقول: يا بني يا ربيع ألا تنام؟ فيقول: يا أمَّه مَن جَنَّ عليه الليل وهو يخاف البيات حقٌّ له أن لا ينام. قال: فلما بلغ ورأت ما يلقى من البكاء والسهر نادته فقالت: يا بني لعلك قتلت قتيلا؟ فقال: نعم يا والدة قد قتلت قتيلاً. قالت: ومن هذا القتيل يا بني حتى يتحمل على أهله فيعفون؟ والله لو يعلمون ما تلقى من البكاء والسهر بعد لقد رحموك، فيقول: يا والدة هي نفسي.

وقالت له ابنته ذات ليلة: يا أبتِ لِمَ لا تنام والناسُ ينامون؟ فقال: إن النار لا تدع أباك أن ينام.

وعن بعض أصحابه قَالَ: ربما عَلَّمنَا شَعْره عن المساء - وكان ذا وفرة - ثم يصبح والعلامة كما هي، فيُعرف أن الربيع لم يضع جنبه ليلة عَلَى فراشه.

عن علقمة بن مرثد، قال: انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين؛ فأمَّا الربيع بن خُثيم فقيل له حين أصابه الفالج[1]: لو تداويت؟ فقال: لقد علمتُ أن الدواء حق ولكن ذكرتُ عادًا وثمودًا وأصحاب الرَّس وقرونًا بين ذلك كثيرًا كانت فيهم الأوجاع وكانت لهم الأطباء فلا المداوي بقي ولا المداوى، فقيل له: ألا تذكر الناس؟ قال: ما أنا عن نفسي براضٍ فأتفرغ من ذمها إلى ذمّ الناس، إن الناس خافوا الله تعالى في ذنوب الناس وأمنوا على ذنوبهم، وقيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحنا مذنبين، نأكل أرزاقنا، وننتظر آجالنا.

وعن أبو حيان، قال: حدثني أبي، قال: لَـمَّا أصيب الربيع بالفالج - فسقط شِقه- كان لا يستطيع الانتقال إلى المسجد إلا بمشقة، وصلاته في بيته هي رخصة مرضه، بل

(١) **الفالج**: مرض يصيب نصف البدن بالشلل.

ضرورة مرضه، ومع ذَلِكَ يأبى إلَّا أن يخرج إلى المسجد يهادى بين رجلين، وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يقولون: يا أبا يزيد لقد رَخَّص الله لك، لو صليت في بيتك، فيقول: إنه كنا تقولون، ولكني سمعتهُ ينادي «حيّ على الفلاح»، فمن سمع منكم ينادي «حي على الفلاح» فليجبه ولو زحفًا، ولو حَبْوًا.

ألا رضي الله عنهم، ورفع عنده درجاتهم، هؤلاء الذين قَدروا الله حق قدره، وأحبوه حقّ حُبِّه، فلم يقنعوا في عبادته سُبحانه إلَّا بأنفس وأبهى ما تملك القدرة البشرية من عمل وبذل واجبات.

وعن مسروق بن الربيع: أنه لبس قميصًا أراه ثمن ثلاثة دراهم أو أربعة، فإذا به كُمه بلغ أظفاره، وإذا أرسله بلغ ساعده، وإذا رأى بياض القميص قال: أي عُبَيد تواضع لربك، ثم يقول: أي لحيمة - أي دمية - كيف تصنعان إذا سيرت الجبال و﴿**دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالـمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ**﴾ [الفجر: ٢١ - ٢٣].

إنها عزائم ترمي إلى جنات عدن.

فتشبَّهوا عِباد الله بهؤلاء، فإن التَّشبُّه بالصَّالحين فلاح.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبعد حياة حافلة بالعبادة، معطَّرة بالإخلاص والذِّكر، حضرت الوفاةُ الرَّبيع بن خُثيم، وهذا مصير كُل حيّ، قال تَعَالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وقال تَعَالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الـجَلالِ وَالإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وقال تَعَالى لنبيِّه ﷺ: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**﴾ [الزمر: ٣٠].

فسُبْحَان الحَيّ الذي لا يَموت.

أقول: بعد رحلة مباركة طيبة قضاها الربيع بن خُثيم - رَحِمَهُ الله - في هَذِهِ الحياة، سخَّر فيها كلَّ ما يملك لربِّه، قَدَّم فيها ما يُحبّ لله تَعَالى، كما يروي عنه بعض أصحابه أَنَّهُ كان يقول إذا جاءه سائل: أطعموه سُكَّرًا، فإن الرَّبيع يُحبّ السُّكر، وذَلِكَ لأن الله تَعَالى يقول: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [آل عمران: ٩٢].

أقول: بعد هَذِهِ الرحلة المباركة التي قضاها «الربيع» مع أصحاب النَّبيِّ الأطهار، ومع إخوانه الأبرار، آن وقت الرحيل، ولما أدركته الوفاة أوصى عند موته فقال: «هذا ما أوصى به الربيع عَلَى نفسه، وأشهد الله عليه، وكفى به شهيدًا، وجازيًا لعباده الصالحين ومثيبًا، إنِّي رَضيت بالله ربًّا، وبمحمد نبيًّا، وبالإسلام دينًا، ورضيت لنفسي ومَن أطاعني بأن أعبد الله في العابدين، وأحمده في الحامدين، وأنصح لجماعة المسلمين».

ولما دخل في سياق الموت بكت ابنته، فقال: يا بُنية لِمَ تبكين؟ قولي: يا بشراي أتى الخير.

نعم يا سيدي، أتى الخير، وهل هناك مِن خير أفضل من جوار رب العالمين، وصحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في جنات النَّعيم.

نعم يا سيدي، أتاك الخير فهنيئًا لك، ﴿**وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾.

وانتقل الربيع إلى جوار مَولاه الكريم، لتبقى سيرته قدوة للسالكين، ومنارًا للعابدين، ورحمةً للمسلمين.

رحمك الله يا ربيع بن خُثيم، يا صاحب ابن مسعود، ولا أجد في ختام هَذِهِ الترجمة المباركة إلا قول الشَّعبي: «ما رأيتُ قومًا قطُّ أكثر علمًا، ولا أعظم حِلمًا، ولا أكفَّ عن الدُّنْيَا، مِن أصحاب عبد الله، ولولا ما سبقهم به الصحابة، ما قَدَّمنا عليهم أحدًا».

قَالَ الذَّهبيُّ: تُوفِّيَ الربيع بن خُثيم قبل سنة خمس وستين، رَحِمَهُ الله تَعَالى.

عباد الله...

فاتخذوا هؤلاء لكم قدوة، تنجحوا وتفلحوا وتسعدوا في الدُّنْيَا والآخرة، إن شاء الله.

وإيَّاكم واتِّباع الغافلين، واسمعوا قول ربِّكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالى، وهو يقول: ﴿**وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٢٧].

اللَّهُمَّ أعِنَّا عَلَى ذِكرك، وشُكرك، وحُسن عبادتك.

اللَّهُمَّ اغفر لنا ما علمت، ولا تهتك ما سترت، أنت أعلم بالحال والشكوى، وأنت قادر عَلَى كشف البلوى، يا من سترت الزلَّات، وغفرت السيِّئات، ارحم عبادك، غرَّهم طولُ إمهالك، وأطمعهم كثرةُ أفضالك، وذلّوا لِعِزّك وجلالك.

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

✡✡✡✡✡

الخطبة الثالثة والتسعون:

[أ] لقطات وعظات من حياة: مالك بن دينار

فضل الإحسان إلى البنات

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن الإحسان إلى البنات من أفضل القُربات، وهذه جملة من الأحاديث النبويَّة الصَّحيحة، تدلُّ عَلَى ما نقول:

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ الله عَنْهَا - قَالَتْ: دَخلَتِ امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا تَسْأَلُ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا، فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا، ثُمَّ قَامَتْ فَخرَجَتْ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا، فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: «مَنِ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ البَنَاتِ بِشَيْءٍ كُنَّ لَهُ

سِتْرًا مِنَ النَّارِ»[١].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: جَاءَتْنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً وَرَفَعَتْ إِلَى فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا فَاسْتَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ**»[٢].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ**». وَضَمَّ أَصَابِعَهُ[٣].

وعن ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُدْرِكُ لَهُ ابْنَتَانِ فَيُحْسِنُ إِلَيْهِمَا مَا صَحِبَتَاهُ أَوْ صَحِبَهُمَا، إِلاَّ أَدْخَلَتَاهُ الْجَنَّةَ**»[٤].

عباد الله...

وهذه قصة كانت سببًا في هِداية «**مالك بن دينار**» - رَحِمَهُ الله -.

يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي[٥]: «ذات يوم فرغ أبو يحيى «مالك بن دينار» - رَحِمَهُ الله -، من كتابة المصحف، ثم خرج من داره إلى المسجد، فأتاه فصلَّى بالناس الفريضة وجلسوا هم ينتظرونه، واستوى هو قائمًا فركع وسجد ما شاء الله له أن يركع ويسجد، ثم انتفل[٦] من صلاته، فقام إلى أسطوانته التي يستند إليها، وتحلّق النَّاس حوله جموعًا خلف جموع خلف جموع يذهب فيهم البصر مرة هنا ومرة هناك من كثرتهم وامتدادهم، حَتَّى تغطى بهم المسجد عَلَى سعته وامتداد آفاقه، ومَدَّ الإمام عَينيه في النَّاس ثم أطرق إطراقة طويلة والقوم كأن عَلَى رءوسهم الطير مِمَّا سكنوا لهيبته، ومِمَّا عجبوا لخشعته، ثم رفع الشيخ برأسه وقَدْ تعلقت بجفنيه دمعة، وأشرقت عَلَى شفتيه

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) **حسن**: رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني.
(٥) «وحي الرسالة» ولم أجد هذه القصة في «سير أعلام النبلاء»، فالله أعلم بصحتها.
(٦) **انفتل**: انصرف.

ابتسامة، فبدر شابٌّ حَدَث فسأله: ما بكاء الشيخ؟ وكان الفتى قريبًا من الإمام، يجلس في الخط الذي يمتد فيه بصره، فتأمله الشيخ طويلًا يُقلب فيه طرفه كالمتعجب، ثم لبث لا يجيبه كأنما أخذته عن نفسه حال لا يثبت معا شيء فيما يرى، وازداد النَّاس عجبًا، إذ كانوا لم يجرّبوا عليه من قَبل عَيًّا[١]، ولا حصرًا، وإذ كان هو لم يقطعه سؤال قط، ولا تخلّف عن جواب قَطّ.

فقال النَّاس في أنفسهم: إن للشيخ لَشَأنًا، ولابد أن يكون من وراء صمته هذا شعاب في نفسه تَعْتلج فيها معانٍ، وتعترك ذكريات، ولم يلبث الإمام أن تبسم إلى النَّاس، ثم قَالَ: لقد حضرتني ذكرى فبكيتُ، وتمثلتُ رؤيا فتبسمتُ.

فأما الذكرى: فكانت حول «الحسن البصري» وأنتم تعرفون الحسن البصري، تعرفون أَنَّهُ العالم الزاهد الورع، وأَنَّهُ كان مولى لآل أبي أيوب الأنصاري، وأن أُمَّه كانت أَمَةً لأمّ سَلَمة زَوج النَّبي ﷺ، فكانت ربما غابت فتعطيه أُمّ سلمة ثديها تعلله به إلى أن تجيء أُمّه، فربما درّ ثديُها له فشرب، فالناس يرون أن الحكمة والفصاحة والزهادة إنَّما هي من بركة ذلكم الثدي الكريم، ثم لعلكم لم تنسوا ما يصفه به الواصفون من أَنَّهُ كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دَفْن حميم[٢]، وإذا جلس فكأنما يتهيأ لتُضرب عُنُقُه[٣]، وإذا ذُكرت النار فكأنما لم تُخلق إلّا له، ولقد كان الحسن عَلَى ذَلِكَ، شيخًا لي أفزع إليه كُلَّما مسَّني هَمٌّ، أو نزلت بي شدة.

فلما ذكرتُه في مجلسي هذا وتمثلتُ ما كان يحيطه به أعداؤه من ألوان الدَّس والكيد، رَحِمَهُ، فهذه هي الذكرى التي بكيتُ لها.

وأمَّا الرؤيا التي تبسمتُ لها حين تمثلتُها، فإني مخبركم عنها في قصة لتنتفعوا عني بما أقول: «كنت في صدر أيامي شرطيًّا وكنتُ آنئذٍ في إبّان الحداثة أتفتى وأتشطر، وكنتُ قويًّا معصوبًا في مثل خلقة الجبل من غلظ وشدَّة، وكنتُ شديد القسوة حَتَّى كأن بين أضلاعي صخرة لا قلبًا، فلا أتأثم ولا أتحرَّج، وكنت مُدمنا عَلَى الخمر، لأنها روحانية

---

(١) العي: الحصر في الكلام.
(٢) الحميم: الصاحب.
(٣) من شدة الخوف من الله تَعَالَى.

شيطانية يبتغي السعادة فيها من عجز أن يحصل السعادة من روحانية ربَّانية.

فبينما أنا ذات يوم أجول في السوق أرقب السارق وأعد الجاني وأتهيأ للنزاع، إذ رأيتُ اثنين يتخانقان، وقَدْ خنق أحدُهما الآخر، فأسرعتُ إليهما، وإذا المظلوم الضعيف يقول للظالم القويِّ: لقد سلبتني فرح بنياتي، وسيدعون عليك، ولن تصيب بعد ذَلِكَ خيرًا أبدًا، فإنني ما خرجتُ إلى هذا السوق إلا اتباعًا لقول رَسُول الله ﷺ: «**مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ البَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ صُحْبَتَهُنَّ، كُنَّ لَهُ سِتْراً مِنَ النَّارِ**»[1].

وقَدْ كنتُ آنئذٍ عَزَبًا لا زوجة لي أسكن إليها، فانتبهت الأدمية بين جوانحي، وقَدْ طمعتُ في دعوة صالحة من البنيات المسكينات إذ أنا أدخلتُ عليهن فرحة، فأخذتُ للرجل من غريمه حَتَّى رضي، وأضعفتُ له من ذات يدي لأزيد في فرح بناته، وقلت له وهو ينصرف من السوق: عهد يحاسبك الله عليه ويستوفيه لي منك إلَّا جعلت بناتك يدعون لي إذا رأيت فرحتهن بما تحمل إليهن، وقل لهنَّ: مالك بن دينار.

وبتُّ ليلتي هَذِهِ أتقلب من شدَّة الفكر في قول رَسُول الله ﷺ، وفي معانيه الكثيرة التي تحثُّ عَلَى إكرام البنات والتي تقرر أن مَن أكرم بناته حرصًا عَلَى أن ينشأن كريمات فرحات فقد كرم عَلَى ربه.

وما زال هذا الحديث نجوى روحي، وملء نفسي طوال ليلتي تلك إلى الصباح، وفكرتُ حينئذٍ في الزواج، ولما كنتُ أعلم أن النَّاس لا يُزوجونني من طيباتهم ما دمتُ من الخبيثين، لم أجد بُدًّا من الاتجاه إلى سوق الجواري.

فمضيتُ إلى السوق واشتريتُ جارية نفيسة وقعت مني من أحسن موقع، ولدت لي بنتًا شغفتُ بها أعظم شغف، وقَدْ ظهرت لي فيها الإنسانية الكبيرة التي لم تكن لمثلي، فرأيت بُعد ما بيني وبين صورتي الأولى.

رأيتُها سماوية لا تملك شيئًا سوى أبيها وأمها، فليس لها من الدُّنْيَا إلَّا شبع بطنها، ثم لها بعد ذَلِكَ سرور نفسها تشب عليه أكثر مِمَّا تشبّ عَلَى الرضاع، فعلمتُ من ذَلِكَ أن الذي تكتنفه رحمة الله، فملك بها نفسه ماكان ينبغي له بعد ذَلِكَ أن يأسى إذا فاتته

(١) رواه البخاري ومسلم.

دنيا غيره، كما علمتُ أن الذي يجد طهارة قلبه لابد أن يجد سرور ذَلِكَ القلب، وأن الذي لا يبالي بالهمّ لا يبالي الهمّ به.

كانت البُنية بدء حياة في بيتي وبدء حياة في نفسي، فلما دبّت عَلَى الأرض ازددتُ لها حُبًّا وبها إلفًا، فرزق روحي منها أطهر صداقة في صديق تتجدد للقلب كل يوم بل كل ساعة، ولا تكون إلا لمحض سرور القلب دون مطامعه، فتمده بالحياة نفسها لا بأشياء الحياة.

وجهدتُ أن أترك الخَمر فلم أستطع، إذ كنتُ منهمكًا عَلَى شربها، ولكن حُبِّي ابنتي وضع في الخمر الآثام التي وضعتها فيها شريعة الله فكرهتُها أشدّ كره، ومع ذَلِكَ كنتُ أعكف عليها، غير أنني كلما وضعتُ المُسكر وهممتُ به دَبَّت بُنيتي إلى مجلسي هذا، ثم جاءت فجاذبتني الكأس حَتَّى تريقها عَلَى ثوبي، فلا أغضب إذ كان يسرها ويضحكها فأراني أسرّ لِذَلِكَ وأضحك، ودام هذا مني ومنها، فأصبحتُ في المنزلة بين المنزلتين، أشربُ مرة، وأترك مرارًا، إذ كانت النشوة بابنتي أكبر من النشوة بزجاجتي.

وإذ كنت كلما رجعتُ إلى نفسي أستعيذ بالله أن تعقل ابنتي معنى الخمر يومًا فتقتدي بي، فأكون قَدْ بخستُ أيامها، ثم أتقدم إلى الله وعليَّ ذنوبها فوق ذنوبي، فَإِذَا ترحَّم الأولاد عَلَى آباءهم وجدتُها تلعنني.

وعلى هذه الظنون وأحاديث النَّفْس مضيتُ وأنا أصلح من أمري شيئًا فشيئًا، وكلما كبرت بنتي كبُرت فضيلتي، فلما تمّ لها عامان ماتت، فكدَّني الحزنُ عليها، ولم يكن لي من قوة الروح ووثاقة الإيمان ما أتأسّى به وألجأ إليه، فضاعف الجهلُ أحزاني، وجعل مصيبتي مصائب، فرجعتُ من ذَلِكَ إلى شرّ مِمَّا كنتُ فيه، وكانت أحزاني أفراح الشيطان فأراد - أخزاه الله - أن يفتن في أساليب فرحه بي وقَدْ عدتُ إلى جواره، واستلقيتُ في رحابه.

فلما كانت ليلة النصف من شعبان[١] وكانت ليلة جمعة، سَوَّل لي - لعنه الله - أن

(١) قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَطَّلِعُ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ فَيَغْفِرُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ إِلاَّ لِمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِنٍ». رواه ابن حبان، وغيره، وقال الألباني: صحيح. انظر «الصحيحة» (١١٤٤).

أسكر سكرةً ما مثلها سكرة، فبتُ كالميِّت مِمَّا ثملتُ[١]، وتقاذفتني أحلام وأحلام، ثم رأيتُ القيامة والحشر وقَدْ ولدت القبور مَن فيها، وسبق النَّاس وأنا معهم وليس وراء ما بي من الكرب غاية، وسمعتُ خَلفي زفيرًا أشبه بصوت الأفاعي، فالتفتُّ فإذا تنين[٢] عظيم ما يكون أعظم منه، طويل كالنخلة السحوق، يرسل الموت من عينيه الحمراوين كالدم، وفي فمه مثل الرماح من أنيابه، ولجوفه حرّ شديد لو زفر به عَلَى الأرض ما نبتت فيها خضراء، وقَدْ فتح فاه ونفخ جوفه وجاء مسرعًا يريد أن يلتقمني، فمررتُ بين يديه هاربًا فزعًا، وإذا بشيخ هرم يكاد يموت من الضعف والهزال فعذْتُ به أقول: أجرني آجارك الله. فقال: أنا ضعيف كما ترى، ولستُ أقدر عَلَى هذا الجبار، فأسرع مبتعدًا عنه، فلعل الله أن يسبب لك أسبابًا للنجاة.

فوليت هاربًا، وأشرفتُ عَلَى النار وهي الهول الأكبر، فرجعتُ هاربًا والتنين عَلَى أثري، ولقيت ذَلِكَ الشيخ مرة أخرى، فاستجرتُ به، فبكى من الرحمة لي وهو يقول: أنا ضعيف كماترى، وما أقدر عَلَى هذا الجبار، ولكن اهرب إلى هذا الجبل فلعلّ الله يُحدث لك أمرًا.

فنظرتُ فإذا الجبل تقوم عليه دارٌ عظيمة لها نوافذ وشبابيك عليها ستور، فأسرعتُ إليها والتنين من ورائي، فلما شارفتُ الجبل فُتحت النوافذ ورُفعت الستور، وأشرفتْ عَلَى وجوه أطفال كالأقمار، وقرَّب التنين مني، وصرتُ في حواء جوفه وهو يتضرم عليَّ حتى إذا لم يبق إلَّا أن يأخذني، تصايح الأطفال جميعًا: يا فاطمة يا فاطمة، وإذ ابنتي التي ماتت قَدْ أشرفت، فلما رأت ما أنا فيه صاحت وبكت، ثم وثبت كالقذيفة، فجاءت بين يديّ ومدت إليّ شمالها، فتعلَّقتُ بها، ومَدَّت إلى التنين يمينها فولَّى هاربًا، ثم أجلستني، وأنا كالميِّت من الخوف والفزع، ثم قعدت في حِجري كما كانت تصنع في الحياة، وضربت بيدها عَلَى لحيتي وقالت: يا أبت ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

---

(١) **ثملت**: تجرعت وشربت.

(٢) **التنين**: الثعبان الضخم.

فبكيتُ وقلت: يا بُنيّة أخبريني عن هذا التنين الذي أراد هلاكي؟ قالت: ذَلِكَ عملك السوء الخبيث، أنت قوّيته حتى بلغ هذا الهول الهائل، والأعمال هنا ترجع أجسامًا كما رأيت.

قلتُ: فذاك الشيخ الضعيف الذي استجرت به فلم يجرني؟ قالت: يا أبت، ذاك عملك الصالح، أنت أضعفته فضعف حتى لم تكن له طاقة أن يردّ عنك عملك السَّيِّئَ، ولو لم أكن لك هنا، ولو لم تكن اتبعت قول رَسُول الله ﷺ فيمن فرَّح بناته المسكينات الضعيفات، ما كانت لك هنا شمال تتعلق بها، ويمين تطرد عنك التنين.

ثم انتبهتُ من نَومي فزعًا ألعن ما أنا فيه، ولا أراني أستقر كأني طريد عملي السَّيِّئُ، كلما هربتُ منه هربتُ إليه.

وأين المهرب من الندم الذي كان نائمًا في القلب واستيقظ القلب؟ ولكنني أملتُ في رحمة الله أن أربح من رأس مال خاسر، وقلت في نفسي: إن يومًا باقيا من العمر هو للمؤمن عمره ما كان ينبغي أن يستهين به، وصممتُ عَلَى التوبة لأرجع الشباب إلى ذَلِكَ الشيخ الضعيف الذي رأيتهُ في المنام أُسمن به لحمه وأقوّي به عظمه، حتى إذا استجرتُ به أجارني ولم يقل: أنا ضعيف كما ترى.

سألت عن سبيل التوبة النصوح فدلني النَّاس عَلَى الحسن البصري الذي كانت حلقته هنا في المسجد، وقيل لي: إنه جمع كلّ علم وفن إلى ورع وزهد وعبادة، وإن لسانه السِّحر، وإن شخصه المغناطيس، وإنه ينطق بالحكمة كأن صدره إنجيلًا لم ينزل، وغدوتُ إلى المسجد والحسن في حلقته يقصّ ويتكلَّم، فجلستُ حيث انتهى المجلس، فلم يك غير بعيد حتى عرتني هزَّة كنفضة الحُمَّى، إذ سمعتُ الشيخ يقرأ تلك الآية التي قرأتها عليَّ ابنتي في المنام: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

فلو لفظتني الأرض من بطنها وانشق القبر عني بعد الموت ما رأيتُ الدنيا أعجب مِمَّا رأيتُها في تلك الساعة، وأخذ الحسن يُفسِّر الآية الكريمة.

عباد الله...

هذه هي قصة توبة مالك بن دينار - رَحِمَهُ الله - كما ذكرها الرافعي رَحِمَهُ الله.

وهي كما تَروا تستمطر الدمع، وتُبيِّن فضل البنات، كما تبرّد الأكباد عند فقد الأولاد.

فيا من مات طفله أَوْ ماتت طفلته، اصبر، فإن الأجر عظيم، والثواب كبير، وها هي بعض الأحاديث التي تدلُّ عَلَى عظم ثواب من فقد طفله، أَوْ طفلته:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِنِسْوَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ: «**لاَ يَمُوتُ لإِحْدَاكُنَّ ثَلاَثَةٌ مِنَ الوَلَدِ فَتَحْتَسِبُهُ إِلاَّ دَخَلَتِ الجَنَّةَ**». فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: أَوِ اثْنَيْنِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «**أَوِ اثْنَيْنِ**». رواه مسلم.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: أَتَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ ﷺ بِصَبِيٍّ لَهَا فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ لَهُ فَلَقَدْ دَفَنْتُ ثَلاَثَةً، قَالَ: «**دَفَنْتِ ثَلاَثَةً؟**». قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «**لَقَدِ احْتَظَرْتِ بِحِظَارٍ شَدِيدٍ مِنَ النَّارِ**». والحظار: الحائط الذي يُجعل حول الشيء كالسور المانع، ومعناه: لقد احتميت وتحصَّنتِ من النار بحمًى عظيم وحصنٍ حصين.

وعَنْ أَبِي حَسَّانَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ لأَبِي هُرَيْرَةَ: مَاتَ لِي ابْنَانِ فَهَلْ أَنْتَ مُحَدِّثِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحَدِيثٍ تُطَيِّبُ بِهِ أَنْفُسَنَا عَنْ مَوْتَانَا؟ قَالَ: نَعَمْ: «**صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ الجَنَّةِ يَتَلَقَّى أَحَدُهُمْ أَبَاهُ - أَوْ قَالَ أَبَوَيْهِ - فَيَأْخُذُ بِثَوْبِهِ - أَوْ قَالَ بِيَدِهِ - كَمَا آخُذُ أَنَا بِصَنِفَةِ ثَوْبِكَ هَذَا، فَلاَ يَتَنَاهَى - أَوْ قَالَ: فَلاَ يَنْتَهِي - حَتَّى يُدْخِلَهُ اللَّهُ وَأَبَاهُ الجَنَّةَ**»[(١)].

والدعاميص: جمع دُعموص، وهي دويبة صغيرة يُضرب لونها إلى السواد تكون في الغدران إذا نشفت، شبَّه الطفل بها في الجَنَّة لصغره، وسرعة حركته.

وصفة الثوب: هي حاشيته وطرفه الذي لا هدب له.

عن قُرَّةَ بن إِيَّاس رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَّ رَجُلاً كَانَ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ وَمَعَهُ ابْنٌ لَهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتُحِبُّهُ**». فَقَالَ نعم يَا رَسُولَ اللهِ، أَحَبَّكَ اللهُ كَمَا أُحِبُّهُ.

فَفَقَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لِي: «**مَا فَعَلَ ابْنُ فُلاَنٍ؟**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَاتَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبِيهِ: «**أَمَا تُحِبُّ أَنْ لا تَأْتِيَ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ إِلاَّ وَجَدْتَهُ يَنْتَظِرُكَ؟**». فَقَال

---

(١) رواه مسلم.

رجلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَهُ خَاصَّةً أَمْ لِكُلِّنَا؟ قَالَ: «بَلْ لِكُلِّكُمْ»[١].

عباد الله...

هَذِهِ أحاديث تُبَرِّد الأكباد عند فقد الأولاد، فالحمد لله الذي لا يُحمد عَلَى مكروهٌ سواه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والسُّؤال: مَن هو مالك بن دينار صاحب القصَّة الطويلة المتقدمة؟

والجواب: هو علم العلماء الأبرار، معدود في ثقات التابعين، ومن أعيان كتبة المصاحف، وُلد في أيام ابن عباس رَضِيَ الله عَنْهُمَا، وسمع من أنسٍ بن مالك رَضِيَ الله عَنْهُ، فمن بعده.

وثقه النَّسائي وغيره، واستشهد به البخاري، وحديثه في درجة الحسن.

قيل: كان أبو دينار مِن سَبيِء سجستان، وكناه النَّسائي: أبا يحيى.

وكان - رَحِمَهُ الله - من العابدين الخائفين الزاهدين.

فكان -رَحِمَهُ الله - يقول: لولا أن يقول النَّاس جُنَّ مالك، للبستُ المسوح، ووضعتُ الرماد عَلَى رأسي أنادي في النَّاس: مَن رآني فلا يعصي الله عَزَّ وَجَلَّ.

وكان -رَحِمَهُ الله - يقتات مِن نَسخ المصاحف، فكان ينسخ المصحف في أربعة أشهر، فيدع أجرته عند البقال فيأكله.

يقول رياح القَيسي: سمعت مالك بن دينار يقول: دخل عليَّ جابر بن زيد وأنا أكتب، فقال: يا مالك، ما لكَ عملٌ إلَّا هذا؟ تنقل كتاب الله، هذا والله الكسبُ

---

(١) صحيح: رواه أحمد والنسائي وغيرهما، وصححه الألباني.

الحلال[1].

وكان مالك -رَحِمَهُ الله - يقول: يا هؤلاء إنما بطن أحدكم كلب فألْقِ إلى هذا الكلب بكسرة يسكن عنك، ولا تجعلوا بطونكم جربًا للشيطان يوعي فيها إبليس ما شاء.

عباد الله...

وفي الخطبة القامة نواصل حديثنا عن مالك - إن شاء الله تَعَالى - فإلى اللِّقاء.

✪✪✪✪✪

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٦٤).

الخطبة الرابعة والتسعون:

[ب] لقطات وعظات من حياة: مالك بن دينار

الخوف والرجاء

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة «**مالك بن دينار**» -رَحِمَهُ الله -.

ونتحدَّث اليوم - إن شاء الله - عن خَوف مالك -رَحِمَهُ الله - مع شدَّة تعبُّده وتنسُّكه.

عباد الله...

يقول جعفر: سمعت مالك بن دينار يقول: إن الصدِّيقين إذا قرئ عليهم القرآن

طربت قلوبهم إلى الآخرة. ثم قال: خذوا، فيقرأ، ويقول: اسمعوا إلى قول الصادق من فوق عَرشه.

وكان يقول: إذا ذكر الصالحون فأفّ لي وتفّ.

وكان يقول: إن القلب المحب لله يُحبّ النَّصَب - أي التعب - لله عَزَّ وَجَلَّ.

وقال - رَحِمَهُ الله -: لَـمَّا وقعت الفتنة أتيتُ الحسن أسأله: يا أبا سعيد ما تأمرني؟ فلا يجيبني، فقلت: يا أبا سعيد أتيتُك ثلاثة أيام أسألك وأنت مُعلِّمي فلا تجيبني؟ والله لقد هممتُ أن آخذ الأرض بقدمي، وأشرب من أفواه الأنهار، وآكل من بقل البريّة حَتَّى يحكم الله بين عباده، قَالَ: فأرسل الحسن عينيه بالبكاء، ثم قَالَ: يا مالك ومَن يطيق ما تطيق، لكنا والله ما نطيق هذا.

وعن جعفر بن سليمان قَالَ: كان مالك بن دينار إذا قام في محرابه قَالَ: يا رب قَدْ عرفت ساكن الجَنَّة وساكن النار، ففي أيّ الدارين مالك؟ ثم بكى - رَحِمَهُ الله -.

وكان مالك يقول: لو استطعتُ لم أنم مخافة أن ينزل العذاب، يا أَيُّهَا النَّاس، النار، النار.

وكان - رَحِمَهُ الله - يقول: وددتُ أن الله يجمع الخلائق فيأذن لي أن أسجد بين يديه، فأعرف أَنَّهُ قَدْ رضي عني، فيقول لي: كن ترابًا.

وقيل: دخل عليه لصٌّ، فما وجد ما يأخذ، فناداه مالك: لم تجد شيئًا من الدُّنْيَا، فترغبُ في شيء من الآخرة؟ قَالَ: نعم، قَالَ: توضأ، وصلِّ ركعتين، ففعل ثم جلس وخرج إلى المسجد، فسُئل مَن ذا؟ قَالَ: جاء ليسرق فسرقناه[1].

عباد الله...

هكذا كان سلفنا يجمعون بين الخوف والرجاء.

وعن هذين الخُلُقَيْن تدور خطبة اليوم - إن شاء الله تَعَالَى.

قَالَ القاسمي - رَحِمَهُ الله - في «موعظة المؤمنين» - ما مختصره -: «الرجاء والخوف

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٦٣).

جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود، فلا يقود إلى قُرب الرحمن إلا أزمة الرجاء، ولا يصدّ عن نار الجحيم إلا سياط التخويف فلابد إذًا من بيان حقائقهما». ا.هـ.

- **فما هو حقيقة الرجاء؟**
- **وما هو حقيقة الخوف؟**
- **وما هو الدواء الذي يستجلب به الخوف؟**

أما حقيقة الرجاء:

فقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو بذر في أرض سبخة، فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضًا طيبة وألقى فيها بذرًا جيدًا غير عفن ولا مسوس، ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته، ثم نقي الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده، ثم جلس منتظرًا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته: سُمي انتظاره رجاء. وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلًا، ثم انتظر الحصاد منه: سمي انتظاره حمقًا وغرورًا لا رجاء. وإن بث البذر في أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضًا: سمي انتظاره تمنيًا لا رجاء؛ فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات، فالعبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه بماء الطاعات، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة: وكان انتظاره رجاءً حقيقيًا محمودًا في نفسه باعثًا له على المواظبة

والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت، وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات، وترك القلب مشحونًا برذائل الأخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة، فانتظاره حمق وغرور.

قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾ [مريم: ٥٩]، وقال تَعَالَى: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا**﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وذمّ الله تَعَالَى صاحب البستان إذا دخل جنته وقال: ﴿**مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا**﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦].

فإذًا العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق أن ينتظر من فضل الله تمام النعمة، وما تمام النعمة إلا بدخول الجَنَّة. وأما المعاصي فَإِذَا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة وإنَّما الرجاء بعد تأكد الأسباب، ولِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ٢١٨]، معناه: أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله، وقال تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ**﴾ [فاطر: ٢٩]، فأما مَن ينهمك فيما يكرهه الله تَعَالَى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم عَلَى التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بثَّ البذر في أرض سبخة، وعزم عَلَى أن لا يتعهده بسقي ولا تنقية.

قال يحيى بن معاذ: من أعظم الاغترار عندي التمادي في الذنوب على رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عَزَّ وَجَلَّ مع الإفراط.

ترجو النَّجاة ولم تَسْلُك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليَبَسِ

فإذًا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة عَلَى الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال عَلَى الله تَعَالَى والتنعم بمناجاته والتلطف في التملق له، فإن هَذِهِ الأحوال لابد وأن تظهر على كل مَن يرجو ملكًا من

الملوك أو شخصًا من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذَلِكَ في حق الله تَعَالَى؟ فإن كان لا يظهر فليستدل به عَلَى الحرمان عن مقام الرجاء والنزول في حضيض الغرور والتمنِّي»(١).

أما عن حقيقة الخوف:

فيقول القاسمي - رَحِمَهُ الله -: «اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، والعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه، وذَلِكَ الإحراق هو الخوف.

فالخوف من الله تَعَالَى تارة يكون لمعرفة الله تَعَالَى ومعرفة صفاته وأَنَّهُ لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعًا وبحسب معرفته بعيوب نفسه، ومعرفته بجلال الله تَعَالَى واستغنائه، وأَنَّهُ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، تكون قوّة خوفه فأخوفُ النَّاس لربه أعرفهم بنفسه وبربه، ولِذَلِكَ قَالَ ﷺ: «**أنا أخوَفُكُم لله**»(٢)، وكذلك قَالَ الله تَعَالَى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨].

ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب عَلَى البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات، أما في البدن فبالنحول والبكاء، وأما في الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيًا لما فرط واستعدادًا للمستقبل، وأما في الصفات فبأن يقمع الشهوات ويكدّر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروهًا عند مَن يشتهيه إذا عرف أن فيه سمًّا فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والاستكانة، ويفارقه الكِبر والحقد والحسد ولا يكون له شغل إلّا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النَّفْس بالخطرات والخطوات والكلمات.

---

(١) «موعظة المؤمنين» (٤٢٢، ٤٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٢)، وفيه: «أمَا والله إنِّي لأخشاكم لله وأتقاكم، ولكنِّي أصومُ وأُفطر، وأصلِّي وأرقُد، وأتزوَّج النِّساء، فَمَن رغبَ عن سُنَّتي فليس مِنِّي».

وما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر، وناهيك دلالة فضيلته جمع الله تَعَالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان، وهي مجامع مقامات أهل الجِنان، قال الله تَعَالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وقال تَعَالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]، وكل ما دلّ عَلَى فضيلة العلم دلّ عَلَى فضيلة الخوف؛ لأنَّ الخَوف ثمرة العلم». ا.هـ[١].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد..

فما هو الدواء الذي يُستجلب به الخوف؟

يقول القاسمي ما مختصره: «اعلم أن من قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسبيله أن يعالج بسماع الأخبار والآثار فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء، وأما الآمنون فهم الفراعنة والجهال والأغبياء، أما رَسُولنا ﷺ فهو سيِّد الأولين والآخرين، وكان أشدَّ النَّاس خوفًا حَتَّى رُوي أَنَّهُ قَالَ: «**قَارِبُوا وَسَدِّدُوا فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِمُنْجِيهِ عَمَلُهُ**». قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**»[٢].

عباد الله...

وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو ﷺ يقول: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ وأَخَوَاتُهَا: الوَاقِعَةُ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**، وعَمَّ يتساءلون»[٣].

---

(١) «موعظة المؤمنين» (٤٢٣، ٤٢٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨/ ٥٤، ٥٥)، وأبو داود (٤٧١٣)، وغيرها.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٢٩٧)، وصححه الألباني كما في «الصحيحة» (٩٥٥).

فقَالَ العلماء: لعل ذَلِكَ لِما في سورة هود من الإبعاد، كقوله تَعَالَى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]، وقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨]، وقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥]، مع علمه ﷺ بأنه لو شاء الله ما أشركوا إذ لو شاء لآتى كُلَّ نفسٍ هُداها.

وفي سورة الواقعة: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ٢، ٣]، أي: جفّ القلم بما هو كائن وتمت السابقة حَتَّى نزلت الواقعة، إما خافضة قومًا كانوا مرفوعين في الدُّنْيَا، وإما رافعة قومًا كانوا مخفوضين في الدُّنْيَا.

وفي سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة وهو قوله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٢- ١٤].

وفي عمَّ يتساءلون: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، وقوله: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولولم يكن فيه إلا قوله تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، لكان كافيًا إذ علَّق المغفرة عَلَى أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها، وأشد منه قوله تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص: ٦٧].

وكذلك قوله تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢]، إلى آخر السورة. فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النِّعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تَعَالَى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وخوف الكاملين لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تَعَالَى وخفايا أفعاله، ومعاني صفاته، فأجهل النَّاس مَن آمنه وهو ينادي بالتحذير من الأمن، وكيف يؤمن تغيّر الحال وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن، وإن القلب أشد تقلبًا من القِدر في غليانها، وقَدْ قال معاذ بن جبل رَضِي الله عَنْهُ: إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه.

وروى عن مخاوف الأنبياء والصحابة والتابعين ومن بَعدهم ما لا يحصى، ونحن

أجدر بالخوف منهم، ولكن صدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا، فلا قُربُ الرحيل ينبهنا، ولا كثرة الذنوب تحركنا، ولا خطر الخاتمة يزعجنا، ومن العجائب أنا إذا أردنا المال في الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبراري، وخاطرنا ونجتهد في طلب أرزاقنا، ثم إذا طمحت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بألسنتنا: اللَّهُمَّ اغفر لنا وارحمنا.

والذي إليه رجاؤنا جلّ جلاله يقول: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى**﴾ [النجم: ٣٩]، وقوله: ﴿**فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم باللَّهِ الغَرُورُ**﴾ [لقمان: ٣٣]، وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ**﴾ [الانفطار: ٦].

ثم كل ذَلِكَ لا يُنبهنا ولا يُخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا، فما هذه إلَّا محنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها، فنسأل الله تَعَالَى أن يتوب علينا بمنِّه وفضله». ا.هـ[1].

آمين... آمين... آمين

٥٥٥٥٥

(١) «موعظة المؤمنين» (٤٢٣ - ٤٢٥) باختصار.

الخطبة الخامسة والتسعون:

[جـ] لقطات وعظات من حياة: مالك بن دينار

[أ] خطر الكِبْر

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث عن سيرة **مالك بن دينار** رَضِيَ الله عَنْهُ.

عباد الله ...

مَرَّ المُهلب بن أبي صُفرة - الأمير - عَلَى **مالك بن دينار** متبخترًا، فقال له **مالك**: أما علمت أنها مشية يكرهها الله إلا بين الصَّفين [(١)]؟! فقال المُهلب: أما تعرفني؟ قال:

---

(١) أي: أثناء الجهاد.

بلى، أوَّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذَلِكَ تحمل العَذرة[١]، فانكسر المُهلب، وقال: الآن عرفتني حق المعرفة.

إن الكِبر داء عِضال، ومرضٌ فتاك، وهو سبب إعراض مَن أعرض عن الحقّ.

ولخطورة هذا المرض الذي تمكّن من كثيرٍ من الخلق، نتحدَّث عنه اليوم - إن شاء الله تَعَالى.

سائلًا المولى تبارك وتعالى أن يرزقنا وإيَّاكم أخلاق المتواضعين، وأن يُجنِّبنا وإيَّاكم أخلاق المتكبرين.

عباد الله...

اعلموا أن الكِبر ينقسم إلى باطن وظاهر، فالباطن هو خلق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح. وتلك الأعمال أكثر من أن تحصى، وآفته عظيمة وغائلته هائلة، وكيف لا تعظم آفته وقد قال ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»[٢]، وإنما صار حجابًا دون الجَنَّة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبِر وعزَّة النفس يغلق تلك الأبواب كلها، لأن المتكبر لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين، ولا يقدر على ترك الحقد، ولا يقدر أن يدوم على الصدق، ولا يقدر على ترك الغضب، ولا يقدر على كظم الغيظ، ولا يقدر على ترك الحسد، ولا يقدر على النصح اللطيف، ولا يقدر على قبول النصح، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم.

وبالجملة: فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكِبر مضطر إليه ليحفظ به عزَّه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفًا من أن يفوته عزّه، فمن هذا لم يدخل الجَنَّة مَن في قلبه مثقال حبة منه. وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين.

---

(١) العذرة: فضلات الإنسان.

(٢) رواه مسلم، وغيره.

ومنشؤه: استحقار الغير وازدراؤه واستصغاره، ولِذَلِكَ شرح رَسُول الله ﷺ الكِبر بهاتين الآفتين بقول: «الكِبْرُ بَطَرَ الحَقِّ وَغَمَصَ النَّاسَ»[١]، أي: ازدراؤهم واستحقارهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه، وهذه الآفة الأولى، وبطر الحق هو رده وهي الآفة الثانية، فكل مَن رأى أَنَّهُ خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار، أو ردَّ الحقّ وهو يعرفه فقد تكبَّر ونازع الله في حقه.

ووجه الآفة الأولى: أن الكبر والعزّ والعظمة لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق بحاله الكبر واستعظام النَّفْس واستحقار الغير؟ فمهما تكبَّر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله، ومثاله: أن يأخذ الغلامُ تاج الملك فيضعه على رأسه ويجلس على سريره، فما أعظم استحقاقه للمقت وما أعظم تهدفه للخزي والنكال! وما أشد استجراءه على مولاه وما أقبح ما تعاطاه! فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم، فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه.

ووجه الآفة الثانية: أن من سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمَّر لجحده، فما ذاك إلَّا للترفع والتعاظم واستحقار غيره حَتَّى تأبى أن ينقاد له، وذَلِكَ من أخلاق الكافرين والمنافقين، إذ وصفهم الله تَعَالى فقال: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرْآنِ وَالْـغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ [فصلت: ٢٦]، فكل مَن يتضح له الحق عَلَى لسان أحد ويأنف من قبوله أَوْ يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به، فقد شاركهم في هذا الخُلُق، وكذلك مَن تحمله الأنفة عَلَى قبول الوعظ، كما قال تَعَالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَـهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ**﴾ [البقرة: ٢٠٦].

عباد الله...

واعلموا أنه لا يتكبَّر إلَّا متى استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال. وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي، فالديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النَّسب والجمال والقوّة والمال وكثرة الأنصار. فهذه سبعة أسباب.

---

(١) هو قطعة من الحديث السابق، رواه مسلم.

الأول: **العلم**؛ وما أسرع الكبر إلى بعض العلماء، فلا يلبث العالم أن يستشعر في نفسه كمال العلم فيستعظم نفسه ويستحقر الناس ويستجهلهم، ويستخدم من خالطه منهم، وقَدْ يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم.

وسبب كبره بالعلم أمران:

أحدهما: أن يكون اشتغاله بما يُسمّى علمًا وليس علمًا في الحقيقة، في العلم الحقيقي ما يعرف به العبد رَبَّهُ ونفسه، وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر. قال الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وثانيهما: أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة، رديءُ النَّفْس، سيِّئ الأخلاق، فإنه لم يشتغل أولًا بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات فيبقى خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم - صادف العلم من قلبه منزلًا خبيثًا فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره.

وقد ضرب وهبٌ لهذا مثلًا، فقال: العلم كالغيث ينزل من السماء حلوًا صافيًا فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها فيزداد المرّ مرارة والحلو حلاوة، فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبرًا والمتواضع تواضعًا، وهذا لأن من كان همته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبرًا، وإذا كان الرجل خائفًا مع جهله فازداد علمًا علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفًا وإشفاقًا وذلّا وتواضعًا.

الثاني: **العمل والعبادة**، وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعُبَّاد ويترشح الكبر منهم في الدين والدُّنيا.

أما في الدُّنْيَا: فهو أنهم يتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم، والتوسع لهم في المجالس، وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر النَّاس، وكأنهم يرون عبادتهم منة على الحق.

وأما في الدين: فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيًا وهو الهالك تحقيقًا،

مهما رأى ذَلِكَ، قال ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ رَجُلاً يَقُولُ قَدْ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ»[(١)]. وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله مغترّ بالله آمن من مكره غير خائف على سطوته، وكيف لا يخاف؟ ويكفيه شرًا احتقاره لغيره. قال ﷺ: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ»[(٢)].

وكثير من العباد إذا استخف به مستخف أو آذاه مؤذٍ استبعد أن يغفر الله له، ولا يشك في أنه صار ممقوتًا عند الله، وذلك لعظم قدر نفسه عنده، وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب واغترار بالله.

وقد ينتهي الحمق والغباوة ببعضهم إلى أن يتحدَّى ويقول: سترون ما يجري عليه؟ وإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته، وأن الله ما أراد إلَّا الانتقام له منه، مع أنه يرى طبقات من الكفَّار يسبُّون الله ورسوله، وعرف جماعة آذُوا الأنبياء صلوات الله عليهم فمنهم من قتلهم ومنهم من ضربهم، ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة، أيظن هذا الجاهل المغرور أنه أكرم على الله من أنبيائه، وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به. ولعله في مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين.

وأما الأكياس من العباد فيقولون ما كان يقوله السلف بعد انصرافه من عرفات: كُنْتُ أرجُو الرَّحمةَ لجميعهم لولا كَوني فيهم، فانظر إلى الفرق بين الرجلين، هذا يتق الله ظاهرًا وباطنًا؛ وهو رجل على نفسه مزدر لعمله، وذاك ربما يضمر من الرياء والكبر والحسد والغل ما هو ضحكة للشيطان به، ثم إنه يمتن على الله بعمله.

ومن آثار الكِبر في العابد: أن يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم، وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ولا في الوجه حتى يعبس ولا في الخد حتى يصعر ولا في الرقبة حتى تطأطأ ولا في الذيل حتى يضم؛ إنما الورع في القلوب، قال رسول الله ﷺ: «**التَّقوى هَهُنا**»، وأشار

(١) رواه مسلم وغيره.

(٢) رواه مسلم وغيره.

إلى صدره[١]، فقد كان رَسُول الله ﷺ أكرم الخلق وأتقاهم، وكان أوسعهم خلقًا وأكثرهم بِشْرًا وتبسمًا وانبساطًا، كما قَالَ تَعَالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

الثالث: التكبر بالحسب والنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملًا وعلمًا، وقد يتكبر بعضهم فيأنف من مخالطة الناس ومجالستهم، وقَدْ يجري عَلَى لسانه التفاخر به فيقول لغيره: من أنت ومن أبوك؟ فأنا فلان ابن فلان، ومع مثلي تتكلم؟ كما روي عن أبي ذر رَضِيَ الله عَنْهُ أنه قال: قاولت رجلًا عند النبي ﷺ فقلت له: يا ابن السوداء! فغضب ﷺ وقال: «**يا أبا ذرٍّ ليس لابن البَيْضاء عَلَى ابن السَّوداء فَضلٌ**»، فقال أبو ذرٍّ: فاضطجعت وقلت للرجل: قم فطأ عَلَى خدي[٢]. فانظر كيف نبهه ﷺ عَلَى أن ذَلِكَ جهل، وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر إذ عرف أن العز لا يقمعه إلا الذل.

الرابع: التفاخر بالجمال؛ وذلك أكثر ما يجري بين النساء ويدعو ذلك إلى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب النَّاس.

الخامس: الكبر بالمال؛ وذلك يجري بين الملوك والتجار في لباسهم وخيولهم ومراكبهم، فيستحقر الغنيّ الفقير ويتكبر عليه، وكل ذَلِكَ جهل بفضيلة الفقر وآفة الغنى.

السادس: الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف.

السابع: التكبر بالأتباع والأنصار والأقارب.

فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم عَلَى بعض، نسأله تَعَالى العون بلطفه ورحمته[٣].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «البر والصلة» مع اختلاف، قاله العراقي (٣/ ٤٧٧).

(٣) «موعظة المؤمنين» (٣٥٣ - ٣٥٨).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد جاء ذمّ الكِبر في القُرآن والسُّنَّة في مواطن عديدة:

فمن القرآن:

قال تَعَالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال تَعَالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، وقال تَعَالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]، وقال تَعَالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ومن السُّنَّة:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ».

وقال ﷺ: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِي وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا، أُلْقِيهِ فِي النَّارِ».

وقال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلَا خَائِنٌ».

وقال ﷺ: «لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا».

وكل هذه الأحاديث صحيحة، وللحديث بقية، إن شاء الله تَعَالى، فإلى اللِّقاء.

۞۞۞۞۞

الخطبة السادسة والتسعون:

[د] لقطات وعظات من حياة: مالك بن دينار

[ب] خطر الكِبر

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل الحديث اليوم - إن شاء الله - عن الكِبر، خطورته وعلاجه.

والله الموفق لما يُحب ويرضى.

عباد الله...

تقدَّم تعريف الكِبر، وأسبابه، وذمّه، واليوم - إن شاء الله - نتكلم عن:

- أخلاق المتواضعين.

- وطرق معالجة الكبر، واكتساب التواضع.

سائلًا المولى التوفيق.

عباد الله...

اعلموا أن التكبر يظهر في شمائل الرجل كصعرٍ في وجهه، ونظره شزرًا، وإطراقه رأسه، وجلوسه متربعًا أَوْ متكئًا، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، فمن المتكبرين مَن يجمع ذَلِكَ كله، ومنهم مَن يتكبَّر في بعض ويتواضع في بعض.

فمنها: التكبّر بأن يحب قيام النَّاس له أَوْ بين يديه.

ومنها: أن لا يمشي إلَّا ومعه غيره يمشي خلفه.

ومنها: أن لا يزور غيره، وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدِّين وهو ضدّ التواضع.

ومنها: أن يستنكف من جلوس غيره بالقُرب منه إلَّا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه.

ومنها: أن لا يتعاطى بيده شغلًا في بيته والتواضع خلافه.

روى «أن عُمر بن العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال: أفأنبه الغلام؟ فقال: هي أول نومة نامها، فقام وملأ المصباح زيتًا، فقال الضيف: قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر، ما نقص منه شيء». وخير النَّاس من كان عند الله متواضعًا.

ومنها: أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته، وهو خلاف عادة المتواضعين، كان رسول الله ﷺ يفعل ذَلِكَ، وقال عليٌّ: لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله.

ومنها: اللباس، إذ يظهر به التكبر والتواضع وعلامة المتكبر فيه حرصه عَلَى التزين للناس للشهرة والمخيلة، وأما طلب التجمّل لذاته في غير سرف ولا مخيلة فليس من

الكبر، والمحبوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة، وقَدْ قال ﷺ: «كُلُوا وَتَصَدَّقُوا وَالبَسُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ»[(١)]، وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»[(٢)].

ومنها: أن يتواضع بالاحتمال إذا سبَّ وأُوذي وأخذ حقه، فذلك هو الأصل.

وبالجملة: فمجامع حُسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي ﷺ فيه، فينبغي أن يقتدى به، ومنه ينبغي أن يتعلم، وقَدْ قَالَ ابن أبي سَلمة: قلت لأبي سعيد الخدري: ما ترى فيما أحدث النَّاس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم؟ فقال: يا ابن أخي كل لله، واشرب لله، والبس لله، وكل شيء من ذَلِكَ دخله زهو أو مباهات أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف، وعالج في بيتك من الخدمة ما كان يعالج رَسُول الله ﷺ في بيته كان يحلب الشاة، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويأكل مَعَ خادمه، ويشتري الشيء من السوق، ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده، يصافح الغني والفقير، ويُسلم مبتدئًا عَلَى كل من استقبله من صغير أو كبير، يجيب إذا دُعي ولا يحقر ما دعي إليه، ليِّن الخُلق، جميل المعاشرة، طليق الوجه، شديد في غير عنف، متواضع في غير مذلة، جوَّاد من غير سرف، رقيق القلب. زادت عائشة رَضِيَ الله عَنْهُ: وأَنَّهُ ﷺ لم يمتلئ قطّ شبعًا، ولم يبثّ إلى أحد شكوى وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغنى.

فمن طلب التواضع فليقتدِ به ﷺ، ومَن لم يرض لنفسه بذلك فما أشد جهله، فلقد كان أعظم خلق الله منصبًا في الدُّنْيَا والدِّين، فلا عزّ ولا رفعة إلا في الاقتداء به[(٣)].

عباد الله...

أما طريق معالجة الكبر، واكتساب التواضع:

فلابد أن نعلم أن الكبر من المهلكات، وإزالته فرض عين، ولا يزول بمجرد

---

(١) حسن: رواه ابن ماجه (٣٦٠٥)، والترمذي (٢٨١٩)، وغيرهما، وحسنه الألباني كما في «صحيح الجامع» (٤٥٠٥).

(٢) صحيح، قَدْ تقدم.

(٣) «موعظة المؤمنين» (٣٥٨، ٣٥٩).

التمني بل بالمعالجة، وفي معالجته مقامان:

أحدهما: استئصال أصله، وقلع شجرته من مغرسها في القلب.

والثاني: دفع العارض منه بالأسباب التي بها قَدْ يتكبر بها.

المقام الأول: في استئصال أصله، وعلاجه علميٌّ وعمليٌّ، ولا يتم الشفاء إلَّا بمجموعها.

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تَعَالى، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه لا يليق به إلا التواضع، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله، أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وأما معرفته نفسه فهو أيضًا يطول، ولكننا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله فإن القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته، قَالَ تَعَالى: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس:١٧- ٢٢].

فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه، فلينظر الإنسان ذَلِكَ ليفهم معنى هَذِهِ الآية.

أمَّا أول الإنسان: فهو أنه لم يكن شيئًا مذكورًا، وقد كان في حيز العدم دهورًا، وأي شيء أخسُّ وأقل من العدم؟ ثم خلقه الله من أرذل الأشياء، ثم من أقذرها إذ قد خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظمًا، ثم كسا العظم لحمًا، فهذا بداية وجوده فما صار شيئًا مذكورًا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت! إذ لم يخلق في ابتدائه كاملًا بل خلقه جمادًا ميتًا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم، فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوته وبجهله قبل علمه وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سمعه وبكمه قبل نطقه، وبضلاله قبل هداه، وبفقره قبل غناه، وبعجزه قبل قدرته. فهذا معنى قوله تَعَالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس:١٨، ١٩]. ثم امتن عليه فقال: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: ٢٠] وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدَّة حياته إلى الموت. وإنَّما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام، والنطفة القذرة بعد عدمها ليعرف خسة ذاته فيعرف بها

ذاته فيعرف بها نفسه، وإنَّما أكمل النِّعمة عليه ليعرف بها ربَّهُ ويعلم بها عظمته وجلاله، وأنَّهُ لا يليق الكبرياء إلَّا به جل وعلا.

وهو عَلَى التحقيق أضعف الضعفاء، ولكن هَذِهِ عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم، وذلك لدلالة خسة أوَّلِهِ، ولا حول ولا قوة إلا بالله. نعم لو أكمله وفوَّض إليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى، ولكنه سلَّط عليه في دوام وجوده الأمراض والآفات المختلفة، يهدم البعض من أجزائه البعض، شاء أم أبى رضي أم سخط، فيجوع كرهًا ويعطش كرهًا، ويمرض كرهًا ويموت كرهًا، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا خيرًا ولا شرًا، يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينساه، ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلا يغفل عنه، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يُسلب سمعه وبصره وتُفلج أعضاؤه ويُختلس عقله ويُختطف روحه ويُسلب جميع ما يهواه في دنياه، فهو مضطر ذليل إن تُرك بقيَ وإن اختطف فني، عبدٌ مملوك لا يقدر على شيء من نفسه ولا شيء من غيره، فأيَّ شيء أذل منه لو عرف نفسه؟ وأنَّى يليق الكبر به لولا جهله؟ فهذا أوسط أحواله فليتأمله.

وأما آخره: فهو الموت المشار إليه بقول تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ٢١، ٢٢]، ومعناه: أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته، فيعود جمادًا كما كان أول مرة، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته لا حسَّ فيه ولا حركة، ثم يُوضع في التراب فيصير جِيفة منتنة قذرة، ثم تُبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويصير رميمًا رفاتًا، ويأكل الدود أجزاءه فيصير روثًا في أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان ويهرب منه لشدة الإنتان، وليته بقي كذلك فما أحسنه لو ترك ترابًا. لا بل يُحييه بعد طول البلى ليُقاسي شديد البلاء، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة، ويخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة وسماء مشققة ممزقة، وأرض مبدَّلة، وجبالٌ مسيَّرة، ونجومٌ مُنْكَدرة، وشمسٌ منكسفة، وأحوالٌ مظلمة، وملائكةٌ غلاظٌ شداد، وجهنم تزفر، وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسَّر، ويرى صحائف منشورة فيُقال له: اقرأ كتابك، فيقول وما هو؟ فيقال: كان قد وُكِّل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها

ملكان رقيبان يَكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل أو كثير وصغير وكبير، قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك، فهلم إلى الحساب واستعدّ للجواب أو تُساق إلى دار العذاب، فينقطع قلبه فزعًا من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة، ويشاهد ما فيها من مخازيه، فإذا شاهده قَالَ: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]. فهذا آخر أمره، وهو معنى قوله تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس: ٢٢].

فما لمن هذا حاله والتكبّر والتعظم؟! بل ما له وللفرح فضلًا عن البطر؟ فقد ظهر له أول حاله ووسطه، ولو ظهر آخره - والعياذ بالله تعالى - ربما اختار أن يصير مع البهائم ترابًا ولا يكون إنسانًا يسمع خطابًا أو يلقى عذابًا.

فمن هذا حاله في العاقبة - إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو - كيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر؟! حقًّا يكفيه ذَلِكَ حزنًا وخوفًا وإشفاقًا ومهانة وذلًّا. فهذا هو العلاج العلميّ القامع لأصل الكبر.

وأما العلاج العمليّ: فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين، كما وصفناه من شمائل رسول الله ﷺ، ومن أحوال الصالحين، ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلَّا بالعمل، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعًا، وقيل الصلاة عماد الدين، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عمادًا، ومن جملتها ما فيها: من التواضع بالمثول قائمًا، وبالركوع والسجود، وقد كانت العرب قديمًا يأنفون من الانحناء، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه. فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم، وبه أمر سائر الخلق.

عباد الله...

هَذِهِ هو المقام الأول، أمَّا المقام الثاني، فسيأتي بيانه بعد قليل - إن شاء الله تَعَالَى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والمقام الثاني لعلاج الكبر، فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المتقدمة:

اعلموا - عباد الله - أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل، فأمَّا ما عداه ممَّا يفنى بالموت فكمالٌ وهميّ، ونحن نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع أسبابه السبعة:

السبب الأول: النسب؛ فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداوِ قلبه بمعرفة أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكمال غيره ومن كان خسيسًا فمن أين تجبر خسته بكمال غيره، وبمعرفة نسبه الحقيقي أعني: أباه وجدّه، فإنَّ أباه القريب نطفة قذرة وجِدَّه البعيد تراب، وقَدْ عرف الله تَعَالَى نسبه فقال: ﴿**وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ**﴾ [السجدة: ٧، ٨]، فإذا كان أصله من التراب وفصله من النطفة، فمن أين تأتيه الرفعة؟! فهذا هو النَّسب الحقيقي للإنسان، ومَن عرفه لا يتكبَّر بالنسب.

السبب الثاني: الكبر بالجمال؛ ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم، ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال إذ خلق من أقذار ووكّلَ به في جميع أجزائه الأقذار، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار، وجماله لا بقاء له بل هو في كل حين يتصور أن يزول بمرض أَوْ سبب من الأسباب، فكم من وجوه جميلة قَدْ سمجت بهذه الأسباب، فمعرفة ذَلِكَ تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها.

السبب الثالث: الكبر بالقوّة؛ ويمنعه من ذَلِكَ أن يعلم ما سلّط الله عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجّع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز، أَوْ أن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته، وإنَّ حمى يوم تحلل من قوته ما لا ينجبر في مدة، فمن لا

يطيق شوكة ولا يقاوم بقة فلا ينبغي أن يفتخر بقوته، ثم إن قَوِيَّ الإنسان فلا يكون أقوى من حمار أَوْ بقرة أَوْ فيل أَوْ جمل، وأي افتخار في صفة يسبقك بها البهائم.

السبب الرابع والخامس: الغنى وكثرة المال؛ وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار، والتكبر بالمناصب والولايات، وكل ذَٰلِكَ تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان، وهذا أقبح أنواع الكبر، فلو ذهب ماله أَوْ احترقت داره لعاد ذليلًا، وكم في اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل فأفٌّ لشرف يسبقه به يهوديّ أَوْ أخذه سارق في لحظة فيعود ذليلًا مفلسًا.

السبب السادس: الكبر بالعلم؛ وهو أعظم الآفات وعلاجه بأمرين:

أحدهما: أن يعلم أن حجة الله عَلَى أهل العلم آكد، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشرة من العالم، فإن مَن عصى الله تَعَالَى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش وخطره أعظم.

ثانيهما: أن يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عَزَّ وَجَلَّ وحده، وأنه إذا تكبَّر صار ممقوتًا عند الله بغيضًا، فهذا مِمَّا يزيل التكبّر ويبعث عَلَى التواضع، وإذا دعته نفسه للتكبر عَلَى فاسق أَوْ مبتدع فليتذكر ما سبق من ذنوبه وخطاياه لتصغر نفسه في عينه وليلاحظ إبهام عاقبته وعاقبة الآخر فلعله يختم له بالسوء ولذاك بالحسنى، حتى يشغله الخوف عن التكبر عليه ولا يمنعه ترك التكبر عليه أَوْ يكرهه، ويغضب لفسقه بل يبغضه ويغضب لرب إذ أمره أن يغضب عليه من غير تكبر عليه.

السبب السابع: التكبر بالورع والعبادة؛ وذلك فتنة عظيمة عَلَى العُبَّاد، وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العِباد.

قال وهب بن منبّه: ما تم عقل عبد حتى يكون فيه خصال وعدّ منها خصلة، قال: بها ساد مجده، وبها علا ذكره، أن يرى النَّاس كلهم خيرًا منه، وإنما النَّاس عنده فرقتان؛ فرقة هي أفضل منه وأرفع، وفرقة هي شرٌّ منه وأدنى، فهو يتواضع للفرقتين جميعًا بقلبه، وإن رأى من هو خير منه سرَّه ذَٰلِكَ وتمنَّى أن يلحق به، وإن رأى من هو شر منه قال: لعل هذا ينجو وأهلك أنا، فلا تراه إلا خائفًا من العاقبة ويقول: لعل برّ هذا باطن فذلك خير له، ولا أدري لعلّ فيه خُلقًا كريمًا بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه،

ويختم له بأحسن الأعمال، وبرِّي ظاهر فذلك شرٌّ لي، فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها، قال: فحينئذٍ كَمُلَ عقله وساد أهل زمانه.

والذي يدل عَلَى فضيلة هذا الإشفاق، قوله تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أي: أنهم يؤتون الطاعات وهم عَلَى وجل عظيم من قبولها، وقال تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧]، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦].

وقَدْ وصف الله تَعَالَى الملائكة عليهم السلام، مع تقدّسهم عن الذنوب، ومواظبتهم عَلَى العبادات بالدؤوب عَلَى الإشفاق، فقال تَعَالَى مخبرًا عنهم: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فمتى زال الإشفاق والحذر؛ غلب الأمن مِن مكر الله، وذلك يوجب الكِبر وهو سبب الهلاك، فالكبر دليل الأمن، والأمن مهلك، والتواضع دليل الخوف، وهو مسعد.

فإذًا ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال. فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعي البراءة من الكبر وهي كاذبة، فإذا وقعت عادت إلى طبعها ونسيت وعدها، فعلى هذا لا ينبغي أن يكتفي في المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي أن تكمل بالعمل، وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر في النفس.

وبيانه أن يمتحن النفس بالامتحانات الدالة على استخراج ما في الباطن، والامتحانات كثيرة:

الامتحان الأول: أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق، فذلك يدلُّ على أن فيه كبرًا دفينًا، فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه.

أما من حيث العلم فَبِأن يُذَكِّر نَفْسَهُ خسَّةَ نفسه وخطر عاقبته وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى. وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء، ويقرّ على نفسه بالعجز، ويشكره على الاستفادة ويقول: ما

أحسن ما فطنتَ له وقد كنتُ غافلًا عنه فجزاك الله خيرًا كما نبهتني له، فالحكمة ضالة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر مَن دلَّه عليها. فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعًا، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر.

الامتحان الثاني: أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ويقدمهم على نفسه، ويمشي خلفهم ويجلس فيه الصدور تحتهم، فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر، فليواظب عليه تكلفًا حتى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايله الكبر.

وهاهنا للشيطان مكيدة وهو أن يُجلس بينه وبين الأقران بعض الأرذال فيظن أن ذلك تواضعًا وهو عين الكبر، فإنَّ ذلك يَخفّ على نفوس المتكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل، فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضًا، بل ينبغي أن يقدّم أقرانه ويجلس بجنبهم، ولا ينحط عنهم إلى صف النعال، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن.

الامتحان الثالث: أن يجيب دعوة الفقير ويمرّ إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق، والثواب عليها جزيل، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر.

الامتحان الرابع: أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء.

وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له إن لم تتدارك، وقد أهمل الناس طبَّ القلوب واشتغلوا بطبّ الأجساد، مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة، والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها إذ قال تَعَالَى: ﴿**إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٨٩].

عباد الله...

وقَدْ يسأل سائل: وما هي غاية الرياضة في خُلُق التواضع؟

والجواب: اعلموا أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسط، فطرفه الذي

يميل إلى الزيادة يُسمى تكبَّرًا، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسسًا ومذلة، والوسط يسمى تواضعًا.

والمحمود: أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس، فإن كلا طرفي الأمور ذميم وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها. فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع، أي: وضع شيئًا من قدره الذي يستحقه. والعالم إذا دخل عليه دنيء فتنحَّى له عن مجلسه وأجلسه فيه، ثم تقدم وسوى له نعله وعدا إلى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل، وهذا أيضًا غير محمود بل المحمود عند الله العدل؛ وهو أن يعطى كل ذي حق حقه، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومَن يقرب من درجته، فأما تواضعه للسوقيّ فبالقيام، والبِشر في الكلام، والرفق في السؤال، وإجابة دعوته، والسعي في حاجته، وأمثال ذَلِكَ، وأن لا يرى نفسه خيرًا منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره[1].

۞۞۞۞۞

(١) «موعظة المؤمنين» (٣٦٠ - ٣٦٦).

الخطبة السابعة والتسعون:

[هـ] لقطات وعظات من حياة: مالك بن دينار

مواعظ تكتب بماء الذهب

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن **مالك بن دينار** رَحِمَهُ الله .

واليوم - إن شاء الله تعالى - نذكرُ شيئًا من وثيق إشاراته - رَحِمَهُ الله - ودقيق عباراته.

سائلًا المولى - تبارك وتعالى - أن ينفعنا بها في هذه الدنيا والآخرة.

عباد الله...

والمواعظ كما يقول ابنُ رجب الحنبليّ: سياطٌ تُضرب بها القلوب، فتؤثر في القلوب كتأثير السِّياطِ في البدن، والضربُ لا يؤثّر بعد انقضائه كتأثيره في حال وجوده، لكن يبقى أثرُ التألُّم بحسب قوّته وضعفه، فكلّما قويّ الضربُ كانت مُدَّةُ بقاء الألم أكثر.

وأفضلُ الصَّدقةِ: تعليمُ جاهل، أَوْ إيقاظُ غافل.

وما وُصِلَ المُستَثقِلُ في نوم الغفلة بأفضل من ضَربِهِ بسياط الموعظة ليستيقظ.

قال بعضهم: لا تنفع الموعظةُ إلّا إذا خرجت من القلب، فإنها تصلُ إلى القلب، فأمّا إذا خرجت من اللِّسان، فإنها تدخلُ من الأُذن ثم تخرج من الأُخرى.

وقال بعض السَّلف: إن العالم إذا لم يُرد بموعظته وجه الله تَعَالَى زلَّت موعظتهُ عن القلوب كما يَزِلُّ القَطرُ عن الصَّفا.

وكان «يحيى بن معاذ» -رَحِمَهُ الله تَعَالَى- يُنشد في مجالسه:

مواعظُ الواعظِ لن تُقبَلا	حَتَّى تَعِيها نَفْسُه أوَّلا
يا قومِ مَن أظْلَمُ مِنْ وَاعِظٍ	خالفَ ما قَدْ قَالَهُ في المَلا
أظهَرَ بَيْنَ النَّاس إحْسَانَهُ	وبارَزَ الرَّحمنَ لَمَّا خَلا[1]

وقبل ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

قَالَ العلّامة السَّعدي - رَحِمَهُ الله -: هَذِهِ الآية وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامَّة لكل أحد، لقوله تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

وليست في الآية أن الإنسان إذا لم يَقُم بما أمر به أَنَّهُ يترك الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، لأنها دلّت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلّا فمن المعلوم أن عَلَى الإنسان واجبين: أمر غَيْرِه ونهيه، وأمر نَفْسَه ونهيها. فترك أحدهما لا يكون رخصة في

---

(١) «لطائف المعارف» (٥١ - ٥٣) باختصار.

ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسانُ بالواجِبَين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأمَّا قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأوّل، وهو دون الأخير، وأيضًا فإن النفوس مجبولة عَلَى عدم الانقياد لمن يخالف قولُه فعلَه، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجرَّدة» ا.هـ[١].

قلت: وقَدْ قيل: «عَمَلُ رَجُلٍ في ألف رجل، خيرٌ من قَولِ ألف رَجُلٍ في رَجُل».

وعن أُسَامَةَ بن زيدٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِع رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقول: «**يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ**[٢] **فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلاَنُ، مَا شَأْنُكَ، أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ**»[٣].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

والمقصود: أن «**مالك بن دينار**» - رَحِمَهُ الله - لَـمَّا وافق عملُه قوله، أثَّرت مواعظه في القلوب، وهكذا كان كلام سلفنا الصَّالح رحمة الله عليهم.

عباد الله...

وهذه طائفةٌ مباركة من أقوال مالك، ومواعظه، تُهيِّج الشَّوق على الله تَعَالى، وتدفع إلى عمل الصَّالحات، وتزجر عن فعل السَّيِّئات.

قَالَ - رَحِمَهُ الله -: يا حملة القُرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض، فإن الله ينزل الغيث من السماء إلى الأرض فيصيب الحُشّ[٤] فتكون فيه الحبة فلا يمنعها نتن موضعها أن تهتز وتخضرّ وتحسّن. فيا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ أين أصحاب سورة؟ أين أصحاب سورتين؟ ماذا عملتم فيهما؟

---

(١) «تفسير السعدي» (٥١).

(٢) **تندلق أقتابه**: تخرج أمعاؤه.

(٣) روه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٤) **الحُش**: المكان الذي تجتمع فيه الفضلات.

وكان - رَحِمَهُ الله تَعَالَى - يقول: اللَّهُمَّ نقبل بقلوبنا إليك حَتَّى نعرفك حسنًا، وحتى نرعى عهدك، وحتى نحفظ وصيتك حسنًا، اللَّهُمَّ سوّمنا سيما الأبرار، وألبسنا لباس التقوى، اللَّهُمَّ إنا نتوب إليك قبل الممات، ونلقى بالسلام قبل اللزام، اللَّهُمَّ انظر إلينا منك نظرة تجمع لنا بها الخير كله، خير الآخرة وخير الدُّنْيَا. ثم يقف مالك عند كلامه هذا ويقول: يحسبون أني أعني بخير الدُّنْيَا: الدينار والدرهم، لا؛ إنَّما أعني العمل الصالح، حَتَّى ألقاك يوم القيامة وأنت عنا راضٍ، رغبة ورهبة إليك يا إله السماء وإله الأرض، ثم يبكي بكاءً خفيفًا، فيبكي النَّاس معه.

وكان يقول: لقد هممتُ أن آمر إذا متُّ فأُغل، فأدفع إلى ربيِّ مغلولاً كما يدفع العبد الآبق إلى مَولاه.

وكان يقول: يقول بعض أهل العلم: نظرتُ في أصل كل إثم فلم أجده إلَّا حُبّ المال، فمن ألقى عنه حبّ المال فقد استراح.

وكان يقول: خرج أهل الدُّنْيَا من الدُّنْيَا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، قالوا: وما هو يا أبا يحيى؟ قَالَ: معرفة الله تَعَالَى.

ومن أقواله: بلغنا أن بني إسرائيل خرجوا إلى مخرج لهم فقيل لهم: يا بني إسرائيل تدعوني بألسنتكم وقلوبكم بعيدة عني، باطل ما تذهبون.

ومن أقواله: اصطلحنا عَلَى حُبّ الدُّنْيَا فلا يأمر بعضنا بعضًا، ولا ينهى بعضنا بعضًا، ولا يزرنا الله عَلَى هذا فليت شعري أي عذاب الله ينزل؟

ومن أقواله: إنكم في زمان أشهب لا يُبصر زمانكم إلا البصير، وإنكم في زمان كثير تفاخرهم، قَدْ انتفخت ألسنتهم في أفواههم، و طلبوا الدُّنْيَا بعمل الآخرة، فاحذروهم عَلَى أنفسكم لا يوقعونكم في شباكهم.

ومن أقواله: مَن غلب شهوة الحياة الدُّنْيَا فذلك الذي يَفرق[1] الشيطان من ظلِّه.

وقال - رَحِمَهُ الله -: إن الأبرار تغلي قلوبُهم بأعمال البرِّ، وإن الفُجَّار تغلي قلوبهم

---

(١) **يفرق:** يخاف.

بأعمال الفجور، والله يرى هومكم فانظروا هومكم يرحمكم الله.

نعم يا سيِّدي، إن الأبرار تغلي قلوبهم بأعمال البر، وإن الفجار تغلي قلوبهم بأعمال الفجور، والله يرى هومكم فانظروا هومكم يرحمكم الله.

من النَّاس مَن همّه الدُّنيَا، ومنهم من همّه الآخرة، وشتان بين حال الفريقين.

اسمعوا...

عن زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»** [١].

فيا تعاسة مَن اعتصم بغير الله.

ويا حسرة من تعلَّق قلبُهُ بالدنيا.

فرِّغوا قلوبكم - عباد الله - لعبادة الله، وانتظروا الغنى والسعادة وراحة البال.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: تلا رَسُول الله ﷺ: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾** [الشورى: ٢٠]، قَالَ: **«يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي** [٢] **أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنًى وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَلأْتُ صَدْرَكَ شُغْلاً وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»** [٣].

ومن أقواله: كفى بالمرء خيانةً أن يكون أمينًا للخونة.

وقال - رَحِمَهُ الله -: إنَّما العالِمِ أو القاصّ [٤] الذي إذا أتيته فلم تجده في بيته قصَّ عليك بيتُه، فترى حصيرًا للصلاة، ترى مصحفًا، ترى إجانة للوضوء، ترى أثر الآخرة.

وقال: لا يصطلح المؤمن والمنافق حَتَّى يصطلح الذئب والحَمل.

---

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه، وانظر «صحيح الجامع» (٦٥١٦).
(٢) أي: فرّغ قلبك لعبادة ربّك.
(٣) **صحيح**: رواه ابن ماجه والترمذي، وانظر «صحيح ا لجامع» (١٩١٤).
(٤) **القاصّ**: الواعظ.

وقال - رَحِمَهُ الله -: أقسم لكم لو نبت للمنافقين أذنابٌ ما وُجد المؤمنون أرضًا يمشون عليها.

ومن أقواله أيضًا: مَثل المؤمن مِثل اللؤلؤة، أينما كانت حسنُها معها.

وقال: ما من خطيب يخطب إلَّا عُرِضَت خُطبَتُه عَلَى عَمَله، فإن كان صادقًا صُدِّق، وإن كان كاذبًا قُرِضت شفتاه بقراضٍ من نار كلَّما قُرِضَتَا نَبَتَتَا.

وقال - رَحِمَهُ الله -: صنفان من النَّاس لا تجالسوهما فإن مجالستهما مفسدة لقلب كل مسلم: صاحب بدعة قَدْ غلا فيها، وصاحب دنيا مترف فيها.

وقال الفضيل بن عياض: رأى مالك بن دينار رجلًا يُسيئ صلاته، فقال: ما أرحمني بعياله، فقيل له: يا أبا يحيى يسيئ هذا صلاته وترحم عياله؟ قَالَ: إنه كبيرهم، ومنه يتعلمون.

ودخل مالك عَلَى والي البصرة فقال له الوالي: ادع لي، فقال: كم من مظلوم بالباب يدعو عليك.

وكان - رَحِمَهُ الله - يقول: لو أن الملكين اللذين ينسخان أعمالكم غدوا عليكم يتقاضونكم أثمان الصحف التي ينسخون فيها أعمالكم لأمسكتم عن كثير من فضول كلامكم، فَإِذَا كانت الصحف من عند ربكم أفلا تربعون عَلَى أنفسكم؟!

عباد الله...

هذا كلام يكتب بماء الذَّهب، فاجعلوه نُصب أعينكم، وفَّقني الله تَعَالَى وإيَّاكم لعمل الصَّالحات، واجتناب المُحرَّمات.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ورغم هذا الفضل الكبير الذي وصل إليه مالك بن دينار -رَحِمَهُ الله - إلا أن خوفه

من الله كان يزداد يومًا بعد يوم.

فعن سلَّام بن أبي مطيع قال: دخلنا عَلَى مالك بن دينار ليلًا وهو في بيت بغير سراج، وفي يده رغيف يكدمه، فقلنا: يا أبا يحيى ألا سراج، ألا شيء تضع عليه خبزك؟ فقال: دعوني فوالله إني لنادم عَلَى ما مضى.

وعن المغيرة بن حبيب - خَتن مالك بن دينار - قال: يموت مالك بن دينار وأنا معه في الدار لا أدري ما عمله؟ قال: فصليتُ معه العشاء الآخرة ثم جئت فلبستُ قطيفة في أطول ما يكون الليل، قال: وجاء مالك فقرَّب رغيفه فأكل ثم قام إلى آخر الصلاة فاستفتح ثم أخذ بلحيته فجعل يقول: إذا جمعت الأولين والآخرين فحرم شَيبة مالك بن دينار على النار، فوالله ما زال كذلك حتى غلبتني عيني، ثم انتبهت فإذا هو على تلك الحال يقدّم رجلاً ويؤخر رجلاً ويقول: يا رب إذا جمعت الأولين والآخرين فحرم شيبة مالك بن دينار على النار، فما زال كذلك حتى طلع الفجر، فقلت في نفسي: والله لئن خرج مالك بن دينار فرآني لا يبلى لي عنده بالة أبدًا قال: فجئت إلى المنزل وتركته.

عباد الله...

قارنوا بين حال سلفنا، وحالنا، وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، إن سلفنا وظّفوا أنفاسهم في طاعة مولاهم، أمَّا نحن فقد أضعنا أعمالنا في أوهام!

ولله دَرُّ ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله - حين قال: «خُلِقَ بَدَنُ ابن آدم من الأرض ورُوحُه من ملكوت السماء وقُرِنَ بينهما. فإذا أجاع بدنَه وأسهرَه وأقامَه في الخدمةِ، وَجَدَت روحُهُ خِفَّةً وراحةً فتاقَت إلى الموضع الذي خُلقِت منه، واشتاقت إلى عالمها العُلويِّ، وإذا أشبعَهُ ونعَّمَه ونوَّمَه واشتغلَ بخدمتِه وراحتِه، أخلدَ البدنُ إلى الموضعِ الذي خُلقَ منه فانجذبتِ الرُّوحُ معه فصارت في السجن، فلولا أنها ألِفَتِ السجن لاستغاثت من ألم مفارقتِها وانقطاعِها عن عالمها الذي خلقت منه كما يستغيثُ المعذَّبُ.

وبالجملة؛ فكلَّما خفَّ البدنُ لَطُفتِ الروحُ وخفَّت وطلبت عالمها العُلويَّ، وكلما ثَقُلَ وأخلد إلى الشَّهواتِ والراحةِ ثقلتِ الرُّوحُ، وهبطت من عالمها وصارت أرضيَّةً

سفليَّةً»[١].

عباد الله...

وفي سنة سبع وعشرين ومائة، آن المسافر أن يبلغ قراره، ويصل إلى داره.

يقول حزم القيطعي: دخلنا عَلَى مالك بن دينار في مرضه الذي مات فيه وهو يكيد بنفسه، فرفع رأسه إلى السماء، ثم قال: اللَّهُمَّ إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لِفرحٍ ولا لبطنٍ.

ويقول أبو عيسى: «دخلنا عَلَى مالك عند الموت فجعل ينظر ويقول: لمثل هذا اليوم كان دءوب - أي عمل - أبا يحيى».

نعم يا سيِّدي... وعند الممات يَحمدُ القَومِ التُّقى.

اللَّهُمَّ ارزقنا حبَّهم، واجعلنا من أتباعهم

آمين... آمين... آمين

۞۞۞۞۞

---

(١) «الفوائد».

الخطبة الثامنة والتسعون:

[أ] لقطات وعظات من حياة: مسروق بن عبد الرحمن

من فضائل السجود

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَــقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيقول الإمام ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله -: «السَّنةُ شجرةٌ، والشُّهورُ فُروعُها، والأيَّام أغصانُها، والساعاتُ أوراقُها، والأنفاسُ ثمرُها. فمن كانت أنفاسُه في طاعةٍ، فثمرةُ شجرتِهِ طيِّبةٌ، ومَن كانت في معصيةٍ فثمرتُه حنظلٌ. وإنما يكونُ الجدادُ[1] يومَ المعادِ،

---

(١) **الجداد**: صرام النخل، وهو قطع ثمرتها.

فعندَ الجدادِ يتبيَّنُ حلوُ الثمارِ من مُرِّها.

والإخلاصُ والتوحيدُ شجرةٌ في القلبِ، فُروعُها الأعمالُ، وثمرُها طِيبُ الحياةِ في الدنيا والنعيمُ المقيم في الآخرةِ. وكما أن ثمار الجَنَّة لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ، فثمرةُ التوحيدِ والإخلاصِ في الدنيا كذلك.

والشركُ والكذبُ والرِّياءُ شجرةٌ في القلبِ، ثمرُها في الدُّنْيَا الخوفُ والهمُّ، والغمُّ وضيقُ الصدرِ وظُلمةُ القلبِ، وثمرُها في الآخرةِ الزَّقّومُ والعذابُ المقيمُ. وقد ذكر الله هاتين الشجرتين في سورة إبراهيم». ا.هـ[١].

فالسَّعيد من وظَّف أنفاسه في طاعة ربِّه.

وضَيفنَا اليوم رجلٌ من هذا الطراز المبارك، وظَّف أنفاسَهُ في طاعة ربِّه، وعُمرَهُ في التقرُّب إلى مولاه.

فمن هذا المبارك؟

هو الإمام القدوة، العَلم، أبو عائشة الوادعيّ، الهمدانيُّ، الكوفيُّ. مسروق بن الأجدع بن مالك بن أميَّة بن عبدالله بن مُرِّ بن سلمان بن مَعْمَر.

عداده في كبار التَّابعين، وفي المُخضرمين الذين أسلموا في حياة النَّبيّ ﷺ.

كان - رَحِمَهُ الله - من أصحاب عبد الله بن مسعود رَضِيَ الله عَنْهُ، فلقد كان أصحابُ عبد الله الذي يُقرئون النَّاس ويعلِّمونهم السُّنَّة: علقمة، والأسود، وعُبيدة، ومسروقًا، والحارث بن قيس، وعمرو بن شُرحبيل، رَحِمَهُم الله جميعًا.

وعن سبب تسميته بـ«مسروق» يقول أبو بكر الخطيب: يقال: إنه سُرِق وهو صَغير ثم وُجِد فَسُمِّي مسروقًا، وأسلم وأبوه الأجدع.

ويقول مسروق - رَحِمَهُ الله -: لقيتُ عُمر بن الخطاب فقال: ما اسمُك؟ فقلت: مسروق بن الأجدع، قَالَ: سمعتُ النَّبيّ ﷺ يقول: «**الأجدعُ شيطان**»[٢] أنت مسروق

---

(١) «مختصر الداء والدواء» (٦٨).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣١)، وأبو داود (٤٩٥٧).

ابن عبد الرحمن.

قَالَ الإمام الشَّعبي: فرأيتهُ في الديوان(١)، مسروق بن عبد الرحمن.

عباد الله...

والمسلم كلَّما ازداد إيمانُه وعلّت درجاتُ قُربه من ربِّه، أحبَّه الله، وأحبته ملائكةُ السماء، ووضع الله له القبول في الأرض.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾ [مريم: ٩٦]، قَالَ عددٌ من أهل العلم: ﴿**سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾ أي: محبَّةَ النَّاس في الدُّنْيَا، يُحِبُّهُم ويُحبّبهُم إلى خلق المؤمنين(٢).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ إِنِّى أُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِى فِى السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِى الأَرْضِ.**

وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّى أُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِى فِى أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِى الأَرْضِ»(٣).

و«**مسروق بن الأجدع**» نحسبه من هذا النوع المبارك، فقد بلغ - رَحِمَهُ الله - بين أصحاب النبي ﷺ مكانًا عليًّا، فهذه عائشة أُمّ المؤمنين رَضِيَ الله عَنْهَا تقول له: «يا مسروق، إنَّك من ولدي(٤)، وإنك لَمِنْ أحبّهم إليَّ، فهل لك علم بالمُخْدَج؟»(٥).

وهذه بعض أقوال أهل العلم عن مسروق:

قَالَ علي بن المدينيّ: ما أُقَدِّم عَلَى مسروق أحدًا من أصحاب عبد الله. أي: ابن

---

(١) **الديوان**: الكتاب الذي يُكتب فيه أسماء الجنود وأهل العطاء والعُمّال.

(٢) «صحيح تفسير ابن كثير» (٣/ ٩١).

(٣) رواه مسلم (٢٦٣٧).

(٤) قال تَعَالَى: ﴿ **وأزواجه أُمهاتهم** ﴾ [الأحزاب: ٦].

(٥) رجلٌ من الخوارج، نعته الرسول ﷺ بأنه مُخدج اليد، أي: يده ناقصة الخَلق، قصيرة.

مسعود رَضِيَ الله عَنْهُ.

وقال الشَّعبيّ: كان مسروق أعلم بالفتوى من شُريح، وكان شُريح أعلم بالقضاء من مسروق، وكان شريح يستشير مسروقًا، وكان مسروق لا يستشير شُريحًا.

وكان - رَحِمَهُ الله - لا يأخذ عَلَى القضاء أجرًا ويتأول قوله تَعَالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

وكان يقول: لئِن أفتى يومًا يومًا بعدل وحق، أحبُّ إليَّ من أن أغزو سنة.

عباد الله...

ولقد فتح الله عَلَى مسروق باب الطاعة، فأخذ منها حَظًّا وافرًا، فكان - رَحِمَهُ الله - يُصلِّي حَتَّى ترمَ قدماه.

وعن أبي إسحاق قَالَ: حج مسروق فما بات إلَّا ساجدًا.

وعن بعض أصحابه قَالَ: حجَّ مسروق فما افترش إلا جبهته حَتَّى انصرف.

وعن سعيد بن جُبير - رَحِمَهُ الله - قَالَ: لقيني مسروق فقال: يا سعيد ما بقي شيء يرغب فيه إلا أن نعفِّر وجوهنا في التراب، وما آسى[1] عَلَى شيء إلَّا السجود لله تَعَالى.

لقد أدرك مسروق - رَحِمَهُ الله - قيمة السجود، فكان هذا حاله.

عباد الله...

إن السجود كما يقول الإمام الغزاليُّ - رَحِمَهُ الله -: «وهو أعلى درجات الاستكانة، فإنك تمكِّن أعزّ أعضائك وهو الوجه من أذلّ الأشياء وهو التراب، وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلًا فتسجد على الأرض فافعل، فإنه أجلب للخشوع وأدلّ على الذُّلّ. وإذا وَضَعْتَ نَفْسَك موضع الذلّ فاعلم أنك وضعتها مَوْضعها ورددتَ الفَرْع إلى أصْلِه فإنَّك من التراب خُلِقْت وإليه تعود» ا.هـ[2].

إن جميع الخلائق تسجد لخالقها، وتسبِّح بحمده، ما عدا عُصاة الإنس والجن.

---

(١) أي: لا يحزن عَلَى شيء فاته من الدنيا إلا عَلَى قلة سجوده لله.

(٢) «إحياء علوم الدين» (١/ ١٦٩).

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

وقال تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

قَالَ الإمام القرطبيُّ - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «قوله تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال الحسن وقَتَادة وغيرهما: المؤمن يسجد طوعًا، والكافر يسجد كَرهًا بالسَّيف. وعن قتادة أيضًا: يسجد الكافر كارهًا حين لا ينفعه الإيمان.

وقال الزَّجاج: سجود الكافر كَرهًا ما فيه من الخضوع وأثر الصَّنعة.

وقال ابن زيد: ﴿طَوْعًا﴾ مَن دخل في الإسلام رغبة، ﴿وَكَرْهًا﴾ مَن دخل فيه رهبة بالسَّيف. وقيل: ﴿طَوْعًا﴾ مَن طالت مدة إسلامه فألف السجود، ﴿وَكَرْهًا﴾ مَن يُكره نفسه لله تَعَالَى.

فالآية في المؤمنين، وعلى هذا يكون معنى ﴿وَالْأَرْضِ﴾ : وبعض من في الأرض.

قال القُشَيري: وفي الآية مسلكان:

أحدهما: أنها عامة والمراد بها التخصيص، فالمؤمن يسجد طوعًا، وبعض الكفار يسجدون إكراهًا وخوفًا كالمنافقين، فالآية محمولة على هؤلاء، ذكره الفرَّاء.

وقيل على هذا القول: الآية في المؤمنين، منهم من يسجد طوعًا لا يَثقل عليه السجود، ومنهم من يَثقل عليه، لأن التزام التكليف مشقة، ولكنهم يتحملون المشقة إخلاصًا وإيمانًا، إلى أن يألفوا الحقّ ويُمرَّنوا عليه.

والمسلك الثاني - وهو الصحيح -: إجراء الآية على التعميم، وعلى هذا طريقان:

أحدهما: أن المؤمن يسجد طوعًا، وأما الكافر فمأمور بالسجود مؤاخذ به.

والثاني - وهو الحق -: أن المؤمن يسجد ببدنه طوعًا، وكل مخلوق من المؤمن والكافر يسجد من حيث إنه مخلوق، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع، وهذا كقوله:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة.

وقوله: ﴿وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ أي ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدو والآصال، لأنها تبين في هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية، وذلك تصريف الله إياها على ما يشاء، وهو كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]، قاله ابن عباس وغيره.

وقال مجاهد: ظِل المؤمن يسجد طوعًا وهو طائع، وظل الكافر يسجد كُرها وهو كاره». ا.هـ[1].

وقال تَعَالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ الْبَارِحَةَ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ: كَأَنِّي أُصَلِّي إِلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ، فَقَرَأْتُ السَّجْدَةَ فَسَجَدْتُ فَسَجَدَتِ الشَّجَرَةُ لِسُجُودِي، فَسَمِعْتُهَا تَقُولُ: اللَّهُمَّ احْطُطْ عَنِّي بِهَا وِزْرًا وَاكْتُبْ لِي بِهَا أَجْرًا وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْرًا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ مِثْلَ الَّذِي أَخْبَرَهُ الرَّجُلُ عَنْ قَوْلِ الشَّجَرَةِ[2].

يا عبد الله... الكون كله من عَرشه إلى فرشه، ومن حجراته إلى ذرَّاته، يسجد لربِّه ويُسبِّح بحمده، فلا تكن نغمة نشاز في كون ساجد مُسبِّح.

إن مِن أعجب العَجب أن نرى أُناسًا يأبون السجود لربِّهم بأعضاءٍ هو خالِقُها، وبأبدانٍ هو حافظها وَمُنعم عليها.

قال تَعَالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

قال بعض العلماء: نزلت - يعني هذه الآية - في أعضاء السجود، أي: هي لله فلا تسجدوا بها لغيره، وذكروا عن هذا القولِ الحديث الصحيح عن ابن عَبَّاس رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ عَلَى الْجَبْهَةِ - وَأَشَارَ بِيَدِهِ

---

(١) «تفسير القرطبي» (٢٦٣ - ٢٦٥).

(٢) حسن: رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٧١٠).

عَلَى أَنْفِهِ - وَالْيَدَيْنِ، وَالرُّكْبَتَيْنِ وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ»[١][٢].

واعلموا - أيُّها المسلمون - أنَّ مَن رفض السجود لله، سجد لغيره لا محالة.

واعلموا كَذَلِك أن إبليس طُرد من رحمة الله بسبب رفضه لسجدة واحدة!!

وهو يبكي إذا رأى المسلم يسجد.

قَالَ حبيبُكم المصطفى ﷺ: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ أُمِرَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَعَصَيْتُ فَلِيَ النَّارُ».

فلا تجعلوه يكفّ عن البُكاء، أحزِنوه.

اللَّهُمَّ إنَّا نعوذُ بك مِن بَدَنٍ لا يَنْتَصِب إليْك، ونعوذ بك من قلب لا يَشتاق إليك، ونعوذ بك من دعاءٍ لا يَصلُ إليك

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وفضائل السجود كثيرة، نذكر منها:

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلاَّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا حَسَنَةً وَمَحَا عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً وَرَفَعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةً فَاسْتَكْثِرُوا مِنَ السُّجُودِ»[٣].

عَنْ رَبِيعَةَ بن كَعْبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَارِي، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ أَوَيْتُ إِلَى بَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَبِتُّ عِنْدَهُ، فَلا أَزَالُ أَسْمَعُهُ، يَقُولُ: «سُبْحَانَ اللهِ سُبْحَانَ رَبِّي» حَتَّى أَمَلَّ أَوْ تَغْلِبَنِي عَيْنِي فَأَنَامُ.

---

(١) رواه البخاري (٨١٢)، ومسلم (٤٩٠).

(٢) «صحيح تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٣٥).

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه، وصححه المنذري والألباني.

فَقَالَ ذَاتَ يَوْمٍ: «يَا رَبِيعَةُ سَلْنِي فَأُعْطِيَكَ»، قُلْتُ: أَنْظِرْنِي حَتَّى أَنْظُرَ، وتَذَكَّرْتُ أَنَّ الدُّنْيَا فَانِيَةٌ مُنْقَطِعَةٌ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَسْأَلُكَ أَنْ تَدْعُوَ اللهَ أَنْ يُجَنِّبَنِي مِنَ النَّارِ وَيُدْخِلَنِي الجَنَّةَ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ أَمَرَكَ بِهَذَا؟» قُلْتُ: مَا أَمَرَنِي بِهِ أَحَدٌ، وَلَكِنِّي عَلِمْتُ أَنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ فَانِيَةٌ وَأَنْتَ مِنَ اللهِ بِالمَكَانِ الَّذِي أَنْتَ بِهِ أَحْبَبْتُ أَنْ تَدْعُوَ اللهَ، قَالَ: «إِنِّي فَاعِلٌ، فَأَعِنِّي بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[(١)].

عباد الله...

علم الصَّالحون هذا، فباتوا لربِّهم سُجَّدًا وقيامًا، وحال مَسروق -رَحِمَهُ الله- كما مر بنا يدلُّ عَلَى هذا.

ولله دَرُّ **ذي النون المصري** حين وصفهم قائلًا: «هؤلاء القوم قومٌ جعلوا الرُّكَب لجباههم وسادًا، والتراب لجنوبهم مهادًا، هؤلاء قوم خالط القرآن لحومهم ودمائهم، فعزلهم عن الأزواج وحركهم بالإدلاج، فوضعوه على أفئدتهم فانفرجت، وضموه إلى صدورهم فانشرحت، وتصدعت هممهم به فكدحت، فجعلوه لظلمتهم سراجًا، ولنومهم مهاداً، ولسبيلهم منهاجًا، ولحجتهم إفلاجًا، يفرح الناس ويحزنون، وينام الناس ويسهرون، ويفطر الناس ويصومون، ويأمن الناس ويخافون.

فهم خائفون حذرون، وجلون مشفقون مشمرون، يبادرون من الفوت، ويستعدون للموت، لم يتصغر جسيم ذلك عندهم لعظم ما يخافون من العذاب وخطر ما يوعدون من الثواب، درجوا على شرائع القرآن، وتخلصوا بخالص القربان، واستناروا بنور الرحمن، فما لبثوا أن أنجز لهم القرآن موعوده، وأوفى لهم عهوده، وأحلهم سعوده، وأجارهم وعيده، فنالوا به الرغائب، وعانقوا به الكواعب، وأمنوا به العواطب، وحذروا به العواقب، لأنهم فارقوا بهجة الدنيا بعين قالية، ونظروا إلى ثواب الآخرة بعين راضية، واشتروا الباقية بالفانية، فنعم ما اتجروا ربحوا الدارين، وجمعوا الخيرين، واستكملوا الفضلين، بلغوا أفضل المنازل، بصبر أيام قلائل.

قطعوا الأيام باليسير، حذار يوم قمطرير، وسارعوا في المهلة، وبادروا خوف

---

(١) **صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني.

حوادث الساعات، و لم يركبوا أيامهم باللهو واللذات، بل خاضوا الغمرات للباقيات الصالحات، أوهن والله قوتهم التعب، وغيَّر ألوانهم النصب، وذكروا نارا ذات لهب، مسارعين إلى الخيرات، منقطعين عن اللهوات، بريئون من الريب والخنا، فهم خرس فصحاء، وعمى بصراء، فعنهم تقصر الصفات، وبهم تدفع النقمات، وعليهم تنزل البركات، فهم أحلى الناس منطقاً ومذاقاً.

وأوفى الناس عهداً وميثاقاً، سراج العباد، ومنار البلاد، مصابيح الدجى، ومعادن الرحمة، ومنابع الحكمة، وقوام الأمة، تجافت جنوبهم عن المضاجع، فهم أقبل الناس للمعذرة، وأصفحهم للمغفرة، وأسمحهم بالعطية، فنظروا إلى ثواب الله عز وجل بأنفس تائقة، وعيون رامقة، وأعمال موافقة، فحلوا عن الدنيا مطى رحالهم، وقطعوا منها حبال آمالهم.

لم يدع لهم خوف ربهم عز وجل من أموالهم تليدًا ولا عتيدًا، فتراهم لم يشتهوا من الأموال كنوزها، ولا من الأوبار خزوزها، ولا من المطايا عزيزها، ولا من القصور مشيدها، بلى! ولكنهم نظروا بتوفيق الله تعالى لهم وإلهامه إياهم، فحركهم ما عرفوا بصبر أيام قلائل فضموا أبدانهم عن المحارم، وكفوا أيديهم عن ألوان المطاعم، وهربوا بأنفسهم عن المآثم.

فسلكوا من السبيل رشاده، ومهدوا للرشاد مهاده، فشاركوا أهل الدنيا في آخرتهم، عزوا عن الرزايا، وغصص المنايا، هابوا الموت وسكراته وكرباته وفجعاته، ومن القبر وضيقه، ومنكر ونيكر ومن ابتدارهما وانتهاءهما وسؤالهما، ومن المقام بين يدي الله عز ذكره، وتقدست أسماؤه[١].

عباد الله...

هذا حال الصَّالحين، نسأل الله أن يوفِّقنا لاتِّبَاعهم، وأن يجعلنا من أتبَاعِهم.

آمين... آمين... آمين

---

(١) «حلية الأولياء» (١/ ١٤، ١٥).

الخطبة التاسعة والتسعون:

[ب] لقطات وعظات من حياة: مسروق بن الأجدع

من فضائل الزهد

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال موصولًا عن سيرة الوليّ العابد **مسروق بن الأجدع** - رَحِمَهُ الله - وما فيها من عظات ودروس.

عن إبراهيم بن المنتشر قال: كان مسروق يركب كل جمعة بغلةً ويحملني خلفه، ثم يأتي كُناسة[1] بالحيرة قديمة، فيحمل عليها بغلته ثم يقول: الدنيا تحتنا.

(١) الكناسة: مكان تتجمع فيه القمامة.

وعن حمزة بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود قَالَ: بلغني أن مسروقًا أخذ بيد أخ له فارتقى به عَلَى كُناسة بالكوفة، قَالَ: ألا أريك الدُّنْيَا؟ هَذِهِ الدُّنْيَا أكلوها فأفنوها، لبسوها فأبلوها، ركبوها فأنضوها، سفكوا فيها دماءهم، واستحلوا فيها محارمهم وقطعوا فيها أرحامهم!!

نعم يا سيِّدي، إن حُبَّ الدُّنْيَا رأس كُلِّ خطيئة، ولذا حذَّرنا ربَّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالى منها.

قَالَ تَعَالى: **﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾** [الحديد: ٢٠].

قال العلَّامة السَّعدي -رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «يُخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبيِّن غايتها وغاية أهلها، بأنها لعب ولهو، تلعب بها الأبدان، وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب، والغفلة عن ذكر الله وعمَّا أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا، بخلاف أهل اليقظة وعمال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته ومحبته، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلى الله، من النفع القاصر والمتعدي» ا.هـ[(١)].

وعن عليّ رَضِي الله عَنْهُ أنه قال لعمَّار بن ياسر: «لا تحزن عَلَى الدنيا فإن الدنيا ستَّة أشياء: مأكول ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح؛ فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة، وأكثر شرابها الماء ويستوي فيه جميع الحيوان، وأفضل ملبوسها الديباج وهو نسيج دودة، وأفضل المشموم المِسك وهو دم غزالة، وأفضل المركوب الفَرَس وعليها يُقتل الرِّجال، وأما المنكوح فالنِّساء، وهو مبال في مبال، والله إن المرأة لتزيِّن أحسنها يُراد به أقبحها».

(١) «تفسير السعدي» (٨٤١).

عباد الله...

والزُّهد أقسامٌ: زهدٌ في الحرامِ وهو فرضُ عينٍ. وزهدٌ في الشبهاتِ وهو بحسبِ مراتبِ الشبهةِ، فإنْ قويتِ التحقت بالواجبِ، وإن ضَعُفت كان مستحبًّا، وزهدٌ في الفضولِ، وزهدٌ فيما لا يَعني من الكلامِ والنَّظرِ والسؤالِ واللقاءِ وغيرِه، وزهدٌ في الناسِ، وزهدٌ في النَّفْس بحيث تَهونُ عليه نفسه في الله، وزهدٌ جامعٌ لذلك كُلِّهِ وهو الزُهدُ فيما سوى الله وفي كلِّ ما شَغَلَكَ عنه.

وأفضلُ الزُّهدِ إخفاءُ الزُّهدِ، وأصعبُهُ الزُّهدُ في الحظوظِ.

والفرق بينه وبين الوَرَعِ أنَّ الزُّهدَ تَركُ ما لا ينفع في الآخرة، والورعَ تركُ ما يُخشى ضَررُه في الآخرةِ. والقلبُ المعلَّقُ بالشهواتِ لا يصحُّ له زهدٌ ولا وَرَعٌ[1].

عباد الله...

إن الرغبة عن الدُّنْيَا، والفرار منها مِن غير تحريم لحلالها، ولا تحليل لحرامها، واتخاذ نعيمها مطيّة لطاعة الله تَعَالَى يجمع لك حقيقة الزهد، وحول هَذِهِ الأطلال حام الإمام ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله - فقال: «والتحقيق إنها إن شغلته عن الله فالزهد فيها أفضل وإن لم تشغله عن الله، بل كان شاكرًا لله فيها فحاله أفضل، والزهد فيها تجريد القلب عن التعلق بها، والطمأنينة إليها، والله أعلم».

أخي المسلم...

إن الله تَعَالَى زَهَّدَك في هَذِهِ الدُّنْيَا الغرَّارة، وأكثر لك في كتابه من المواعظ والأمثال ما يَلينُ له الحجر، ولكن أين القلوب؟! تاهت في بيداء الأماني والآمال.

قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا**﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦].

وقال تَعَالَى: ﴿**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا**﴾ [النساء: ٧٧].

---

(١) «مختصر الفوائد» لابن القيم (ص٥٠).

وقال تَعَالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال تَعَالى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

وقال تَعَالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

أخي المسلم...

حقًّا لا يعشق الدنيا إلا ناقص في رأيه، معكوس في سعيه، ولك أخي أن تنظر في هذا التعليم البديع من النبي ﷺ لأصحابه الأبرار رضي الله عنهم: «إذَا مَرَّ ﷺ بالسُّوقِ وَالنَّاسُ حوله فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟». فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟». قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟! فَقَالَ: «فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»[(١)].

يا بَاني الدَّار المُعدَّ لها ... ماذا عملتَ لِدارِكَ الأُخرَى
ومُمهِّدَ الفُرُش الوَثيرة لا ... تُغفل فراشَ الرَّقدَة الكُبرى
ولقد دعيتَ وقدْ أجبَت لما ... تُدعَى له فانظُر لما تُدعَى

ثم أخي، أليس من زهادة الدنيا وحقارتها أن المؤمن لا يجد سعادته إلَّا في دار القرار؟![(٢)]

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ: «مُسْتَرِيحٌ، وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: «العَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالعَبْدُ الفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ العِبَادُ وَالبِلاَدُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) «قواصم الظهور عَلَى دار الغرور (الزهد)» للشيخ أزهري محمود.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

اللَّهُمَّ اجعلنا من أحبِّ خَلقِك إليك، ومن المقرَّبين لديك.

عباد الله...

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وقَدْ يسأل سائل: ما هي الأشياء التي تُعين عَلَى الزُّهد؟ ويجيب عَلَى هذا السؤال المهمّ الإمام ابن رجب الحنبليّ -رَحِمَهُ الله - فيقول: «الذي يُعين عَلَى الزهد ثلاثة أشياء:

أحدها: علم العبد أنَّ الدنيا ظلٌّ زائل، كما قال تَعالى: ﴿**كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْـحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [الحديد: ٢٠]، وسمَّاها: ﴿**مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾.

والثاني: علمه أن وراءها دار أعظم منها، وهي دار البقاء، فالزهد في الدنيا لتلك الدار العظيمة.

والثالث: أن تعلم أن ما قُدِّر لك من الدنيا لابد أن يأتيك، فزهدك عنها لا يمنع أن يأتيك ما كُتب لك منها، كما أن حرصك عليها لا يأتيك بما لم يكتب لك منها». ا.هـ.

فإلى الزهد يا عباد الله، فإن الخير كلَّه في الزُّهد. ولله دَرُّ القائل:

نَـزِهٌ عـن الدُّنـيَا وباطلـها ... لا عَـرَض يَـشغُلهُ ولا نَقْـدُ

رفـضَ الحـياةَ عَلَـى حلاوتهـا ... واخـتارَ مـا فـيه لـه الخلُـدُ

يكفـيه مـا بلـغَ المحـل بـه ... لا يـشتكي إن نابَـهُ جَهْـدُ

فاشـدُد يَـدَيْك إذا ظفـرتَ بـه ... مـا العـيشُ إلاَّ القَـصْدُ والـزُّهدُ

اللَّهُمَّ اجعل الدنيا في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا.

آمين... آمين... آمين

الخطبة المائة:

[جـ] لقطات وعظات من حياة: مسروق بن الأجدع

[أ] علوّ الهمّة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمازلنا بفضل الله - تَعَالَى - نواصل الحديث عن سيرة الوليّ المبارك «مسروق بن الأجدع» وما فيها من دروس وعظات.

عباد الله...

إن الله تَعَالَى خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه، ويَخْشَوه ويخافوه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ

هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨].

علم المؤمنون ذَلِكَ، فأجهدوا أنفسهم في العبادة، مع ملازمة الخوف من التقصير وعدم القبول.

وَذِكْرُ أحوالِهِم يطول، ويكفي أن نشير هنا إلى لقطات من حياة الإمام مسروق، لنرى كيف جاهد نفسه في طاعة مولاه، مع خوفٍ دائم، وقلقٍ ملازم.

قال أهل السِّير: كان مسروق الأجدع -رَحِمَهُ الله - يُرخي السِّتر بينه وبين أهله ويُقبل عَلَى صلاته ويُخَلِّيهم ودُنياهم!!

وقال الشَّعبيّ: غُشي عَلَى مسروق في يوم صائف - وكان صائمًا - وكانت عائشة رَضِي الله عَنْهَا قَدْ تَبَنَّته، فسمَّى بنته عائشة، وكان يعصي ابنته شيئًا، قال: فنزلت إليه فقالت: يا أبتاه أفطر واشرب، قال: ما أردت بي يا بُنية؟ قالت: الرّفق، قال: يا بُنَيَّة إنما طلبتُ الرِّفق لنفسي في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة.

ومع هذه الهمّة العالية كان يقول: لو آتاني آتٍ من رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فأخبرني أنه يُعذبني لاجتهدت في العبادة لئلا ألوم نفسي إن دخلت جهنم، أما بلغك في قوله تَعَالَى: ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، إنما لاموا أنفسهم حين صاروا إلى جهنم واعتنقتهم الزبانية، وحيل بينهم وبين ما يشتهون، وانقطعت عنهم الأماني، ورفعت عنهم الرحمة، وأقبل كل امرئ منهم يلوم نفسه.

عباد الله...

لقد حاز السَّلف الصالح من تلك المعاني كُلَّ فضيلة، فدفعتهم عزائمهم إلى الترقِّي في ساحات العبودية، والتخلِّي عن الكسل والفتور ودناءة الهمّة، فأقبلوا عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ بقلوب خاشعة، وتنقَّلوا بين منازل العبوديّة، فهم يعلمون أنهم في ميدان سباق، وأن حياتهم هي زمن هذا السباق، فإن أضاعوا أعمارهم خسروا، وإن اغتنموها فازوا وربحوا.

لقد أخذ سلفنا الصَّالح حَظًّا وافرًا من كل ألوان العبوديّة، وسبب ذَلِكَ: إخلاصهم، وعلوّ همتهم.

قال ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله -: «لابد للسَّالِك من همَّةٍ تُسَيِّره وترقِّيه، وعلمٍ يُبصّره ويهديه».

وهذا من أحسن الكلام وأجمله.

وقال ابن الجوزيّ -رَحِمَهُ الله -: «مَن رُزق همة عالية يُعَذَّب[1] بمقدار علوَّها، كما قال الشاعر:

وإذا كانـت الـنفوسُ كـبارًا تعـبت في مـرادها الأجـسام

وقال الآخر:

ولكـل جـسم في الـنّحول بلـيةٌ وبـلاء جـسمي مـن تفـاوت همـتي

وبيان هذا أن من علت همته طلب العلوم كُلَّها ولم يقتصر على بعضها وطلب من كلِّ علم نهايته، وهذا ما لا يحتمله البدن.

ثم يرى أن المراد العمل، فيجتهد في قيام الليل وصيام النهار، والجمع بين ذلك وبين العلم صعب.

ثم يرى ترك الدنيا ويحتاج إلى ما لا بد منه، ويحب الإيثار ولا يقدر على البخل، ويتقاضاه الكرم البذل، ويمنعه عز النفس عن الكسب من وجوه التبذل.

فإن هو جرى على طبعه من الكرم، احتاج وافتقر وتأثر بدنه وعائلته، وإن أمسك فطبعه يأبى ذلك.

وفي الجملة يحتاج إلى معاناة وجمع بين أضداد، فهو أبدًا في نصب لا ينقضي، وتعب لا يفرغ.

ثم إذا حقق الإخلاص في الأعمال زاد تعبه وقوي وُصَبُه، فأين هو ومن دنت همته؟

إن كان فقيهًا فسُئل عن حديث قال: ما أعرفه، وإن كان مُحدثًا فَسُئل عن مسألة فقهية قال: ما أدري، ولا يبالي إن قيل عنه: مقصِّر.

---

(١) يعذب هنا بمعنى يتعب.

والعالي الهمة يرى التقصير في بعض العلوم فضيحة قد كشفت عيبه، وقد رأت الناس عورته.

والقصير الهمة لا يبالي بمنن الناس ولا يستقبح سؤالهم ولا يأنف من رد، والعالي الهمة لا يحمل ذلك.

ولكن تعب العالي الهمة راحة في المعنى، وراحة القصير الهمة تعب وشين إن كان ثَمَّ فهم.

والدنيا دار سباق إلى أعالي المعالي، فينبغي لذي الهمة أن لا يقصر في شوطه.

فإن سبق فهو المقصود. وإن كبا جواده مع اجتهاده لم يُلَم[1].

وقال أيضًا: كانت همم القُدماء من العلماء عليةً، تدلُّ عليها تصانيفهم التي هي زبدة أعمارهم، إلَّا إن أكثر تصانيفهم دَثرت، لأن همم الطلاب ضعفت، فصاروا يطلبون المختصرات، ولا ينشطون للمطوّلات، ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها، فدثرت الكتب ولم تُنسخ.

فسبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاع على الكتب التي قد تخلفت من المصنفات، فليكثر من المطالعة فإنه يرى من علوم القوم وعلو هممهم ما يشحذ خاطره ويحرك عزيمته للجد، وما يخلو كتاب من فائدة.

وأعوذ بالله من سِيَرِ هؤلاء الذين نعاشرهم، لا نرى فيهم ذا همة عالية فيقتدي بها المبتدي، ولا صاحب ورع فيستفيد منه الزاهد.

فالله الله وعليكم بملاحظة سير السلف، ومطالعة تصانفيهم، وأخبارهم، فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم، كما قال:

فاتني أن أرى الديار بطرفي ... فلعلّي أرى الديار بسمعي

وإني أخبر عن حالي، ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتاباً لم أره، فكأني وقعت على كنز.

---

(١) «صيد الخاطر» (٧٢٨، ٧٢٩).

ولقد نظرت في ثَبَتِ الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد، وفي ثبت كتب أبي حنيفة وكتب الحميدي، وكتب شيخنا عبد الوهاب ابن ناصر، وكتب أبي محمد بن محمد بن الخشاب وكانت أحمالاً، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه.

ولو قلت: إني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر وأنا بعد في الطلب، فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم وقدر هممهم وحفظهم وعباداتهم وغرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرت أستزري ما الناس فيه، وأحتقر همم الطلاب ولله الحمد[١].

عباد الله...

إن كثيرًا من النَّاس عَلَى ما فيهم من خير، يفتقدون العزيمة الصَّادقة التي تؤهلهم إلى إدراك ما يتمنونه من مشاريع الخير، فهناك موانع كثيرة تحول بينهم وبين إكمال تلك المهمّات، منها: البخل والجُبن، والخوف، والتسويف، وطول الأمل، وسوء الظنّ، وغير ذَلِكَ من الأسباب التي تجعل مشاريع الخير - التي تجرُّ عَلَى الإنسان خيري الدنيا والآخرة - مجرَّد أحلام تراود أصحابها طالما استمروا عَلَى تلك الحال من الفتور وضعف العزيمة، ويلعب الشيطان دورًا ماكرًا في تثبيط المؤمنين عن كل فضيلة[٢].

عَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِى فَاكِهٍ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلاَمِ فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ؟ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَةِ فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ وَإِنَّمَا مَثَلُ المُهَاجِرِ كَمَثَلِ الفَرَسِ فِي الطِّوَلِ[٣]، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ المَرْأَةُ وَيُقْسَمُ المَالُ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ

(١) «صيد الخاطر» (٧٠٦، ٧٠٧).
(٢) «نحو المعالي» ط. دار الوطن (٤).
(٣) الطول: الحبل.

الجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ»(١).

قال ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله- عقب هذا الحديث: «فالشيطان بالرّصد للإنسان عَلَى طريق كُلّ خير» ا.هـ(٢).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ»(٣).

عباد الله...

وعالي الهمّة يحتاج في خلال سفره إلى الله تَعَالَى إلى قوّة عزم.

والعزم: هو القصد الجازم المتَّصل بالفعل، ولذلك قيل: إنه أول الشروع في الحركة لطلب المقصود.

والتحقيق: أن الشروع في الحركة ناشئ عن العزم، لا أنه هو نفسه، ولكن لما اتَّصل به من غير فصلٍ ظنَّ أنه هو(٤).

قال الإمام ابن رجب الحنبليّ - رَحِمَهُ الله -: «والعزيمة عَلَى الرشد مبدأ الخير، فإن الإنسان قَدْ يعلم الرشد وليس عليه عزم، فإذا عزم فعله، أفلح.

والعزيمة: هي القصد الجازم المتّصل بالفعل.

وقيل: استجماع قوى الإرادة عَلَى الفعل، ولا قدرة للعبد عَلَى ذَلِكَ إلَّا بالله، فلهذا كان من أهمّ الأمور: سؤال الله العزيمة عَلَى الرشد، فالعبد يحتاج إلى الاستعانة بالله،

---

(١) **صحيح:** رواه النسائي (٦/ ٢١، ٢٢)، وغيره، وصححه ابن حبان والألباني، وحسنه ابن حجر في «الإصابة» (٣/ ٦٤).

(٢) «صحيح إغاثة اللهفان» (١٠٩).

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) «مدارج السالكين».

والتوكّل عليه في تحصيل العزم، وفي العمل بمقتضى العزم بعد حصوله، قال تَعَالَى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

نسأل الله تَعَالَى العزيمة عَلَى الرشد، إنه وليّ ذَلِكَ والقادر عليه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وإضافة لما سبق، فإن العزم نوعان:

أحدهما: العزم عَلَى الدخول في الطريق، وهو من البدايات.

والثاني: العزم عَلَى الاستمرار عَلَى الطاعات بعد الدخول فيها، وعلى الانتقال من حال كامل إلى حال أكمل منه، وهو من النهايات.

فالعزم الأول يحصل للعبد به الدخول في كلّ خير، والتباعد من كلّ شر، إذ به يحصل للكافر الخروج من الكفر والدخول في الإسلام، وبه يحصل للعاصي الخروج من المعصية والدخول في الطاعة، فإذا كانت العزيمة صادقة وصمّم عليها صاحبها، وحمل عَلَى هوى نفسه وعلى الشيطان حملة صادقة، ودخل فيما أمر به من الطاعات فقد فاز.

وعون الله للعبد عَلَى قدر قوّة عزيمته وضعفها، فمن صمم عَلَى إرادة الخير أعانه الله وثبّته، كما قيل:

عَلَى قَدْر أهلِ العَزم تأتي العزائمُ وتأتي عَلَى قَدرِ الكِرامِ المكارمُ

وللحديث عن علوّ الهمّة بقيّة، إن شاء الله تَعَالَى.

۞۞۞۞۞

الخطبة الحادية بعد المائة:

[د] لقطات وعظات من حياة: مسروق بن الأجدع

[ب] علوّ الهمّة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل - إن شاء الله تَعَالَى - الحديث عن علوّ الهمة، وذلك من خلال سردنا لقصّة الإمام: مسروق بن الأجدع -رَحِمَهُ الله -.

عباد الله...

إن الخير كلّه منوط بالعزيمة الصَّادقة عَلَى الرشد، وهي الحملة الأولى التي تهزم جيوش الباطل، وتوجب الغلبة لجنود الحقّ.

زجـر الحـقُّ فـؤادي فارعـوى ... وأفـاق القلـبُ مِنِّـي وَصَحا

هَـزَمَ العَـزمُ جيوشًـا للهـوى ... سـادتي لا تعجبـوا إن صـلحا

قال أبو حازم -رَحِمَهُ الله -: «إذا عزم العبدُ عَلَى ترك الآثام أَتَتْهُ الفتوحُ».

وسُئل بَعضُ السَّلف: متى ترتحل الدنيا من القلب؟ قال: إذا وقعت العزيمة ترحّلت الدنيا من القلب.

وقال الدكتور مُحَمَّد سعيد رسلان - حفظه الله -: «لو ثبت ذرّةٌ من حقّ أمام جبل من الباطل لأزالته»، أَوْ نحو هذا الكلام.

وقال الإمام ابن الجوزيّ -رَحِمَهُ الله -: «ينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه، فلو كان يتصور للآدمي صعود السموات لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض.

ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض، غير أنه إذا لم يمكن ذلك فينبغي أن يطلب الممكن، والسيرة الجميلة عند الحكماء خروج النفس إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل.

فينبغي أن يطلب الغاية في العلم، ومن أقبح النقص التقليد، فإن قويت همتُه رقَّته إلى أن يختار لنفسه مذهبًا ولا يتمذهب لأحدٍ، فإن المقلّد أعمى يقوده مقلّده.

ثم ينبغي أن يطلب الغاية في معرفة الله تعالى ومعاملته.

وفي الجملة لا يترك فضيلة يمكن تحصيلها إلا حصلها. فإن القنوع في حالة الأرذال.

فكـن رجـلاً رجلـه في الثـرى ... وهامـة همّـته في الثـريّا

ولو أمكنك عبور كل أحد من العلماء والزهاد فافعل، فإنهم كانوا رجالاً وأنت رجل، وما قعد من قعد إلا لدناءة الهمة وخساستها.

ولا تخلد إلى كسل، فما فات ما فات إلا بالكسل، ولا نال من نال إلا بالجد والعزم، وإن الهمة لتغلي في القلوب غليان ما في القدور، وقد قال بعض السلف:

لـيس لـي مـالٌ سـوى كرمـي ... فـبه أحـيا مـن العـدم

قـنعت نفـسي بمـا رُزقـت ... وتمطَّـت في العـلا هممـي»[1]

---

(١) «صيد الخاطر» (٢٨٢، ٢٨٦) باختصار.

وقال أيضًا: البلايا على مقادير الرجال، فكثير من الناس تراهم ساكتين راضين بما عندهم من دين ودنيا، وأولئك قوم لم يرادوا لمقامات الصبر الرفيعة، أو علم ضعفهم عن مقاومة البلاء فلطف بهم.

إنما المحنة العظمى أن تُرزق همة عالية لا تقنع منك إلا بتحقيق الورع، وتجويد الدين، وكمال العلم، ثم تبتلى بنفس تميل إلى المباحات، وتدعى أنها تجمع بذلك همها، وتشفي مرضها، لتقبل مزاحمة العلة على تحصيل الفضائل.

وهاتان الحالتان كضدَّين، لأن الدنيا والآخرة ضَرَّتان.

واللازم في هذا المقام مراعاة الواجبات، وأن لا يفسح للنفس في مباح لا يؤمن أن يتعدى منه إعراض عن واجب ورع.

المبتلي يصيح، فلأن يبكي الطفل خير من أن يبكي الوالد.

واعلم أن فتح باب المباحات ربما جرَّ أذى كثيرًا في الدين، فأوثق السَّكْرَ[1] قبل فتح الماء وألبس الدرع قبل لقاء الحرب، وتلمح عواقب ما تجني قبل تحريك اليد، واستظهر في الحذر باجتناب ما يخاف منه وإن لم يُتيَقَّن[2].

فإيَّاك أيُّها المسلم والدُّون، فإن أهل العزائم لا يرضون بالدُّون، ولله دَرُّ القائل:

كُــنْ كالــصُّقور عَلَــى الــذُّرا ... تَــصغَى لَوسْوَسَــة القَمَــر
لا كالغــراب يُطــارد الـــ ... ـجِيَفَ الحَقِــيرة في الحُفَــرْ

عباد الله...

وعلوّ الهمّة منه ما يُحْمَد ومنه ما يُذَمّ:

قَالَ الإمام ابنُ الجَوزيّ - رَحِمَهُ الله -: «ما ابتلي الإنسان قط بأعظم من علوّ همَّته. فإن من علت همته يختار المعالي، وربما لا يساعده الزمان، وقد تضعف الآلة، فيبقى في عذاب.

---

(١) السَّكر: سدُّ النهر.

(٢) «صيد الخاطر» (٣٥٢، ٣٥٣).

وإني أعطيت من علوِّ الهمة طرفًا فأنابه في عذاب، ولا أقول ليته لم يكن فإنه إنما يحلو العيش بقدر عدم العقل، والعاقل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل.

ولقد رأيت أقوامًا يصفون علو هممهم، فتأملتها فإذا بها في فن واحد. ولا يبالون بالنقص فيما هو أهم، قال الرضيُّ:

ولكــل جــسم في الــنحول بلــيةٌ وبــلاء جــسمي مــن تفــاوت همــتي

فنظرت فإذا غاية أمله الإمارة.

وكان أبو مُسلم الخراساني في حال شبيبته لا يكاد ينام، فقيل له في ذلك فقال: ذهن صاف، وهمٌّ بعيد، ونفسٌ تتوق إلى معالي الأمور، مع عيش كعيش الهمج الرعاع. قيل: فما الذي يبرد غليلك. قال: الظفر بالملك. قيل: فاطلبه، قال: لا يطلب إلَّا بالأهوال. قيل: فاركب الأهوال، قال. العقلُ مانع. قيل: فما تصنع؟ قال: سأجعل من عقلي جهلاً، وأحاول به خطرًا لا ينال إلَّا بالجهل، وأدبر بالعقل ما لا يحفظ إلا به، فإن الخمول أخو العدم.

فنظرت إلى حال هذا المسكين فإذا هو قد ضيَّع أهم المهمات وهو جانب الآخرة، وانتصب في طلب الولايات. فكم فتك وقتل؟ حتى نال بعض مراده من لذات الدُّنْيَا، ثم لم يتنعم في ذلك غير ثمان سنين، ثم اغتيل، ونسي تدبير العقل، فقتل ومضى إلى الآخرة على أقبح حال.

ونظرت إلى علوِّ همتي فرأيتها عجبًا، وذلك أنني أروم من العلم ما أتيقَّن أني لا أصل إليه، لأنني أحبُّ نيل كلِّ العلوم على اختلاف فنونها، وأريد استقصاء كل فن، هذا أمر يعجز العمر عن بعضه.

فإن عرض لي ذو همةٍ في فنٍّ قد بلغ منتهاه رأيته ناقصًا في غيره، فلا أعد همته تامة، مثل المحدِّث فاته الفقه، والفقيه فاته علم الحديث، فلا أرى الرضا بنقصان من العلوم إلا حادثًا عن نقصه الهمة.

ثم إني أروم نهاية العمل بالعلم، فأتوقُ إلى ورع بِشْرٍ، وزهادة معروفٍ، وهذا مع مطالعة التصانيف وإفادة الخلق ومعاشرتهم بعيد.

ثم إني أروم الغني عن الخلق، وأستشرفُ الإفضالَ عليهم، والاشتغال بالعلم مانع من الكسب، وقبولُ المنن مما تأباه الهمة العالية.

ثم إني أتوقُ إلى طلب الأولاد، كما أتوق إلى تحقيق التصانيف، ليبقى الخلفان نائبين عني بعد التلف. وفي طلب ذلك ما فيه من شغل القلب المحب للتفرُّد.

فأين أنا وما وصفته من حال من كانت غاية همته الدُّنْيَا، وأنا لا أحب أن يخدش حصول شيء من الدنيا وَجْهَ ديني بسبب، ولا أن يؤثر في علمي ولا في عملي.

فَوَا قَلقي من طلب قيام الليل، وتحقيق الورع مع إعادة العلم، وشغل القلب بالتصانيف. وتحصيل ما يلائم البدن من المطاعم.

وَوَا أسفى على ما يفوتني من المناجاة في الخلوة مع ملاقاة الناس وتعليمهم، ويا كدر الورع مع طلب ما لا بد منه للعائلة.

غير أني قد استسلمت لتعذيبي، ولعل تهذيبي في تعذيبي، لأن علو الهمة تطلب المعالي المقربة إلى الحق عز وجل.

وربما كانت الحيرةُ في الطلب دليلًا إلى المقصود، وها أنا أحفظ أنفاسي من أن يضيع منها نفس في غير فائدة، وإن بلغ همي مراده، وإلا فنيةُ المؤمن خيرٌ من عمله». ا.هـ[(١)].

عباد الله...

إن الوقت لا يُقَوَّم بشيء نفاسة، والزمان من جملة أصول النِّعم، فاحذروا ضياع الوقت وهو الفَوت، فإنه أشدّ من الموت.

قال يحيى بن معاذ الرَّازي - رَحِمَهُ الله -: «الفَوت أشدُّ من المَوت، لأن الفَوتَ انقطاعٌ عن الحَقِّ، والموتَ انقطاعٌ عن الخَلق».

واعلموا - عباد الله - أن النَّفس قَدْ يخرج ولا يعود، وأن العين قَدْ تطرف ولا تطرف الأخرى إلَّا بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ، قال تَعَالى: ﴿**فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا**﴾ [مريم: ٨٤].

---

(١) «صيد الخاطر» (٣٩٩ - ٤٠٢) باختصار.

آخر العدد - يا ابن آدم - خروج روحك.

آخر العدد فراق أهلك.

آخر العدد ركوب نعشك.

آخر العدد دخول قبرك.

قال ابن عَبَّاس رَضِيَ الله عَنْهُمَا في قوله تَعَالى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَـهُمْ عَدًّا﴾ أي: نعدُّ أنفاسهم في الدنيا.

وروي أن المأمون قرأ سورة مريم فمرّ بهذه الآية: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَـهُمْ عَدًّا﴾ وعنده جماعة من الفقهاء، فأشار برأسه إلى ابن السَّماك (الواعظ) أن يعظه، فقال: «إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مَدَد، فما أسْرَعَ ما تَنْفَد».

وقيل في هذا المعنى:

حـــياتُك أنفـــاسٌ تُعَــدُّ فكلَّمــا	مـضى نَفَسٌ مـنك انتقصت به جُزءَا
يُميــتك مــا يُحيــيك في كــل لـيلة	وَيَحـدُوك حَـادٍ ما يُريد به الهُزءَا[١]

عباد الله...

كلنا قَدْ أيقن بالجنة ونعيمها، وأيقن بصدق الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، وقَدْ قال: «**مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ. غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ**»[٢].

وما من شجرة في الجَنَّة إلّا وساقها من خالص الذَّهب.

وفي الساعة أربعة آلاف تسبيحة، فانظروا كم ضيَّعنا من الساعات، وكم ضيَّعنا من نخيل الجَنَّة.

وعن عائشة رَضِي الله عَنْهَا قالت: قال رَسُول الله ﷺ: «**ما مِن ساعة تمُرّ بابن آدم لم يذكر الله فيها، إلّا حَسِرَ عليها يَوْمَ القيامة**»[٣].

---

(١) «تفسير القرطبي» (١١/ ٧٢).

(٢) صحيح: رواه الترمذي وابن حبان، وغيرهما، وانظر «الصحيحة» (٦٤).

(٣) حسن: رواه أبو نُعيم في «الحلية»، وغيره، وانظر «الصحيحة» (٢١٩٧).

فاغتنموا – عباد الله – بقايا العمر، واستعينوا بالله، ولا تعجزوا، وفقَّني الله وإيَّاكم لما يُحبُّ ويرضى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن ثمرات علوّ الهمة في طلب الآخرة: ربح الدارين، وكفى به ربحًا.

قال الإمامُ ابن الجوزيّ –رَحِمَهُ الله –: «تأملت أحوال الناس في حالة علوِّ شأنهم، فرأيت أكثر الخلقِ تبين خسارتهم حينئذٍ، فمنهم من بالغ في المعاصي من الشباب، ومنهم من فرط في اكتساب العلم، ومنهم من أكثر من الاستمتاع باللذات، فكلهم نادم في حالة الكبر حين فوات الاستدراك لذنوب سلفت، أو قوى ضعفت، أو فضيلة فاتت، فيمضي زمان الكبر في حسرات.

فإن كانت للشيخ إفاقة من ذنوب قد سلفت قال واأسفًا على ما جنيت، وإن لم يكن له إفاقة صار متأسفاً على فوات ما كان يلتذُّ به.

فأما من أنفق عصر الشباب في العلم فإنه في زمن الشيخوخة يحمد جني ما غرس ويلتذُّ بتصنيف ما جمع، ولا يرى ما يفقد من لذات البدن شيئاً بالإضافة إلى ما يناله من لذات العلم، هذا مع وجود لذاته في الطلب الذي كان تأمل به إدراك المطلوب، وربما كانت تلك الأعمال أطيب مما نيل منها كما قال الشاعر:

اهتـز عـند تمـني وصـلها طـربًا ... ورب أمنـية أحلـى مـن الظفـر

ولقد تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا، وأنفقت زمن الصبوة والشباب في طلب العلم، فرأيتني لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حصل لي ندمت عليه.

ثم تأملت حالي فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم، وجاهي بين الناس أعلى من

جاههم. وما نلته من معرفة العلم لا يقاوم.

فقال لي إبليس: ونسيت تعبك وسهرك.

فقلت له: أيها الجاهل، تقطيع الأيدي لا وقع له عند رؤية يوسف، وما طالت طريق أدت إلى صديق:

جزى الله المسير إليه خيرًا وإن ترك المطايا كالمزاد

ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل لأجل ما أطلب وأرجو.

كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم». ا.هـ[١].

عباد الله...

لقد كان سلفنا من شدّة حرصهم عَلَى عمارة أوقاتهم أن «**داود الطائي**» رَحِمَهُ الله كان يستفّ الفتيت ويقول: «بين سفِّ الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية».

هكذا كانوا...

«فالموفق من تلمَّح قِصَر الموسم المعمول فيه، وامتداد زمان الجزاء الذي لا آخر له انتهب حتى اللحظة وزاحم كل فضيلة، فإنها إذا فاتت فلا وجه لاستدراكها.

أَوَليس في الحديث «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**»[٢].

فلو أن الفكر عمل في هذا حقَّ العمل، حُفظ القرآن عاجلاً»[٣].

---

(١) «صيد الخاطر» (٣٩٤، ٣٩٥).
(٢) رواه أحمد والترمذي، وقال: حسن صحيح.
(٣) من كلام ابن الجوزيّ في «صيد الخاطر».

عباد الله...

وبعد هذا الحديث المهم عن «علوّ الهمة» نعود إلى «**مسروق بن الأجدع**» -رَحِمَهُ الله - لنتحدث عن آخر لحظة في حياته.

تقول زوجته: ما كان يوجد إلا وساقاه قَدْ انتفختا من طول الصَّلاة، ولما احتُضر بكى فقيل له: ما هذا الجزع؟ فقال: وما لي لا أبكي وإنما هي هذه ثم لا أدري أين يُسلك بي، بين يديّ طريقان لا أدري إلى الجَنَّة أَوْ إلى النار.

رحم الله الإمام مسروق بن الأجدع، وبلَّل ثراه، وجعل الجَنَّة مثواه.

✡✡✡✡✡

الخطبة الثانية بعد المائة:

لقطات وعظات من حياة: سالم بن عبد الله

الاستغناء بالله تعالى

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن الاستغناء عن النَّاس؛ عِزٌّ.

عن سهل بن سعدٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قال: جاء جبريلُ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: **«يا مُحَمَّد، عِشْ ما شئت فإنَّك مَيِّتٌ، واعمل ما شئت فإنَّك مَجْزِيٌّ به، وأحبب مَنْ شئتَ فإنَّك مُفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام اللَّيل، وعزَّهُ اسْتِغناؤه عن النَّاس»**[1].

---

(١) **حسن**: رواه الطبراني في «الأوسط»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٣).

وقال ابن حازم:

لَبُوس ثوبَين باليَين وطَى يَوم وليلتين

أهون من مِنّة لقوم أغضّ منها جفون عيني

إنِّي وإن كنتُ ذا عيال قليل مال كثير دَيْن

لأحمد الله حين صارت حوائجي بَيْنه وبيني

وقال غيره:

ونقلُ الصَّخْر من تلك الجبال أخفّ عليَّ مِنْ مِنَن الرِّجَال

يقول النَّاسُ كسبٌ فيه عارٌ فقلتُ: العارُ في ذُلّ السُّؤَال

عباد الله...

ونلتقي في هَذِهِ الخطبة - إن شاء الله تَعَالى - مَعَ تابعيّ جليل رَزَقه الله تَعَالى عفّة في النَّفْس، وأغناه الله تَعَالى بالافتقار إليه وحده دون غيره.

نلتقي مَعَ «**سالم بن عبد الله بن عمر**» مفتي المدينة.

فمن هو سالم؟

هو الإمام، الزاهد، القدوة، العابد، الحافظ، مفتي المدينة: سالم بن عبد الله بن عمر ابن الخطاب - رَحِمَهُ الله - ورضي الله عن والديه.

وُلد - رَحِمَهُ الله - في خلافة عثمان بن عفان، وكان أشبه وَلَدِ عبد الله به.

قَالَ الحافظ ابن كثير - رَحِمَهُ الله -: وكان سالم من العُبَّاد الزهاد، وكان خشن العيش يلبس الصوف الخشن، وكان يعالج بيده أرضًا له وغيرها من الأعمال، ولا يقبل من الخلفاء، وكان متواضعًا وكان شديد الأدمة، وله من الزهد والورع شيء كثير[1].

وقال مالك: لم يكن أحدٌ في زمان «سالم» أشبه بمن مضى من الصالحين في الزهد

---

(١) «البداية والنهاية» (٦/ ٣٧٦).

والفضل والعَيْش منه؛ وكان يلبسُ الثوب بدرهمين، ويشتري الشِّمال[١] ليحملها، قَالَ: فقال سليمان بن عبد الملك - أمير المؤمنين - لسالم ورآه حَسَن السّحنة[٢]: أي شيء تأكل؟ قَالَ: الخبز والزَّيت، وإذا وجدتُ اللَّحم أكلتهُ، فقال له عمر بن عبد العزيز: أَوَتَشتهيه[٣]؟ قَالَ: إذا لم أشتهِه، تركتُه حَتَّى أشتهيه.

وكان سالم - رَحِمَهُ الله - مِن أحبّ أولاد ابن عمر إليه.

فعن نافع قَالَ: كان ابن عمرُ يُقَبِّل سالمًا ويقول: شيخٌ يُقَبِّل شيخًا.

وكان ابن عمر يُلام في حُبِّ سالم، فكان يقول:

يَلُومــونني في ســالم وألــومُهُم وجلـدةُ بَـيْنَ العَـيْن والأنْـفِ سـالِمُ

ويقول خالد بن أبي بكر: رأيت عَلَى سالم قَلنسوةً بيضاء، وعمامةٍ بيضاء يَسدِلُ منها خلفه أكثر من شبر.

عباد الله...

وكان سالم بن عبد الله - رَحِمَهُ الله - عفيف النَّفْس، مستغنيًا بالله تَعَالى وحده.

قَالَ ابن عُيينة: دخل هشام بن عبد الملك الكعبة في موسم الحج، فإذا هو بسالم بن عبد الله فقال له: سلني حاجة؟ قَالَ سالم: إني لأستحي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلما خرج سالم خرج هشام في أثره فقال له: الآن قد خرجت من بيت الله فسلني حاجة، فقال سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ قَالَ: من حوائج الدُّنْيَا، فقال سالم: إني ما سألت الدنيا مَن يملكها، فكيف أسألها مَنْ لا يَملِكها؟

هَذِهِ هي التربية الصحيحة التي استقت نهجها واعتقادها من الدين الحنيف، فلا يلين لغني، ولا يتضعضع أمام فقير، فهو كاللؤلؤة معها حُسنُها أينما كانت.

---

(١) مفردها: شملة، وهي كساء دون القطيفة يُشتمل به.

(٢) حسن السحنة: أي: حسن الهيئة.

(٣) يقصد: الخبز والزيت.

أيُّهَا المسلمون...

إن الإسلام دعا إلى عفّة النَّفْس والاستغناء عن النَّاس، والقناعة.

عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**طُوبَى لِمَنْ هُدِىَ إِلَى الإِسْلاَمِ وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنِعَ**»[(١)].

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ**»[(٢)].

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا وَأَقِلَّ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ القَلْبَ**»[(٣)].

عباد الله...

وقَدْ مدح الله تَعَالى أهل العفّة والقناعة في كتابه العزيز.

قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الـجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وقَدْ طبَّق الصحابة رضي الله عنهم هذا في الواقع المعاشي، اسمعوا:

عن حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِى، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِى، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِى ثُمَّ قَالَ: «**يَا حَكِيمُ إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ كَالَّذِى يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى**».

قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالحَقِّ لاَ أَرْزَأُ أَحَدًا[(٤)] بَعْدَكَ شَيْئًا

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٩)، والحاكم (١/ ٣٥)، وقال: صحيح عَلَى شرط مسلم، ووافقه الذهبي.
(٢) رواه مسلم (١٠٥٤).
(٣) رواه ابن ماجه (٤٢١٧)، وقال في «الزوائد»: إسناده حسن.
(٤) **لا أرزأ أحدًا**: أي لا أصيب من ماله بالطلب منه ولا أنقصه شيئًا.

حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى العَطَاءِ فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا.

فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ، أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ. فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى تُوُفِّيَ[١].

وقَدْ كان النَّبيُّ ﷺ يبايع أصحابه عَلَى أن لا يسألوا النَّاسَ شيئًا.

فعن أبي عبد الرحمن عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ الأَشْجَعِيُّ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً فَقَالَ: **«أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟»** وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ. ثُمَّ قَالَ: **«أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟»**. فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ. ثُمَّ قَالَ: **«أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟»**. قَالَ: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ فَعَلاَمَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: **«عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ وَتُطِيعُوا - وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً - وَلاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا»**.

فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ[٢].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

والمقصود: أن عفّة النَّفْس من أخلاق المؤمنين، والتحلّي بهذا الخُلُق الكريم يقي الإنسان من شرور كثيرة.

فإن العبد إذا ابْتُلي بالطمع، أدّاه الطمع إلى أكل الحرام، وأعانه عَلَى كل شرّ، ثم كانت العاقبة الحرمان!!

قَالَ أبو بكر الورّاق - رَحِمَهُ الله -: «لو قيل للطمع: مَن أبوك؟ قَالَ: الشّك في المقدور. ولو قيل: ما حِرفَتك؟ قَالَ: اكتساب الذُّل. ولو قيل: ما غايتك؟ قَالَ: الحرمان»[٣].

---

(١) رواه البخاري (١٤٧٢)، ومسلم (٢٩٦٣)، واللفظ له.

(٢) رواه مسلم والترمذي والنسائي باختصار.

(٣) «الرسالة القشيرية» (٢٤).

عباد الله...

وقَدْ قصّ الله تَعَالَى علينا في كتابه الكريم ما يدلّ عَلَى ذَلِكَ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ١٧ - ٣٣].

قَالَ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله -: «من عقوبات الذنوب أنها تزيل النِّعم، وتحلّ النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلَّا لسبب ذنب، ولا حلّت به نقمة إلا بذنب، كما قَالَ عليّ بن أبي طالب رَضِيَ الله عَنْهُ: «ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفع إلَّا بتوبة، وقَدْ قَالَ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

فَإِذَا غَيَّر غُيِّرَ عليه جزاءً وفاقًا، وما ربُّك بظلَّامٍ للعبيد، فإن غيَّر المعصية بالطاعة غيَّر الله عليه العقوبة بالعافية والذُّل بالعزّ»[١].

وهذه قصة حقيقية ذكرها ربُّ العزة سبحانه في كتابه الكريم في سورة القلم، وقعت أحداثها عَلَى أرض اليمن وبالتحديد في قرية يقال لها «ضروان»[٢] عَلَى ستة أميال من صنعاء: عاش في هَذِهِ القرية «ضروان» أحدُ الصالحين الأغنياء وكان من أهل المعروف، قَالَ ابن كثير: وقَدْ كان يسير فيها سيرة حسنة، أي: في جنته التي كان يمتلكها، فكان يستغل منها ويرد فيها ما تحتاج إليها - أي من زرعها - ويدَّخر لعياله قوت سَنَتهم ويتصدَّق بالفاضل، فلما مات وورثه بنوه قالوا: لقد كان أبونا أحمق إذ كان

---

(١) «الجواب الكافي» (٥٥)

(٢) روى ذَلِكَ سعيد بن جبير رَضِيَ الله عَنْهُ. «تفسير ابن كثير» (٤/ ٦٣٦).

يصرف من هَذِهِ شيئًا للفقراء، ولو أنّا منعناهم لتوفَّر ذَلِكَ علينا، فلما عزموا عَلَى ذَلِكَ عُوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله بأيديهم بالكلية رأس المال والربح والصدقة فلم يبق لهم شيء(١).

قَالَ تَعَالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ أي: اختبرناهم، قال ابن كثير: هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجسيمة، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة.

قَالَ الشوكاني: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ يعني: كفار مَكَّة، فإن الله ابتلاهم بالجوع والقحط بدعوة رسول الله ﷺ، والابتلاء: الاختبار، والمعنى: أعطيناهم الأموال ليشكروا لا ليبطروا، فلما بطروا ابتليناهم بالجوع والقحط(٢).

قوله تَعَالى: ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧].

قال ابن كثير: وهي البستان المشتمل عَلَى أنواع الثمار والفواكه.

وقال الشوكاني: المعروف خبرهم عندهم، وذلك أنها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدّي حقّ الله منها، فمات، وصارت إلى أولاده، فمنعوا الناس خيرها وبخلوا بحقّ الله فيها. قال الواحدي: هم قوم من ثقيف كانوا باليمن مسلمين ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنات وزرع ونخيل، وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شيء حظاً للمساكين عند الحصاد والصرام، فقالت بنوه: المال قليل والعيال كثير، ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا، وعزموا على حرمان المساكين، فصارت عاقبتهم إلى ما قصّ الله في كتابه. قال الكلبي: كان بينهم وبين صنعاء فرسخان ابتلاهم الله بأن حرق جنتهم. وقيل: هي جنة كانت بصوران، وصوران على فراسخ من صنعاء، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى بيسير(٣).

﴿إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧] أي: حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها

---

(١) «فتح القدير» (٥/ ٢٧١).
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

ليلًا لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم: ١٨] قَالَ الشوكاني: يعني: ولا يقولون: إن شاء الله، وقيل المعنى: ولا يستثنون للمساكين من جملة ذلك القدر الذي كان يدفعه أبوهم إليهم، قاله عكرمة.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [القلم: ١٩] أي: طاف على تلك الجنة طائف من جهة الله سبحانه، والطائف قيل: هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء، كذا قال مقاتل. وقيل: الطائف جبريل اقتلعها[1].

وقيل: أجابتها آفة سماوية، وقال الكلبي: إن الله أرسل عليها نارًا من السماء فاحترقت وهم نائمون[2].

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ٢٠] قال ابن عباس: أي: كالليل الأسود، قال ابن كثير: وهذه معاملة بنقيض المقصود.

وقال الفرَّاء: ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ كالليل المظلم، والمعنى: أنها حرّقت فصارت كالليل الأسود. وقال الحسن: صرم منها الخير، أي: قطع.

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ٢١] أي: لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضًا ليذهبوا إلى الجذاذ، أي: القطع.

﴿أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ [القلم: ٢٢] أي: تريدون الصرام، قال مجاهد: كان حرثهم عنبًا.

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي: يتناجون فيما بينهم بحيث لا يُسمِعون أحدًا كلامهم.

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ [القلم: ٢٤] والمعنى: أن لا يدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين، فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم.

قوله تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ [القلم: ٢٥] قال قتادة ومقاتل والكلبي

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «حاشية البداية والنهاية» (١/ ١٤٢).

والحسن ومجاهد: الحرد هنا بمعنى القصد، لأن القاصد إلى الشيء حارد، وروي عن قَتادة ومجاهد أيضًا أنهما قالا: ﴿عَلَى حَرْدٍ﴾ على غضب، وقال مجاهد: أي: جد، وقال عكرمة: عَلَى غيظ، ومعنى ﴿قَادِرِينَ﴾ قال الشعبي: يعني قادرين على المساكين، وقال قتادة: على جنتهم عند أنفسهم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ [القلم: ٢٦] أي: لما رأوا جنتهم وشاهدوا ما قد حَلَّ بها من الآفة التي أذهبت ما فيها، قال بعضهم لبعض: لقد ضللنا طريق جنتنا وليست هذه، ثم لما تأملوا وعلموا أنها جنتهم، وأن الله سبحانه قَدْ عاقبهم بإذهاب ما فيها من الثمر والزرع قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [القلم: ٢٧] أي: حُرمنا جنتنا بسبب ما وقع منا من العزم عَلَى منع المساكين من خيرها.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾، ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: أي: أعدلهم وأفضلهم وخيرهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ قال مجاهد وغيره: أي: لولا تستثنون، قَالَ السّديُّ: وكان استثناؤهم في ذَلِكَ الزمان تسبيحًا، وقال ابن جرير: وهو قول القائل: إن شاء الله، وقيل: معناه: هَلَّا تُسبحون الله وتشكرونه عَلَى ما أعطاكم وأنعم به عليكم.

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [القلم: ٢٩] أي: تنزيهًا له عن أن يكون ظالمًا فيما صنع بجنتنا، فإن ذلك بسبب ذنبنا الذي فعلناه، وقيل: معنى تسبيحهم الاستغفار أي: نستغفر ربنا من ذنبنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا في منعنا للمساكين، أتَوا بالطاعة حيث لا تنفع وندموا واعترفوا حيث لا ينجع.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠] أي: يلوم بعضهم بعضًا على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلَّا الاعتراف بالخطيئة والذنب.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ [القلم: ٣١] أي: عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء وترك الاستثناء. قال ابن كيسان: أي: طغينا نعم الله، فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل، ثم رجعوا إلى الله وسألوه أن يعوّضهم بخير منها، فقالوا:

﴿عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ [القلم: ٣٢] قيل: إنهم تعاقدوا فيما بينهم وقالوا:

إن أبدلنا الله خيرًا منها لنصنعنَّ كما صنع أبونا، ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ أي: طالبون منه الخير راجون لعفوه.

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ [القلم: ٣٣] أي: مثل ذلك العذاب الذي بلوناهم به نبتلي أهل مكة، وبلونا أهل مكة عذاب الدنيا.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣] أي: أشد وأعظم لو كان المشركون يعلمون أنه كذلك ولكنهم لا يعلمون[١].

عباد الله...

من فوائد القصَّة:

(١) أن أصحاب الجَنَّة لما أتوا بهذا القدر اليسير من المعصية، دمَّر الله جنتهم، فكيف يكون الحال في حق مَن عاند الرسول وأصر عَلَى الكفر والمعصية ومنع الزكاة طوال عمره.

(٢) قال القرطبيُّ: قال بعض العلماء عَلَى مَن حصد زرعًا أَوْ جَذَّ ثمره أن يواسي منه من حضره، وذلك معنى قوله: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وأنه غير الزكاة.

(٣) أن مواساة الفقير وإعطاء المسكين من المال حصن حصين ودرع واقي من الآفات والبلاء.

كما جاء في الحديث: «**دَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ، وَحَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ**».

اللَّهُمَّ إنَّا نعوذ بك من نفسٍ لا تشبع، ومن دعاءٍ لا يُستجابُ له.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) «فتح القدير» (٥/ ٢٧٣).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فالزَمُوا - عباد الله - القناعة، وارضوا بقسمة الله تَفلحوا وتنجحوا وتسعدوا، واعلموا أن ما قُدِّر لكم سيأتيكم، ولن تموت نفس حتى تستوفى رزقَهَا وأجَلَهَا.

والزموا غرز نبيِّكم وأتباعه الكرام.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِي الله عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ[1].

وذكر الغزالي في «الإحياء» (٣/ ٢٩٣): أن مُحَمَّد بن واسع -رَحِمَهُ الله - كان يَبُلُّ الخبز اليابس بالماء، ويأكلُ ويقول: «مَن قنعَ بهذا لم يَحْتَجْ إلى أحَدٍ».

ولله دَرُّ القائل:

اصْبرْ عَلَى كِسْرةٍ ومِلحٍ ... فالصَّبرُ مفتاحُ كُلِّ زَيْنِ
ولا تَعْرِضْ لِمَدْحِ قومٍ ... يَدْعُ إلى ذِلَّةٍ وشَيْنِ
واقْنعْ فإنَّ القُنُوعَ عِزٌّ ... والذُّلُّ في شَهوةٍ بدَيْنِ

اللَّهُمَّ اغننا بالافتقار إليك، ولا تُفْقِرنا بالاسِتْغناء عَنك.

عباد الله...

ومن الأخلاق التي تحلَّى بها «سالم بن عبد الله» -رَحِمَهُ الله -: التواضع والشجاعة.

فقد كان -رَحِمَهُ الله - يخرج إلى السُّوق في حوائج نفسه، واشترى يومًا «شَملة» فانتهى بها إلى المسجد، فرمى بها إلى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، فحبسها عنده ساعة ثم قال: ألا تبعثُ مَن يحملها لك؟ فقال: بل أنا أحملها.

(١) رواه مسلم (٢٩٧٠).

وقال مالك: كان ابن عمر يخرجُ إلى السوق فيشتري، وكان سالم دَهره يشتري في الأسواق، وكان من أفضل أهل زمانه.

ويقول عطاء بن السائب: دفع الحجَّاجُ رجلًا إلى «سالم بن عبد الله» ليقتله، فقال سالم للرجل: أمسلمٌ أنت؟ قال: نعم، قال: فصليت اليوم الصُّبح؟ قال: نعم، فردّ إلى الحجَّاج، فرمى بالسيف وقال: ذَكر أنه مسلم، وأنه صلَّى الصُّبح، وأنَّ رَسُول الله ﷺ قال: «**مَن صلَّى الصُّبح فهو في ذمة الله**» [1]. فقال الحجاج: لسنا نقتله عَلَى صلاة، ولكن ممن أعان عَلَى قتل عثمان، فقال سالم: ها هنا مَن هو أوْلى بعثمان منِّي. فبلغ ذَلِكَ ابن عمر فقال: «مكْيَسٌ مكْيَسٌ» [2].

وفي سنة ست ومائة، تُوفي سالم -رَحِمَهُ الله - وصلَّى عليه هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين.

۞۞۞۞۞

(١) أخرجه مسلم (٦٥٧).

(٢) **مكيس**: أي: كيِّس معروف بالعقل.

الخطبة الثالثة بعد المائة:

[أ] لقطات وعظات من حياة: مُحَمَّد بن واسع

مراتب العبودية

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن العبادة هي الغاية التي خلق الله تَعَالى مِن أجلها الجِن والإنس.

قال تَعَالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨].

قال العلَّامة عبد الرَّحمن بن ناصر السَّعدي -رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآيات:

«هذه الغاية، التي خَلَق الله الجنَّ والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي

عبادته، المتضمّنة لمعرفته ومحبّته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عمَّا سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفةً لربّه، كانت عبادتهُ أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم، فما يُريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى الله الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق، فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم، الضرورية وغيرها». ا.هـ[1].

وقال الإمام ابن تيميَّة -رَحِمَهُ الله -: «كلما ازداد العبدُ تحقيقًا للعبوديّة ازداد كماله وعَلَت دَرَجتُهُ، ومَن توهَّم أن المخلوق يَخْرُجُ من العبودية بوجهٍ من الوجوه، أَوْ أن الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق بل من أضلهم» ا.هـ[2].

وعبادة الله تُصاحب الإنسان إلى المات، قال تَعَالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

قَالَ الإمام ابن كثير - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «قَولُهُ: **﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾** قَالَ سالم بن عبد الله: **﴿الْيَقِينُ﴾** قال: الموت، وهكذا قَالَ غيرُ واحِدٍ، والدَّليلُ عَلَى ذَلِكَ قَولُهُ تَعَالى إخبارًا عَنْ أهلِ النَّار أنَّهم قَالُوا: **﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾** [المدثر: ٤٣-٤٧].

وفي الصَّحيح[3]: عن أُمِّ العَلاَءِ - امْرَأَةٌ مِنْ الأنصار - أنَّ رَسُولُ الله ﷺ لَـمَّا دَخَلَ عَلَى عُثْمانَ بن مَظْعُونٍ وقَدْ مات، فَقُلْتُ: رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللهُ. فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «**وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللهَ أَكْرَمَهُ؟**». قُلْتُ: لاَ أَدْرِي بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَنْ؟ قَالَ: «**أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ وَاللهِ الْيَقِينُ، وَاللهِ إِنِّي لأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ**».

ويُستَدَلَّ بِهذِهِ الآيةِ الكَريمَةِ وَهِي قَولُهُ: **﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾** عَلَى أنَّ

(١) «تفسير السعدي» (٨١٣).
(٢) «العبودية» لابن تيمية (٣٤).
(٣) رواه البخاري (١٢٤٣).

العِبادَةَ كَالصَّلاةِ ونَحوِهَا واجِبَةٌ عَلَى الإنْسَانِ مَا دَامَ عَقْلُهُ ثَابِتًا، فَيُصَلِّي بِحَسَبِ حَالِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ البُخاريِّ، عَنْ عِمْرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «صَلِّ قائمًا، فإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَستَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»[(١)].

وَيُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى تَخْطِئَةِ مَن ذَهَبَ مِنَ المَلاحِدَةِ إلى أَنَّ المُرَادَ بِاليَقِينِ المعرِفةِ، فَمَتَى وَصَلَ أحَدُهُم إلى المَعرِفَةِ سَقَطَ عَنْهُ التَّكليفُ عِنْدَهُم، وَهَذَا كُفْرٌ وَضَلالٌ وَجَهْلٌ، فإنَّ الأَنْبِيَاءَ عَلَيْهُم السَّلامُ، كانوا هُم وَأَصْحَابُهُم أَعْلَمُ النَّاس بالله وَأَعْرَفُهُم بِحُقُوقِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَا يَسْتَحِقُّ مِنَ التَّعْظيمِ، وَكَانُوا مَعَ هَذَا أَعْبَدَ وأكثر النَّاس عِبَادَةً وَمُوَاظَبَةً عَلَى فِعْلِ الخَيْرَاتِ إلى حِينِ الوَفَاةِ، وإنَّما المُرَادُ بِاليَقِينِ هَاهُنَا: المَوتُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ». ا.هـ[(٢)].

عباد الله...

ونلتقي اليوم - إن شاء الله - مع رجل صالح استكمل مراتب العبوديّة - نحسبه كذلك - وهو التَّابعيّ الجليل «**مُحَمَّد بن واسع**» رَحِمَهُ الله تَعالى.

فمن هو مُحَمَّد بن واسع؟

هو الإمام الرَّبانيّ، القدوة، أبو عبد الله الأزديّ، البصريّ، أحد الأعلام.

قال الحافظ أبو نُعيم: كان مُحَمَّد بن واسع عالمًا واعيًا، لا ناقلًا راويًا، وعى فارعوى، ونوى فاستوى، قليل الكلام والرواية، طويل الصيام والسعاية.

حدَّث -رَحِمَهُ الله - عن بعض الصحابة والتابعين، وعكف عَلَى جهاد نفسه، فلا تكاد تراه إلَّا مُصليًا، أَوْ تاليًا لكتاب الله، أَوْ ذاكرًا له سبحانه، أَوْ منتضيًا سيفه لمحاربة الأعداء، فبلغ بين أصحابه منزلة عظيمة، وفاضت عليه بركات الطاعة، وأنوار العبادة، فأضفى ذَلِكَ عليه مهابة وجمالًا، حتى قال جعفر بن سُليمان: كنت إذا وجدتُ في قلبي قسوة، غدوتُ فنظرتُ إلى وجه مُحَمَّد بن واسع.

وقال أحد أصحابه: ما رأيتُ أحدًا قطّ أخشع من مُحَمَّد بن واسع.

وكان الإمام الحسن يُسمِّيه «زين القُرَّاء».

---

(١) رواه البخاري (١١١٧).

(٢) «صحيح تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٦١، ٥٦٢).

وقال مطر الورَّاق: لا نزال بخير ما بقي لنا أشياخنا: مالك بن دينار، وثابت البُناني، ومحمد بن واسع.

ومِمَّا يدل عَلَى مكانته: أن المسلمين كانوا إذا خرجوا في غزوة فرأوه معهم، استبشروا بالنَّصر.

قال الأصمعي: لما صافَّ قُتيبة بن مُسلم للترك، وهاله أمرَهم، سأل عن مُحَمَّد بن واسع فقيل: هو ذاك في الميمنة جامح عَلَى قَوسه، يُبصبص[1] بأصبعه نحو السماء، قال: تلك الأصبعُ أحبُّ إليَّ مِن مائة ألف سيف شهير وشابٌّ طرير[2].

وقَالَ أبي نعيم في «الحلية»: كان مُحَمَّد بن واسع مع قتيبة بن مُسلم في جيش وكان صاحب خُراسان، وكانت الترك خرجت إليهم، فبعث إلى المسجد ينظر من فيه؟ فقيل له: ليس فيه إلَّا مُحَمَّد بن واسع رافعًا إصبعه، فقال قتيبة: إصبعه تلك أحب إليَّ من ثلاثين ألف عنان.

عباد الله...

إن من أسباب النَّصر عَلَى الأعداء: الإخلاص، وحُسن المتابعة.

قال تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

ولا يخفى عليكم أن المسلمين هُزموا في أُحُد وبين أظهُرهم رَسُولُ الله ﷺ بسبب أن جماعةً منهم - وهم الرُّماة - خالفوا أمر رَسولِ الله ﷺ.

كما لا يخفى عليكم أن المسلمين هُزموا في بداية غزوة حُنين بسبب كلمة قالها صحابيٌّ، وهي قوله: «لن نغلب اليوم من قلّة»، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ

---

(١) **يبصبص**: يُشير.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٢١).

أَنزَلَ اللَّـهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّـمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۞ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّـهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّـهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٧].

عباد الله...

إن حُسن التعبُّد، وتحقيق العبوديِّة لله تَعَالى، وإخلاص النيَّة، كل ذَلِكَ يُثمر الوصول إلى الخير، والوقاية من كل شرّ.

فما هي العبادة؟

وما أنواعها؟

وما هي حقيقة العبادة؟

وما هي أركانها؟

وما هي قواعد العبوديّة؟

هذا ما سوف نجيب عنه تباعًا - إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ما هي العبادة؟

عَرَّف شيخُ الإسلام ابن تيميَّة -رَحِمَهُ الله - العبادة فقال: «العبادة اسمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ ما يُحِبُّهُ الله ويَرضَاهُ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ البَاطِنَةِ والظَّاهِرَةِ». ا.هـ.

وقِيلَ: عِبَادَةُ الله: طَاعَتُهُ بِفعلِ المأمُورِ وتَرْكِ المَحذُورِ[١].

وقَالَ المُنَاويُّ: العِبَادةُ فِعلُ المُكَلَّفِ عَلَى خِلافِ هَوَى نَفْسِهِ تَعظِيمًا لِرَبِّهِ. وقِيلَ: هِي

(١) «العبودية» (٥)، و«تيسير العزيز الحميد» (٤٧)، و«فتح المجيد» (١٤).

الأفْعَالُ الوَاقِعةُ عَلَى نِهَايَةِ مَا يُمكِنُ مِنَ التَّذَلُّلِ والخُضُوعِ المُتَجَاوَزِ لِتَذَلُّلِ بَعضِ العِبَادِ لِبَعضٍ، ولِذَلِكَ اختُصَّت بالرَّبِّ، وهِيَ أخَصُّ مِنَ العُبُودِيَّةِ الَّتِي تَعْنِي مُطْلَقَ التَّذَلُّلِ[1].

عباد الله...

والعبودية نوعان: عامة وخاصة:

«فالعبودية العامة: عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، برُّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣]، فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ﴾ [الفرقان: ١٧]، فسماهم عباده مع ضلالهم، لكن تسمية مقيدة بالإشارة، وأما المطلقة فلم تجئ إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨]، فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨]، وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى عن إبليس: ﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، فقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

---

(١) «التوقيف علَى مهمات التعاريف» للمناوي (٢٣٤).

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته، هم عبيد إلهيته، ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقًا إلا لهؤلاء.

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية، فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه:

الأول: منكرًا، كقوله: ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾ [مريم: ٩٣].

والثاني: معرفًا باللام كقوله: ﴿**وَمَا اللَّـهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ**﴾ [غافر: ٣١]، ﴿**إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العِبَادِ**﴾ [غافر: ٤٨].

الثالث: مقيدًا بالإشارة أو نحوها، كقوله: ﴿**أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ**﴾ [الفرقان: ١٧].

الرابع: أن يذكروا في عموم عباده، فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر، كقوله: ﴿**أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [الزمر: ٤٦].

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعلهم، كقوله: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ**﴾ [الزمر: ٥٣].

وقد يقال: إنما سماهم (عباده) إذ لم يقنطوا من رحمته، وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة.

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة، لأن أصل معنى اللفظة، الذل والخضوع، يقال: «طريق معبد» إذا كان مذللا بوطء الأقدام، و«فلان عَبَّده الحب» إذا ذلـله، لكن أولياؤه خضعوا له وذلوا طوعًا واختيارًا، وانقيادًا لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهرًا ورغمًا.

ونظير انقسام العبودية إلى خاصة وعامة، انقسام القنوت إلى خاص وعام، والسجود كذلك، قال تعالى في القنوت الخاص: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ**﴾ [الزمر: ٩]، وقال في حق مريم: ﴿**وَكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ**﴾ [التحريم: ١٢]، وهو كثير في القرآن.

وقال في القنوت العام: ﴿**بَل لَّـهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّـهُ قَانِتُونَ**﴾ [البقرة: ١١٦] أي: خاضعون أذلاء.

وقال في السجود الخاص: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وهو كثير في القرآن.

وقال في السجود العام: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

ولهذا كان هذا السجود الكُرْه غير السجود المذكور في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، فخصَّ بالسجود هنا كثيرًا من الناس وعمهم بالسجود في سورة النحل، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ﴾ وهو سجود الذل والقهر والخضوع فكل أحد خاضع لربوبيته، ذليل لعزته، مقهور تحت سلطانه تَعَالَى» ا.هـ[1].

عباد الله...

«للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل، فأما مراتبها العلمية فمرتبتان:

إحداهما: العلم بالله.

والثانية: العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه، فخمس مراتب: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان:

إحداهما: دينه الأمر الشرعي، وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانية: دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه، وقد دخل في هذا العلم العلمُ بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العلمية فمرتبتان: مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين.

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (٧٥ – ٧٨).

فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقربين؛ فالقيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

وخاصتهم: قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية.

فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة، ومن دونهم يترك المباحات مشتغلاً عنها بالعبادات، وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات، ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله» [(١)].

وللحديث بقية إن شاء الله تَعَالَى.

✡✡✡✡✡

---

(١) المرجع السابق (٧٨).

الخطبة الرابعة بعد المائة:

[ب] لقطات وعظات من حياة: مُحَمَّد بن واسع

قواعد العبودية

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة التَّابعيّ الجليل «**مُحَمَّد بن واسع**» رَحِمَهُ الله.

وتكلمنا فيما سبق عن الجانب التعبُّدي في حياته - رَحِمَهُ الله - وجرَّنا ذَلِكَ إلى الحديث عن «العبوديّة».

وعرَّفنا العبودية، وذكرنا أنواعها ومراتبها.

واليوم إن شاء الله تَعَالَى نتكلم عن:

- حقيقة العبودية.

- وأركانها.
- وقواعدها.

سائلًا المولى تبارك وتعالى التوفيق.

عباد الله...

يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي - رَحِمَهُ الله -: «إنَّ الله خَلَقَ الخَلْقَ لِيَعرفُوهُ ويَعبدُوهُ ويَخْشَوهُ ويَخَافُوهُ، ونَصَبَ لَهُمُ الأدلَّة عَلَى عَظَمتهِ وكِبريَائِهِ لِيَهابُوهُ ويَخافُوهُ خَوفَ الإجلالِ، ووَصَفَ لَهُم شِدَّة عَذَابِهِ ودَارَ عِقَابِهِ التي أعدَّها لِمَن عَصَاهُ لِيَتَّقُوهُ بِصَالِحِ الأعمالِ، ولِهَذَا كَرَّرَ سُبْحَانَهُ وتَعَالى فِي كِتَابِهِ ذِكرَ النَّارِ ومَا أعَدَّهُ فِيها لأعدائِهِ مِنَ العَذَابِ والنَّكَالِ، وما احْتَوت عَلَيهِ مِنَ الزَّقُّوم والضَّريعِ والحَميم والسَّلاسِلِ والأغلالِ، إلى غَيرِ ذَلِكَ مِمَّا فِيها مِنَ العَظَائِمِ والأهوَالِ، ودَعَا عِبَادَهُ بذلك إلى خَشيتِهِ وتَقْوَاهُ، والمُسَارعةِ إلى امْتِثَالِ مَا يأمُرُ بِهِ ويُحِبُّهُ ويَرضَاهُ، واجْتِنَابِ مَا يَنْهى عَنْهُ ويَكرَهُهُ ويَأبَاهُ، فَمَن تأمَّل الكِتَابَ الكَريمَ وأدَارَ فِكْرَهُ فيه وجَدَ مِن ذَلِكَ العَجَبَ العُجَابَ، وكذلك السُّنَّةُ الصَّحيحةُ التي هي مُفَسِّرَةٌ ومُبَيِّنَةٌ لِمَعَانِي الكِتَابِ، وكذلك سِيَرُ السَّلفِ الصَّالِحِ أهلِ العِلمِ والإيمانِ مِنَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ لَهُم بإحْسَانٍ، مَن تأمَّلَهَا عَلِمَ أحوَالَ القَوْمِ ومَا كَانُوا عَلَيهِ مِنَ الخَوفِ والخَشيةِ والإخْبَاتِ، وأنَّ ذَلِكَ هُوَ الذي رَقَّاهُم إلى تِلكَ الأحوَالِ الشَّريفةِ والمَقَاماتِ السَّنِيَّاتِ، مِنْ شِدَّةِ الاجتِهَادِ في الطَّاعاتِ، والانْكِفَافِ عَنْ دَقَائِقِ الأعمَالِ والمَكرُوهَاتِ فضلًا عَنِ المُحَرَّماتِ» ا.هـ[1].

عباد الله...

وعن حقيقة العبادة، **يقول الإمام القُرطبيُّ** - رَحِمَهُ الله -: أصلُ العِبَادةِ: التَّذَلُّلُ والخُضُوعُ، وسُمِّيَت وَظَائِفُ الشَّرعِ عَلَى المُكَلَّفِينَ عِبَاداتٍ، لأنَّهُم يَلتَزِمُونَهَا ويَفعَلُونَهَا خَاضِعِينَ مُتَذَلِّلِينَ لله تَعَالى[2].

---

(١) «التخويف من النار» (٦/ ٧).

(٢) «فتح المجيد» (١٨).

وقال **العَلَّامة ابنُ القَيِّم** - رَحِمَهُ الله -: «التَّحقيقُ بِمعنَى قَولِهِ: «إنِّي عَبْدُكَ» التِزَامُ عُبوديَّتِهِ مَنَ الذُّلِّ، والخُضُوعِ والإنابةِ، وامتِثَالُ أَمْرِ سيِّدهِ وَاجْتِنابُ نَهيِهِ، ودَوَامُ الافْتِقَارِ إليه واللُّجُوءُ إليه، والاسْتِعَانَةُ بِهِ والتَّوكُّلُ عَلَيهِ، وعِيَاذُ العَبْد بِهِ ولِيَاذُهُ بِهِ، وأنْ لا يَتعلَّق قَلبُهُ بِغَيرِهِ مَحبَّةً وخوفًا ورَجَاءً.

وفيه أيضًا: أنِّي عَبْدٌ مِنَ جَمِيعِ الوُجُوهِ صغيرًا وَكَبيرًا، حَيًّا ومَيتًا، مُطِيعًا وعَاصيًا، مُعَافًى ومُبتلًى، بِالرُّوحِ والقَلبِ واللِّسَانِ والجَوَارِحِ.

وفيه أيضًا: أنَّ مَالي وَنَفْسِي مِلكٌ لَكَ، فإنَّ العَبْدَ وَمَا يَمْلِكُ لِسَيِّدِهِ.

وفيه أيضًا: أنَّك أنت الذي مَنَنتَ عَليَّ بِكُلِّ مَا أنا فيهِ مِنْ نِعمَةٍ، فَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ إنْعَامِكَ عَلَى عَبْدِكَ.

وفيه أيضًا: أنِّي لا أَتَصَرَّفُ فِيمَا خَوَّلتَنِي مِنْ مَالي وَنَفْسي إلَّا بِأَمْرِكَ كَمَا لا يَتَصَرَّفُ العَبْدُ إلَّا بإذْنِ سَيِّدِهِ، وأنِّي لا أَملِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا ولا نَفْعًا ولا مَوتًا ولا حَياةً ولا نُشُورًا، فإنْ صَحَّ لَهُ شُهُودُ ذَلِكَ فقَدْ قَالَ إنِّي عَبْدُكَ حَقِيقَةً.

ثم قال: «نَاصِيَتِي بِيَدِكَ»، أيْ أنْتَ المُتَصَرِّفُ فِيَّ، تُصَرِّفُنِي كَيْفَ تَشَاءُ، لَسْتُ أنا المُتَصرِّفُ فِي نَفْسِي، وكَيفَ يَكُونُ لَهُ فِي نَفسِهِ تَصَرُّفٌ مَنْ نَفْسُهُ بِيَدِ رَبِّهِ وَسَيِّدِهِ ونَاصِيتُهُ بِيَدِهِ، وقَلبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أصَابِعِهِ، وَمَوتُهُ وحَيَاتُهُ وَسَعَادتُهُ وَشَقَاوَتُهُ وَعَافِيتُهُ وبَلاؤُهُ كُلُّهُ إلَيْهِ سُبْحَانَهُ لَيْسَ إلى العَبْدِ مِنْهُ شَيءٌ، بَلْ هُوَ فِي قَبْضَةِ سَيِّدِهِ أضْعَفُ مِنْ مَملُوكٍ ضَعِيفٍ حَقيرٍ، نَاصِيتُهُ بِيَدِ سُلطَانٍ قَاهِرٍ مَالِكٍ لَهُ تَحتَ تَصَرُّفِهِ وقَهْرِهِ، بَلْ الأمْرُ فَوْقَ ذَلِكَ.

ومَتَى شَهِدَ العَبْدُ أنَّ نَاصِيَتَهُ ونَوَاصِيَ العِبَادِ كُلَّهَا بِيَدِ الله وَحْدَهُ يُصَرِّفُهُم كَيْفَ يَشَاءُ لَمْ يَخَفْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجُهُم، وَلَمْ يُنْزِلْهُم مَنزِلَةَ المَالِكِينَ، بَل مَنْزِلَةَ عَبِيدٍ مَقْهُورِينَ مَرْبُوبِينَ، المُتَصَرِّفُ فِيهِم سِوَاهُم، والمُدبِّرُ لَهُم غَيْرُهُم، فَمَنْ شَهِدَ نَفْسَهُ بِهَذَا المَشْهَدِ صَارَ فَقْرُهُ وَضَرُورَتُهُ إلى رَبِّهِ وَصْفًا لازِمًا لَهُ، وَمَتَى شَهِدَ النَّاسَ كَذَلِكَ لَمْ يَفْتَقِرْ إلَيْهِم وَلَمْ يُعَلِّق أَمَلَهُ وَرَجَاءَهُ بِهِم، فَاسْتَقَامَ تَوْحِيدُهُ وتَوَكُّلُهُ وَعُبُودِيَّتُهُ»[1].

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (٣٤، ٣٥).

عباد الله...

وللعبادة ركنان:

يَقُولُ ابنُ القَيِّم: «والعِبَادَةُ تَجْمَعُ أَصْلَيْنِ: غَايَةَ الحُبِّ وَغَايَةَ الذُّلِّ والخُضُوعِ، فَمَنْ أَحْبَبْتَهُ وَلَمَ تَكُن خَاضِعًا لَهُ لَمَ تَكُن عَابدًا لَهُ، وَمَنْ خَضَعْتَ لَهُ بِلَا مَحَبَّةٍ، لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ حَتَّى تَكُون مُحبًّا خَاضِعًا، ومِنْ هَهُنَا كَانَ المُنْكِرُونَ مَحَبَّةَ العِبَادِ لِرَبِّهِم مُنْكِرِينَ حَقِيقَةَ العُبُودِيَّةِ، والمُنْكِرُونَ لِكَونِهِ مَحْبُوبًا لَهُم، بَلْ هُوَ غَايَةُ مَطْلُوبِهِمْ، وَوَجْهُهُ الأَعْلَى نِهَايَة بُغْيَتِهِم - مُنْكِرُونَ لِكَونِهِ إلهًا، وإنْ أَقَرُّوا بِكَونِهِ رَبًّا لِلعَالمِينَ وَخَالِقًا لَهُم، فَهَذَا الإِقْرَارُ غَايَةُ تَوْحِيدِهِم، وَهُو تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّة، الَّذي اعْتَرَفَ بِهِ مُشْرِكُو العَرَبِ، وَلَمْ يَخْرُجُوا بِهِ عَنِ الشِّركِ» ا.هـ[1].

أيُّهَا المسلمون...

«ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، مَن كَمَّلها كَمَّل مراتب العبودية.

وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح وهي لكل واحد من القلب واللسان، والجوارح، فواجب القلب منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه.

فالمتفق على وجوبه كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم، والنية في العبادة، وهذه قدر زائد على الإخلاص، فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره.

ونية العبادة لها مرتبتان:

إحداهما: تمييز العبادة عن العادة.

والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٨٥، ٨٦).

والأقسام الثلاثة واجبة، وكذلك الصدق، والفرق بينه وبين الإخلاص أن للعبد مطلوبًا وطلبًا، فالإخلاص: توحيد مطلوبه، والصدق: توحيد طلبه.

فالإخلاص أن لا يكون المطلوب منقسمًا، والصدق أن لا يكون الطلب منقسمًا، فالصدق بذل الجهد، والإخلاص إفراد المطلوب، واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة، وكذلك النصح في العبودية ومدار الدين عليه، وهو بذلك الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي له، وأصل هذا واجب، وكماله مرتبة المقربين، وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان، واجب مستحق، وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب وهو مرتبة المقربين، وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة، قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من القرآن، أو بضعًا وتسعين وله طرفان أيضًا، واجب مستحق، وكمال مستحب.

وأما المختلف فيه فكالرضا، فإن في وجوبه قولين للفقهاء.

والقولان لأصحاب أحمد فمن أوجبه قال: السخط حرام، ولا خلاص عنه إلا بالرضا، وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب، واحتجوا بأثر «**مَنْ لم يَصْبِرِ عَلَى بلائي، ولم يَرضَ بِقَضَائِي، فَلْيتَخِذ رَبًّا سواي**»[1].

ومن قال هو مستحب، قال: لم يجئ الأمر به في القرآن ولا في السُّنة بخلاف الصبر فإن الله أمر به في مواضع كثيرة من كتابه، وكذلك التوكل قال: ﴿**إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ**﴾ [يونس: ٨٤]، وأمر بالإنابة فقال: ﴿**وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ**﴾ [الزمر: ٥٤]، وأمر بالإخلاص كقوله: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [البينة: ٥]، وكذلك الخوف كقوله: ﴿**فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقوله: ﴿**فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ**﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿**وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾ [البقرة: ٤٠]، وكذلك الصدق، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩]، وكذلك المحبة، وهي أفرض الواجبات، إذ هي قلب العبادة

---

(١) **ضعيف جدًّا**: رواه الطبراني في «الكبير» (٧، ٨)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٢٧)، وفيه سعيد بن زياد بن هند وهو متروك.

المأمور بها ونحها وروحها.

وأما الرضا: فإنما جاء في القرآن مدح أهله، والثناء عليهم لا الأمر به.

قالوا: وأما الأثر المذكور فإسرائيلي لا يحتج به.

قالوا: وأما قولكم: «لا خلاص عن السخط إلا به» فليس بلازم فإن مراتب الناس في المقدور ثلاثة؛ الرضا وهو أعلاها، والسخط وهو أسفلها، والصبر عليه بدون الرضا به، وهو أوسطها فالأولى للمقربين السابقين، والثالثة للمقتصدين، والثانية للظالمين، وكثير من الناس يصبر على المقدور فلا يسخط وهو غير راض به فالرضا أمر آخر.

وقد أشكل على بعض الناس اجتماع الرضا مع التألم وظن أنهما متباينان، وليس كما ظنه، فالمريض الشارب للدواء الكريه متألم به راض به، والصائم في شهر رمضان في شدة الحر متألم بصومه، راضٍ به، والبخيل متألم بإخراج زكاة ماله راض بها، فالتألم كما لا ينافي الصبر لا ينافي الرضا به.

وهذا الخلاف بينهم، إنما هو في الرضا بقضائه الكوني، وأما الرضا به ربًّا وإلهًا والرضا بأمره الديني، فمتفق على فرضيته، بل لا يصير العبد مسلمًا إلا بهذا الرضا أن يرضى بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً.

وعلى القولين اختلافهم في وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس في صلاته فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالي في «الإحياء»، ولم يوجبها أكثر الفقهاء.

واحتجوا بأن النبي ﷺ أمر من سها في صلاته بسجدتي السهو ولم يأمره بالإعادة مع قوله: «**إن الشيطان يأتي أحدكم في صلاته، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يضل الرجل أن يدري كم صلى**»[(١)].

ولكن لا نزاع أن هذه الصلاة لا يثاب على شيء منها إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه. كما قال النبي ﷺ: «**إن العبد لينصرف من الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها،**

---

(١) رواه البخاري (١٢٣١)، ومسلم (١٢٤٤)، والنسائي (٣/ ٣١)، عن أبي هريرة رَضِي الله عَنْهُ.

ثلثها، ربعها...» حتى بلغ عشرها[١].

وقال ابن عباس - رَضِيَ الله عَنْهُمَا -: «ليس من صلاتك إلا ما عقلت منها»، فليست صحيحة باعتبار ترتب كمال مقصودها عليها، وإن سميت صحيحة باعتبار أنا لا نأمره بالإعادة ولا ينبغي أن يعلق لفظ الصحة عليها، فيقال: «صلاة صحيحة»، مع أنه لا يثاب عليها فاعلها.

والقصد: أن هذه الأعمال - واجبها ومستحبها - هي عبودية القلب فمن عطلها فقد عطّل عبودية الملك وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح.

والمقصود أن يكون ملك الأعضاء - وهو القلب - قائمًا بعبوديته لله سبحانه هو ورعيته.

وأما المحرمات التي عليه: فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق وهي نوعان: كفر ومعصية.

فالكفر: كالشك والنفاق والشرك وتوابعها، والمعصية نوعان: كبائر وصغائر.

فالكبائر: كالرياء، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريمًا من الزنا وشرب الخمر وغيرها من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها والتوبة منها، وإلا فهو قلب فاسد وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها.

فوظيفة ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على القلب قبل الجوارح فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولابد، وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه، وقد تكون كبائر بحسب قوتها

---

(١) حسن: رواه أحمد (٤/ ٢٦٤، ٣١٩، ٣٢١)، وأبو داود (٧٩٦)، والنسائي في «الكبرى» كما في «التحفة» (٧/ ٤٧٨)، وغيرهم.

وغلظها وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضًا: شهوة المحرمات وتمنيها، وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهي، فشهوة الكفر والشرك كفر، وشهوة البدعة فسق، وشهوة الكبائر معصية، فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب، وإن تركها عجزًا عن بذله مقدوره في تحصيلها استحق عقوبة الفاعل، لتنزله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار**»، قالوا: هذا القاتل يا رسول الله، فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»[1]، فنزله منزلة القاتل، لحرصه في الإثم دون الحكم، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب، وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

وأما عبوديات اللسان الخمس؛ فواجبها: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن، وهو ما يتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول: «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: رد السلام، وفي ابتدائه قولان.

ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأما محرمه: فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسب المسلم، وأذاه بكل قول، والكذب، وشهادة الزور، والقول على الله بلا علم، وهو أشدها تحريمًا.

ومكروهه: التكلم بما تركه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

---

(١) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٧١١٢)، وأبو داود (٤٢٦٨)، والنسائي (٧/ ١٢٥) عن أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقد اختلف السلف: هل في حقه كلام مباح متساوي الطرفين؟ على قولين؛ ذكرهما ابن المنذر وغيره؛ أحدهما: أنه لا يخلو كل ما يتكلم به إما أن يكون له أو عليه، وليس من حقه شيء لا له ولا عليه، واحتجوا بالحديث المشهور وهو: «**كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ما كان من ذكر الله وما والاه**»[1].

واحتجوا بأنه يكتب عليه كلامه كله، ولا يكتب إلا الخير والشر.

وقالت طائفة: بل هذا الكلام مباح لا له، ولا عليه كما في حركات الجوارح.

قالوا: لأن كثيرًا من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهي، وهذا شأن المباح.

والتحقيق: أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين بل إما راجحة وإما مرجوحة، لأن للسان شأنًا ليس لسائر الجوارح، وإذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: «اتق الله فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا» وأكثر ما يُكِبُّ الناس على مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم، وكل ما يتلفظ به اللسان، فإما أن يكون مما يرضي الله ورسوله أو لا، فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح، وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح، فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوي الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه فيه في الآخرة، وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة، فتأمله.

فإن قيل: فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل.

قيل: حركته بها عند الحاجة إليها راجحة، وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تفيده، فتكون عليه لا له.

فإن قيل: فإذا كان الفعل متساوي الطرفين كانت حركة اللسان الوسيلة إليه

---

(١) **ضعيف:** رواه الترمذي (٢٤١٤)، وابن ماجه (٣٩٧٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٢٤٣) برقم (٤٨٤)، وغيرهم، وفي سنده مُحَمَّد بن يزيد بن خنيس، وهو مقبول كما في «التقريب» (٢/ ٢١٩).

كذلك، إذ الوسائل تابعة للمقصود في الحكم.

قيل: لا يلزم ذلك، فقد يكون الشيء مباحًا، بل واجبًا، ووسيلته مكروهة كالوفاء بالطاعة المنذورة هو واجب، مع أن وسيلته - وهو النذر - مكروه منهي عنه، وكذلك الحلف المكروه مرجوح، مع وجوب الوفاء به أو الكفارة، وكذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه، ويباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة، وهذا كثير جدًّا، فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أوتحرم لأجلها، وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولا مكروه.

عباد الله...

وأما العبوديات الخمس على الجوارح: فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضًا، إذ الحواس خمسة، وعلى كل حاسة خمس عبوديات:

فعلى السمع: وجوب الإنصات، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة في أصح قولي العلماء، ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة، من ردّه، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره، ولا يجب أن يطلعك عليه، ما لم يكن متضمنًا لحق الله يجب القيام به، أو لأذى مسلم يتعين نصحه، وتحذيره منه.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تخشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة، من شهادة أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.

وكذلك استماع المعازف وآلات الطرب واللهو، كالعود والطنبور واليراع ونحوها، ولا يجب عليه سَدُّ أذنه إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات، فحينئذ يجب تجنب سماعها وجوب سد الذرائع.

ونظير هذا المحرم: لا يجوز له تعمد شم الطيب، وإذا حملت الريح رائحته وألقتها في مشامّه لم يجب عليه سد أنفه، ونظير هذا: نظرة الفجأة لا تحرم على الناظر، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها.

وأما السمع المستحب فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض.

والمكروه: عكسه، وهو استماع كل ما يكرهه ولا يعاقب عليه، والمباح ظاهر.

وأما النظر الواجب: فالنظر في المصحف وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها وينفقها ويستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينها، ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقًا، وبغيرها إلا لحاجة، كنظر الخاطب، والمستام والمعامل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذي المحرم.

والمستحب: النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيمانًا وعلمًا، والنظر في المصحف ووجوه العلماء الصالحين والوالدين، والنظر في آيات الله المشهودة، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه، فإن له فضولاً كما للسان فضولاً، وكم قاد فضولها إلى فضول عَزَّ التخلص منها، وأعيَى دواؤها، وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام.

والمباح: النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات، وهي قسمان: عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب.

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة ففقأ عينه لم يكن عليه شيء، وذهبت هدرًا، بنص رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته[1]، وإن ضعفه بعض الفقهاء لكونه لم يبلغ النص، أو تأوله، وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله، كعورة له هناك ينظرها، أو ريبة هو مأمور أو مأذون له في اطلاعها.

وأما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت،

---

(١) في البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِي الله عَنْهُ أن رَسول الله ﷺ قال: «مَن اطّلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حَلّ لهم أن يفقؤوا عَينه» ، رواه أبو داود وفيه: «ففقؤوا عينه فقد هدرت».

فإن تركه حتى مات، مات عاصيًا قاتلاً لنفسه، قال الإمام أحمد وطاوس: من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار.

ومن هذا: تناول الدواء إذا تيقن به من الهلاك على أصح القولين، وإن ظن الشفاء به، فهل هو مستحب مباح، أو الأفضل تركه؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف.

والذوق الحرام: كذوق الخمر والسموم القاتلة، والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق طعام الفجاءة، وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها، وفي السنن: أن رسول الله ﷺ «نهى عن طعام المتبارين»[1]، وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس.

والذوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة الله ﷻ، مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه، والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب، وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر به عن الشارع.

والذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم، فالشم الواجب: كل شم تعين طريقًا للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذي يعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة؟ وهل هي سم قاتل أو لا مضرة فيه؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به، وما لا يملك؟ ومن هذا شم المقوِّم وربُّ الخِبْرة عند الحكم بالتقويم، والعبيد ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطِيب في الإحرام، وشم الطِيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطِيب من النساء الأجنبيات للافتتان بما وراءه.

وأما الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله ويقوي الحواس، ويبسط النفس

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٧٥٤)، والحاكم (٤/ ١٢٩)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٣٤٠)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

للعلم والعمل، ومن هذا: هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك، ففي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ: «مَن عُرِض عليه ريحان فلا يرده فإنه طِيب الريح، خفيف المحمل»[1].

والمكروه: كشم طيب الظَّلَمَة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

والمباح: ما لا منع فيه من الله ولا تبعة، ولا فيه مصلحة دينية ولا تعلق له بالشرع.

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس، فاللمس الواجب: كلمس الزوجة حين يجب جماعها، والأَمَة الواجب إعفافها.

والحرام: لمس ما لا يحل من الأجنبيات.

والمستحب: إذا كان فيه غض بصره وكف نفسه عن الحرام وإعفاف أهله.

والمكروه: لمس الزوجة في الإحرام للذة، وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه، ومن هذا لمس بدن الميت - لغير غاسله - لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحي تكريمًا له، ولهذا يستحب ستره عن العيون وتغسيله في قميص في أحد القولين ولمس فخذ الرجل إذا قلنا: هو عورة.

والمباح: ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.

وهذه المراتب أيضًا مُرَتَّبة على البطش باليد والمشي بالرجل، وأمثلتها لا تخفى، فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله واجب، في وجوبه لقضاء دينه خلاف، والصحيح: وجوبه ليمكنه من أداء دينه، ولا يجب لإخراج الزكاة، وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر، والأقوى في الدليل: وجوبه لدخوله في الاستطاعة، وتمكنه بذلك من أداء النسك، والمشهور عدم وجوبه.

ومن البطش الواجب: إعانة المضطر ورمي الجمار، ومباشرة الوضوء والتيمم.

والحرام: كقتل النفس التي حرّم الله قتلها، ونهب المال المغصوب، وضرب من لا يحل ضربه ونحو ذلك، وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنّرد، أو ما هو أشد تحريمًا منه

---

(١) رواه مسلم (٥٧٧٤)، وأبو داود (٤١٧٢)، والنسائي (٨/ ١٨٩)، من حديث أبي هريرة رَضِي الله عَنْهُ.

عند أهل المدينة كالشطرنج، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أو دونه عند بعضهم، ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفًا أو نسخًا، إلا مقرونًا بردها ونقضها، وكتابة الزور والظلم، والحكم الجائر، والقذف والتشبيه بالنساء الأجانب، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين في دينهم أو دنياهم، ولاسيما إن كسبت عليه مالاً ﴿**فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ**﴾ [البقرة: ٧٩]، وكذلك كتابة المفتي على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله، إلا أن يكون مجتهدًا مخطئًا، فالإثم موضوع عنه.

وأما المكروه: فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام، وكتابة ما لا فائدة في كتابته، ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة.

والمستحب: كتابة كل ما فيه منفعة في الدين، أو مصلحة لمسلم، والإحسان بيده بأن يعين صانعًا، أو يصنع لأخرق، أو يُفرغ من دَلْوه في دلو المستسقي، أو يحمل له على دابته، أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحوه ذلك، ومنه: لمس الركن بيده في الطواف، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان.

والمباح: ما لا مضرة فيه ولا ثواب.

وأما المشي الواجب: فالمشي إلى الجمعات والجماعات، في أصح القولين لبضعة وعشرين دليلاً، مذكورة في غير هذا الموضع، والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دُعي إليه، والمشي إلى صلة رحمه، وبر والديه، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشي إلى معصية الله، وهو من رجل الشيطان، قال تعالى: ﴿**وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ**﴾ [الإسراء: ٦٤]، قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم، فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس.

وكذلك تعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضًا؛ فواجبه: في الركوب في الغزو والجهاد والحج الواجب.

ومستحبه: في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وفي الوقوف بعرفة نزاع: هل الركوب فيه أفضل، أم على الأرض؟ والتحقيق

أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة، من تعليم للمناسك، واقتداء به، وكان أعون على الدعاء، ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه: الركوب في معصية الله ﷻ.

ومكروهه: الركوب للهو واللعب، وكل ما تركه خير من فعله.

ومباحه: الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشر أشياء: القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدابة»[١].

عباد الله...

هذه هي قواعد العبوديّة، نسأل الله تَعَالَى أن يعينني وإيَّاكم عن ذكره، وشكره، وحُسن عبادته.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومِمَّا ينبغي التنبيه عليه، والإشارة إليه؛ أنَّ العبد لا ينفكّ من العبوديّة ما دام في دار التكليف.

قال تَعَالَى: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [الحجر: ٩٩].

وقال أهل النار: ﴿**وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ**﴾ [المدثر: ٤٦، ٤٧].

قال ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله -: «اليقين ههنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير، وفي الصحيح - في قصة موت عثمان بن مظعون ﷺ - أن النبي ﷺ قال: «**أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه**»[٢]، أي: الموت وما فيه.

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (٧٩ - ٨٨).

(٢) رواه البخاري بلفظ: «**أمَّا عثمان فقد جاءه مِن الله اليقين**».

فلا ينفك العبد من العبودية مادام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله ﷺ؟ ويلتمسان منه الجواب، وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود، فيسجد المؤمنون، ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحًا مقرونًا بأنفاسهم لا يجدون له تعبًا ولا نصبًا.

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله وبرسوله، وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه، بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه، ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ - بل على جميع الرسل - أعظم من الواجب على أممهم، والواجب على أولي العزم: أعظم من الواجب على من دونهم، والواجب على أولي العلم: أعظم من الواجب على من دونهم، وكل أحد بحسب مرتبته» ا.هـ[1].

والزموا - عباد الله - عبادة ربِّكم حتى آخر نفس، واستعينوا بالله ولا تعجزوا.

ولله دَرُّ ابن القيِّم -رَحِمَهُ الله - حين قال:

فَعِبَادَةُ الرَّحمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ

وعَلَيهِمَا فَلَكُ العِبَادَةِ دَائِرٌ ... مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ القُطْبَانِ

وقال رَحِمَهُ الله:

حَقُّ الإلهِ عِبَادَةٌ بالأمْرِ لا ... بِهَوَى النُّفُوسِ فَذاكَ للشَّيطَانِ

مِنْ غَيرِ إشْرَاكٍ بِهِ شَيئًا هُمَا ... سَبَبَا النَّجَاةِ فَحَبَّذَا السَّبَبَان

لَم يَنجُ مِنْ غَضَبِ الإلهِ وَنَارِهِ ... إلا الذي قَامَت بِهِ الأَصْلان

والنَّاسُ بَعدُ فَمُشرِكٌ بإلههِ ... أو ذُو ابْتِدَاعٍ أو لَهُ الوَصْفَان

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (٧٥).

وقال أيضًا -رَحِمَهُ الله -:

أمَا والذي حَجَّ الْمُحِبُّونَ بَيْتَهُ ... ولَبُّوا لَهُ عِندَ الْمُهَلِّ وأحْرَمُوا

وقَدْ كَشَفُوا تِلكَ الرُّؤُوسَ تَوَاضُعًا ... لِعِزَّةِ مَنْ تَعْنُو الوُجُوهُ وتُسْلِمُ

يُهِلُّونَ بالبَيْدَاءِ لَبَّيكَ رَبَّنَا ... لَكَ المُلْكُ والحَمْدُ الذي أنْتَ تَعلَمُ

دَعَاهُم فَلَبَّوهُ رِضًا وَمَحَبَّةً ... فَلَمَّا دَعَوهُ كَانَ أقْرَبَ مِنْهُمُ

تَرَاهُم عَلَى الأنْضَاءِ شُعْثًا رُؤُوسُهُم ... وغُبْرًا وهُم فِيها أسَرُّ وأنْعَمُ

✿✿✿✿✿

الخطبة الخامسة بعد المائة:

[جـ] لقطات وعظات من حياة: مُحَمَّد بن واسع

الورع

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيحكي أهلُ السِّير: أن الأمير مالك بن المُنذر، وكان من شُرط البصرة، دعا مُحَمَّد ابن واسع إلى تولِّي القضاء قائلًا: اجلس عَلَى القضاء، فأبى مُحَمَّد بن واسع، فعاوده فأبى، فقال: لتجلس عَلَى القضاء أَوْ لأجلدنك ثلاثمائة، فقال له مُحَمَّد: إن تفعل فأنت مسلط، وإنَّ ذليل الدنيا خير من ذليل الآخرة. ورفض -رَحِمَهُ الله- القضاء، ولما دخل بيته عاتبته زوجته فقالت له: لك عيال وأنت محتاج، فقال لهم: ما دمتِ تريني أصبر عَلَى الخَلّ والبَقل لا تطمعي في هذا منِّي.

عباد الله...

ما زال الصَّالحون يلتمسون الدرجات العليَّة، ويسعون إلى تحصيل المناقب البهيَّة، حتى غدا ليلُهم في صباح، وجدُّهم في نجاح، وسعيُهم في رَبَاح.

وكم هو جميل بالإنسان أن يتخلَّق بالفضائل، ويسعى دومًا إلى إدراك المحاسن.

إننا لم نبلغ المنزلة الرَّفيعة في الدنيا والآخرة إلَّا بصادق الهداية، وكريم الفضائل والسَّجايا.

وها هو مُحَمَّد بن واسع -رَحِمَهُ الله - يأخذ بِخُلُق الورع، ذلكم الخُلُق الكريم الذي تحلَّى به الأنبياء، واقتفى أثرهم الأولياء.

قال رَسُولُ الله ﷺ: «**فضلُ العِلم أحبُّ إليَّ مِن فضل العبادة، وخيرُ دِينكم الوَرَع**»[1].

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الحَلاَلَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ**»[2].

كم يحمل هذا الحديث من معانٍ عظيمة في الورع.

ولقد استنار الصَّالحون بضيائه، فها هو الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ الله عَنْهُ يقول: «كنا ندع تسعة أعشار من الحلال مخافة أن نقع في الشبهة أو في الحرام».

وقال بِشر بن الحارث - رَحِمَهُ الله -: «لا تجد حلاوة العبادة حَتَّى تجعل بينك وبين الشهوات سدًّا من حديد».

عباد الله...

ما هو الورع؟

---

(١) صحيح: رواه البزار والحاكم وغيرهما، وانظر «صحيح الجامع» (٤٢١٤).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

يقول ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله -: «جمع النَّبيُّ ﷺ الورع كُلُّه في كلمة واحدة فقال: «**مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المرء تَركُه مَا لا يَعْنِيه**»[١] فهذا يعمّ الترك لما لا يعني من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع» ا.هـ.

وقال الشيخ صالح آل الشيخ - حفظه الله - في شرحه لهذا الحديث: «المفهوم: أن من حُسن إسلام المرء الاهتمام بما يعنيه، أمَّا ما لا يعني المرء المسلم من الأقوال التي ليس لها نفع له في دينه، ولا في دنياه أو في آخرته أو في أُولاه، فإن تركها مِن حُسن إسلام المرء، وهذا عامٌّ يشمل ما يتصل بفضول العلوم التي لا تنفعه، وبفضول المعاملات، وبفضول العلاقات، ونحو ذَلِكَ، فتركه ما لا يعنيه في دينه، فإن هذا دليل عَلَى حُسن إسلامه». ا.هـ[٢].

وقال الإمام ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله -: «وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله رُوحه - يقول: «الزهد تركُ ما لا ينفع في الآخرة، والورع: تركُ ما تخافُ ضَرَرَه في الآخرة». وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع، وأجمعها». ا.هـ[٣].

وعن أهمية الورع وفضله:

قَالَ طاوس - رَحِمَهُ الله -: مثل الإسلام كمثل شجرة، فأصلها الشهادة، وساقها كذا وكذا، وورقها كذا - شيئًا سماه - وثمرها الورع لا خير في شجرة لا ثمر لها، ولا خير في إنسان لا ورع له.

وقال حبيب بن أبي ثابت - رَحِمَهُ الله -: لا يعجبكم كثرة صلاة امرئ ولا صيامه، ولكن انظروا إلى ورعه، فإن كان وَرِعًا مَعَ ما رزقه الله من العبادة فهو عبدٌ لله حقًا.

وقال خالد بن مَعْدَان - رَحِمَهُ الله -: مَن لم يكن له حلم يضبط به جهله، وورعٌ يحجزه عما حرَّم الله عليه، وحُسن صحابة عمن يصحبه، فلا حاجة لله فيه.

---

(١) **حسن**: رواه الترمذي (٢٣١٨)، وغيره.
(٢) «شرح الأربعين النووية» لفضيلته (١٠٨).
(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٧).

عباد الله...

أمَّا عن حدود الورع وأقسامه:

فيقول إبراهيم بن أدهم - رَحِمَهُ الله -: الورع ورعان: ورعُ فرض، وورع حَذَر.

فورع الفرض: الورع عن معاصي الله تَعَالَى.

وورع الحَذَر: الورع عن الشُّبهات.

وقسَّم الرَّاغب الأصفهاني الورع إلى ثلاث مراتب:

واجبٌ: وهو الإحجام عن المحارم، وذَلِكَ للناس كافة.

مندوبٌ: وهو الوقوف عن الشُّبهات، وذَلِكَ للأواسط.

فضيلةٌ: وهو الكفُّ عن كثير من المباحات والاقتصار عَلَى أقل الضرورات؛ وذَلِكَ للنَّبيِّين والصِّديقين والشهداء والصَّالحين.

عباد الله...

تلك هي أقسام ذَلِكَ العَلَم الشَّامخ «الورع»، جعلني الله وإيَّاكم من أهله، وكساني وإيَّاكم حُلَّته في الدُّنْيَا ولقَّانا جزاءه يوم المعاد[1].

هذا، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ الله -: «وتمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشرَّ الشَّرَّين، ويعلم أن الشريعة مبناها عَلَى تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلَّا فمن لم يوازن ما في الفعل والتَّرك مِن المصلحة الشرعيّة والمفسَدَة الشرعيّة فقد يدع واجبات، ويفعل محرَّمات، ويرى ذَلِكَ من الورع». ا.هـ.

أيُّها المسلمون...

وللورع علامات:

قال الإمام أبو اللَّيْث السَّمَرْقَنْدي - رحمه الله -:

«علامة الورع أن يَرَى عشرة أشياء فريضة على نفسه:

---

(١) «الورع» للشيخ أزهري محمود.

أوّلها: حفظ اللسان عن الغيبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢].

والثاني: الاجتناب عن سوء الظن؛ لقوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

والثالث: الاجْتناب عن السُّخْرية، لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١].

والرابع: غضّ البصر عن المحارم؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠].

والخامس: صِدْقُ اللّسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، يعني: فاصدقوا.

والسادس: أن يَعْرف نعمة الله على نفسه لكيلا يُعجب بنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

والسابع: أن ينفق ماله في الحق ولا ينفقه في الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان: ٦٧]. أي: لم ينفقوا في المعصية ولم يمنعوا من الطاعة. ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي: عَدْلاً.

والثامن: أن لا يطلب لنفسه العلوّ والكِبْر؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

والتاسع: المحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها بركوعها وسجودها؛ لقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

والعاشر: الاستقامة على السُّنّة والجماعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»ا.هـ.

تلك هي دنيا الورع، حُلْوها سرور، وديارها حُبُور، صاحبها مُسَوَّد، وعند العالمين ممجَّد.

عباد الله...

وسيِّد أهل الورع سَيِّدنا مُحَمَّد ﷺ، فانظروا إلى شيء من ورعه:

يُخبر عن نفسه ﷺ فيقول: «إِنِّي لأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِي فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي ثُمَّ أَرْفَعُهَا لآكُلَهَا، ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً فَأُلْقِيهَا»[1].

هذا شيءٌ من ورع نبيِّكم ﷺ، وهو غَيض من فيض، وقطرة من بحر.

فسيروا عَلَى هديه - عباد الله - تفوزوا إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ونختم خطبة اليوم بذكر بعض الأخلاق التي اتَّصف بها مُحَمَّد بن واسع -رَحِمَهُ الله - ثم نذكر شيئًا من مواعظه، ثم نذكر وفاته، وعلى الله قصد السبيل.

عباد الله...

قال ابن عُيينة: قال مُحَمَّد بن واسع: لو كان للذنوب ريحٌ ما جلس إليَّ أحد.

وذكر أبو نُعيم في «الحلية»: أن مُحَمَّد بن واسع كان يقول: لو كان يوجد للذنوب ريحٌ ما قدرتم أن تدنوا مني من نتن ريحي.

وآذى ابنٌ لمُحَمَّد بن واسع رجلًا، فقال له أبوه: أتؤذيه وأنا أبوك، وإنما اشتريتُ أمّك بمائة دِرهم.

ونظر يومًا إلى ولده فرآه يخطر بيده - مُعجبًا بنفسه - فقال له: تَعَالى ويحك، أتدري ابن مَن أنت؟ أُمّك اشتريتها بمائتي درهم، وأبوك لا كثّر الله في المسلمين مثله؟!

وقيل له يومًا: كيف أصبحت؟ فقال: قريبٌ أجلي، بعيدٌ أهلي، سيِّئٌ عملي.

وكان -رَحِمَهُ الله - يقول: طوبى لمن وجد عشاءً ولم يجد غداءً، ووجد غداءً ولم يجد عَشاءً، والله عنه راضٍ.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وكان يقول: إنه لَيُعرف فجور الفاجر في وجهه.

ومن أقواله: أربع يُمتنَّ القلب: الذنب عَلَى الذنب، وكثرة مثافنة النساء وحديثهن، وملاحاة الأحمق تقول له ويقول لك، ومجالسة الموتى. قيل: وما مجالسة الموتى؟ قال: مجالسة كل غني مترف وسلطان جائر.

وكان -رَحِمَهُ الله- يدعو: «اللَّهُمَّ إنَّا نعوذ بك من كلِّ رزق يباعدنا منك، وطهِّرنا من كل خبيث، ولا تسلِّط علينا الظلمة»، ثم يسكت ساعة ثم يعيده.

وسأله الأمير بلال بن أبي بردة: ما تقول في القضاء والقدر؟ فقال: أيها الأمير إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لا يَسأل يوم القيامة عباده عن قضائه وقدره، وإنما يسألهم عن أعمالهم.

وعن جعفر قال: اجتمع مالك بن دينار ومحمد بن واسع، قال مالك: إني لأغبط[1] رجلًا معه دينه له قوام من عيش راض عن رَبِّه. فقال مُحَمَّد بن واسع: إني لأغبط رجلًا معه دينه ليس معه شيء من الدنيا راضٍ عن رَبِّه. قال: فانصرف القوم وهو يَرَون أن مُحَمَّدًا أقوى الرجُلَين.

وقال الفضيل بن عياض -رَحِمَهُ الله-: قال مالك بن دينار: إنما هو طاعة الله أَوْ النار، فقال مُحَمَّد بن واسع: إنما هو عفو الله أَوْ النار.

وسمع مُحَمَّد بن واسع قاصًا يعظ، ويقول: ما لي أرى القلوب لا تخشعُ، والعيون لا تَدمُع، والجُلود لا تقشعرّ؟ فقال مُحَمَّد: يا فلان، ما أرى القوم أُتُوا إلَّا مِنْ قِبَلك، إن الذِّكر إذا خرج من القلب وقع عَلَى القلب.

وعن عبد العزيز بن أبي روّاد قال: رأيتُ في يد مُحَمَّد بن واسع قُرحة، فكأنه رأى ما قَدْ شقّ عليّ منها، فقال لي: تدري ما عليَّ في هذه القرحة من نعمة؟ قال: فَسَكتُّ، قال: حيث لم يجعلها عَلَى حدقتي، ولا عَلَى طرف لساني، ولا عَلَى طَرَف ذَكري، قال: فهانت عليَّ قُرحته.

عباد الله...

وبعد رحلة مباركة مع الحياة عاشها مُحَمَّد بن واسع عابدًا، وذاكرًا، ومجاهدًا، آن

(١) **أغبط**: أي: أحسد، وهو من الحسد المحمود.

للمسافر أن يصل إلى داره، ويبلغ قرارهُ، ليجد هناك ما قدَّر من الطيِّبات الصَّالحات، كما أخبر الحق سُبْحَانَهُ وتَعَالى: ﴿**وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا**﴾ [المزمل: ٢٠].

نام مُحَمَّد بن واسع عَلَى فراش المرض، مرض الموت، ينتظر رُسل الله ويتأهب لملاقاة ربِّه الكريم، الذي يرجو جوده بعد أن آمن بوجوده.

ويدخل عليه بعض إخوانه ويسأله: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ فيقول: ما ظَنك برجل يرحل كُلّ يوم إلى الآخرة مرحلة؟!

وعن أبي عامر قَالَ: حدثني صاحبٍ لنا قَالَ: لَـمَّا ثقل مُحَمَّد بن واسع كثر الناسُ عليه في العيادة، قَالَ: فدخلتُ فَإذَا قوم قيام وآخرون قعود، قَالَ: فأقبل عليَّ فقال: أخبرني ما يُغني هؤلاء عنِّي إذا أُخذ بناصيتي وقدميّ غدًا وأُلقيتُ في النار؟! ثم تلا هَذِهِ الآية: ﴿**يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ**﴾ [الرحمن: ٤١]، ولما اشتدت عليه السَّكرات جعل يقول: يا إخواتاه، تدرون أين يُذهب بي؟ يُذهب بي والله الذي لا إله إلا هو إلى النار أن يعفو عنِّي.

وصعدت روحُه الطَّاهرة المباركة إلى ربِّها.

وكانت وفاته في سنة ثلاث وعشرين ومائة، رَحِمَهُ الله تَعَالى.

عباد الله...

تلك زهرات قطفتُها لكم من بستان الصَّالحين، ولن ندرك درجاتهم إلَّا بالاقتداء وتلمُّس آثارهم.

فتشبَّهوا بالكرام إن لم تكونوا مِثلهُم
إن التـــــشبُّه بالكـــــرامِ فَـــــلاَحُ

وفَّقني الله تَعَالى وإيَّاكم لِمَا يُحبُّ ويرضى.

✿✿✿✿✿

الخطبة السادسة بعد المائة:

[أ] لقطات وعظات من حياة: داود الطائي

فضلُ العطف عَلَى اليتامى

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمن بركات العلم: العملُ به، وإلَّا كان العلم وبالًا عَلَى صاحبه.

قال تَعَالَى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقال تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

ومن بركات العلم أيضًا: تواضع حامله وإخلاصه، وإلَّا فالنَّار وبئس القرار.

عَن عُمر بن الخطاب رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قال رَسُول الله ﷺ: «يَظْهَرُ الإسلام حَتَّى يَخْتَلِفَ التُّجَّارُ فِي البَحْر، وحتَّى تَخُوضَ الخَيلُ في سبيل الله، ثم يظهرُ قَومٌ يَقْرءُون القُرآن، يَقُولون: مَنْ أقرأُ مِنَّا؟ مَنْ أفقه مِنَّا؟ مَن أعلمُ مِنَّا؟» ثم قال لأصحابه: «هل في أولئكَ مِنْ خير؟» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «أولئك مِنْكُم مِنْ هذه الأُمَّة، فأولئك هم وَقُودُ النَّار» [1].

عباد الله...

وضيفنا اليوم رجلٌ صالح، ظهرت عليه بركات العلم، فكان قدوة للسَّالكين، ودليلًا للعلماء العاملين، والعُبَّاد المخلصين.

ضيفنا اليوم الإمام الفقيه، القدوة، الزَّاهد، أبو سُليمان «داود بن نصير الطائي» الكوفيّ، أحد الأولياء.

وُلد داود بعد المائة بسنوات، وكان من كبار أئمة الفقه والرأي، ثم أقبل عَلَى شأنه ولزم الصَّمت، وآثر الخمول، وفرَّ بدينه فاعتزل النَّاس غير تارك لجماعتهم، وكفى بالعبادة شغلًا.

وإليكم ترجمةً مختصرة عن حياته، عسى أن تكون لنا عونًا عَلَى طاعة ربِّنا - تبارك وتعالى.

ذكر صاحب كتاب «أحاسن المحاسن» [2]: أن داود الطائي - رَحِمَهُ الله - كَانَ يُجَالِسُ أبَا حَنيفَة، فَقالَ لَهُ أبُو حَنيفَة: يَا أبا سُليمانَ، أمَّا الأداةُ فقَدْ أحكَمْنَاهَا. قَالَ دَاوُدُ: فأيُّ شَيءٍ بَقِيَ؟ قَالَ: بَقِيَ العَمَلُ بِهِ، قَالَ: فَنازَعَتني نَفْسي إلى العُزلَةِ فَقُلت: حَتَّى تَجلِسِي مَعُهم فلا تُجِيبي في مَسألةٍ، فَكَانَ يُجالِسُهُم سَنَةً، قَالَ: فَكَانتِ المسألَةُ تَجِيءُ، وأنَا أشَدُّ شَهوَةً للجَوابِ فِيها مِنَ العَطْشَانِ إلى المَاءَ فَلَا أُجِيبِ فِيهَا فَاعتَزَلتُهُم بَعْدُ.

وعن سبب توبته يَقُول الجُماني: كَانَ بدءُ تَوبَةِ دَاوُدَ الطَّائيِّ أنَّهُ دَخلَ المَقبَرَةَ، فَسَمِعَ

---

(١) **حسن**: رواه الطبراني في «الأوسط» والبزار، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣١).

(٢) (ص٤٣٩) وما بعدها.

امرَأةً تَقُولَ:

مُقِيمٌ إلى أن يَبعَثَ اللَّه خَلْقَهُ ... لِقَاؤُكَ لا يُرجَى وأنْتَ قَرِيبُ

تَزِيدُ بلًى فِي كُلِّ يَومٍ ولَيلَةٍ ... وتُسلَى كَمَا تَبْلَى وأنْتَ حَبِيبُ

ومن مواعظه ووصاياه:

قوله: مَا أخرَجَ الله تَعَالى عَبدًا مِنْ ذُلِّ المَعَاصِي إلى عِزِّ التَّقوى إلَّا أغْنَاهُ بِلَا مَالٍ، وأعَزَّهُ بِلَا عَشِيرةٍ، وآنسَهُ بِلَا بَشْرٍ.

وجَاءَ أبُو الرَّبيع الأعرَجُ إلى داوُدَ الطَّائِيِّ لِيَسمَعَ مِنهُ، فَأقَامَ عَلَى بَابِهِ ثَلاثَةَ أيَّام لا يَصِلُ إليهِ، قَالَ: كان إذا سَمِعَ الإقَامَةَ خَرَجَ، فإذَا سَلَّمَ الإمَامُ، وثَبَ فَدَخَلَ مَنزِلَهُ، قَالَ: فَصَلَّيتُ فِي مَسجِدٍ لَهُ، ثُمَّ جِئتُ فَجَلَستُ عَلَى بَابِه، فلمَّا جَاءَ لِيَدخُلَ قُلتُ: ضَيفٌ رَحِمَكَ الله، قَالَ: إنْ كنتَ ضَيفًا فادخُل، فَدَخَلتُ، فأقَمتُ عِندَهُ ثَلاثةَ أيَّام، لا يُكَلِّمني، فلما كَانَ بَعد ثَلاثٍ قُلتُ: رَحِمَكَ الله، أتيتُكَ مِن واسِطَ وإنِّي أحبَبْتُ أن تُزَوِّدني شَيئًا، قَالَ: صُمْ عَنِ الدُّنْيَا، واجعَل فِطْرَكَ المَوتَ، قُلتُ: زِدني رَحِمَكَ الله، قَالَ: فِرَّ مِنَ النَّاس فِرَارَكَ مِنْ الأسَدِ، غير طَاعِنٍ عَليهم، ولا تَاركٍ لِجَمَاعَتِهم.قَالَ: فَذَهبتُ أستَزِيدُهُ، فوَثَبَ إلى المِحرابِ، وقال: الله أكبَرُ.

وقالَ: عَبدُ الله بنُ إدرِيسَ: قُلتُ لِداوُدَ الطَّائِيِّ: أوصِني؟ قَالَ: أقْلِل مِنْ مَعرِفَةِ النَّاس. قُلتُ: زِدني. قَالَ: ارْضَ باليَسِير مِنَ الدُّنْيَا مَعَ سَلامَةِ الدِّين، كَمَا رَضِيَ أهلُ الدُّنْيَا بالدُّنيا مَع فَسَادِ الدِّينِ، قُلتُ: زِدني: قَالَ: اجعَل الدُّنْيَا كَيومٍ صُمتَهُ ثُمَّ أفطَرتَ عَلَى المَوتِ.

وعن صَدَقَةَ الزَّاهِدِ قَالَ: خَرجْنَا مَعْ داوُدَ الطَّائيِّ فِي جَنَازَةٍ فقَعَدَ دَاوُدُ نَاحيةً، وهيَ تُدفَنُ، فَجَاءَ النَّاسُ فَقَعدُوا قَرِيبًا مِنهُ، فتكَلَّمَ فَقَالَ: مَنْ خَافَ الوَعِيدَ قَصُرَ عَليهِ البَعِيدُ، ومَنْ طَالَ أمَلُهُ ضَعُفَ عَمَلُهُ، وكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ، واعلَم يا أخي أنَّ كُلَّ مَا يَشْغَلُكَ عَنْ رَبِّكَ فَهُوَ عَليكَ مَشئُومٌ، واعلَم أنَّ أهْلَ القُبُورِ إنَّمَا يَفرَحُونَ بِمَا يُقَدِّمُونَ، ويَنْدَمُونَ عَلَى مَا يُخَلِّفُونَ، وأهلُ الدُّنْيَا يَقتَتِلُونَ ويَتَنافَسُونَ فِيمَا عَليهِ أهلُ القُبُورِ يَنْدَمُونَ.

ومن لآلئ كلامه: قوله: «إنَّمَا اللَّيلُ والنَّهارُ مَرَاحِلُ يَنزِلُهَا النَّاسُ مَرحَلةً مَرحَلَةً،

حَتَّى يَنْتَهي بِهِم ذَلِكَ إلى آخِرِ سَفَرِهِ، فإنِ استَطَعتَ أنْ تُقدِّمَ في كُلِّ مَرحَلَةٍ زَادًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا؛ فَافْعَل، فإنَّ انقَطَاعَ السَّفَرِ عَنْ قَريب، والأمْرُ أعْجَلُ مِنْ ذَلِكَ، فتَزَوَّد لِسَفَرِكَ، واقْضِ مَا أنْتَ قَاضٍ مِنْ أمْرِك، فكأنَّكَ بالأمْرِ قَدْ بَغَتَكَ.

وقال له رجلٌ: أوصني. فقال: عَسْكَرُ الموتى يَنْتَظِرونك.

وهذا من أخصر الكلام وأجمله.

نعم يا سيِّدي «عسكر الموتى ينتظرونك»، فاستعدّ أيُّها المسلم لِلقاء الله، فإنَّ الموت يأتي بغتة، بعد الموت السَّفر الطويل، فأعدّ الزَّاد.

ما هو الزَّاد؟

يجيب ربنا تبارك وتعالى عن هذا السُّؤال فيقول: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال العلَّامة السَّعدي -رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «الزَّاد الحقيقي المستمرّ نفعه لصاحبه، في دنياه وأخراه، فهو زاد التَّقوى الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة، وأجلّ نعيم دائم أبدًا، ومن ترك هذا الزاد، فهو المنقطع به الذي هو عرضة لكل شر، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين. فهذا مدح للتقوى.

ثم أمر بها أولي الألباب فقال: ﴿**وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ أي: يا أهل العقول الرزينة، اتقوا ربكم الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل، وفساد الرأي». ا.هـ[1].

فاستعدوا - عباد الله - لهذا السَّفر الطويل، وتزوَّدوا له كما أمركم الله، واعلموا أن:

كُلُّ ابنِ أُنثى وإن طالت سَلامَتُهُ ... يومًا عَلَى آلة حَدباء منقول

فَإذا حَمَلتَ إلى القُبور جنازةً ... فاعلم بأنَّك بَعْدَها مَحمُول

وقال ابنُ السَّمَّاكِ: أوْصَاني أخي دَاودُ الطَّائيُّ بِوَصيَّةٍ: انظُر ألَّا يَراكَ الله تَعَالى حَيثُ

(١) «تفسير السعدي» (٩٢).

نَهَاكَ، وألَّا يَفتَقدَكَ مِنْ حَيثُ أمَرَكَ، واستَحْيِهِ فِي قُرْبِهِ مِنْكَ، وقُدْرَتِهِ عَلَيْكَ.

وقِيلَ لِدَاوُدَ: أرَأيْتَ رجلًا دَخلَ عَلَى هَؤلاءِ الأُمراءِ فأمَرَهُم بالمعروُفِ ونَهاهُم عن المُنكَرِ؟ قال: أخافُ عَليهِ السَّوطَ، قِيلَ: إنَّهُ يَقْوَى، قال: أخافُ عَليهِ السَّيف، قِيلَ: إنَّهُ يَقْوَى، قَالَ: أخافُ علَيهِ الدَّاءَ الدَّفِينَ: العَجبَ.

عباد الله...

هذه هي القوّة العلميَّة في حياة «**داود الطَّائيّ**» -رَحِمَهُ الله - أمَّا القوَّة العمليَّة فلقد تحلَّى -رَحِمَهُ الله - بأخلاق طيِّبة نحن في أمسِّ الحاجة إليها.

من هذه الأخلاق: عطفه عَلَى اليتَّامى والأرامل والمساكين:

قالت مَولاةٌ لِدَاوُدَ: لَوْ طَبَختُ لَكَ دَسَمًا؟ قال: فافْعَلي، فَطَبَخَت لَهُ شَحمًا ثُمَّ جَاءَت بِهِ، فَقَالَ: مَا فَعلَ أيْتَامُ بَنِي فُلانٍ؟ قَالَت: عَلَى حَالِهِم؟ قال: اذْهَبِي بِهِ إليهم، إنِّي إذا أكَلْتُهُ كَانَ فِي الحُشِّ[1]، وإذا أكَلَهُ هَؤلاءِ الأيْتَامُ كانَ عِندَ الله تَعَالى مَذْخُورًا.

ورُوِيَ أنَّ أُمَّ دَاوُدَ قالت لَهُ: لَوِ اشتَهَيتَ شَيئًا اتَّخَذتُهُ لَكَ، فَقالَ: أجِيدي يَا أُمَّاهُ، فإنِّي أُريدُ أن أدعُو إخْوَانًا لِي، فاتَّخَذَت وأجَادَت، فَقعَدَ عَلَى البَابِ لا يَمُرُّ سَائِلُ إلَّا أدخَلَهُ، فَقدَّمَهُ إليهم فَقَالت لَهُ أُمُّهُ: لَو أكَلْتَ. قال: فَمَن أكَلَهُ غَيري.

وحَجَمَهُ حَجَّامُ فَأعطَاهُ دِينارًا لا يَملِكُ غَيرهُ.

قال سُفيَانُ: أبصَرَ الطَّائِيُّ أمرًا، وقال ابنُ المُبَارك، وهَلِ الأمْرُ إلَّا مَا كانَ عَليهِ دَاوُدُ الطَّائيُّ.

وصَنَعَتِ امرأةٌ مِنْ أهلِهِ ثَريدًا، بِسَمنٍ، ثُمَّ بَعثَت بِهَا إليهِ حِينَ إفطَارِهِ مَعَ جَاريَةٍ لَهَا، قال: فأتَيْتُهُ بالقَصعَةِ فَوَضعتُهَا بَينَ يَديهِ، فسَعَى لِيَأكُلَ مِنْهَا، فَجاءَ سائِلٌ، فَقَامَ فَدَفعَها إليه، وجَلسَ مَعَهُ عَلَى البَابِ حتَّى أكلَهَا، ثُمَّ دَخَلَ فَغَسَلَ القَصعَةَ، ثُمَّ عَمَدَ إلى تَمْرٍ كَانَ بَيْنَ يَديهِ، ظَنَنْتُ أنَّهُ أعَدَّهُ لِعَشَائِهِ، فَوَضعَهُ فِي القَصعَةِ ودَفَعهُ إلَيَّ، ودَفَعَ إلى السَّائِلَ مَا جِئنَا بِه، ودَفَعَ إلينَا مَا أرَادَ أن يُفطِرَ عَليه، وأظُنُّه مَا بَاتَ إلَّا طَاوِيًا.

---

(١) المراد به المخرج، أي: يخرج من الغائط.

عباد الله...

هذه أخلاق سلفنا الصَّالح، فأين نحن اليوم منها؟

إن منَّا مَن يتقلَّب في النَّعيم ظهرًا لبطن، وهو يعلم أن هناك يتامى يتضوَّرون جوعًا!!

ومنَّا مَن أصابته أمراض بسبب التُّخمة، وهو يعلم أن جاره جائع بجواره!!

ألم تعلموا أن رَسُول الله ﷺ قال: «أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا»، وَأَشَارَ بِأَصْبُعَيْهِ بالسَّبابة والوسطى، وفرَّج بينهما[١].

ألم تعلموا أن الله تَعَالى وصف الأبرار فقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

وقال تَعَالى: ﴿لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

ألم تعلموا أنَّ رَسُول الله ﷺ قال: «مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ»[٢].

وقال ﷺ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالَّذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ»[٣].

أسال الله تَعَالى أن يجعلني وإيَّاكم مِمَّن يستمعون القَول فيتبعون أحسنه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد كان سلفنا الصَّالح - رحمهم الله جميعًا - يوظِّفون أموالهم في كل ما يقرّبهم إلى

(١) رواه البخاري وأبو داود والترمذي.

(٢) **صحيح**: رواه الطبراني، وانظر «صحيح الجامع» (٥٥٠٥).

(٣) **صحيح**: رواه الطبراني وأبو يعلى، وانظر «صحيح الجامع» (٥٤١٥).

رَبِّهم - تبارك وتعالى - وهذا هو الفهم القويم للدِّين الحنيف، فقد صحَّ في الحديث القدسيّ: «**أنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: إِنَّا أَنْزَلْنَا المَالَ لإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ...**» الحديث.

ونَضَّر الله وجه **الإمام ابن القيِّم** -رَحِمَهُ الله- حين قال في كتابه «الفوائد»:

الدَّراهم أربعةٌ:

- درهمٌ اكتُسِبَ بطاعةِ الله وأُخرجَ في حقِّ الله، فَذاكَ خَيْرُ الدَّراهم.
- ودرهمٌ اكتُسِبَ بمعصيةِ الله وأُخرجَ في معصية الله، فذاك شرُّ الدراهم.
- ودرهمٌ اكتُسب بأذى مسلمٍ وأُخرج في أذى مسلمٍ، فهو كذلك.
- ودرهمٌ اكتُسب بمُباحٍ وأُنفقَ في شهوةٍ مباحةٍ، فذاك لا له ولا عليه.

هذه أصولُ الدَّراهمِ، ويتفرَّعُ عليها دراهمُ أُخَرُ؛ منها:

- درهمٌ اكتُسبَ بحقٍّ وأُنفقَ في باطلٍ.
- ودرهمٌ اكتُسِبَ بباطلٍ وأنفقَ في حقٍّ فإنفاقُهُ كفَّارتُهُ.
- ودرهمٌ اكتُسِبَ من شبهةٍ، فكفارتُهُ أن يُنْفَقَ في طاعةٍ.

وكما يتعلق الثوابُ والعقابُ والمدحُ والذمُّ بإخراجِ الدرهمِ، فَكذلِكَ يتعلَّقُ باكتسابِهِ، وكذلكَ يُسألُ عن مستخرَجِهِ ومصروفِهِ: مِن أينَ اكتسبَهُ وفيما أنفقَهُ». ا.هـ[1].

عباد الله...

وفي الخطبة القادمة - إن شاء الله - نواصل الحديث عن الأخلاق التي تَحَلَّى بها «**داود الطَّائيّ**»، فإلى اللِّقاء.

❂❂❂❂❂

---

(١) «مختصر الفوائد» (٧٠، ٧١).

الخطبة السابعة بعد المائة:

[ب] لقطات وعظات من حياة: داود الطائي

النَّفْس التي يجب مجاهدتها

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد خطب النُّعمان بن بشير رَضِيَ الله عَنْهُمَا فقال: «ذَكَرَ عُمَرُ مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا فَقَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَظَلُّ اليَوْمَ يَلْتَوِي مَا يَجِدُ دَقْلاً (رَدِيء التَّمر) يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ[1]».

---

(١) رواه مسلم.

عباد الله...

إنَّ الله تَعَالى لم يَرضَ لنبيِّه ﷺ إلَّا الدرجة العُليا في الصَّالحات، فما مِن عمل يُلتَمَسُ به وجه الله تَعَالى والدَّار الآخرة إلَّا وكان فيه للنبي ﷺ النَّصيب الأوفر، والقدح المُعَلَّى، فصلواتي وسلامي عليك يا رسول الله، لم تَأْلُ جهدًا أن تبذل لأمتك النُّصح قولًا وعملًا.

وهذه المصُونة الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق عائشة أُمّ المؤمنين رَضِيَ الله عَنْها تُخبرنا بطرف من هذا الزُّهد، حيث وقف ابن أُختها عُروة مشدوهًا بزهده ﷺ، عندما قالت له: وَاللَّهِ يَا ابْنَ أُخْتِي، إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الهِلاَلِ ثُمَّ الهِلاَلِ ثُمَّ الهِلاَلِ ثَلاَثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَارٌ. فقال عُروة: يَا خَالَةُ فَمَا كَانَ يُعَيِّشُكُمْ؟ قَالَتِ: الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالمَاءُ...»[١].

وها هو ﷺ ذات مرة بين أصحابه رضي الله عنهم وقَدْ نَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فقالوا: يَا رَسُولَ اللهِ لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً. فَقَالَ: **«مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»**[٢].

ما أجفَى الدُّنْيَا وما أقلَّ وفاءَها، ولو كان فيها خير لأقبل عليها النَّبي ﷺ ولكن أنَّى، وما عند الله خيرٌ وأبقى، فمات ﷺ وما شبع من خُبز الشَّعير.

قالت عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا: مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَا شَبِعَ مِنْ خُبْزٍ وَزَيْتٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ[٣].

عباد الله...

من ذَلِكَ الهدي النَّبويّ الوضَّاء استنار الصَّحابة الأطهار رضي الله عنهم، فكانوا سادة الزَّاهدين، ضربوا الدُّنْيَا بسيف الزّهد فولّت هاربة لا تلوي عَلَى شيء[٤]، فعاشوا

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي وأحمد والحاكم، و«صحيح الجامع» (٥٦٦٨).

(٣) رواه مسلم.

(٤) «الزهد» لأزهري محمود (١٤، ١٥).

رَضِيَ الله عَنْهُم يضعون البذور في مزرعة الآخرة ليحصدوا، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠].

ثم جاء التَّابعون والصَّالحون من بعدهم يقتفون أثرهم، ويلزمون غرزهم.

ومن هؤلاء الصَّالحين «داود الطَّائيّ» - رَحِمَهُ الله - فقد كان الزُّهد شعاره:

خَرَجَ دَاودُ الطَّائيُّ إلى السُّوقِ، فرَأى الرُّطَبَ، فاشتهَتْهُ نَفسُهُ، فَجَاءَ إلى البَائِعَ فقال: أعطِني بِدرْهَمٍ إلى غَدٍ، فقَالَ: اذْهَب إلى عَمَلِكَ، فَرَآه بَعضُ مَنْ يَعرِفُهُ فأخْرَجَ لَهُ صُرَّةً فِيهَا مِائَةُ دِرهمٍ وقالَ: اذهَب فإنْ أخَذَ مِنْكَ بِدرهَمٍ فالمِائَةُ لَكَ، فَلحِقَهُ البَائِعُ وقال: ارجِع، خُذْ حَاجَتَكَ، قَالَ: لا حَاجَةَ لِي فيه، إنَّما جَرَّبتُ هذهِ النَّفْسَ فلَم أرَهَا تُسَاوي في الدُّنْيَا دِرهَمًا وهي تُرِيدُ الجَنَّةَ غَدًا.

وكَانَ دَاودُ قَدْ وَرِثَ عَنْ أُمِّه أربعَمِائَةَ دِرهَمٍ، فمَكَثَ يتقَوَّتُهَا ثَلاثِينَ عَامًا، فلَمَّا نَفِدَت جَعَلَ يَنْقُضُ سُقُوفَ الدُّوَيرَةِ فَيَبِيعُهَا، حَتَّى بَاعَ الخَشَبَ والبَوارِي واللَّبِنَ، حَتَّى بَقِيَ في نِصفِ سَقفٍ.

وقال عَبدُ الله بنُ صَالِحٍ: دَخَلتُ عَلَى دَاوُدَ الطَّائيِّ في مَرَضِهِ الذي مَات فيهِ ولَيسَ في بَيتِهِ إلَّا دَنٌّ يَكُونُ فِيهِ خُبزٌ يَابِسٌ، ومِطْهَرَةٌ وَلَبِنَةٌ عَلَى التُّرَابِ فهيَ مِخَدَّتُهُ، وليس في بيتهِ بُوري ولا قليلٌ ولا كَثيرٌ.

وقال حَمَّادٌ لِداوُدَ: لَقَدْ رَضِيتَ مِنْ الدُّنْيَا باليَسِير، قَالَ: أفلا أدُلُّكَ عَلَى مَنْ رَضِيَ بأقَلَّ مِنْ ذَلِكَ؟ مَنْ رَضِيَ بالدنيا كُلِّهَا عِوَضًا عَنِ الآخرةِ.

ودخَلَ عَليهِ أَبُو يُوسُفَ فَقَالَ لَهُ: مَا رأيتُ أحدًا رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بمثْلِ مَا رَضِيتَ بِهِ، فَقَالَ: يا يَعقُوبُ مَن رَضِيَ بالدنْيَا كُلِّها عِوَضًا عَنِ الآخِرَةِ فذلِكَ الذي رَضِيَ بأقَلَّ مِمَّا رَضِيت.

عباد الله...

وهذا الزُّهد الذي كان عليه داود؛ ثمرة الإقبال عَلَى الله، والرغبة فيما عنده، ومجاهدة النَّفْس.

قَالَ أَبُو خَالِدِ الأَحْمَرُ: مَرَرتُ أنا وسُفيَانُ الثَّوريُّ بِمنزِلِ دَاودَ الطَّائيِّ فَقَالَ: ادخل

بِنَا نُسَلِّم عَليهِ، فَدَخلنَا، فَمَا احتَفَلَ بِسُفيانَ ولا انْبَسَطَ إليهِ، فلمَّا خَرَجْنا قُلتُ: يا أَبَا عَبدِ الله غَاظَنِي مَا صَنَعَ بِكَ، قَالَ: وأيَّ شَيءٍ صَنَعَ بِي؟ قُلتُ: لم يَحتَفِل بِكَ، ولم يَنْبَسِط إلَيْكَ، قَالَ: إنَّ أَبَا سُليمانَ لا يُتَّهم فِي مَودَّةٍ، أمَا رأيتَ عَيْنَيهِ؟ هَذَا فِي شيءٍ غير مَا نَحنُ فيه.

وقَالتِ امْرَأَةٌ: كانَ بَينَنَا وبينَ دَاود الطائيِّ حائطٌ قَصِيرٌ، فكنتُ أسمعُ حِسَّهُ عامَّة الليلِ لا يَهدَأُ، ورُبَّما سمِعتُهُ يَقُولُ في جَوفِ الليلِ: اللَّهُمَّ هَمُّكَ عَطَّلَ عَلَيَّ الهُمُومَ، وحالَفَ بَيني وبين السُّهَادِ، وشَوقِي إلى النَّظَرِ إليك أَوْثَقَ مِنِّي الشَّهَوَاتِ، وحالَ بَيني وبينَ اللَّذَّاتِ، فأنَا في سِجنِكَ أَيُّها الكَرِيمُ مَطلوبٌ. قَالت: ورُبَّما تَرنَّم بالآيَةِ فأرَى أنَّ جَمِيعَ نَعيم الدُّنْيَا جُمِعَ في تَرنُّمِهِ.

وقالت لَهُ أُختُهُ: لو تَنَحَّيتَ مِنَ الشمس إلى الظِّلِّ، فَقالَ هذهِ خُطًى لا أدرِي كيفَ تُكتَبُ.

واحتَجَمَ دَاودُ فَدَفعَ إلى الحجَّامِ دِينارًا، فَقيل له: هذا إسْرَافٌ، فَقالَ: لا عِبَادَةَ لِمَن لا مُرُوءَةَ لَهُ.

عباد الله...

ولمجاهدة النَّفْس مراتب:

قَالَ ابنُ القَيِّم - رَحِمَهُ الله -: جِهَادِ النَّفْسِ عَلَى أَرْبَعُ مَرَاتِب:

إحْدَاهَا: مُجَاهَدَتُها عَلَى تَعَلّمِ الهُدَى وَدِينِ الحَقّ.

الثَّانِيَةُ: مُجَاهَدَتُها عَلَى العَمَلِ بِهِ (بَعْدَ عِلْمِهِ بالهُدَى وَدِينِ الحَقّ).

الثَّالِثَةُ: مُجَاهَدَتُها عَلَى الدَّعْوَةِ إلى الحَقِّ.

الرَّابِعَةُ: مُجَاهَدَتُها عَلَى الصَّبرِ عَلَى مَشَاقّ الدَّعْوَةِ إِلَى الله وَأَذَى الخَلْقِ، وَيَتَحَمَّلُ ذَلِكَ كُلّهُ لله.

فَإِذَا اسْتَكْمَلَ (المُسلم) هَذِهِ المَرَاتِبَ الأَرْبَعَ صَارَ مِنْ الرَّبّانِيّينَ، فَإِنّ السّلَفَ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنّ العَالِمَ لا يَسْتَحِقّ أَنْ يُسَمّى رَبّانِيًّا حَتّى يَعْرِفَ الحَقّ وَيَعْمَلَ بِهِ وَيُعَلّمَهُ، فَمَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلّمَ فَذَاكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السّمَاوَاتِ[١].

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٠، ١١) بتصرف.

عباد الله...

ومُجاهدة النَّفْس أمرٌ واجب، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨].

قَالَ العلَّامة القرطبيُّ رحمه الله في تفسير هَذِهِ الآية: «قيل: عني به جهاد الكفار، وقيل: هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به، والانتهاء عن كل ما نهى الله عنه، أي: جاهدوا أنفسكم في طاعة الله وردُّوها عن الهوى، وجاهدوا الشيطان في ردّ وسوسته، والظَّلمة في ردّ ظُلمهم، والكافرين في رد كفرهم. و﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ ما ارتفع عنه الحرج». ا.هـ[1].

وروى الإمام أحمد في «المسند» من حديث فُضالة بن عُبيد رَضِيَ الله عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «المُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ...»[2].

قَالَ ابنُ بَطَّالٍ: جِهَادُ المَرءِ نَفْسَهُ هُوَ الجِهَادُ الأكْمَلُ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، ويَقَعُ بِمنْعِ النَّفْسِ عَنِ المَعَاصِي، وبِمَنْعِهَا مِنَ الشُّبُهَاتِ، وبِمنْعِهَا مِنَ الإكْثَارِ مِنَ الشَّهَواتِ المُبَاحةِ لتَتَوفَّرَ لَهَا فِي الآخِرةِ. قُلتُ: ولِئَلَّا يَعتَادَ الإكْثَارَ فيَألَفَهُ فَيَجُرَّهُ إلى الشُّبُهَاتِ، فَلَا يَأمَنُ أن يَقَعَ في الحَرَامِ.

أما عن كيفية المُجاهدة:

فيقول أبو عَمرِو بن بُجَيدٍ: مَن كَرُمَ عَليهِ دِينُهُ هَانَت عَليهِ نَفسُهُ.

قَالَ القُشَيريُّ: أصلُ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ: فَطْمُها عن المألُوفَاتِ، وحَمْلُها عَلَى غير هَواهَا.

وللنّفس صِفَتَان: انهماكٌ في الشَّهواتِ، وامتناعٌ عن الطَّاعاتِ، فالمُجَاهَدَةُ تَقَعُ بِحَسبِ ذَلِكَ.

قال بعضُ الأئِمَّةِ: جِهَادُ النَّفْس داخلٌ في جِهادِ العَدُوِّ، فإنَّ الأعداءَ ثَلاثَةٌ: رَأسُهُم

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٢/ ٩٢).
(٢) (٢٤٠٢٢/ ٩).

الشَّيطانُ، ثُمَّ النَّفْس لأنها تَدعُو إلى اللَّذَّاتِ المُفضِيةِ إلى الوُقُوعِ في الحَرَامِ الَّذي يُسْخطُ الرَّبَّ، والشَّيطانُ هُوَ المُعِينُ لها عَلَى ذَلِكَ ويُزيِّنُهُ لها. فَمَنْ خَالَفَ هَوَى نَفْسِهِ قَمَعَ شَيطَانَهُ، فَمجاهَدةُ نَفْسِهِ حَمْلُهَا عَلَى اتِّباعِ أوامِرِ الله واجْتِنَابِ نَوَاهيهِ.

وإذَا قَوِيَ العَبْدُ عَلَى ذَلِكَ سَهُل عليه جِهادُ أعداءِ الدِّينِ.

فالأوّل: الجهادُ الباطِنُ.

والثَّاني: الجهادُ الظَّاهِرُ.

وجِهَادُ النَّفْس أربعُ مَرَاتب:

- حمْلُها على تعلّم أمور الدِّين.
- ثمّ حملُها على العَمَل بذلك.
- ثمّ حَمْلُها على تعليم مَنْ لا يَعْلَمُ.
- ثُم الدُّعاء إلى توحيد الله، وقتالِ مَنْ خَالف دينه وَجَحَد نِعَمَهُ.

وأقوى المُعين عَلَى جِهادِ النَّفْس: جِهادُ الشَّيطان بِدَفع مَا يُلْقَى إليه مِن الشُّبهة والشَّك، ثُمَّ تَحسينِ مَا نُهِيَ عَنْهُ مِنَ المُحَرَّمَاتِ، ثُمَّ مَا يُفْضى الإكثارُ مِنهُ إلى الوُقُوعِ في الشُّبهاتِ.

وَتمامُ المُجاهدة: أنْ يَكُون مُتيقِّظًا لِنَفسِهِ في جَميعِ أحْوَالِهِ، فإنَّهُ متى غَفَلَ عَنْ ذَلِكَ استهواه شَيطانُهُ ونفسُهُ إلى الوُقُوعِ في المنهيَّاتِ، وَبالله التَّوفيقُ[١].

وقال الغزَاليُّ - رَحِمَهُ الله -: «قَدِ اتَّفَقَ العُلَمَاءُ عَلَى أن لا طَريقَ إلى سَعادةِ الآخِرةِ إلَّا بنهيِ النَّفْس عنِ الهَوَى ومُخالفةِ الشَّهواتِ، فالإيمانُ بهذا واجبٌ، وأمَّا عِلمُ تَفصيلِ مَا يُترَكُ مِنَ الشَّهواتِ ومَا لا يُترَكُ فلا يُدرَكُ إلَّا بِطريقِ الشَّرعِ، وطَريقُ المُجَاهَدَةِ والرِّيَاضَةِ لِكُلِّ إنسَانٍ تَختَلِفُ بِحَسَبِ اختلافِ أحوَالِهِ. والأصلُ فيه أن يَترُكَ كُلُّ واحِدٍ مَا بِهِ فَرَحُهُ مِنْ أسبَابِ الدُّنْيَا، فالذي يَفرَحُ بالمالِ، أو بالجَاهِ، أو بِالقَبُولِ في الوَعظِ، أو

(١) «فتح الباري» (١١/ ٣٤٥، ٣٤٦).

بالعزِّ في القَضاءِ والوِلايةِ، أو بِكثرةِ الأَتبَاعِ في التَّدريسِ والإفَادةِ.

فَينبغِي أن يَترُكَ أوَّلًا مَا بِهِ فَرَحُهُ، فإنَّهُ إنْ مُنِعَ عَنْ شَيءٍ مِنْ ذَلِكَ وقِيلَ لَهُ: ثَوابُكَ في الآخِرةَ لم يَنقُصْ بالمنْعِ، فَكَرِهَ ذَلِكَ وتألَّمَ به فهُوَ مِمَّنْ فَرِحَ بالحَياةِ الدُّنْيَا واطمأنَّ بها، وذَلِكَ مُهلِكٌ في حَقِّهِ، ثُمَّ إذا تَرَكَ أسبَابَ الفَرَحِ فليَعتَزِلِ النَّاس، وليَتفرد بنَفسهِ، وليُراقِب قَلبَهُ، حَتَّى لا يَشتَغِلَ إلَّا بِذِكرِ الله تَعَالى والفِكرِ فيه، وليَترَصَّد لما يَبدُو في نَفْسِهِ مِنْ شَهوةٍ وَوِسواسٍ، حَتَّى يَقْمَعَ مَادَتَهُ مَهما ظَهرَ، فإنَّ لِكُلِّ وَسوَسَةٍ سَبَبًا، ولا تَزُولُ إلَّا بِقَطعِ ذَلِكَ السَّبَبِ والعلاقَةِ، وليُلازِم ذَلِكَ بَقيَّةَ العُمرِ فَلَيسَ للجِهَادِ آخِرٌ إلَّا بالمَوتِ[(١)].

وقالَ ابنُ حَجَرٍ - رَحِمَهُ الله - في شَرحِ المِشكَاةِ في شَرحِ حَديثِ رَبيعةَ بنِ كَعْبٍ عِنْدَما سأل النَّبيَّ ﷺ المُرافقَةَ في الجَنَّة: جَاهَدَ نفسَهُ بِكَثرةِ سُجُودِهِ حَصَلت لَهُ تِلكَ الدَّرَجَةُ العَليَّةُ التي لا مَطْمَعَ في الوُصُولِ إليهَا إلَّا بِمَزيدِ الزُّلفَى عِندَ الله في الدُّنْيَا بِكَثرةِ السُّجُودِ المُومإِ إليه بِقَولِهِ تَعَالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]، فكُلُّ سَجدةٍ فِيهَا قُربٌ مَخصُوصٌ لِتكَفُّلِهَا بالرُّقِيِّ إلى دَرجَةٍ مِنْ دَرَجاتِ القُربِ، وهَكَذَا حَتَّى يَنتهي إلى دَرجةِ المُرَافَقَةِ لِحَبيبهِ ﷺ، فَنَتَجَ مِنْ هذا الذي هُوَ عَلَى مِنوالِ قَولهِ تَعَالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. أنَّ القُربَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ لا يحصُلُ إلَّا بالقُربِ مِن الله تَعَالى، وأنَّ القُربَ مِنَ الله تَعَالى لا يُنالُ إلَّا بالقُربِ مِنْ رَسُولِهِ ﷺ، فالقُربَانِ مُتَلازِمَانِ لا انْفِكَاكَ لأحَدِهمَا عَنِ الآخرِ البَتَّةَ.

ومِن ثَمَّ أوْقَعَ تَعَالى مُتَابَعَةَ رَسُولِهِ بَيْنَ تِلكَ المحَبَّتَينِ لِيُعَلِّمنَا أنَّ مَحبَّةَ العَبدِ لله ومَحبَّتَهُ للعَبدِ مُتَوقِّفَتَانِ عَلَى مُتَابعةِ رَسُولِهِ ﷺ[(٢)].

عباد الله...

وما هي النَّفْس التي يجب مجاهدتها؟

الجواب: لا شكَّ أنَّ كُلاًّ مِن النَّفْس المُطمئنَّةِ واللَّوامَةِ، لا يَصْدُرُ عَنْهُما إلَّا الأخلاقُ الحَميدةُ، فَعَنِ النَّفْسِ الأُولى يَكُونُ اليَقين والطُّمَأنينَةُ والخُشُوعُ والإخْبَاتُ ونَحْوُ ذَلِكَ

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٦٧ - ٦٩)، باختصار.

(٢) «دليل الفالحين» (١/ ٣١٨).

مِن الصِّفَات الحَميدَةِ.

أمَّا النَّفْس اللَّوَّامةُ فإنها مَبعَثُ التَّوبَةِ والاسْتِغْفَارِ والإنَابَةِ ونَحْوِهَا، ولا يَتبَقَّى سِوَى النَّفْس الأمَّارَةِ بالسُّوءِ، وَهِي مَنْبَعُ الشُّرُور، وأسَاسُ الأخلاقِ الذَّمِيمةِ مِنَ الحَسَد والكِبْر والغَضَب والعُدوانِ ونَحوُ ذَلِكَ.

أمَّا إذا نَظَرنا إلى قُوى النَّفْسِ الغَضَبيَّة والشَّهوانيَّةِ والنَّاطقةِ، وهي كُلَّهَا تُسَمَّى أيضًا نُفُوسًا فإنَّها جَميعًا في حَاجةٍ إلى المُجاهَدَةِ، لأنَّها جميعًا تُؤَثِّرُ في الأخلاقِ، محْمُودِهَا ومَذْمُومِهَا، فالنَّفسُ الشَّهوانيَّةُ قَويَّةٌ جِدًّا مَتَى لم يَقْهَرهَا الإنْسَانُ ويُؤَدِّبهَا مَلَكَتْهُ واستَولَت عَليهِ وانْقَادَ لَهَا فكَانَ بالبَهَائِم أشْبَهَ مِنْهُ بالإنْسَانِ ومَتَى كَانَ كَذَلِك اتَّصفَ بالفُجُورِ وغَلَبَ عَليهِ اللَّهوُ واللَّعبُ وارتَكَبَ الفَواحِشَ.

أمَّا النَّفْسُ الغَضَبيَّةُ فلابُدَّ أيضًا مِن مُجَاهَدتِهَا وتَمَلُّكِهَا وإلَّا كَثُرَ غَضَبُ الإنْسَانِ وظَهَرَ خُرقُهُ واشتَدَّ حِقدُهُ ومَالَ إلى الانْتِقَام، وهذِهِ كُلُّهَا أفعَالٌ تُوَرِّطُ صَاحِبَهَا وتُوقِعُهُ في المَهَاوِي والمَهَالِكِ إذْ يَغْلِبُ الحَسَدُ والطَّيْشُ والقِحَةُ واللَّجَاجُ.

أمَّا النَّفْسُ النَّاطِقَةُ وهي التِي يَكونُ بِهَا الفِكرُ والذِّكرُ، وهذِهِ صِفَاتٌ حَميدةٌ، ولكِن لِهَذِهِ النَّفْسِ إلى جَانِبِ ذَلِكَ رَذَائِلُ لابُدَّ مِنْ مُجَاهَدَتِهَا عَلَيْهَا، وهِي الخُبْثُ والحِيلَةُ والمَلَقُ والمَكرُ والرِّيَاءُ، ونَحوُ ذَلِكَ[1].

عباد الله...

ونختم الحديث عن مُجاهدة النَّفْس بهذا القول الذي قاله حكيمٌ أريبٌ، وناطقٌ مصيب: «كُلَّما عَظُمَ المَطلُوبُ في قَلبِك صَغُرَت نَفْسُك عِنْدَكَ، وتَضَاءَلَت القِيمَةُ التي تَبْذُلُها في تَحصيلِهِ، وكُلَّما شَهِدت حَقِيقةَ الرُّبُوبيَّةِ وحَقِيقةَ العُبُوديَّة وعَرَفتَ الله وعَرَفتَ النَّفْسَ، وتَبَيَّن لكَ أنَّ مَا مَعَكَ مِن البِضَاعَةِ لا يَصلُحُ لِلمَلِكِ الحَقِّ، ولو جِئْتَ بِعَمَلِ الثَّقَلَيْنِ، خَشِيتَ عَاقِبَتَهُ، وإنَّما يَقبَلُهُ بِكَرمِهِ وجُودِهِ وتَفَضُّلِهِ، ويُثِيبُكَ عَليهِ أيضًا بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ وتَفَضُّلِهِ»[2].

---

(١) «نضرة النعيم» (٣٣٠٥ - ٣٣٠٧).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٩٦).

أسأل الله تَعَالى أن ينصرنا في معركتنا مَعَ أنفسنا، إنه وليُّ ذَلِكَ والقادر عليه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبعد أن تعرضنا لجوانب مهمّة من حياة «**داود الطَّائيّ**» -رَحِمَهُ الله - نأتي إلى ختام حديثنا عنه، ونختم الحديث بذكر موته -رَحِمَهُ الله -.

قال صاحب «الحلية» وصاحب «صفة الصفوة»، وصاحب «أحاسن المحاسن»: إن سبب موت داود الطائي كان بسبب أنه مرَّ بآية فيها ذكرُ النَّار فكرَّرها مرارًا في ليلته فأصبح مريضًا، فوجدوه قَدْ مات ورأسُه عَلَى لَبِنَة!

وقال ابنُ السَّماكِ حينَ مَاتَ دَاودُ: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّ أهلَ الدنيا تعَجَّلوا غمومَ القَلبِ وهُمومَ النَّفْس وتَعبَ الأبدانِ مَعَ شِدَّةِ الحِسَابِ، والرَّغبةُ مُتعِبَةٌ لأهلِهَا في الدنيا والآخرةِ، والزَّهَادَةُ راحَةٌ لأهلِهَا في الدنيا والآخِرةِ، وإنَّ داودَ نَظَر بِقَلبِهِ إلى مَا بَينَ يَديهِ، فأغْشَى بَصَرُ قَلبِهِ العُيُونَ فكأنَّهُ لم يُبْصِر مَا إليهِ تَنظُرونَ، وكأنَّكُم لا تُبْصِرونَ مَا إليه يَنظُرُ، فأنتُم مِنْهُ تَعجبُونَ وهُوَ مِنكُم يَعجَبُ، فلمَّا نَظَرَ إليكُم رَاغِبينَ مَغرُورِينَ، قَدْ ذهبَت عَلَى الدنيا عُقولُكُم، ومَاتَتَ مِن حُبِّها قُلُوبُكُم، وعَشِقَتهَا أنفُسُكُم، وامتَدَّت إليهَا أبصارُكُم، استَوحَشَ الزَّاهِدُ مِنكُم لأنَّهُ كانَ حَيًّا وَسْطَ مَوتَى.

يَا دَاوُدُ، مَا أعجَبَ شَأنَكَ، ألزمتَ نَفْسَكَ الصَّمْتَ، حتَّى قَوَّمْتَهَا عَلَى العَدلِ، أهَنْتَهَا وإنَّما تُرِيدُ كرَامتِهَا، وأذْلَلْتَها وإنَّما تُريدُ إعزَازَهَا، ووَضَعْتَهَا وإنَّما تُريدُ تَشرِيفَهَا، وأتْعَبتَها وإنَّمَا تُريدُ رَاحتَها، وأجعْتَهَا وإنَّما تُريدُ شِبَعَهَا، وأظمَأتَها وإنَّما تُريدُ ريَّهَا، وخَشَّنت نَفسَكَ قَبلَ أن تَموتَ، وقَبَرتَها قَبْلَ أن تُقْبَرَ، وعذَّبْتَها قِبلَ أن تُعذَّبَ، وغَيَّبْتَها عَنِ النَّاس كي لا تُذْكَر، ورَغِبتَ بِنَفسِكَ عنِ الدنيا إلى الآخِرَةِ، فما أظُنُّكَ إلَّا قَدْ ظَفِرتَ بِمَا طَلَبْتَ.

كَانَت سِيمَاكِ في عَمَلِكَ وسِرِّكَ، ولم تَكُن سِيمَاكَ في وَجْهِكِ، فَفِقهْتَ في دِينِك، ثُمَّ تَرَكتَ النَّاس يُفْتُونَ، وسَمِعتَ الأحَادِيث ثُمَّ تَرَكتَ النَّاسَ يُحَدِّثُون ويَروُوْنَ، وخَرِسْتَ عَنِ القَولِ، وتَرَكتَ النَّاسَ يَنْطِقُونَ، لا تَحْسُدُ الأخْيَارَ، ولا تَعِيبُ الأشْرَارَ، ولا تَقْبَلُ مِنَ السُّلطانِ عَطِيَّةً، ولا مِنَ الإخْوَانِ هَدِيَّةً!

آنَسُ مَا تَكُونُ إذا كُنْتَ بالله خَالِيًا، وأوْحَشُ مَا تكونُ إذا كُنْتَ مَعَ النَّاسَ جَالِسًا، وأوْحَشُ ما تَكُونُ آنَسُ مَا يَكُونُ النَّاس، وآنَسُ مَا تَكُونُ أوْحَشُ مَا يَكُونُ النَّاسُ، جَاوَزتَ حَدَّ المُسَافِرِينَ في أسْفَارِهِم، وجَاوَزْتَ حَدَّ المَسجُونِينَ في سُجُونِهِم، فَمَنْ سَمِعَ بِمِثلِكَ صَبَر صَبْرَكَ، أَوْ عَزَم عَزْمَك، ومَا أظُنكَ إلَّا قَدْ لَحِقتَ بالمَاضِينَ، وفَضَلْتَ الآخِرِينَ، وأتعَبتَ العَابِدين، لا سِتْرَ عَلَى بَابِكَ، ولا فِراشَ تَحْتَكَ، ولا قُلَّةَ يُبَرَّدُ فِيهَا مَاؤُكَ، ولا قَصْعَةَ يَكُونُ فِيهَا غَدَاؤُكَ وعَشَاؤُكَ، مَا كُنتَ تَشْتَهِي مِنَ المَاءِ بَارِدَهُ، ولا مِنَ الطَّعَامِ طَيِّبَهُ، ولا مِنَ اللِّبَاسِ لَيِّنَهُ، بَلَى ولكِنَّكَ زَهِدتَ فيهِ لِمَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَمَا أيْسَرَ مَا فَعلتَ في جَنْبِ مَا أمَّلتَ، ظَفِرْتَ بِرُوحِ العَاجِلِ، وسَعِدتَ إنْ شَاءَ الله في الآجِلِ، عَزَلتَ الشُّهرةَ عَنْكَ في حَيَاتِكَ لِكَيلا يدخُلكَ عُجْبُهَا، ولا تَلحَقَكَ فِتنَتُهَا، فلما مُتَّ شَهرَكَ رَبُّكَ بمَوتِكَ، وألْبَسَكَ رِدَاءَ عَمَلِكَ، لو رأيتَ اليومَ كَثْرَةَ تبعِكَ، عَرَفتَ أنَّ رَبَّكَ قَدْ أكرَمَكَ.

ولَمَّا دُفِنَ دَاوُدُ -رَحمَةُ الله تَعَالى عَليهِ- قَامَ ابنُ السَّماكِ عَلَى قَبرِهِ فَقَالَ: يَا دَاودُ كُنْتَ تُسْهِرُ لَيْلَكَ إذِ النَّاسُ يَنَامُونَ، فقَالَ القَومُ جَميعًا: صَدَقْتَ، وكُنتَ تَربَحُ إذِ النَّاسِ يَخْسَرُونَ، فقالوا: صَدَقْتَ، وكُنتَ تَسْلَمُ إذِ النَّاسُ يَخُوضُونَ، فَقَالُوا: صَدَقْتَ.

حتى عَدَّدَ فَضَائِلَهُ كُلَّهَا، فلمَّا فَرَغَ قامَ أبو بَكرٍ النَّهْشَلِيُّ فحَمِدَ الله تَعَالى ثُمَّ قال: يَا ربُّ، إنَّ النَّاسَ قَالُوا ما عِنْدَهُم مَبْلَغَ مَا عَلِمُوا، اللَّهُمَّ اغْفِر لَهُ بِرَحْمَتِكَ ولا تَكِلْهُ إلى عَمَلِهِ.

عباد الله...

وبهذا نكون قَدْ وصلنا إلى خِتام هذا الجزء، سائلًا المولى تبارك وتعالى أن يغفر لنا برحمته، ولا يَكِلنا إلى أعمالنا.

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحَمْد لله رَبِّ العالمين

الفهرس

الخطبة الثامنة والخمسون: [أ] لَقطَاتٌ وعظاتٌ من حياة الحسن البصري ٣
الخطبة التاسعة والخمسون: [ب] لقطات وعظات من حياة الحسن البصري ١١
الخطبة الستون: [جـ] لقطات وعظات من حياة الحسن البصري ١٩
الخطبة الحادية والستون: [د] لقطاتٌ وعظات من حياة الحسن البصري ٢٩
الخطبة الثانية والستون: [هـ] لقطات وعظات من حياة الحسن البصري................. ٣٩
الخطبة الثالثة والستون: [أ] لقطات وعظات من حياة سَعيد بن المُسَيِّب ٤٥
الخطبة الرابعة والستون: [ب] لقطات وعظات من حياة سعيد بن المسيِّب ٥٣
الخطبة الخامسة والستون: [جـ] لقطات وعظات من حياة سعيد بن المسيِّب ٦٤
الخطبة السادسة والستون: [أ] لقطات وعظات من حياة: هَرِم بن حيَّان................ ٦٩
الخطبة السابعة والستون: [ب] لقطات وعظات من حياة هِرَم بن حيَّان ٧٧
الخطبة الثامنة والستون: لقطات وعظات من حياة أويس القَرني ٨٣
الخطبة التاسعة والستون: [أ] لقطات وعظات من حياة عُمر بن العزيز................ ٩٥
الخطبة السبعون: [ب] العدل في حياة عمر بن عبد العزيز ١٠٣
الخطبة الحادية والسبعون: [جـ] العدل في حياة عمر بن عبد العزيز ١١٤
الخطبة الثانية والسبعون: [د] فقه عمر بن عبد العزيز واتِّباعه للسُّنة ١٢٥
الخطبة الثالثة والسبعون: [هـ] لقطات وعظات من حياة عُمر بن عبد العزيز ١٣٩
الخطبة الرابعة والسبعون [و] لقطات وعظات من حياة عُمر بن عبد العزيز ١٤٥
الخطبة الخامسة والسبعون: [أ] لقطات وعظات من حياة: أبي مُسلم الخولانيّ ١٥٣
الخطبة السادسة والسبعون: [ب] لقطات وعظات من حياة: أبي مسلم الخولاني...... ١٦١
الخطبة السابعة والسبعون: [جـ] لقطات وعظات من حياة: أبي مُسلم الخَولاني........ ١٧٠
الخطبة الثامنة والسبعون: [د] لقطات وعظات من حياة: أبي مُسلم الخَولاني ١٧٨
الخطبة التاسعة والسبعون: [هـ] لقطات وعظات من حياة: أبي مُسلم الخَولاني ١٨٧
الخطبة الثمانون: [و] لقطات وعظات من حياة أبي مُسلم الخَولاني ١٩٤
الخطبة الحادية والثمانون: [ز] لقطات وعظات من حياة أبي مسلم الخَولاني ٢٠١

الخطبة الثانية والثمانون: [أ] لقطات وعظات من حياة الإمام: زين العابدين ٢١٥
الخطبة الثالثة والثمانون: [ب] لقطات وعظات من حياة الإمام: زَينُ العابدين ٢٢٦
الخطبة الرابعة والثمانون: [جـ] لقطات وعظات من حياة الإمام: زين العابدين ٢٣٣
الخطبة الخامسة والثمانون: [أ] لقطات وعظات من حياة: الربيع بن خُثيم ٢٣٩
الخطبة السادسة والثمانون: [ب] لقطات وعظات من حياة: الربيع ين خُثيم ٢٤٧
الخطبة السابعة والثمانون: [جـ] لقطات وعظات من حياة: الربيع بن خُثيم ٢٥٥
الخطبة الثامنة والثمانون: [د] لقطات وعظات من حياة: الربيع بن خُثيم ٢٦٢
الخطبة التاسعة والثمانون: [هـ] لقطات وعظات من حياة: الربيع بن خُثيم ٢٧٠
الخطبة التسعون: [و] لقطات وعظات من حياة: الربيع بن خُثيم...................... ٢٧٦
الخطبة الحادية والتسعون: [ز] لقطات وعظات من حياة: الربيع بن خُثيم ٢٨٧
الخطبة الثانية والتسعون: [حـ] لقطات وعظات من حياة: الربيع بن خُثيم ٢٩٤
الخطبة الثالثة والتسعون: [أ] لقطات وعظات من حياة: مالك بن دينار ٣٠١
الخطبة الرابعة والتسعون: [ب] لقطات وعظات من حياة: مالك بن دينار ٣١١
الخطبة الخامسة والتسعون: [جـ] لقطات وعظات من حياة: مالك بن دينار ٣١٩
الخطبة السادسة والتسعون: [د] لقطات وعظات من حياة: مالك بن دينار ٣٢٦
الخطبة السابعة والتسعون: [هـ] لقطات وعظات من حياة: مالك بن دينار ٣٣٧
الخطبة الثامنة والتسعون: [أ] لقطات وعظات من حياة: مسروق بن عبد الرحمن ٣٤٥
الخطبة التاسعة والتسعون: [ب] لقطات وعظات من حياة: مسروق بن الأجدع ٣٥٤
الخطبة المائة: [جـ] لقطات وعظات من حياة: مسروق بن الأجدع ٣٥٩
الخطبة الحادية بعد المائة: [د] لقطات وعظات من حياة: مسروق بن الأجدع ٣٦٦
الخطبة الثانية بعد المائة: لقطات وعظات من حياة: سالم بن عبد الله ٣٧٥
الخطبة الثالثة بعد المائة: [أ] لقطات وعظات من حياة: مُحَمَّد بن واسع ٣٨٧
الخطبة الرابعة بعد المائة: [ب] لقطات وعظات من حياة: مُحَمَّد بن واسع ٣٩٦
الخطبة الخامسة بعد المائة: [جـ] لقطات وعظات من حياة: مُحَمَّد بن واسع ٤١٣
الخطبة السادسة بعد المائة: [أ] لقطات وعظات من حياة: داود الطائي ٤٢١
الخطبة السابعة بعد المائة: [ب] لقطات وعظات من حياة: داود الطّائي ٤٢٨
الفهرس ٤٣٩